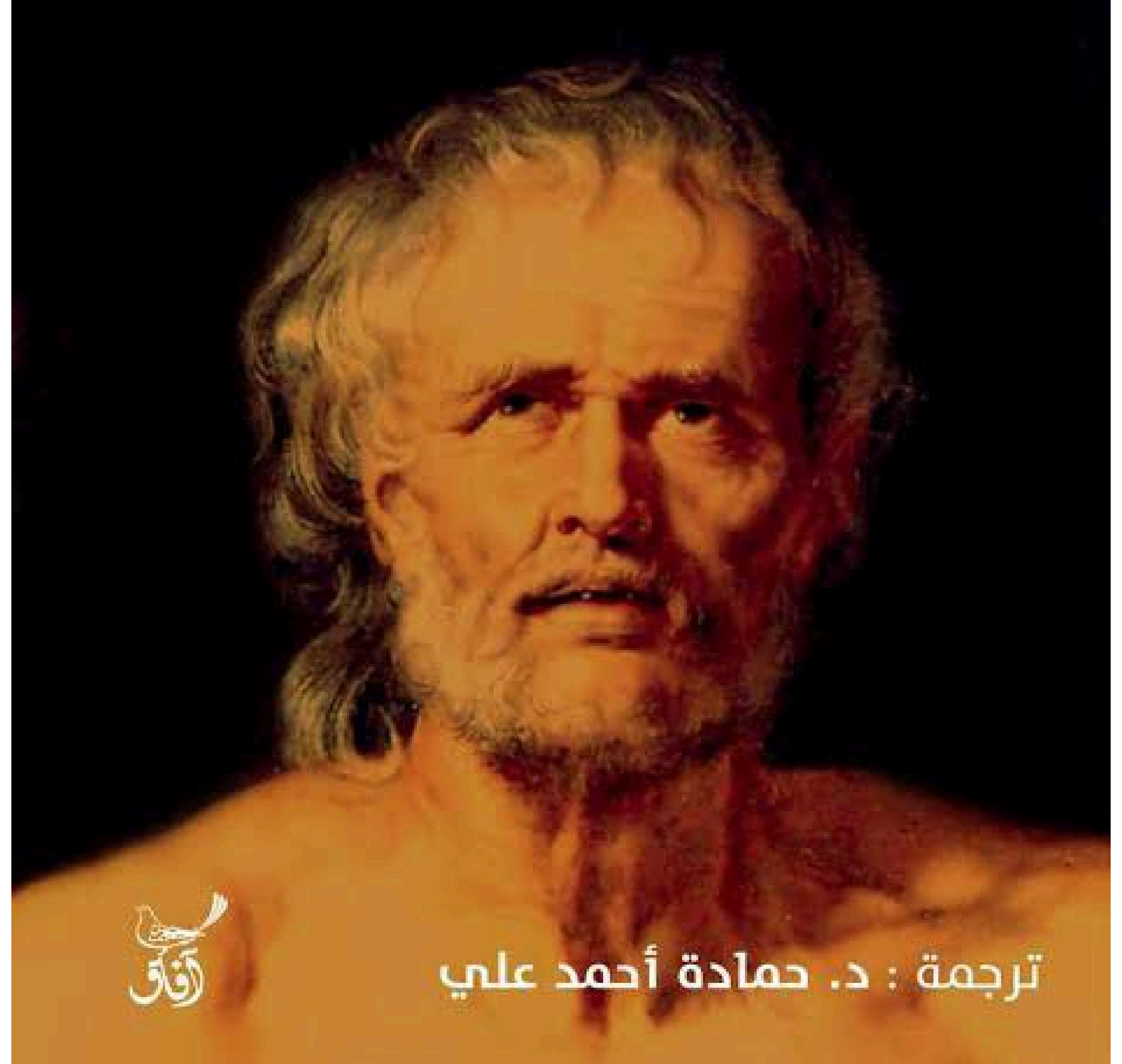
لوكيوس أنايوس سينيكا

محاورات السعادة والشقاء



ترجمة : د. حمادة أحمد علي

محاوراتِ
السَّعادة والشَّقاء

لوكيوس أنايوس سينيكا

- المؤلف: لوكيوس أنايوس سينيكا
- العنوان: محاورات السَّعادة والشَّقاء
- ترجمة: د. حمادة أحمد علي
- الطبعة: الأولى 2019
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٠٥ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 184 - 4

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

محاورات

السَّعادة والشَّقـاء

تأليف

لوكيوس أنايوس سينيكا

ترجمها إلى العربية

د. حمادة أحمد علي

رئيس قسم الفلسفة

جامعة جنوب الوادي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

سينيكا، لوكيوس أنايوس

محاورات السَّعادة والشَّقاء- ترجمها إلى العربية :د. حمادة أحمد علي

ط1القاهرة -آفاق للنشر والتوزيع - 2019

384 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 20105 / 2018

الترقيم الدولي 4 - 184 - 765 - 977 - 978

1 -

أ - العنوان

إهداء

إلى من تكابد الشقاء وتحاول أن تصنع للسعادة طريقًا.

زوجتي.....



مقدمة المترجم إلى العربية

لم يكتب سينيكا كتابًا بهذا العنوان، بل هو من صنيع المترجم من اللغة اللاتينية، وكان له دوافعه، وهي أن الكتاب يتضمن على شقين: الأول وهو مجموعة الرسائل الأخلاقية التى تتحدث عن الحزن والمواساة، ومجموعة الرسائل التى توازيها وتتعرض لمفهوم السعادة.

يتمتع سينيكا بأسلوب أدبي رصين، وعبارة تبدو سلسة بسيطة، ولكنها تُخفي فى طياتها مهارة الكاتب الماهر الذى أفنى ذاته فى ضبط أقواله، ويميل سينيكا إلى الحس الفكاهي الساخر فى توضيحاته وهو يتردد بين الأمثلة المختلفة، ويختم حديثه دومًا بحكمة مأثورة تتماشى مع الموضوع الذى يطرحه. ونهض سينيكا بثورة أسلوبية على التراث الروماني فى أوضاع مترهلة كالتي نعايشها الآن، ولم يسع سينيكا إلى تقليد القدامى، بل أهمل أساليبهم، وابتدع لنفسه أسلوبًا جديدًا، واشتهر سينيكا بأسلوبه التحليلي الحافل بالحِكَم والمواعظ، فكلماته وعباراته معتدلة تدل على اختيار مبدع، كما أن استخدامه للمؤثرات السمعية المتعددة فى إشاراته أو فى توكيداته لما يقصده يميز أسلوبه عن غيره.

والهدف من ترجمة هذا الكتاب ونشره أسباب عدة أولها: إثراء وعي القارئ العربي المعاصر بالنظر إلى التراث، حيث إن معالجات سينيكا لواقعه اتسمت بالشمولية فى فترة زمنية تتشابه مع حياتنا المعاصرة، فقراءته الكلية نهلت من الأصولية الغربية،

وأصلحت من المجتمع الروماني، وهي كذلك صالحة لمجتمعنا المعاصر، حيث تشعر حين تقرأ إبداعه الأدبي الحكيم وكأنه يعيش بيننا، ثانيها: لم يترجم من أعمال سينيكا سوى كتاب الإحسان الذى نشرته دار آفاق بالقاهرة، فى حين تكالب المترجمون على أعمال سهلة بسيطة لا تغذي إصلاح الواقع المرير، وتتجاهل الأعمال العالمية التي يمكن أن تثري الفكر العربي المعاصر، التى يمكن أن يجد فيها خلاصًا من واقعه.

يتضمن الكتاب تسعة رسائل، وتنقسم إلى جزئين، أما الجزء الأول يدور حول الشقاء، ويتجسد فى ثلاثة رسائل من العزاء، وهي عزاء إلى ماركيا وعزاء إلى هلفيا وعزاء إلى بوليبوس، وهذه العزاءات الثلاثة هي الوحيدة التى عرفها الغرب والشرق من هذا النوع، حيث يتخلل التاريخ والحكمة والفلسفة والأدب مفهوم العزاء، وهذا القالب الأدبي لم يُعرف قبل سينيكا، ولم يستطع أحد بعده خوض غماره. وأما الجزء الثاني عن السعادة، وهو ستة رسائل: وهي سكينة العقل، وقصر الحياة الإنسانية، ووقت الفراغ، والحياة السعيدة، والعناية الربانية، وصمود الحكيم.

وأما الجزء الأول يتناول مفهوم الشقاء ويتناول ثلاثة رسائل على النحو الآتي:

أولًا: عزاء إلى ماركيا يقدم فيه العزاء إلى ماركيا لموت ابنها، ومضمون هذا العزاء يقدم الراحة لمن أصابه الحزن، ويستند إلى تقاليد فلسفية وخطابية شتى. وهو يستند على مبدأ أن الحزن مثل الانفعالات الأخرى، وهو نتاج المعتقد الخاطئ عن طبيعة الموت وتأثيره على المتوفى والثكلى. والحقيقة إن عزاء إلى ماركيا أقدم تعزية بقيت على قيد الحياة.

ثانيًا: عزاء إلى هلفيا، يجاهد سينيكا فى هذه الرسالة لتخفيف حزن أمه على معاقبته بالنفي إلى كورسيكا عام ٤١م على ما يبدو بتهمة الزنا مع جوليا ليفيلا أخت الإمبراطور جايوس، والجدة المتناقضة التى يقدمها الرثاء تبعث الأسى وتريح من يعزيه، وتعطي طابعًا بعينه لهذا التنوع السينيكي من التراث العزائي القديم، وعزاء المنفى هو النموذج الوحيد الذى بقي فى اليونانية، باستثناء عزاء موسونيوس روفوس الذي لم يتجاوز ثلاث صفحات.

ثالثا: عزاء إلى بوليبوس، حيث دفع موت شقيق بوليبوس سينيكا لكتابة هذا العزاء، وبدأ العمل بالفقد ولا نعلم ما المفقود، ولكن المفقود هو ما لدينا، ويغطي سينيكا عددًا من الموضوعات القياسية لأدب العزاء القديم، وهو يتوارى فى تسمية نظرائه ووجهة النظر الرواقية الدقيقة التى ترى أن الحكيم لا يشعر بحزن على الإطلاق.

وأما الجزء الثاني يتناول مفهوم السعادة، ويتناول ستة رسائل وهي على النحو الآتي:

أولًا: قصر الحياة، وهى رسالة يوضح فيها شجبه للزمن الضائع بالانشغالات المضللة بكل وسائل الراحة والمداهنة، وتلك الانشغالات التى تداهننا لتفض عنا عصب حياتنا، ونُخضع أنفسنا لتدقيق معذب للزمن المهدر.

ثانيًا: صمود الحكيم، وهى رسالة يبين فيها أن الحكيم لا يتلقى إهانة ولا ضرر، وكما يخبر سينيكا سيرينوس صديقه الذى يخاطبه في العمل، يتناول سينيكا مباشرة كيف يمكن للمرء أن يقوم بالضرر، ومن ثم لا يتلقاه الحكيم، واستعمل حجج القياس المنطقي التي تسعى جميعها إلى فصل قصد الأداة عن نتيجة الفعل، والقصدية التي يمكن أن يتجاهلها الحكيم الذي يتجاوز أفعال المخطئين، كما لو كانت أحداث مصادفة لا أهمية لها.

ثالثًا: رسالة سكينة العقل، وهي رسالة فريدة بين محاوراته؛ لأنها تقدم تبادلًا حقيقيًّا بين المخاطب أنايوس سيرينوس وسينيكا، ولكن هذا الحوار يمنحه صيغة الفعل التي يوصف بها أزمة هوية الشباب.

رابعًا: عن أوقات الفراغ، وهي رسالة تبين أنه لم تتح الحالة المناسبة للحكيم فى الخدمة العامة، فقد يحق له الانسحاب إلى الحياة التأملية فى أي من مراحل العمر، ومع ذلك تبقى الأولوية للعمل حتى في التقاعد.

خامسًا: الحياة السعيدة، وهي رسالة رسمت لوحة مقتضبة للحياة الرواقية السعيدة التي تبنيها الفضيلة، وهي تعتد بعلاقة الحياة باللذة وأحوال أخرى، ثم يشرع في تقديم

ستة تعريفات للحياة السعيدة بامتداد مختلف، وهو يبرر نهجه للتعريف بمماثلته بالجيش الذى بمقدوره أن يتمدد وينكمش فى لحظة واحدة وفقًا للخطة.

سادسًا: العناية الربانية، وهي رسالة لا يحتفي فيها بشكوى لوكيليوس التي تنظر إلى الأشياء الرديئة التى تحدث للأخيار، ولكنه يناقش على نحو مفارق أن الأشياء الرديئة ليست سيئة، بل هي من أعظم ذخائر العناية الإلهية.

والله من وراء القصد

د. حمادة أحمد على

قنا – ٢٠١٨

سينيكا وعالمه

لاحظ سينيكا في رسالته (*Letter 13.14*) أن ما صنع عظمة سقراط هو موته بسُم الشوكران، حيث أكد موته صمود مبادئه الفلسفية، واعتقاده بأن الموت ليس مخيفًا، وقد لاقى سينيكا مصير سقراط حين حكم عليه نيرون بالانتحار عام ٦٥م، ونعتقد أن ما ذهب إليه تاكيتوس *Tacitus* في حوليته (*15.63*) صوابًا، حيث إن الرواقية الرومانية وازنت بين موته وموت سقراط وهو يتحدث عن الفلسفة بسكينة بين أصدقائه كما يتقطر الدم من عروقه. ولم ينصب وصف تاكيتوس هنا على وعظ سينيكا فحسب، بل كذلك على منهج حياته.

وقد منيت حياة سينيكا بخيبة أمل من الناحية السياسية نتيجة تأثرها بالنفي والعودة وتسوية علاقته بالإمبراطور نيرون تلميذه ومعلمه أولًا ومقتوله أخيرًا، وتخبرنا كتاباته باليسير عن وظيفته السياسية وعلاقته بنيرون باستثناء ما يمكن أن نستشفه من مقاله عن العفو *On Clemency*. وتخبرنا المصادر المتأخرة مثل تاكيتوس وسويتونيوس وكاسيوس ديو(١٥٠ق.م–٢٣٥م) *Dio Tacitus, Suetonius, and Cassius*

أن سينيكا وُلد لعائلة عريقة في الفروسية بمدينة قرطبة *Corduba* في هسبانيا(•) بين عامي ١-٤ قبل الميلاد، وهو الابن الثاني من ثلاثة أبناء لهيلفيا ولوكيوس أنايوس سينيكا، والأخ الأصغر هو أنايوس ميلا وهو والد الشاعر لوكان. وقد قضى الأب فترة كبيرة من حياته في روما وظهر حينها سينيكا صبيًّا صغيرًا، وهناك تلقى تعليمه في البلاغة، وأصبح تلميذًا للفيلسوف سكيتوس، وتأخر دخوله في الحياة السياسية، وحين امتنع ترشحه للمنصب في عهد تيبريوس اعتلت صحته وأصابه الربو وربما السل، وكانت علاقته بالسياسة قصيرة، ونجا من عداء كاليجولا بفضل موهبته في الخطابة كما تخبرنا المصادر، ونفاه كلاوديوس إلى كورسيكا بعد وفاة كاليجولا بفترة وجيزة عام ٤١ م بتهمة الزنا في جوليا ليفيلا الشقيقة الصغرى لكاليجولا، وهذا الادعاء كاذب بالتأكيد. وقد قضى سينيكا وقته في المنفى في دراسة الفلسفة، وكتب «عزاء إلى هيلفيا» والدته، و«عزاء إلى بوليبيوس» السكرتير الخاص لكلاوديوس، ويكشف في هذا الكتاب عن رغبته في العودة إلى روما.

وحين عاد سينيكا إلى روما بضمانات عدة، كان كلاوديوس قد تزوج بفتاة جرمانية هي أجريبينا الصغرى، والتي حثته على استقدام سينيكا لتعليم ابنها نيرون ذي الاثني عشر عامًا، وقد كان لكلاوديوس ابنٌ آخر أصغر منه هو بريتانيكوس، ومن الواضح أن أجريبينا المراوغة طمحت أن ترى ابنها من لحمها ودمها على العرش. وبعد أن توفي كلاوديوس بخمس سنوات ناورت أجريبينا حتى تمكن ابنها من تولي عرش الإمبراطور، وبعد فترة وجيزة دست السم لبريتانيكوس عام ٥٥م. وقد عمل سينيكا مستشارًا لنيرون مع قائد برايتوري هو سكتوس أفرانيوس

(•) الاسم الذي أطلقة الرومان على كل شبه الجزيرة الأيبرية.

بوروس *Sextus Afranius Burrus* من عام ٥٤ وحتى تضاءل نفوذه في نهاية العقد. ونحن نعلم أنه كتب مقالًا عن العفو لنيرون؛ ليلقيه على مجلس الشيوخ عقب انضمامه إليه بفترة وجيزة، وقد احتوى مقاله عن العفو على بعض الشكوك من خطة نيرون للحفاظ على الإمبراطور الشاب من العدو المسعور، واستخدم سينيكا كلمة ملك *rex* مشيرًا بها إلى نيرون السيناتور الروماني من باب المماثلة والاندهاش، ويبدو أنه امتدح نيرون، وأشار إلى سلطته التي لا حدود لها وإلى قيمة العفو التي قد تحفظه من تقلبات السلطة، وأيدت الإدارة القضائية والمدنية الإمبراطورية سينيكا وبوروس.

وشعر كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين أن الفترة الأولى من حكم نيرون التى أدارها سينيكا وبوروس، وهي فترة سادها الانسجام والعدل وأطلق عليها خمسية نيرون *quinquennium Neronis*، وبدأ الانحطاط بقتل نيرون لأجريبينا عام ٥٩م، وكتب بعدها خطابًا للإمبراطور يبرئ نفسه، وربما كان هذا مثالًا لفيلسوف عظيم وجد نفسه متورطًا بسبب منصبه ككبير مستشاري نيرون، وحتى يزيل الغموض حول مَن جعلوا معارضتهم لنيرون واضحة مثل ثراسي بياتوس *Thrasea Paetus* وهيلفيديوس بريسكوس *Helvidius Priscus*. ويحتمل أن مشاركته في الأحداث السياسية قادته لاعتقاده أن بإمكانه أن يفعل خيرًا بوقوفه بجانب نيرون الذي، تخلى عن نصح سينيكا.

وقد تضاءل تأثير سينيكا على نيرون بعد موت بوروس عام ٦٢م، وحاول التنحي عن منصبه مرتين عام ٦٢م و٦٤م، ورفض نيرون المحاولتين، وغيب سينيكا نفسه عن الأحداث بعد عام ٦٤م، وفي عام ٦٥م جاءت مؤامرة بيزونية *Pisonian* لقتل نيرون ليتولى محله الزعيم

كالبورنيوس بيزو *C. Calpurnius Piso*، ورغم أن لوكان ابن أخ سينيكا كان متورطًا في المحاولة فقد برأ سينيكا نفسه، ولكن نيرون انتهز الفرصة ليأمر معلمه القديم بقتل نفسه، فقطع سينيكا شرايينه. ويخبرنا تاكيتوس أن نحافة سينيكا وتقدمه في العمر قد أعاقا تدفق الدم منه، وحين فشل الانتحار في قتله، أجلسوه في حمام ساخن حتى يتدفق الدم منه بسرعة، وحاولت زوجته الانتحار بعده، ولكنهم أنقذوها بأمر نيرون.

ولقي سينيكا رواجًا عند المسيحيين الأُوَل، وأثرت كتاباته الأخلاقية على القديس بولس، ونال حقه من النقد، ونشب عليه هجوم للتناقض الظاهر بين تعاليمه الرواقية في عدم الاهتمام بالمظاهر الخارجية ورأيه في تكديس الثروة، وربما لم ينل لهذا السبب نفس احترام الرواقي موسونيوس روفوس الذي لُقِّب بـ«سقراط الروماني». والشخص الوحيد الذي هاجم سينيكا في حياته هو سيلليوس، بسبب تراكم ما يقرب ٣٠٠ مليون سسترس منذ صعود نيرون للسلطة نتيجة الرسوم الباهظة على إيطاليا والولايات الأخرى، ونُفي سيلليوس إلى جزيرة بليار لاختلاسه وتلصصه. ويبدو أن سينيكا كان متقشفًا رغم ثروته، وفي مقاله عن الحياة السعيدة *De vita beata* اتخذ موقف الفيلسوف الغني صاحب الثروة التي تُربح وتُخسر وموقفه منها منفصل تمامًا. ويحتمل سينيكا في تقديرنا تناقضات عدة فرضتها حياته السياسية.

مقدمة موجزة عن الرواقية:

والرواقية من أكثر الفلسفات تأثيرًا في العالم، وبدأت بأعمال وتعاليم ثلاثة روَّاد أساسيين للمدرسة الرواقية اليونانية، وهم: زينون الكتيومي (٢٦٣-٣٣٥ق. م)، وكليانتس (٢٣٢-٣٣١ق.

م)، وخريسبوس (٢٠٧-٢٨٠ق.م). وأصبحت حركة فلسفية رائدة في العالم اليوناني الروماني القديم، وشكلت تطور الفكر في العصر المسيحي. وقد تلا الرواقيةَ اليونانية رواقيةُ بانيتوس (١٠٩-١٨٥ق. م)، وبوزدنيوس (٥١-١٣٥ق. م)، اللذين جسَّدا بعض ملامح المذهب الرواقي. وواصل المفكرون الرومانيون المسيرة، وأصبحت الرواقية معتقدًا شبه رسمي للعالم الروماني في الأدب والسياسة. وإن لم يتفق شيشرون مع الرواقية في المسائل الميتافيزيقية والجمالية إلَّا أن مواقفه الأخلاقية والسياسة خضعت لفكرهم، وحتى لو لم يتفق مع الرواقية فقد كان يبذل جهده ليقر بالاتفاق معها، كما شكل سينيكا وأبكتيتوس رواقية النصف الأول من القرن الثاني، وقد كتب موسونيوس روفوس والإمبراطور ماركوس أوريليوس كتابات رواقية تمثل آخر كتابات اليونان.

إن إسهامات الرواقية الرومانية كانت هائلة عند خريسبوس، فقد ابتدع منطق القضايا وفلسفة اللغة ناهيك عن الإنجازات غير المسبوقة في علم النفس الأخلاقي، وكذلك التمييز بين علاقة الميتافيزيقا والجمال بالفلسفة الأخلاقية والسياسية. ومن المؤسف أن كل أعمال الرواقية اليونانية قد فُقدت، وعلينا أن نتناول فكرهم من خلال فقرات تركها لنا ديوجين لايرتوس في كتابه «حياة الفلاسفة»، وشيشرون، وسكتوس أمبريكوس في كتاباته الشكية، والتي كان الرواقيون هدفها المحوري. وأما أعمال المفكرين الرومان فقد عُدلت لتناسب الواقع الروماني، وقد ساهمت في نظرتهم الإبداعية، وهذا يعني أن معرفتنا بالمنطق والفيزياء في الرواقية أقل بكثير من معرفتنا بالأخلاق عندهم، حيث كان جل اهتمام الرومان بالجانب العملي.

وتتشابه غاية الفلسفة الرواقية مع المدارس الفلسفية الأخرى في العصر الهيللينستي، حيث حررت المزيد من أشكال العوز الدنيوي والفشل الأخلاقي، لذا كانت الرواقية كلية الوجود في مجتمعاتها على خلاف المدارس الأخرى المنافسة لها، ومن ثم شددت على دراسة منظومة ثلاثية من المنطق والطبيعة والأخلاق لفهم العالم وترابطاته، لدرجة أن شيشرون الروماني اعتقد أنه بالإمكان التمسك بالحقائق الأخلاقية الرواقية دون اعتقاد يقيني في عقلانية العالم. وهذا الموقف مبتدع من شيشرون، على حد تعبير إيمانويل كانط.

وتنصب الطبيعة الرواقية على أن العالم كُلٌّ منظُمٌ عقليًّا، وكل ما يحدث فيه على خير وجه، وإن كان موقف لايبنتز من التجسد قد ظهر في كانديد لفولتير وهو يرفض الدين التقليدي التجسيدي، فإن الرواقية وهبت اسم زيوس لمبدأ عقلاني يُحيي العالم ككل، واعتبروه دلالةً على حسن النظام العام للكون حتى في الأحداث البسيطة أو المؤلمة مثل الزلازل والصواعق، وهذا النظام أخلاقي مبني على جلال الباطني وقيمة القدرات الأخلاقية للكل، وآمنت الرواقية أن هذا النظام حتمي؛ لأن كل شيء يحدث وفقًا للضرورة، ولكونهم توافقيين أيضًا آمنوا بأن حرية إرادة الإنسان متوافقة مع صحة الحتمية، وقد أدخلهم هذا في نقاشات ملتهبة مع الأرسطيين اللا توافقيين، وهذا ما جعل إسهامهم في مسألة حرية الإرادة مفتوحًا للمناظرة.

ونبعت الأخلاق الرواقية من فكرة القدرة العقلية اللا محدودة في كل إنسان، وفهمت الرواقية الرومانية هذه القدرة على أنها محور عملي وأخلاقي خلافًا لأفلاطون الذي لم يفكر في أن مَن لديهم موهبة طبيعية في تعلم الرياضيات أفضل ممَّن ليس عندهم، ويصبحون أكثر تشككًا

حتى لو درسوا منطقًا له قيمةٌ عمليةٌ. ورأى الرواقيون أن كل البشر متساوون من حيث القدرة التي يحتكمون بها على قدرة الاختيار وتوجيه حياتهم التي قد تصل عند البعض إلى غاية لها قيمة، لذا يقولون إن ما يميز الإنسان عن الحيوان قدرة الاختيار والرفض، وقد كرسوا جانبًا لمعالجة سلوك الحيوان خلافًا لمعظم المدارس القديمة الأخرى، ومن ثَم رأوا أن المعاملة الحسنة واللائقة هي غاية الأخلاق الوحيدة، فالأطفال على حد قولهم تُقبل على العالم مثل حيوانات صغيرة بتوجه طبيعي نحو الحفاظ على الذات، ولكن دون فهم للقيمة الحقة، ومع ذلك يحدث تغير ملحوظ ينشأ عندهم نظرًا لطبيعتهم الفطرية ويصبح بإمكانهم تقدير أهمية القدرة على الاختيار والمنهج الأخلاقي الذي شكَّل العالم برمته، وقد وجَّه هذا الاعتراف الناس إلى احترام الذات والآخرين بطريقة جديدة. وكان الرواقيون جادين في مسألة المساواة؛ فقد حثوا على تعليم العبد والمرأة، وقد كان أبكتيتوس ذاته عبدًا.

وقد ربطت الرواقية نظرتها الأخلاقية بالعواقب السياسية الفعلية، وهي تؤكد على المساواة في الحقوق السياسية وإتاحة الفرص الاقتصادية المتكافئة، ورغم أن الأصولية الرواقية أبقت على الأهمية القصوى للسياسة، إلا أن القيمة الأخلاقية هي الجوهرية فحسب، فالسعي نحو المال والشرف والسلطة والصحة البدنية وحتى حب الأصدقاء والأطفال والزوجة يمكن أن يكون معقولًا إن لم يُعِقْهُ شيء، وهو ليس قيمة جوهرية حقة، وقد أطلقوا عليه «تفضيل المحايدات»، ولا يتناسب مع القيمة الأخلاقية. لذا حين لا يصل المرء إلى ما يتمناه، فمن الخطأ أن يأسى.

وهذا هو السياق الذي قدم فيه الرواقيون لمذهب الأباثيا *apatheia* أي التحرر من الانفعالات، وهم يدافعون عن العواطف والانفعالات الأسمى حيث تنطوي على تقدير حسن للخير الظاهر، وهم يرون أن الرواقي الحق لا تحمل جنباته هذه الاضطرابات الشخصية، وقد أدركوا أن أحداث الصدفة تكمن في سيطرتنا، حيث وجدت الرواقية أنه لا ضرورة للحزن والغضب والخوف أو حتى الفرح؛ لأن هذه المشاعر تجشؤات عقل يترقب في قلق ورعب أشياء محايدة، ويمكننا أن نعيش حياة الفرح الحقة إذا قدرنا كل شيء قدره، والتقدير الحق للشيء يكمن في سيطرتنا المطلقة على زمننا.

ولم يدرك الرواقيون أن من الصعب التخلي عن الضلالات الثقافية التي تأسست على الانفعالات المرفوضة، وهكذا كانت الحياة الرواقية عملية علاجية مستمرة أبدعتها التدريبات العقلية لفطام العقل من مصادراته الفجة. وتصف أعمالهم عملية العلاج، والتي يمكن للقارئ أن يحقق من خلالها الفضيلة الرواقية، وغالبًا ما يشركون القارئ في هذه العملية، فقد وصف أبكتيتوس وماركوس أوريليوس عملية التأمل المتكررة، كما وصف سينيكا في مقاله "عن الغضب" محاسبة ذاته ليلًا، ويعرض سينيكا في خطاباته أيضًا دور المعلم الحكيم الذي يُمكن أن يقوم بها في مثل هذه العملية، ولم يفكر سينيكا فيمَ إذا كان هو ذاته خاليًا من المصادرات الخاطئة. إن الرجل الحكيم بهذا المعنى مثال بعيد، وليس واقعًا دنيويًّا، خاصةً عند الرواقيين الرومان. والعون الأكبر في العملية العلاجية هو دراسة التشوهات المرعبة التي تعانيها هذه المجتمعات برغبتها في الخير الظاهر، ولو عاين المرء الوجه القبيح للسلطة والشرف أو حتى الحب بما فيه الكفاية، فربما قد يتوقف المرء عن التقدم نحو

الفضيلة الحقة، وهكذا كان سينيكا في مقاله "عن الغضب" مثالًا لنوع شائع في الرواقية.

ولم يطرح الرواقيون أي تغيير فعلي في توزيع الخيرات الدنيوية كما يفترض المرء اعتبار متكافئ لتصنيف البشر بسبب اعتقادهم، وهم يعتقدون أن الاعتبار المتكافئ لا يستلزم معالجة كل شخص، ولذا حث سينيكا السادة على عدم قهر العبيد ولا استخدامهم كأدوات جنسية؛ فإن عادة العبودية الصمت، ولا يوجد ما هو أسوأ من الصمت، ورأى سينيكا أن الحرية الحقة هي الحرية الباطنية، وأما الشكل الخارجي ليس جوهرًا. وقد يتشابه سينيكا مع موسونيوس روفوس، حيث دعا إلى معاملة المرأة معاملة حسنة، ناهيك عن حصولها على التعليم الرواقي. وتقييد المرأة في النظام القانوني بدور منزلي حيث يتولى الرجل السلطة المصيرية، ولم يتحدث سينيكا عما سيتحقق من فضيلة عن رواقية المرأة في حالة مكوثها في المنزل. ويعتقد بعض الرواقيين الرومانيين أن الحرية السياسية جزءٌ من الكرامة، ولذلك غاب الدعم للمؤسسات الجمهورية، إلا أن الاهتمام بالظروف الخارجية الذي تتفق عليه الرواقية لا يزال غامضًا، ومن المؤكد أن عمق الحزن عند شيشرون على فقدان الحرية السياسية كان أشد وقعًا من حزنه على موت ابنته.

وقد ثار جدل هائل حول ما إذا كانت الأباثيا الرواقية قد فصلت الناس عن السياسة الرديئة أم أنهم أعانوها، ومن المؤكد أن الرواقيين كما هو معلوم قد نصحوا باعتزال السياسة، واعتقدوا أن الثورة أسوأ من انعدام القانون. ويروي بلوتارخ أن بروتوس الأفلاطوني سأل المتآمرين على اغتيال يوليوس قيصر عن إذا كانوا يقبلون المبدأ الرواقي أو يؤمنون بأن انعدام القانون أسوأ من الحرب الأهلية؟ إلا أن غير الرواقيين انحازوا

لمجموعة القتلة. وانضم في عهد نيرون كثير من الرواقيين البارزين -بما فيهم لوكان ابن أخ سينيكا- إلى الحركات السياسية الجمهورية التي تهدف إلى الإطاحة بنيرون، وفقدوا حياتهم نظير هذا، وانتحروا سياسيًّا.

واعتقد الرواقيون -من منظور أخلاقي- أن الحدود القومية لا علاقة لها بالشرف والثروة والجنس والميلاد، ورأوا أنهم مواطنون كونيون، وقد ظهر اصطلاح "مواطن العالم" عند ديوجين الكلبي، وتمسك به الرواقيون، وصار جذرًا للمواطنة الكونية الحديثة، ولكن ما يطلق عليه مواطنة كونية غير واضح عمليًّا. واعتقد شيشرون في كتابه "الواجبات" أن فضائلنا الإنسانية المشتركة مقيدة ببعض الحدود الصارمة لدواعي الحرب ونوع السلوك المباح فيها، وهكذا صك شيشرون أساس القانون الحديث في الحرب، وأنكر أن تلتزم إنسانيتنا بأي واجب في توزيع الخيرات المادية لما وراء حدودنا. وقد أثر كتاب الواجبات لشيشرون في الأجيال التالية في هذا الصدد، وقد بالغ شيشرون في إلقاء اللوم على الرواقيين؛ لأننا نعمل بعيدًا عن معتقداتنا في القانون الدولي خاصة في مجال الحرب والسلام، ولا نفهم بيننا واجباتنا المادية فهمًا صحيحًا.

وقد امتد تأثير الرواقية ليطول التراث الفكري الغربي برمته، ويدين لها الفكر المسيحي بدَينٍ ثقيل، ويكفي مثال واحد لمفكر مسيحي استغرق في الرواقية، وهو كليمنت السكندري. وحتى أوغسطين الذي طعن فيما تطرحه الرواقية حيث وجد أنه من الطبيعي أن ينطلق من مواقفها. ومن الملفت أن كثيرًا من الفلاسفة في طليعة العصر الحديث تحولوا نحو الرواقية، ولم يتجهوا نحو أفلاطون وأرسطو، وقد بُنيت الأفكار الأخلاقية الديكارتية على القوالب الرواقية، واستغرق اسبينيوزا في الرواقية في كل واردة عنده، وتأسست الغائية عند ليبنتز على الرواقية،

ووضع هوجو جروتيوس أفكاره عن القانون والأخلاقية الدولية على قوالب رواقية، ولجأ آدم سميث إلى الفكر الرواقي فحسب، ولم يتجه للمدارس الفكرية القديمة الأخرى، وبُنيت أفكار روسو عن التربية في جوهرها على نماذج رواقية، ووجد كانط إلهامًا في الفكر الرواقي عن إجلال الإنسان والمجتمع العالمي السلمي.

وتأثير الرواقية في تاريخ الأدب جليٌّ، فالشعراء والتربويون الرومان كانوا على بينة من الأفكار الرواقية، وأشاروا إليها في غالبية أعمالهم، كما هو واضح عند فيرجيل ولوكان. ويكشف التراث الأدبي الأوربي المتأخر عن نفوذ الرواقيين في الأدب الروماني، ناهيك عن تأثر عصرهم ذاته بأعمال شيشرون وسينيكا وماركوس أوريليوس.

رواقية سينيكا:

يصف سينيكا نفسه بالرواقي، ويعلن ولاءَهُ للرواقيين في كتاباته بوصفهم «أهلنا»، ويستقل بذاته في علاقته ببعض الرواقيين، في حين أنه يلتزم بأسس المذهب الرواقي، ويعيد صياغته بناء على تجربته وقراءته المتبحرة للفلاسفة الآخرين، واتبع في هذا منهج التراث الفلسفي الرواقي الذي يجسده بانيتوس وبوزدونيوس، اللذان قدما بعض العناصر الأفلاطونية والأرسطية لتتكيف مع رواقية المجتمع الروماني. ويختلف سينيكا عن سابقيه من الرواقيين؛ لأنه رحب بالفلسفة الأبيقورية باختلافاتها.

وركز سينيكا في تطبيق المبادئ الأخلاقية الرواقية على حياته وحياة الآخرين بالمثل، والتساؤل الذي هيمن على كتاباته الفلسفية هو: كيف يعيش المرء حياة خيرة؟ وكان سينيكا يرى أن السعي للفضيلة والسعادة

مسعى بطولي يضعه الإنسان الناجح فوق بطش الانتهازية وفي مستوى الرب، ولتحقيق هذه الغاية حوَّل سينيكا الحكيم إلى شخصية ملهمة، بإمكانه تحفز الآخرين ليتبعوا مثاله بلطف الإنسانية وبهجة الهدوء، ومفتاح فلسفته هو كيف يوفق المحنة الإنسانية بالعناية الإلهية، وكيف يحرر ذاته من انفعالات الغضب والحزن، وكيف يواجه الموت، وكيف يحرر ذاته من المشاركة السياسية، وكيف يعيش الفقر ويستخدم الثروة، وكيف يفيد الآخرين، وقد نظر إلى هذه المساعي في سياق أسمى وهو منظور الألوهية العاقلة والفاضلة ليحقق نفس الفضيلة في محاولات البشر. وقد ناقش سينيكا في مجال السياسة العفو عند الحاكم الأسمى، وقد أولى اهتمامًا خاصًّا بالصداقة وموقف العبيد والعلاقات الإنسانية، وهدف إلى استبدال البنية الاجتماعية باعتمادها على الثروة ببنية أخلاقية مقاربة وفقًا لغاية الحكيم.

لقد تخلل كتابات سينيكا قلق ومخاوف شخصية، ورغم أن القارئ المعاصر يقرأ عن حياة سينيكا الأرستقراطية في عهد كلاوديوس ونيرو، وعن ضعف وقوة شخصيته، إلا أنه يتجاوز في الوقت نفسه اهتمامات سينيكا وعصره. وقد يتردد بين جمهور المعاصرين أن دعوته للبشر ليتوحدوا؛ هي مطلب لعبيده واهتمامه بالانفعال الإنسانى وإصراره على التقوقع في ذاته لتحقيق السعادة، وأن شخصية سينيكا أوقعت عديدًا من القراء في إشكالية، وقد صوره بعض من معاصريه أنه منافق ولا يمارس ما يعظ به، وأن أعمال سينيكا -خاصة تعازيه لبوليبوس ولأمه هلفيا ومقاله عن الحياة السعيدة- كانت لخدمة مصالح شخصية، ورأى سينيكا في خطابه ٨٤ أنه بدل تعاليمه التي جمعها كالرحيق في كلٍّ يعكس التركيب المعقد.

لقد قسم الرواقيون المنطق إلى الجدل وهو حجة قصيرة، والخطاب وهو عرض مستمر، وقد تجنبت كتابات سينيكا الجدل والمنطق الصوري عمومًا، ومع ذلك يعرض بين حين وآخر رقائق من المنطق الرواقي بسخرية؛ لأن ما تحمله الدقة المنطقية تزيد عقيم ولا يُحسِّن ما عليه المرء، وينبغي تجنب كل أنواع المراوغات سواء أكانت تنطوى على خيط رفيع يى الجدل وتقيم فروقًا لفظية خفية للغاية، أم التي تتضمن تفسيرات فلسفية عويصة، وحين يعمل سينيكا هكذا، فإنه يجعل القارئ متيقنًا من معرفة أن بإمكانه هزيمة منافسه إن أراد.

وعلمنا ضئيل عن وجهة نظر الرواقيين في الخطاب، ويتضح هذا عند سينيكا حيث استخدم طائفة من الطرق البلاغية الرومانية لإقناع القراء برسالته الفلسفية، واكتظت كتاباته بأمثلة حية واستعارات جمة وأقوال دالة لها وقع مؤثر، فهو يعرف كيف يغير لهجته من الحديث العرضي إلى الموعظة الرصينة والاستنكار الساخر. وكان نصه شعبيًّا، يلقيه على لسان شخصيات متنوعة، واشتملت عناوين موضوعاته الجمهور والمعارضين الافتراضيين والأصدقاء والرموز التاريخية، وجال في الطريق كصديق حميم وأحيانًا كعدو رجيم، واتبع سينيكا كليانتس وحول شِعره نثرًا، حتى يحث القارئ على تحسين ذاته.

وبالنظر إلى الغايات الأخلاقية عند سينيكا ربما يكون من الغرابة أن يكرس عملًا مطولًا للتساؤلات الطبيعة في الفيزياء، ويصف العمل برمته غايات أخلاقية. وأصر سينيكا مرارًا على أن العقل قد يرتقي إذا تجاوز الاهتمامات الإنسانية الضيقة وعاين العالم بأسره، وأن تأمل العالم الطبيعي تتمة للفعل الأخلاقي برؤية السياق الكامل للفعل الإنساني، فنحن نرى الرب في مجده الكامل يهب الحياة للإنسان؛ لأنه يدبر العالم برمته. ونثر

سينيكا رسائله الأخلاقية بعيدًا عن محاوراته الطبيعية المحضة، وأكد على ضرورة أن يواجه الإنسان الأحداث الطبيعية كالموت والكوارث الطبيعية بامتنان للرب، وهو يحذر من إساءة استخدام الإنسان للمصادر الطبيعية، والانحطاط الذي يصاحب التقدم. ويصوب سينيكا في جل نقاشه عن الطبيعة المذهب الرواقي، سواء أكان بالإضافة أم التعديل، وهو يفند تاريخ الجدل حول الطبيعة بداية من فلسفة ما قبل سقراط حتى عصره بغية تحسين المذهب الرواقي.

وكتب سينيكا في الرسالة (*Letters 45.4*) أن الفلاسفة السابقين قد اكتشفوا الأشياء لذاتها، وتركوا لنا بعضها لندرسها؛ لأنهم لم يدركوا كُنهها. وعرض سينيكا في نقاشاته عن الكون تعاليمه الأخلاقية ليوضح رؤيته عن العدالة والتجديد، وكان إسهامه وجهة نظر جديدة، واستخدم الاختلافات الرواقية أساسًا للتجديد، ورسم صورة للتحديات التي تواجه الإنسان، وإلى السعادة التي ينتظرها مَن يمارسون الفلسفة الحقة. واتفق سينيكا مع الأصولية الرواقية، حيث تمسك بالتفرقة بين المنفعة والخير، والحاجة إلى استئصال الانفعالات، وتفضيل عقلانية المرء الحكيم، وتماثل الرب والقدر، وربط ما أضافه للأخلاق بحس شِعري مرهف حول هذه الاختلافات إلى منطلقات للفعل.

ونظر النقاد إلى الحكيم الرواقي على أنه أسمى من إمكانات البشر، وأنه متحجر العواطف. واعترف سينيكا أن الحكيم أمر نادر الحدوث بل هو كالعنقاء، وقد يظهر كل خمس مائة عام (*Letters 42.1*)، وليس الحكيم كما يرى سينيكا عائقًا للتقدم، بل هو الملهم به، ومنح سينيكا الحرية للحكيم من واقع الحياة، مستشهدًا بكاتو الأصغر *the younger Cato* عدو يوليوس قيصر، ولم يكن كاتو حكيمًا على الحقيقة، ويقول

سينيكا في مقاله "عن الثبات": لست على يقين إن كان كاتو تجاوزني أو لا. وهو لا يطمس بهذا الاختلافات الرواقية، بل يسلط الضوء على القوة الباطنة للحكيم بمثال كاتو وأمثلة أخرى من الماضى الروماني. ودمج سينيكا الحكيم الرواقي بالصورة التراثية للبطل الروماني، وهكذا حفَّز قرَّاءه الرومانيين لتأدية واجبهم بمحاكاتهم للحكيم.

ويحدد سينيكا مراحل ثلاث للتقدم الأخلاقي دون مستوى الحكيم، ويعاينها وفقًا لافتقادنا للانفعالات العقلية (*Letters 75*). والأولى هي حالة تقترب من وجود الحكيم، وهو الشخص الذي لم يتيقن بعد أن الوجود بإمكانه مجابهة الانفعالات العقلية وتسمى العواطف أباثيا. والثانية وهي المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة، وهو الشخص الذي ينزلق إلى مستوى أدنى في التقدم يتجنب بعضًا من الانفعالات العقلية. والأخيرة وهي أدنى المراحل، وهم أناس لا يحصون ولا يحققون أي تقدم، ولم يقل سينيكا في حقهم شيئًا سوى أنه تجنبهم لأنهم ملوثون، وهم مختلفون عن الذين يناضلون، ويذوقون المر في البداية ليصبحوا في حالة أفضل؛ إلا أنها فترة وجيزة وستنقضي، ويقول سينيكا عنهم: "حين يحرمون الأنين والآهات سيُختار منهم ألطف النبرات" (*Letters 23.4*)، ولا يزال سينيكا يصر على أن هذه الكلمات حقة وغايتها الوصول للحق بقدر الممكن. والحكيم عرضةٌ للصدمات، وتبدو ردود الأفعال آنية مثل الانفعالات العقلية، ولكن هذه الاستجابات الاضطرارية قد تنجح مباشرة برسوخ الحكم. والحكيم عند سينيكا ودود مع الآخرين ومغمور بالبهجة، ولا علاقة له بالمتعة الزائلة التي يتعاطها الآخرون من المظاهر. ويصور سينيكا التطور الأخلاقي على أنه نضال شاق أو حملة عسكرية أو مداهمة متصاعدة لمواقع العدو، حيث يتكهن العدو هجومًا

شرسًا من ضحيته، وربما يستسلم منافسه، وسيظفر إذا قاوم حتى نهاية المعركة، وقد تأتي الكوارث على المناضل من أشخاص آخرين، أو من الظروف المحيطة به، ومنها الموت والنفي والاضطهاد والمرض، وقد حفلت حياة سينيكا بأمثلة شتى، وذهب سينيكا إلى أن الشدائد وسائل للتقدم الأخلاقي، وأن الظروف تعين مَن يناضلون للوصول إلى التقدم الأخلاقي.

ومَن يتغيَّا التقدم الأخلاقي لا يجابه الظواهر الخارجية فحسب، بل ينظر في ذاته. ويخبرنا سينيكا من وحي أفلاطون أن بداخلنا ربًّا، ونفسًا تسعى إلى تحرير ذاتها من براثن الجسد. ويدعو سينيكا القارئ إلى أن يرتد إلى ذاته الباطنة ليتأمل حالة بعينها، ومن ثم يتجه نحو تأمل الإله، ويجري هذا الانسحاب على الحياة الفاعلة أيضًا. ومن الأفضل ألَّا يطول عمل المرء في الاشتغال بالسياسة. وهكذا ربط سينيكا الانسحاب الأخلاقي بمحاولة انسحابه من السياسة في الأيام الأخيرة من عمره، وهو يصر على الاستمرار في عون الآخرين بتعاليمه الفلسفية كأي رواقي آخر.

تراجيديا سينيكا:

كتب سينيكا ثمانية أعمال تراجيدية، وهي: أجاممنون، وثيستيس، وأوديبوس، وميديا، وفايدرا، وفوينيساي أي النساء الفينيقيات، وترواديس *Troades* أي النساء الطرواديات، وهيركوليس فورينس *Hercules furens* أي جنون هرقل. ولا تشتمل على أوكتافيا الكبرى، وهيروكليس أوتيوس، ولم يتبقَّ من فوينيساي سوى شذرات، وقد نُظر لهذه الدراما بأوجه شتى عبر القرون، ولا يزيد مَن ينقدها على أنها مجرد

نصوص معيبة للدراما اليونانية القديمة لمسائل قد عالجها سينيكا، ولم يكن دوره فيها سوى أنه استخرجها من مخبأ الفلسفة الرواقية الرومانية، وسلط عليها الضوء، وأسرف في التمثيل البلاغي عليها، أو أعاد بناء المسرحيات المفقودة لسوفوكليس ومَن تبعه من شعراء أتيكا، وفرضت علينا السمات التي ميزت الدراما صوابها ولا تستحق الاهتمام النقدي الآن. والحقيقة أنَّ دراما سينيكا نصوص ممتدة للتراجيديا الرومانية عند ماركوس باكيوفيوس ولوكيوس أكسيوس التي افتقدتها الأجيال. وقد ترجمت نصوص سينيكا الدرامية إلى اللغة الإنجليزية عام ١٥٨١م كتراجيديات تيني *Tenne*، وأثرت على التراجيديين في العصر الإليزابيثي، ربما قد تحول سينيكا إلى كتابة الدراما قبل فترة حكم كاليجولا ٣٧-٤١ ق. م، رغم أنه لا يمكن تحديد متى بدأ بالضبط، وقد حفظ أجاممنون *Agamemnon* أول إشارة للمسرحيات على حائط في بومبي، ونستنتج منها أنها كُتبت قبل ثورة بركان فيزوف عام ٧١ ق. م. ولا يؤكد التحليل الأسلوبي والبنيوى لمسرحيات سينيكا، ويبدو أن الباحثين متفقون على أن ثيستس وفونيسيا من الأعمال المتأخرة، ونحن نعجز عن تحديد تاريخ الدراما عند سينيكا وعلاقته بمقالاته وخطاباته، رغم أن هناك انطباعات في نثره وشِعره قد أرشدت بعض القراء في القرن الخامس لاعتبار سينيكا في أعمالهم، ومنهم الكاهن والخطيب سيدونيوس أبولليناريس *Sidonius Apollinaris*، ومن بعده أيراسموس وديدرو.

إن التشكيك في كتابات سينيكا أمر طبيعي، نتج عن فشل الرواقية كطريقة للحياة في الأعمال الدرامية، ويُردُّ هذا الفشل إلى ضعف أتباعها في التحكم في الرغبة والانفعال، أو صعوبة ممارسة الرواقية ذاتها، أو أن العالم ليس موضوعًا للعناية الربانية. وأن دراما سينيكا مفتوحة للنقاش

وتفترض قراءتها إتاحة الفرصة للأسطورة التي تدين موت كاسندرا أو بوليكسينا على يد كليتيمنسترا *Clytemnestra* أو أوليسوس، واستفاد سينيكا من هذه الحقيقة التراجيدية ليطرح مفهوم القدر الذي لا يرحم وعدم جدوى مُلاحظاته. وُعتبر ثيستس عملًا دراميًّا في الجمهورية المتأخرة؛ لذا فهي العمل الوحيد الكامل لدينا، حيث نجده فيما يُسمى المنفى، والذي يمتدح حياة العوز لأبنائه، ويذكرهم بأن الشخص الوحيد السعيد الذي يعيش بلا خوف، هو مَن يشرب في أوانٍ فخارية، ولكن حين دُعي إلى العودة إلى قصر أرجوس لتآمر أخيه أتريوس الذي تسبب في نفيه، استجاب لإغرائه بالعودة بعد شيء من تردد، وقال لابنه: "إني أتبعك"، ولكن لم يستسلم في اتباعه للحياة المترفة على عكس رفاهية الخير الرواقي.

إن ما تبقى بشكل جيد ليس إلَّا ركام أسطورة، حيث يجلس ثيستس مرتديًا زيًّا ملكيًّا، ويستمتع بشراب يُطيِّب القلب وبعضٍ من الخمر المعتق، وتجشأ من شبعه وهب فزِعًا حين أبلغه أتريوس أن عشاءه صُنع من أوصال أبنائه، ولكن هل هنا تفسير أخلاقي أو رسالة فلسفية؟! وإذا تابعنا وجهة نظر رواقي آخر هو أبكتيتوس الذي وصف التراجيديا كما تحدث وهو القائل: "حين تحدث الصدفة يُغَشى على الحمقى" *Discourses 2.26.31*، ونخلص إلى أن قصة ثيستس توضح بالضبط استسلام الحمقى لرغبة السلطة، وتبدو معالجة سينيكا درسًا واضحًا يُقوِّض به عوامل عدة، وهي أولًا نشوة النصر التي سيطرت على آتريوس في نهاية الدراما التي هي أصداء لا يمكن إنكارها من الوعظ الرواقي، وثانيًا هشاشة المدنية والقيم الدينية في المشهد الجحيمي الذي يُضحي فيه أتريوس بالأطفال، وهذا المشهد صورة زائفة للتضحية ذاتها، ويظهر

الملقنون للابتذال الرواقي في مسرحيات عدة مثل فايدرا وكليتيمنسترا وميديا، وهم يلقنون العبارة على عكس تساوقها مع الفعل، ولعب كريون *Creon* الدور نفسه في مسرحية أجاممنون.

ولدى أنصار سينيكا شكوك أكبر حول قيمة النجاح الدنيوي في دراما ثيستس، حين يسأل أوديب هل متعة الإنسان في السُّلطة؟ وقال إنه غير واثق بأنه يشعر أن الإجابة لا، ويقدم أوديب من بداية المسرحية متناقضات بيِّنة لأسلافه اليونانيين الذين أكدوا على اكتشاف ميلاد الهوية هنا، حيث يغمر أوديب الإحساس بالدنس، وفزع الملك حتى من الدراما المفتوحة؛ لأنه لن يستطيع الهروب من نبوءة قتل أبيه ظنًّا منه أنه مسؤول عن اجتياح الطاعون لمدينة طيبة، حتى أنه تمنى الموت السريع جزعًا، واختلفت حالته الانفعالية عن شخصيته المحورية في مسرحية سوفكليس. إن نص سينيكا هو تقرير مطول لكريون في استحضار شبح آيوس في حديقة مظلمة، وهو أمر غاب في عمل سوفكليس، وقد أُسقط إحساس الشخصية التي تتفاعل على خشبة المسرح، ليجعل الشعور في دراما سينيكا محرمًا، ويصبح حديث الشخصيات ردًّا على العنف، أكثر من كونه دافعًا له.

إن تدنيس السماء من منظور الإنسان يتعارض مع الطبيعة الرواقية، وَوُجِدَ له صدى في مسرح سينيكا، حيث وضع مذهب الرواقية نصب عينيه العلاقة بين الكون وأجزائه. وتوافقًا مع هذا الرأي، فإن النوما أو الروح الحيوية يُقابل كل نتائج المادة بانسجام كوني للأجزاء مع الكل. وكما يقول أبكتيتوس في *Discourses 1.4.1*: "كل الأشياء مترابطة ببعضها البعض، وتتأثر أشياء الأرض بما هو سماوي"، ولكن ما نراه في الدراما مشهد مريب لهذا الانسجام، وفكرة ضعف المرء أو التهوين

من شأنه بإمكانها أن تعطل اللوجوس العقلاني المنسجم الذي يعكس وجهة نظر المذهب عن العالم الذي قد نصل إلى إدراكه بالفهم والعقل، وهكذا نرى العالم يرتجف وقانون السماء يضطرب في عبارات مسرحية ميديا، والشمس تحجب وجهها خجلًا من جريمة أتريوسفي مسرحية ثيستس، وتختفي أصوات الجوقة بعد افتضاح نوايا فيدرا الخفية، وبشارة هوريفك التي تنذر بما يحلّ في طروادة في مسرحية فيدرا. وتختلف مسرحيات سينيكا عن التراجيديا اليونانية، حيث لا دور فيها للمؤسسات المدنية أو حتى تتدخل في هذه العلاقة، ومعالجة مفهوم الأرباب غير المغلوطة فيها، ويدعو جيسون القراء لمطالعة مسرحية ميديا التي ترى أنه لا يوجد رب في السماوات، والعربة التي كانت تجنح هي دليل على العون الرباني، فالأرباب معضلة لا يمكن معالجتها هنا.

إن الشخصيات الرئيسة في ميديا وثيستس مثيرة للقلق لا لأنها تنتصر دائمًا، ولكن لأن طريقة نصرها تتوافق مع غاية الطموح الرواقي، حيث تتبنى وصاياهم موقفًا بعينه تجاه العالم، وهو التخلي عن الروابط العائلية والاجتماعية ورفضهم للنظام الأخلاقى للعالم من حولهم، ومحاولتهم العيش في أنويتهم باعتبارها أفضل صورة للحياة. وطغاة سينيكا مثل حكمائه، فهم يبنون عالمًا خاصًّا ومستقلًّا حول ذواتهم لا يمكن اختراقه، وهم لا يستنكرون ذواتهم. وهناك انقسام في الحوار مع النفس بين الضرورة الأولى وهو رغبة النفس، والضرورة الثانية وهو الحكم عليها، فهم يختارون اعتبارًا لائقًا كمبدأ حاكم لهم.

وهذا يؤدي بدوره إلى طابع بعد مسرحي *metatheatrical* في عديد من المسرحيات، ففي مسرحية ميديا على سبيل المثال تظهر ميديا وهي تنظر إلى فصول سابقة في قصتها لتكتشف ما هو مناسب لشخصيتها،

وأوديب عندما يغلق عينيه يلاحظ أن "هذا الوجه يليق به هو" أو كما يقول أتريوس: "هذه جريمة، هذا الوجه يناسب ثيستس ويناسب أتريوس أيضًا" *Thyestes 271*، ويبدو أن طابع ما بعد المسرحية يعلو على اهتمام النخب الرومانية التقليدية، حيث إنها تعرض أفعالًا مثالية قد يُجمع عليها الجمهور وهي تتبنى مثالية أخلاقية بعينها.

وقد ناقش الباحثون باستفاضة مسألة أداء مسرحيات سينيكا على المسرح قديمًا، ويرى الباحث الألماني فريدرك ليو في القرن التاسع عشر أن هذه التراجيديات كُتبت للإنشاد فحسب، فمن غير المعتاد أو من المحال تجسيد التضحية الحيوانية والقتل على المسرح، ويبقى السؤال بلا جواب، ولكن سواء أكان الجمهور العادي في المسرح أم في مقصورة الإنشاد، فإنهم يشاركوننا معرفة كاملة بكيفية تحول القصة، وتشابه ذواتهم مع الشخصية الرئيسة في الواقع، وإن سعادتنا في مشاهدة دراما سينيكا قد توسع مداركنا حين نلاحظ سعادة هذه الشخصيات التي تئن من الألم، ويقول سينيكا في مسرحية طروادة في سطر شهير للرسول الذي يأتي بأخبار عن قاتل أستياناكس ويقص مشهد موت أستياناكس ويجسده للمسرح: "الجزء الأكبر من الحشد المكتظ يمقت الجريمة ويشاهدها"، وهذا التوتر بين هاجس السادية والفزع الذي تعرضه دراما سينيكا يمكننا من التعرف على عدم رضى المشاهدين من مسرحيات سينيكا البائسة.

دراما سينيكا بعد المرحلة الكلاسيكية:

تُوِّجت دراما سينيكا مرتين، إحداهما في الفترة الإليزابثية، والأخرى في يومنا هذا، ولم يشر سينيكا إلى تراجيدياته، وكانت معروفة قديمًا

حتى عند بؤثيوس ٤٨٠-٥٢٤ م الذي وضع عزاءه للفلسفة على غرار قصائد سينيكا الغنائية، وقد غابت دراما سينيكا عن الأنظار، إلى أن نشر باحث دومنيكي -هو نيقولا تريفيت- طبعة شعبية لها وعلق عليها عام ١٣٠٠م، وعقب عمل نيقولا بقرنين ظهرت ترجمات عامية في اللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية، فقد قلدها ألبرتينو موساتو١٢٦١-١٣٢٩م في إيطاليا، وكتب على غرارها مأساته إكيرينيس *Ecerinis* لتحذير صديقه باديونس من خطر طاغية فيرونا، وترجم جاسبر هيوود *Jasper Heywood* الكاهن اليسوعي والشاعر عام ١٥٣٥- ١٥٩٨م ثلاث مسرحيات لسينيكا، وتلا هذه الترجمات عام ١٥٨١م ترجمة توماس نيوتن لدراما تين *Tenne* إلى اللغة الإنجليزية. ولا تُعتبر هذه الدراما مجرد ظل شاحب لسابقتها اليونانية، وقد تمسك باتريك وسليوتاتي وسكليجر بأن دراما سينيكا ليست أقل شأنًا من الدراما اليونانية، وقد وضع سكليجر سينيكا في بحث له عن الشِّعر على قدم المساواة مع الدراميين اليونان، بل إنه قد يفوق يوربيديس في الأناقة والألمعية.

وأخذ الكتَّاب المسرحيون في عصر إليزابيث سينيكا نموذجًا للترجمة والمحاكاة، وزعم ت. س. إليوت أنه "ما من مؤلف أثَّر بعمق على العقل الإليزابيثي أو صورة التراجيديا في عصر إليزابيث بقدر ما فعل سينيكا"، وهناك إجماع على أن إليوت كان محقًّا فيما قال، ولعل من العجب أن يُحكم على سينيكا في العصر الذي كان ينظر إلى التراجيديا على أنها تمثيل صائب للأنفة والتكبر والطموح والفخر والظلم والغضب والحسد والكراهية والخصومة والنهب والخيانة والغدر وجميع أنواع الشرور.

وقد قرأ كيد ومارلو ومارستون وشكسبير سينيكا في المدرسة،

وتبين أعمالهم الدرامية تأثير سينيكا فيهم بشكل أو بآخر، فالمتجولون في إلسينور في رواية هملت لشكسبير يعبرون عن رأيهم قائلين: "ليس سينيكا ثقيلًا ولا بلوتوس خفيفًا"، ويبين تيتوس أندرونيكوس في شكسبير التأثير الأكبر لسينيكا بتوقه للانتقام والاغتصاب وضرب الأعناق والسحل والجنون، وفي ريتشارد الثالث وماكبث لشكسبير أمثلة للمتهور والمكتئب والطموح بين أبطال الرواية المتعطشين للسلطة، وكما نرى مثل هذا التأثير في دراما توماس كيد التراجيدي الإسباني حيث تتحدث عن هاجس الانتقام عند الأشباح من وراء القبور.

ويرتبط محتوى الأعمال الدرامية عند سينيكا بالدرس الأخلاقي دائمًا، ورأى تريفيت في تقديمه لمسرحية ثيستس أنها تعلم الصحيح من الأخلاق، كما أنها عرض بسيط لإمتاع الجمهور، وقد دافع اليسوعي مارتن أنطونيو ديلريو ١٥٥١- ١٦٠٨م، وكذلك موساتو من قبله عن استخدام الدراما الرومانية في التعليم المسيحي حيث إنها تفترض توجيهًا يتزيا بالحكمة، وتراجعت دراما سينيكا بعد منتصف القرن السابع لسوء السمعة، وانتهز الشاعر جون درايدن فرصة تقديمه لمسرحية أوديب لينتقد سينيكا ونصوص كورنيي قائلًا: «إن سينيكا يلهث خلف التعبيرات الطنانة والجمل الرمزية والمفاهيم الفلسفية التي تصلح للدرس أكثر من المسرح»، واستخدم التراجيدي الفرنسي جان راسين ١٦٣٩- ١٦٩٩م سينيكا نموذجًا في مسرحيته فيدرا، وادَّعى في الوقت نفسه أن ولاءه الأساسي ليوربيديس. وليس هذا مستغربًا؛ لأن الرومانسيين لا يجدون وقتًا ليحبوا سينيكا، وقد طفح الاهتمام في الآونة الأخيرة بجوانب الأداء والأدب في دراما سينيكا بعد ظهور الطبعات الجديدة والدراسات الأكاديمية وبعض من العروض المسرحية لها، وتجدر الإشارة هنا إلى

طبعة سارة كين المعدلة لمسرحية فايدرا التي ظهرت في نيويورك في مايو ١٩٩٦م، وكتاب مايكل إليوت «دراما أوديب بعد الهولوكست» بجامعة حيفا في إسرائيل في ٢٠٠٥م، وإخراج جوان أكالاتيس لمسرحية ثيستس على مسرح محكمة شيكاغو ٢٠٠٧م.

وهناك ملاحظة على هذه الترجمة، وهي أنها صيغت بشكل يوافق الاصطلاح الإنجليزي نظيره اللاتيني بدقة متناهية ووضوح، وتوازي أسلوب النثر مع الشِّعر، والقصد من هذه الترجمة هو وضع بنية لعمل تفسيري، أكثر من كونها نقلًا لتفسيرات شخصية، وهي تتجنب الاصطلاحات التي تنطوي على مضامين أخلاقية مسيحية ويهودية، وإذ اقتضت الحاجة إلى تفسيرٍ وضعنا في الهامش توضيحًا لأسماء الأعلام في الأساطير والجغرافيا.

لمزيد من القراءة:

On Seneca's life: Miriam T. Griffin, Seneca: A Philosopher in Politics (Oxford: 1976),

Paul Veyne, Seneca: The Life of a Stoic, translated from the French by David Sullivan (New York: 2003).

Brad Inwood, Seneca: Stoic Philosophy at Rome (Oxford: 2005),

Shadi Bartsch and David Wray, Seneca and the Self (Cambridge: 2009).

A. J. Boyle, Tragic Seneca: An Essay in the Theatrical Tradition (New York and London: 1997);

C. A. J. Littlewood, Self-Representation and Illusion in Senecan Tragedy (Oxford: 2004);

Thomas G. Rosenmeyer, Senecan Drama and Stoic Cosmology (Berkeley: 1989).

Robert S. Miola, Shakespeare and Classical Tragedy: The Influence of Seneca (Oxford: 1992),

Henry B. Charlton, The Senecan Tradition in Renaissance Tragedy (Manchester: 1946).

عزاء إلى ماركيا

مقدمة

لولا "عزاء إلى ماركيا" ما سمعنا عن المرأة التي تُوِّج بها العنوان، ولكنَّ والدها المؤرخ أوليوس كريموتيوس كوردوس *Aulus Cremutius Cordus* ذكر في مصادر قديمة أخرى، وكتب في فترتَي حكم أوغسطس وتيبيريوس تاريخ الحروب الأهلية، وحُكم عليه بتهمة الخيانة عام ٢٥ م، وانتحر وأُحرقت أعماله، وبعد وفاة تيبيريوس استُعيدت سمعة كوردوس، وشاعت أعماله التاريخية (ولم تبقَ حتى يومنا هذا)، وأشار سينيكا إلى رد اعتبار سمعة كوردوس، ولذلك كُتب هذا العزاء بعد موت تيبيريوس، وعلى الأرجح فى فترة حكم جايوس (٤١– ٣٧)، ويبدو أن سينيكا كان فى روما أثناء كتابته (فصل ١٦– ٢)، والذي يستبعد سنوات منفاه (٤٩– ٤١)، والتوفيق بين التاريخ بعد عام ٤٩، والمعلومات التي يقدمها سينيكا عن عمر ماركيا صعب، وتاريخ التأليف في عهد جايوس ضمن بقاء أعمال سينيكا النثرية.

وإن العزاء يقدم الراحة لمَن أصابه الحزن، وأصبح العزاء نوعًا أدبيًّا متقدمًا للغاية، يستند على تقاليد فلسفية وخطابية شتى، ولم يبقَ من العزاءات الأشد تأثيرًا في العصور القديم سوى اثنين: الحزن على الفيلسوف الأكاديمي كرانتور *Crantor (ca. 335–275 bce)* ، وعزاء شيشرون الذي كتبه لنفسه بعد موت ابنته توليا *Tullia* عام ٤٥ م، والحقيقة أن "عزاء إلى ماركيا" أقدم تعزية بقيت على قيد الحياة، ويمكن مقارنته بعزائه إلى بوليبوس وخطابي المعزى رقم (٦٣–٩٩)، وتعتمد تعازيه على

موضوعات تقليدية مثل الثناء على المتوفي، والحض على عدم الانغماس في الحزن المفرط، والحجة القائلة بأن الموت هو النهاية والبقاء للنفوس؛ لأن موت المتوفي أفضل من حياته. ويعترف سينيكا بأنه يكتب في ظل تقاليد راسخة، ويلفت الانتباه إلى إبداعه في الفصل الأول والثاني، وهو يبتعد عن الممارسة المعتادة، ويبدأ بأمثلة بدلًا من النصيحة، فالرواقية غير معهود عنها العزاء، وهو يرفض المذهب الرواقي الصارم الذي لا يحزن فيه الحكيم الرواقي على الإطلاق، وهو يستند على مبدأ أن الحزن مثل الانفعالات الأخرى، وهو نتاج المعتقد الخاطئ، وفي حالة الحزن هذه معتقدات خاطئة عن طبيعة الموت وتأثيره على المتوفي والثكلى.

ولا نعلم بالضبط ما دفع سينيكا لكتابة هذا العمل إلى ماركيا، حيث لم تجمعه بها أي علاقة خاصة أو صداقة بها أو بعائلتها، وقد قيل من مخاطبته لماركيا أنها ابنة أحد ضحايا سيجانوس، وكان يحاول أن ينأى بنفسه عن سيجانوس الذي فُضح وأعدمه تيبريوس، وكان لعائلة سينيكا صلات بسيجانوس، ولكن لا يمكن إثبات الفضيحة. إن السبب الظاهري لهذا العمل هو أن ماركيا كانت لا تزال حزينة على ميتليوس، وهو ابنها الذي تُوفي منذ ثلاث سنوات، وأراد سينيكا أن يقنعها بأن ترمي حزنها وراءها، ولكن تباعدت الفترة التي تُوفي فيها ابنها، وهناك أجزاء كبيرة من العمل (كما هو واضح في الملاحظات على الترجمة) تتلاشى ماركيا من الخلفية، بينما يُخاطب سينيكا جمهورًا عامًّا من الذكور، وهذا يبين أن العمل ليس مجرد عزاء شخصي فحسب.

شكر وتقدير:

إنني مدين بالفضل إلى إليزابيث أسميس *Elizabeth Asmis*، والقارئ المحرر لاقتراحاته في تحسين الترجمة، وأنا مسؤولُ بمفردي عن العيوب المتبقية.

بنية العزاء

مقدمة.

الفصل من ٢-٥ أمثلة: ردود الفعل المتناقضة من أوكتافيا وليفيا لفقدان الابن.

الفصل من ٦- ١١: نصيحة عامة عن الموت والفجيعة.

الفصل من ١٢-١٩,٣: نصيحة خاصة تتعلق بموقف ماركيا.

الفصل من ١٩,٣ -٢٥: حالة ميتيليوس الراهنة لتبرر الحداد المستمر.

الفصل ٢٦ الخلاصة: تخيل ماركيا أباها الميت يناديها.

لمزيد من القراءة:

1- Manning, C. E. 1981. On Seneca's "Ad Marciam." Mnemosyne Supplement 69. Leiden: E. J. Brill.

2- Olberding, A. 2005. "The 'Stout Heart': Seneca's Strategy for Dispelling Grief." Ancient Philosophy 25:141–54.

3- Shelton, J.-A. 1995. "Persuasion and Paradigm in Seneca's Consolatio ad Marciam 1–6." Classica et Mediaevalia 46:157–88.

4- Wilcox, A. 2006. "Exemplary Grief: Gender and Virtue in Seneca's Consolations to Women." Helios 33, no. 1: 73–100.

١-١ إن لم أعلم يا ماركيا أنكِ قد تتملصين من الضعف الذي جُبلت عليه النساء كما تنسلين من كل أنواع الخطايا، وأن الناس يتطلعون لشخصك كما لو كان مثالًا قديمًا، فلن أجرؤ على مداهمة أحزانك؛ لأن البشر يتشبثون بالكآبة ويحتضنونها بلا هوادة، ولن أبني أملًا غير مُوَاتٍ للظرف أمام هذا القاضي الخصم على التهمة المكروهة، فأكسبَك سوء الحظ الذي تعانينه، ولكن قوة شكيمتك وشجاعتك التي بنيتها -والتي تعطيني الثقة- قد تثبت قيمتها تحت اختبار قاسٍ.

١-٢ ولم ألحظ مدى تصرفك تجاه أبيكِ الذي أحببتيه مثل أطفالكِ، سوى أنكِ لم تتمني أن يصمد أمام الموت أو ربما لم ترغبي حتى في هذا؛ لأن الحب العظيم قد يسمح لذاته أحيانًا أن ينافي قواعد الأخلاق الطبيعية. وبقدر همتكِ حاولتِ أن تمنعي موت أبيكِ أوليوس كريموتيوس كوردوس *Aulus Cremutius Cordus* [(١)]، وقد تبيَّن لكِ أن هذا هو المهرب الوحيد المتاح له حين حاصره أتباع سيجانوس *Sejanus's henchmen* [(٢)]، وأنتِ لم تدعمي مأربه، بل ولوَّحتي بقبول الهزيمة وانهمرت دموعكِ [(٣)]، وتجرعتِ تنهداتكِ،

(١) أوليوس كريموتيوس كوردوس *Aulus Cremutius Cordus*: مؤرخ كتب في عهد أوغسطس وتيبيريوس، تاريخه عن الحروب الأهلية الذي لم يُكتب له البقاء حفل بالجانب الجمهوري، وكان هذا جذر التهمة الموجهة إليه كما يشير سينيكا.

(٢) لوكيوس إيليوس سيانوس: كان حاكمًا للحرس البرايتوري في عهد تيبيريوس، وأصبح أقوى رجل في روما من عام ٢٦ م حين تقاعد في كابرا *Capri*، حتى سقوطه من السلطة وإعدامه عام ٣١ م.

(٣) يترجم البعض هذا بأنها "أنتِ هُزمتِ بشكل واضح، وانهمرت دموعكِ"، ولكن هذه ترجمة متكلفة، ومع ذلك تتابع الأفكار محير.

ومن ثَم لم تُخفيها بتعبير البهجة- كل هذا في الفترة التي لم تفعلي شيئًا مكروهًا يعادل إظهار الحب العظيم.

١-٣ وحالما يقدم المناخ السياسي المتقلب الفرصة [٤]، فإنكِ تمكنين الجمهور من أن يقترب أكثر من موهبة أبيكِ الأدبية والتي كانت هدفًا للعقاب، إنكِ أنقذتيه من موتٍ محققٍ[٥]، وأعدتِ مخطوطات كتبنا العامة التي كتبها هذا الرجل الشجاع بدمه على نحوٍ استثنائيٍّ، لقد قدمتِ خدمةً جليلةً للأدب الروماني الذي احترق طرفٌ مهمٌّ منه في النار، وهي خدمةٌ جليلةٌ للأجيال اللاحقة، الذين سوف يرثون تاريخًا موثوقًا فيه وغير مشوَّهٍ والذي كلَّف مؤلفه ما ندر، وهذه الخدمة الجليلة تقوي ذكراه، وستبقى قويةً طالما كانت معرفةً قيمةً لتاريخ الرومانـ وطالما هناك امرؤٌ يريد أن ينظر للخلف لإنجازات أسلافه، وطالما هناك مَن يرغب في أن يعرف ما يجب عليه ليكون رومانيًّا، وما يبقيه غير مطأطئًا حين يضطر إلى أن يحني رأسه ويخضع لنير سيجانوس، وما يجعله إنسانًا بذكاء غير مقيدٍ وعقلٍ ويدين كذلك.

١-٤ وإن لم تنقذي فصاحته وبلاغته -وهما اثنتان من خصائصه أُلقيا في غياهب النسيان-، فإن الدولة كانت ستتكبد خسائر فادحةً من قبل هرقل، إنه كان مطلعًا، ويحظى بشعبيةٍ، ولم يخشَ مرور الزمن، رحبت به أيدي الناس وقلوبهم، والشيء الوحيد الذي سوف نتذكره لهؤلاء الجزَّارين هو جرائمهم التي سوف نودعها للصمت.

١-٥ وقد منعني جنون نبالتكِ هذه من أن ألحظ جنسكِ أو وجهكِ الذي خيم عليه الحزن المتواصل من سنين طوالٍ، كما لو كان مشوَّهًا من البداية، وألحظ أنني لم أخدعكِ أو أفكر في غش مشاعركِ، لقد تذكرتُ معاناتكِ الطويلة في

---

(٤) بعد انضمام كاليجولا في ٣١م.

(٥) يعتقد الرومان أن كتابات المرء تمنحه خلوده.

الماضي، وربما أدركتِ أن جرح الحاضر في حاجة إلى أن يندمل، وأظهرت لكِ الندبة التي تساوي الضَّرر الشديد، ولذلك ربما يعاملكِ بعض الناس بلطفٍ وهدوءٍ، ولكني قررتُ أن أقاتل من أجل حزنكِ، وسوف أضع خوفكِ وعينيكِ المرهقتين تحت مراقبةٍ، تلك العينان اللتان إذا رغبتِ أن تعرفي الحقيقة، تدفقت من الطبع أكثر من التوق، وسوف أفعل ذلك إن أمكن، مع دعمكِ لأجل المداواة، وإن لم أفعله حتى ضد إرادتكِ، وحتَّى لو تعلقتِ بحزنكِ الذي قد أبقيتيه حيًّا في موضع ابنك.

١–٦ وإلى أين ستنتهين؟ فكل ما تحاولين فيه من دون جدوى، وقد قلصتِ كلمات الأصدقاء المريحة ونفوذ الرجال العظام الذين يرتبطون بكِ في حب الأدب تلك النعمة التي ورثتيها من أبيكِ، وركنتِ إلى راحةٍ ساكنةٍ تصنع بالكاد متعةً وجيزةً، وتترك انطباعًا في آذانك الصم، وعلاج طبيعتكِ الزمن الذي يشفي حتى أعظم الألم، ولكن في حالتكِ ظهر الضعف.

١–٧ لقد مضت ثلاث سنوات الآن، ولم تخف حدة الصدمة الأولى، ويتجدد حدادكِ ويقوي ذاته كل نهار، ويستوطن بمرور الزمن، وقد وصل إلى حدٍّ تخجلين من الكف عنه، كما تندمغ كل صنوف الخطأ بعمقٍ إن لم تُختم خارجًا حين نموها، وكذلك يتغذى الحزن والبؤس في النهاية على مرارتها، فتجد العقول التعسة تحفظًا للسعادة في الحزن.

١–٨ ولذا أتمنى أن أبدأ هذه المداواة فى المراحل المبكرة، وقد يستعمل العلاج المعتدل ليختبر المرض وهو ينبني، والأمراض المزمنة في حاجة إلى أن تُقاوم بضراوةٍ، وكذلك الجروح من اليسير شفاؤها وهي حديثة ولا تزال تنزف، ولكن حين تتقيح وتتحول لقرحٍ، فيجب أن تُكوى وتُفتح مرةً أخرى وتجسها الأصابع لتفرغ القيح منها، وكذلك الحال؛ فلا يمكنني مداهمة مثل هذا الحزن الشديد بوسائل لطيفة ولينة إن توجب دحره.

٢-١ أعلم أن كل امرئٍ يرغب في تقديم نصيحةٍ يبدأ بتوجيهات وينتهي بضرب أمثلة، وأحيانًا تكون مفيدةً في تغيير هذا النمط، واختلاف الناس يحتاج معالجات مختلفة، فبعضهم يُرشد بالعقل، وبعضهم حين يأسر بالمظهر يحتاج إلى أن تجابههم بهيبة أسماء مشهورة حتى يتقيد تفكيرهم بهم.

٢-٢ سوف أعرض أمامكِ مثالين بارزين من بني جنسكِ وجيلكِ؛ الأولى امرأة تركت الحزن يجتاح طريقها. والثانية متأثرة بسوء الحظ ذاته، ولكن بخسارة أعظم، وهي لا تسمح لمعاناتها أن تتحكم فيها لفترة أطول، بل سرعان ما يتعافى مزاج عقلها المعتاد.

٢-٣ أوكتافيا *Octavia*، وليفيا *Livia*. الأولى أخت أوغسطس، والأخرى زوجته، وهما فقدتا أبناء شبابًا أَمِلتا أن يكونا الإمبراطور القادم(٦)، فأوكتافيا فقدت مارسيلوس *Marcellus*، والذي بدأ خاله وحماه أيضًا يعتمد عليه في تحمل عبء الإمبراطورية الثقيل(٧)، وهذا الشاب كان ذا عقل نافذ ونشط، وبالرغم من اقتصاده وسيطرته على ذاته -اللذين لم يقل استحسانهما من شخص عاصره أو في مثل ثروته- عمل بجد وهجر الملذات وتحمل ما أوكله إليه خاله مهما كان، وإن جاز التعبير اعتمد عليه، وقد اصطفى بعناية أسسًا لا تنثني تحت أي ثقل.

٢-٤ ولم تكفَّ طوال عمرها كله عن البكاء والرثاء(٨)، ولم تسمع لكلمات

---

(٦) تزوجت أوكتافيا أخت أوغسطس من كلاوديوس مارسيلوس في المرة الأولى، وعقب وفاته في عام ٤٠ ق. م سرعان ما تزوجت من ماركو أنطونيو، وكان حديث سينيكا عن طفلها من الزواج الأول من مارسيلوس. وأما ليفيا فقد ولدت ٥٨ ق.م، وتزوجت في المرة الأولى من تي كلاوديوس نيرونن *Ti. Claudius Nero*، وأنجبت منه ولدين هما الإمبراطور المستقبلي تيبيريوس ودروسوس الذي توفي ٩ ق.م ، وطُلقت عام ٣٩ ق.م وتزوجت أوكتافيان وأغسطس في المستقبل، وتوفت بعد وفاته عام ٢٩ م.

(٧) ولد كلاوديوس مارسيلوس عام ٤٢ ق.م، وتزوج جوليا ابنة أوغسطس عام ٢٥ ق.م ، لذلك كان أوغسطس عمه ووالد زوجته، وتوفي عام ٢٣ ق.م.

(٨) توفت أوكتافيا عام ١١ ق.م.

النصيحة، ولم تدع نفسها تتقلب إلا على قصد واحد ثبتت ذهنها عليه، وعاشت حياتها كما لو كانت في جنازة، ولا أقول إنها لم تغامر لترتقي بذاتها، بل رفضت أي عون في هذا؛ معتبرة ذلك تخليًا عن دموعها، وهو حرمان ثانٍ.

٢-٥ لم تحتفظ بأي صورة لابنها المحبوب أو تسمح بأي ذكرى منسوجة له، وكرهت كل الأمهات، وليفيا على نحو خاص؛ لأن السعادة التي وعدتْ بها نفسها يبدو أنها انتقلت إلى ابن تلك المرأة، لقد قضت وقتها في المنزل بين الظلام والعزلة، ولم تفكر حتى في شقيقها، ورفضت القصائد التي كُتبت للاحتفاء بذكرى مارسيليوس وغيرها من تحيات الأدب[٩]، وصمَّت أُذنينها عن أي نوع من الراحة، وانسحبت من واجباتها الرسمية، ومقتت التألق المفرط لعظمة شقيقها وحسن حظه، ودفنت نفسها وخبأتها بعيدًا. وحين تجمع أطفالها[١٠] وأحفادها حولها، لم تخلع ملابس الحداد، ووبخت كل عائلتها، واعتقدت أنها بلا أطفال رغم أنهم كانوا على قيد الحياة.

٣-١ وفقدت ليفيا ابنها دروسوس *Drusus*، والذي كان من شأنه أن يكون إمبراطورًا وقائدًا عظيمًا بالفعل، إنه تعمق في جرمانيا ووضع ضوابط الرومانية حيث كان لديهم بالكاد معرفة لوجود الرومان[١١]، لقد مات في المعركة حين كان مريضًا، واحترمه الأعداء ذواتهم بشدة، وأعطوه ممرًّا آمنًا آملين في الهدنة، ولم يتضرع لأجل المخرج الذي يناسبهم، وقد ساد شعور الخسارة بين مواطنيه في موته الذي كان في خدمة الدولة والمقاطعات وإيطاليا برمتها،

(٩) أثنى فيرجيل على مارسيلوس في *Aeneid 6.861–83* ملحمة شِعرية كتبها الشاعر فرجيل في نهاية القرن الأول قبل الميلاد (٢٩-١٩ق.م) باللغة اللاتينية. وهي تصف الحياة الأسطورية لأينياس الطروادي، الذي سافر غربًا إلى أراضي إيطاليا، وأصبح أبًا لكل الرومان. ونظمت أبيات الملحمة على أسس التفعيل السداسي. كما أثنى عليه سكستوس بروبرتيوس في *Propertius 3.18*، وهو شاعر لاتيني روماني عاش في عصر أوغسطس قيصر، وُلد ما بين سنة ٥٠-٤٥ ق م في أسيزي، وتوفي في سنة ١٥ ق م. (المترجم).

(١٠) كان لدى أوكتافيا أربع بنات.

(١١) قاد دروسوس الحملات الرومانية في جرمانيا من ١٢ ق.م حتى وفاته عام ٩ ق.م.

وقد تدافع جميع سكَّان أرجاء الوطن والبلدات والمستعمرات لموكب جنازته الحزينة، الذي سار نحو المدينة بكل مظاهر النصر.

٣-٢ ولم يُسمح لأمه أن تشرب فى قبلة وداع ابنها أو أن تلحن بكلمات موته، واصطحبت بقايا محبوبها دريسيوس على طول الرحلة، وشعرت بالضيق لكثرة الجثث المحترقة بطول وعرض إيطاليا كما لو كانت تفقده مرةً أخرى مع كل جثة منهم، ورغم ذلك بمجرد أن ألحدته في المقبرة[١٢]، طرحت حزنها للسكون، ولم تتزيد في الحزن طالما أن القيصر على قيد الحياة. وفي النهاية لم تتوقف عن الثناء باسم عزيزها دروسوس، وهي تذكره أينما حلت في العلن والخصوص، تتحدث عنه وتسمع عنه بكل سرور، حيث عاشت مع ذاكرته، وهو شيء ليس بإمكان أحد أن يحافظ عليه أو يعيد النظر فيه إذا سمح له أن يصبح مصدرًا للحزن.

٣-٣ ولذا اختاري أيًّا من هذين المثالين تعتقدين أنه يستحق الثناء. فإذا رغبتِ أن تتبعي المثال الأوَّل، فسوف تُغيبين نفسك عن رفقة العيش، وستتجنبين أطفال الآخرين وأطفالك وحتى الطفل الحقيقي الذي افتقدتيه، وستعتبركِ الأمهات فأل شؤم حين يقابلونكِ، وستصدين الملذات الجليلة والمباحة كما لو كانت غير مسايرة لسوء حظكِ، وستكرهين النور الذي يُظلكِ، وستُبغضين بمرارة عمركِ، وهذا المثال لا يطرحكِ إلى أسفل في الحال ويأتي بحياتك إلى نهايتها فحسب، بل الشيء الأكثر خزيًا والخارج تمامًا عن الحفاظ على سمتكِ، والذي يُلحظ بشدة هو أنكِ ستؤكدين أنكِ غير راغبةٍ في العيش وغير قادرة على الموت.

٣-٤ ولو كرستِ نفسك لما يحكم الذات أكثر ولمثال إنساني وضعته امرأةٌ عظيمةٌ حقًّا، فلن تأسي ولن تتحملي ضنك العذاب، وأي حماقة في السماء أن تعاقب

---

(١٢) دُفن في مقبرة أوغسطس الفخمة.

المرء على سوء حظه وتضفي عليه المآسي[١٣]، والفضيلة نفسها والاحتياط ذاته كما تحافظين عليهما خلال حياتكِ، سيكون مظهر ظروفكِ الحالية أيضًا، حتى الحزن له طابع في الاحتشام، أما بالنسبة للشاب الصغير فإنه يستحق أن تجعليه سعيدًا بكل ذكرٍ أو التفكير فيه، وستصنعين شرفًا عظيمًا إذا كان مبتهجًا وفرحًا بوجود أمه كما اعتاد طوال حياته.

٤-١ لن أوجهك نحو إرشاداتٍ صارمةٍ تأمرك بتحمل تجربة البشر بطريقة لا آدمية، أو تجفف عينَي الأم في نفس يوم الجنازة[١٤]، وسوف أمضي معكِ للحكم حيث النزاع بيننا سيكون عمَّ إذا كان الحزن عظيمًا أم أنه بلا نهايةٍ.

٤-٢ وليس لديَّ شكٌّ أنه قد يسعدكِ مثال جوليا أوجوستا *Julia Augusta*[١٥] التي كانت معكِ ودودةً، وهي تغريكِ لتنضمي في حوارٍ معها الآن، فهي في صدمتها الأولى حين يكون بؤس المرء في أقصى حالاته سمحت لأريوس زوجها الفيلسوف[١٦] أن يواسيها، وسلمت بأنها استفادت كثيرًا من هذا العمل أكثر من الشعب الروماني الذي لم يرغب أن يزيدها حزنًا على حزنها، وأكثر من أوغسطس الذي كان يُعاني من فقد أحد دعامتيه[١٧]، وعدم اختلال توازنه لحزن عائلته، وأكثر من ابنها تبيريوس *Tiberius* الذي وثق حبه قبل أن تحل الجنازة والذي أبكى الأمم، إن الخسارة الوحيدة التي عانتها هي عدد أطفالها.

٤-٣ وأتصور كيف كان قريبًا منها تبيريوس، وكيف بدأ يخاطب امرأة تحمي

---

(١٣) قراءة تأبط شرًّا *mala sua augere* .

(١٤) يلمح سينيكا إلى وجهة نظر الرواقية الصارمة: إن أي نوع من الحزن أمر خاطئ.

(١٥) وبعد وفاة أوغسطس عام ١٤م وتحت إرادته، انتمت ليفيا إلى عائلته بأسماء جوليا أوغسطس *Julia Augusta*.

(١٦) الفيلسوف أريوس ديدايموس، أصله سكندري، ويرتبط بقرابة لأغسطس.

(١٧) كان دعمه الآخر هو تيبيريوس.

سمعتها. وجوليا[١٨] حتى يومنا هذا على حد علمي وقد كنت رفيقًا دائمًا لزوجك. ولم أعلم ما قيل في العلن فحسب بل ما سرته قلوبكما، لقد قبعتِ في الحزن حتى لا يلومكِ أحدٌ على أمور أعظم فى الضرورة، بل على أمور تفاهة، وحرصتِ على ألَّا تفعلي شيئًا تريدين أن يغفر فيه الرأي العام أغلب النقد الصريح للأباطرة.

٤-٤ وأعتقد أن لا شيء أعظم مجدًا حين يصفح الذين هم في قمة عطاء المجتمع عن كثير من التصرفات، بل يسعون للعفو من أجل لا شيء، ولذلك تحتاجين فى الظروف الحالية أن تنتصبي لسلوكك المعتاد، وألَّا تفعلي شيئًا ربما لا تتمنين فعله على الإطلاق أو قد تفعلينه على نحو مفارق.

[٥-١ ومن ثَم، أتوسل إليكِ وأناشدكِ ألَّا تُقدمي على صعبٍ وألَّا تقطبي وجهكِ لأصدقائكِ، وينبغي أن تكوني على علمٍ بأن كلًّا منهما تفتقد إلى كيفية التصرف، سواء أكان الحديث عن دروسيوس في حضرتكِ قد يضر ذكر الشاب الرفيع أم ذكره قد يؤذيكِ.

[٥-٢ وحين نفارق حضوركِ ونخلو بعضنا إلى بعض، نحتفي بأعماله وكلماته باحترام يستحقه، ونحفظ الصمت تمامًا عنه في حضوركِ، ولذلك عزفت عن المتعة الرفيعة والثناء عن ابنك، ولا أشك أنكِ تضمنين البقاء الأبدي له إن لاحت الفرصة حتى لو كلَّفكِ هذا حياتكِ.

٥-٣ اسمحي -أو بالأحرى- شجعي الحوار حيث يكون هو موضوعه، ولا تصمِّي أذنيكِ عن اسم ابنك وذكره، ولا تعتقدي أن هذا كآبة كما يصنع الآخرون في سوء حظهم المماثل حين يسمعون لكلمات المواساة على أنها طرفٌ من معاناتهم.

---

(١٨) اكتسبت ليفيا اسم جوليا بعد وفاة أوغسطس، ولذلك حديث أريوس فيه مفارقة تاريخية، وبعض المخطوطات تقرأ 'ليفيا' من الضرورة أن نتبعها؛ لأن هذه المفارقة التاريخية غير معروفة في مؤلف سينيكا.

٥-٤ وكما هي الأمور، سوف تمضين إلى أقصى طرف، حيث تنسين أفضل الأوقات، وتركزين على أسوأ مظاهر حظكِ، ولا تحوِّلي انتباهكِ عن الحياة التي شاركتِ فيها ولدكِ الأوقات المبهجة وصبانيته التي قضيتيها معه، ومفاتنه البديعة، أو تقدم تربيته. وسوف تسكنين على هذا المشهد الأخير، واستجمعي بقدر ما تستطيعين رهبة المشهد، كما لو كانت بغيضةً بالفعل، وأتوسل إليكِ ألَّا تطيلي في مجد فاسد، هو من أعظم سوء حظ النساء.

٥-٥ وتذكري في الوقت نفسه أنه ليس مأثرةً عظيمةً أن تتصرفي بشجاعة حين تكون الظروف مواتيةً، وحين تمضي الحياة بيسر، فلا يظهر هدوء البحر والريح المرافق له مهارة القبطان أيضا، وعليه يجب أن تنشأ بعض التحديات لتختبر شجاعته.

٥-٦ ولذلك لا تتزعزعي، وقفي ثابتةً، وتحملي الأعباء التي تقع عليكِ مهما يكن دون مهابةٍ، فبمجرد حدوث الصدمة الأولى، تصبح ماضيًا[١٩]، ولا شيء يظهر أعظم احتقارًا للحظ أكثر من العقل الهادئ. وبعد هذا القول، لفت انتباهها للابن الحي الباقي وأحفادها من الابن الذي فقدته[٢٠].

٦-١ يا ماركيا، قد جُمِّعت ظروفكِ على هذا الظرف، وأريوس يجلس بجانبكِ، وتبدلت قائمة الجمع، وعرض أريوس عليكِ الراحة، ولا تزالين يا ماركيا تعتقدين أنكِ سُلبتي أكثر من أي أم أخرى قد فقدت ابنها، وأنا لا أحاول أن أهدئَكِ ولا أن أضيءَ ظلام حظِّكِ.

٦-٢ وإذا كان يمكن التغلب على القدر بالعويل، فدعونا نستدعيه، ونقضي كل

---

(١٩) يلمح سينيكا إلى المذهب الرواقي في تحمل الألم *propatheiai*، حيث حتى الحكيم يصد من المصيبة المفاجئة، ولكن في مثل حاله سوف يتحكم بلطف، ويمنع انفعالات الخوف والحزن من أن تتنامى. انظر ٧-١.

(٢٠) تبيريوس هو ابن هيلفيا الذي بقي على قيد الحياة، وكان لدى دروسوس ابنان هما جرمانيكوس وكلاوديوس (الذي أصبح إمبراطورا ٤١م -٥٤)، والابنة وليفيا.

يوم في الحزن، ونصرف الليل في صحوة البؤس، ونلطم بأيدينا صدورنا المكدومة، ونصعر وجوهنا للهم، فتُطوِّر السلوى أسبابها، وتُسخِّر كل صنوف القسوة، ولكن إن لم يُعدْ لطمُ الصدرِ الميتَ، وإذا لم يتحول القدر، ويثبت للأبدية، فإن المحنة لا تتحول، ويُبقي الموت على كل ما أخذ، فدعي حدَّ للحزن الذي يهلكنا.

٦-٣ دعونا نسيطر على أنفسنا، ولا نسمح لهذه القوة أن تدفعنا بعيدًا عن المسار، فمن المخجل أن تسيطر الموجة على الربان وتُلقيه فى الثغرة حين يتخلى عن الأشرعة عندما ترفرف على مدى واسع ويترك السفينة لرحمة العاصفة، ولكن حتى في غرق السفينة على الربان أن يتشبث بالدفة.

٧-١ «ولكنَّ الحزن على أحد الأقارب أمر طبيعي»، ومَن الذي يختلف على هذا طالما يجري في إطار معتدل؟ لأننا حين يفارقنا عزيز لا ننسى على الفور، فهناك طعنة للألم لا مفر منها، وانقباض حتى في أعظم العقول قسوة[٢١]، ولكن ما يضفيه الخيال يتجاوز ما تأمر به الطبيعة.

٧-٢ وفي حالة البهائم البكماء، انظر كيف تثير حزنها لفترة قصيرة، فتسمع للبقر خوارًا لمدة يوم أو يومين، وللأفراس شرودًا وحركات غير منتظمة لا تطول، وحين تتبع الحيوانات البرية مسارات أشبالها وتتجول في الغابات، فحين تؤوب تكرارًا إلى عرينها المسلوب، فإنها تطفئ غيظها خلال فترة وجيزة، والطيور الصارخة حول أعشاشها الفارغة بأصوات عالية تصمت في اللحظة وتستأنف طيرانها، وبصرف النظر عن البشر فإن الحيوانات لا تحزن طويلًا على ذريتها، وتقابل حزنها، ولا تعتمد في مدة مصيبتها على ما تشعر به، بل على ما تقرره.

(٢١) رأت الرواقية أن الفجيعة نتاج تناقض طبيعي في العقل أو النفس، وتحمل الألم (انظر ٥-٦).

٧-٣ بمقدوركِ أن تقولي ليس من الطبيعي أن يكسرنى الحزن أولًا: لأن الفاجعة نفسها أنجع أثرًا على النساء من الرجال، وعلى البرابرة أكثر من الأجناس المثقفة، وعلى غير المتعلمين أكثر من المتعلمين، ومن ثم فإن الأشياء التي تستمد قوتها من الطبيعة تحتفظ بالقوة نفسها في كل شاهد، وإن بدا شيء مختلف، فمن البين أنه لا يُبنى على الطبيعة.

٧-٤ سوف تحرق النارُ الناسَ من كل عمر، والمواطنين من كل مدينة، والرجال كالنساء، وسوف يُظهر الحديد قدرته على القطع في الأجسام من كل نوع، لماذا؟ لأنهم أخذوا قوتهم من الطبيعة التي لا تميز بين الأشخاص، والبشر المختلفون لهم ردود فعل مختلفة للفقر والحزن والتوق، تعتمد على العادات التي أصبحت متجذرة فيهم، وقد يصبحون ضعفاء وعاجزين على التحمل باعتقاد مسبق في الأشياء المخيفة التي ينبغي أن يخشوها.

٨-١ ثانيًا: ما هو طبيعي لا ينقص مع الزمن، بل إن مرور الأيام يكد الحزن، وبغض النظر عن المكابرة التي تنشط كل يوم والمجاسرة التي تقاوم أي علاج، إلَّا أن الزمن هو أعظم مُروِّض للانفعالات العنيفة ومسيطر على امتدادها.

٨-٢ يا ماركيا، لا تزالين تعانين حزنًا جمًّا ـ يبدو أنه تطور الآن وصار ندبةً *callus* في جسمكِ، فلم يكن الحزن الشديد في البدء، بل الجموح والتمرد، ولكن مضي الزمن تدريجيًّا يحرر حتى من هذا، وكلما راح انتباهكِ إلى أيٍّ ما، فسيسترخي عقلكِ.

٨-٣ وفى هذه اللحظة وضعتِ نفسكِ تحت المراقبة، ولكن هناك فارق كبير بين أن تسمحي لنفسك بالحزن وأن تطلبيه، وما يناسب شخصك المتميز أن تفرضي حدًّا لحدادكِ أحرى من انتظار نهايته، وأن ترفضي التعلُّق حتى باليوم الذي يعارض أمانيكِ التي سيخفيها والحزن الذي ينبغي أن تزهد فيه نفسكِ!

٩-١ "فما أصل الجموح العظيم الذي نرثي فيه حبيبًا لنا، ولمَ يحدث هذا في أمر الطبيعة؟"؛ لأننا لا نتوقع المعاناة حتى حدوثها، كما لو كنا معفيين منها، وانطلقنا في سفر أكثر سكونًا من الآخرين، إننا نفشل في أن نتعلم من مصائب الآخرين أنها شيوع على الإطلاق.

٩-٢ كثيرٌ من مواكب الجنازات تمر بديارنا ولا نفكر في الموت، ويموت كثير من الناس فجأة ونحن نخطط لأطفالنا للحصول على تاجهم *toga*[(٢٢)] وسلطانهم العسكري، ووراثة ممتلكات آبائهم، ونقابل كثيرًا من الأثرياء الذين فُقروا فجأةً ولم يتغير فينا أن ثروتنا عابرة، وهذا يجعل سقوطنا أعظم، كما لو كنا بعيدًا عن الكآبة. ولكن حين يطول توقع الأشياء، فإن هجوم قوتها يقل.

٩-٣ وأنت[(٢٣)] تدرك أنك تقف عرضةً لكل صنوف اللكمات، وأن الأسلحة التي ضربت الآخرين قد أرقت ماضيكِ، كما لو كنت تتسلق بسلاح الفقر بعض جدران المدينة أو موقعًا عاليًا تحتله سرية كبيرة من العدو، فتوقع أن هناك جرحى وأن جسدك مرمي للصخور والرماح والسهام التي تسقط إلى الأسفل، وتصرخ حين يسقط بجانبك امرؤٌ ما، «إنك لن تخدعني ولن تخدع الحظ، أو تجدني عابثًا أو طائشًا حين تهدمني، وإنني أعلم ما تهدف إليه حيث ضربت شخصًا آخر ولم تقصدني أنا».

٩-٤ وهل مَن يقضي حياته في التقدير، يسير قدمًا نحو الموت؟ فأيٌّ منكم غامر في التفكير في المنفى والفقر والحزن؟ ومَن الذي لم يبصق النصيحة مثل كلمات الفأل العليلة ويدفع اللعنة عن أعدائه أو عن ناصحه غير المرغوب إذا نصحه أن يفكر في المنفى والفقر والحزن؟

---

(٢٢) يرتدي الأولاد الرومانيون توجا المراهقين في سن السادسة عشرة تقريبًا.

(٢٣) الضمير (أنت) في باقي الفصل للمذكر عمومًا، وليس خاصًّا لماركيا.

٩-٥ «لم أكن أفكر أن هذه الأمور سوف تحدث»، فكيف تفكر أنه لن يحدث شيء في حين أنك تعلم أنه يمكن أن يحدث، وأنت ترى أنه يحدث لكثير من الناس، إن بيت الشِّعر الذي يستحق أن يظهر على خشبة المسرح هنا هو «ما يمكن أن يحدث لامرئٍ بعينه يمكن أن يحدث لأي شخص»[٢٤]، فهذا فقد طفله وأنت كذلك يمكن أن تفقد أطفالك، وهذا مُدانٍ وبراءتك أيضًا خلال هذا النطاق، وهذا الوهم يغمرنا ويخدعنا عندما نعاني ممَّا لا نتوقع، ويمكننا أن نعانيه، وأما الذين يتوقعون حدوث المعاناة، فيسلبونها قوتها فور وصولها.

١٠-١ يا ماركيا، كل الأشياء البراقة العارضة التي تُحيط بنا مثل الأطفال والشرف والثروة والبهو الواسع *large atria* والفناء المكتظ بحشود الجمهور الذين قد حصروا في الوعوعة والاسم المشهور والزوجة الجميلة أو النبيلة وكل الأشياء التي تستند على عدم اليقين والفرصة المتقلبة، فهذه أدوات لا تتبعنا، بل هي لنا على سبيل الإعارة، وليس أي منها هبة، وقد يُبنى المنصب بدعائم مستعارة تعود إلى أصحابها، فبعض الأشياء يعود في يوم، والآخر في يوم آخر، وقليل الذي يبقى حقًّا حتى النهاية.

١٠-٢ ولذلك لا ينبغي أن نفخر كما لو كانت الأشياء التي تحيط بنا ملكًا لنا، لقد تلقيناها على سبيل الإعارة، وربما نتمتع باستعمالها، ولكن المعطي هو مَن يدير هديته ويحدد زمنها المحدد[٢٥]، ويجب أن نصون ما منحناه لفترة غير معلومة وميسورة دومًا، وحين يُطلب منا يجب أن نرده دون شكوى؛ فالمدين السيئ هو الذي يبدأ بجلد دائنه.

---

(٢٤) طريقة الكاتب المهرج بوبليليوس سوروس *Publilius Syrus* (المهرج الروماني صورة شائعة للكوميديا، ولا يشبه المهرج الحديث في استخدام الحوار).

(٢٥) يفترض سينيكا أن المذكر هنا يفكر فى الله بأنه المانح، ولكنه في كل مكان آخر فى هذا القسم فإن الحظ مؤنث.

١٠-٣ ولذلك يجب أن نحب كل أقاربنا، سواء الذين يتفقون معنا بمحل الميلاد ونتمنى أن يبقوا أحياء، والذين يختلفون معنا فنصلي لمَن مات لنا سلفًا، ويجب أن نحبهم، علمًا أننا لم نتلقَّ وعدًا بأن حياتهم ستدوم إلى ما لا نهاية، والحقيقة ليس هناك وعد بأنهم سيدومون، إن عقولنا في حاجة إلى أن تُدفع لحب الأشياء على أساس أننا سوف نفقدها، وبالأحرى نحن نفقدها بالفعل، وعليك أن تعامل كل هبات الحظ على أنها أشياء تأتي وليست مضمونة.

١٠-٤ ولذا اغتنم المتع التي يقدمها عيالك[٢٦]، ودع عيالك يتمتعون بدورهم، واقطف من الفرح ما يمكن دون توانٍ، فليس هناك وعد بليلةٍ قادمةٍ وقد منحت مددًا طويلًا من الزمن، وليس هناك وعد بساعة آتية كنت تقضيها برعونة، فعليك أن تُعجل، وقريبًا تتناثر وحدتك، وقريبًا يتصاعد صراخ الوغى وسوف تدمر كل الصداقات الحميمة، ولن يهرب شيءٌ من النهب، ولا يعرف البائسون كيف يحيون على المسار!

١٠-٥ إن كنتِ تحزنين لموت ابنكِ[٢٧] وهو منذ لحظة ميلاده في المرفأ ينتبه لموت قد يسعفه كما أوجد ميلاده، فإنه أتى للوجود بموجب هذا النظام، وبدأ هذا القدر يرافقه حالما فارق الرحم.

١٠-٦ لقد وصلنا إلى مملكة الحظ، وهي مكان مكين وقاس، وسنعاني بجدارة وغير جدارة في إرادته، وسوف تخضع أجسادنا لسوء التصرف القاسي والهوان والمخاطرة، وسوف تحرق البعض نار تنتشر إما عقوبةً أو مداواةً، وسوف تقيد البعض بقيود، وهي تسمح للأعداء أن يصنعوا هذا أحيانًا ورفقاء الوطن أحيانًا أخرى، وسوف تقرع آخرين إقبالًا وإدبارًا، وهي تُعريهم على البحار الغادرة حيث لن تلقيهم على الرمل أو الشاطئ بعد أن تصرعهم بالأمواج، بل

(٢٦) يتحول سينيكا هنا إلى شخص آخر جمعي.

(٢٧) سينيكا يعود للشخص المفرد.

ستدفنهم في أمعاء بعض مخلوقات البحر الضخمة، والبعض بعد أن توهنهم كليًّا أنواع المرض المختلفة تبقيهم بين الحياة والموت مثل المزاجية المتقلبة التي تهمل عبيدها تنحرف بين العقاب والثواب.

١١-١ وما الحاجة إلى أن تذرف الدموع على مراحل الحياة؟ فالحياة برمتها تتطلب الدموع، وسوف تهاجمك المصائب الجديدة قبل أن تعالج القديمة، ولذا فأنتِ امرأةٌ لا تُظهرين كبحًا في المعاناة التي يقيدك على نحو خاص، وعليكِ أن تتشاطري مصادر الروح الإنسانى بين أحزانكِ العدة، ولماذا هذا التناسي لحالكِ وحال الإنسان الكلي؟ لقد وُلدتِ بشرًا وأنجبتِ للبشر(٢٨) رغم أن جسدكِ ضعيف وهزيل وداهمته الأمراض مرارًا، فهل أملتِ أن تكون هذه المادة الضعيفة التي حملتيها في رحمكِ شيئًا قويًّا وأبديًّا؟

١١-٢ قد مات ولدكِ، وها هو قد أكمل المسار، ووصل إلى نهاية الطريق الذي تعتقدين أنه أكثر حظًّا من نسلكِ المقدم على عجلٍ، فكل الماضين نحو القانون في المحكمة والتصفيق في المسرح والصلاة في المعابد مدفعون بسرعاتٍ متباينةٍ نحو هذه النقطة، فمن تُحبين وتقدرين وتحتقرين سوف يُوارى تحت نفس التراب.

١١-٣ وبين أن هذا القول منسوب إلى خطاب بيثيان *Pythian oracle* "اعرف نفسك"(٢٩) وهو وثيق الصلة هنا، بما الإنسان؟ فالجرة قد تُكسر بطَرْقٍ خفيفٍ وهزةٍ هينةٍ، وما من حاجةٍ إلى عاصفةٍ شديدةٍ لحدوث دمار، والمرء يُكسر إلى أجزاء في أي تصادم، فما الإنسان؟ إنه هيئة هشة واهنة وعارية، وغير محمي، في حالته الطبيعية يطلب عونًا خارجيًّا، ومتعرض لكل إذلالات الحظ، وحتى حين بنيت عضلاته فهو وجبة لأي وحش بري وضحية ذبيحة لأيٍّ كان، شُكِّل

(٢٨) يعالج سينيكا مرة أخرى موضوع ماركيا بشكل فردي.

(29) Reading uidelicet <pertinet>..

من ضعفٍ ومُكوّن فانٍ، وسيم في مظهره فحسب، وعاجز عن تحمل البرودة والحرارة أو العمل الشاق، ومن ثم هو عرضة للانحلال بالخمول وعدم النشاط، وهو يخشى الأشياء التي تأكل لحظة جوعها، فتدمر من تحميهم، وهو بنَفْس سريع الزوال وغير آمن يهرع بخوف مفاجئ أو بصوت ضجيج غير متوقع يقرع آذانهم، فيغذيهم بالقلق والمرض وعدم النفع.

١١–٤ وفي مثل هذا الجسد، هل نندهش أن نجد الموت الذي يُمكن أن ينجم عن سبب فوقي واحد؟ وهل يحتاج الجسم إلى جهد جهيد ليسقط في الموت؟ فالرائحة والنكهة والضجر والنصب والشراب والطعام وكل أساسيات الحياة يمكن أن تكون قاتلةً، ومهما طاف الجسد، فإنه يعي ضعفه حال عدم قدرته على تحمل بعض المناخات، وأنواع غير مألوفة من الماء، ونفخة نسيم غير معتادة، وأهون الأسباب والاضطرابات تمرض وتعل وتفسد وتغمر حياته بالدموع، ومن ثم ما يخلق الهياج على الدوام هذا المخلوق المهين، وما الذي يمنح الأفكار ملاذها حين تنسى حالها الذي يخصها؟!

١١–٥ يستمتع الناس بأفكار الخلود والأبدية، ويكتنزون للأحفاد وأبناء الأحفاد، وبينما يخططون على المدى البعيد يُرديهم الموت، وما يطلقون عليه شيخوخة ما هي إلا سنوات قليلة وتأتي.

١٢–١ وهل لحزنك أساس منطقي على الإطلاق تتمركز فيه معاناتكِ أو على الميتين؟ هل ساقكِ فقْد ابنكِ إلى أن تفكري أنكِ لم تستمدي أي لذة منه، أو أنكِ كنتِ ستتمتعين بأعظم قدر من اللذة إن طال عمره؟

١٢–٢ لو قلتِ إنكِ لم تتمتعي بلذة، فستجعلين فقدانكِ أكثر قبولًا للتحمل؛ لأن البشر لا يخطئون الأشياء التي لا يستمدون منها الفرحة أو السعادة. وإن اعترفتِ أنكِ لم تستمدي منه أيَّ متعةٍ، فعليكِ ألَّا تشتكي مما حجبتيه، بل عليكِ أن تشكري ما مُنحتي؛ لأنكِ حصلتِ على مكافأةٍ كافيةٍ لجهدك عن

مشاركة تنشئته، وإذا كان مَن يغذون بإخلاص الجراء والطيور وكل الأنواع الداجنة يحصلون على لذةٍ من النظر أو اللمس أو الولع بحب الحيوانات البكماء، إلَّا أن مَن يغذون الأطفال لا يجدون طريقة للمكافأة في ذاتها، حتى لو لم تستمدي أي إحسان من عمله الشاق، فلا رعاية من يقظته ولا هداية لحكمته، والحقيقة الفعلية أن امتلاككِ وحبكِ له مكافأة كافية.

١٢-٣ «ولكن ستكون المكافأة أكبر وأطول دوامًا». وهل تكونين أفضل حالًا إن لم يكن لديك ولد، وإن واجهتي خيارًا بين أن تكوني سعيدةً لزمن محدد أو ألَّا تكوني سعيدةً على الإطلاق. ومن الأفضل لنا أن نتلقى النعم التي سوف تتبخر بدلًا من ألَّا نتلقى شيئًا على الإطلاق، فهل تفضلين أن يكون لكِ ولد بلا قيمة ويعتبر ابنًا بالاسم فقط، أو ولد بمواهب عظيمة حصل على الحكمة في وقت وجيز وصار محبوبًا وأصبح زوجًا ثم أبًا، ثم تحمل واجباته على محمل الجد، فأصبح كاهنًا- أي يُعطي انطباعًا على الجدية؟ والحقيقة أن لا أحد يجمع بين تلقي النعم الكبيرة والدائمة، بل يحصل على سعادة تنمو بطيئًا ويصل بها إلى نهاية المطاف، ولا تعطيك الآلهة الخالدة ابنًا على الدوام، ولذا هي تمنحكِ واحدًا تظهر صفاته لأناس يتطورون حتى على مدى طويل من الزمن.

١٢-٤ ولا يمكن أن تقولي إن الآلهة قد اختارتكِ لتضيِّع عليكِ فرصة التمتع بابنكِ، فمدِّي بصركِ على أناس كثر ممن تعرفين ولا تعرفين، وعلى كل أين ستجدين أنهم في معاناة أكبر، وقد شهدت حتى في الأساطير القادة العظام وكذلك الأباطرة حتى الآلهة لم تُترك بلا معاناة، إلا أننا ينبغي أن نخفف من أدراكنا بأن الآلهة قد تعاني من الفساد[٣٠]، وأقول لكِ: انظري في كل امرئ، فلن تقدري أن تُسمي عائلةً بعينها «بائسة»، ولن تستنتجي راحة من أعظمها بؤسًا.

(٣٠) هيرقل وأخيليوس نموذجان مشهوران لذرية الآلهة الذين كانوا بشرًا.

١٢-٥ ولكن من قبل هيروكليس *Hercules* لن آخذ بوجهة نظركِ البائسة للغاية في أن تعتقدي أن بمقدورك أن تتحملي بيسرٍ سوء حظك، وكنت ضمن الأعداد الغفيرة المتشيعين لكِ من قبل، وجموع الناس البائسة شكل قاسٍ من العزاء، وسأتلو عليكِ بعض الأمثلة لا لتوضيح أن الإنسان في حالة فقْد غالبًا- وليس من التفاهة أن تتراكم الأمثلة عن فنائنا؛ ولكن حتى أوضح أن كثيرًا من الناس خففوا من قسوة المصيبة بتحملها باتزان عقلي.

١٢-٦ وسوف أبدأ بأوفر الرجال حظًّا[٣١] وهو لوكيوس سوللا *Lucius Sulla* الذي فقدَ ابنه، ولكن هذا لم يخفف حدة الضغينة والشجاعة المفرطة التي أظهرها للجماهير والمواطنين، ولم يجعله موته ينظر كما لو كان أخطأ أن يفترض كنيته، وتبناها بعد فقدانه، وليس خوفًا من كره البشر الذين يعني حظهم الحسن المفرط المعاناة، وليس الإرادة العليلة للأرباب الذين اتُّهموا بأنهم مسؤولون عن حظ سوللا الحسن، ولكن دعونا نتعامل مع شخصية سوللا وكأن لم يصدر تجاهها تقييمٌ نهائيٌّ- حتى أعداؤه سوف يعترفون بأنه كان محقًّا في حمل السلاح وفي خفضه مرة أخرى[٣٢]، وهناك اتفاق على هذه النقطة هنا وهي أن المعاناة تؤثر حتى أن الأكثر حظًّا ليس ضربًا مبالغًا فيه.

١٣-١ وأيقن بولفيلوس *Pulvillus* الكاهن أنه لا ينبغي لليونانيين أن يتغطرسوا تجاه الأب الذي سمع خبر موت ابنه وهو وسط القربان، فقال بلين للعازف أن يتوقف، وخلع الإكليل الذي على رأسه، ثم أكمل بقية الطقس[٣٣]؛ لأن بولفيلوس حين تلقى نبأ موت ابنه كان يقبض على عضادة الباب أثناء تقديس

(٣١) كورنيليوس سوللا فيليكس (*ca. 138–78 bce*): من أبرز الشخصيات العسكرية والسياسية في القرن الأول قبل الميلاد، ويذكر بقساوته وضراوته في الحروب الأهلية في الثمانينيات

(٣٢) عُين سوللا عام ٨٨ قائدًا في الحرب ضد ميثراداتس *Mithradates* ، ثم فُصل من القيادة عندما سار إلى روما بجيشه لاستعادتها، وفي عام ٧٩ نُقل سلطته طواعية وعادة للحياة الخاصة.

(٣٣) يشير إلى سلوك أكزينفون الجندي والكاتب اليوناني (*ca. 430–354 bce*) عقب سماعه لوفاة ابنه جريلوس في. *362*

الكابتول، وتظاهر بأنه لم يسمع، وبمجرد أن سمع اسم ولده طلب نعمة جوبتر.

١٣-٢ هل تعتقدين أنَّ مثل هذا الحزن يجب أن يكون له نهاية؛ لأنَّ الأب لم يدمع منذ الصدمة الأولى في اليوم الأول خلال المذبح العام والأداء السليم للحفل؟ فبطريقة هيروكليس يستحق أن يقوم إخلاصًا قل عمله في التاريخ، إنه يستحق أعظم مجد للكهنوت؛ لأنه لم يتوقف عن عبادة الأرباب حتى حين أغضبوه، ولكن حين ذهب للمنزل غرغرت عيناه بالدموع، وناح ببعض كلمات الحزن، وحين أدى ما يتطلبه العرف تجاه الموتى استأنف التلاوة التي تُذكر في الكابتول(٣٤).

١٣-٣ ومن وقت قريب كان باولوس يحتفل بالنصر، وجعل التيتان يمشون أمام عربته في سلسلة، وكان معه ولدان على العربة، ودفن ولديه اللذين فقدهما في معركة مع سكيبيو *Scipio* (٣٥)، وفاضت مشاعر الرومان بالبؤس حينما شاهدوا عربة باولوس فارغة(٣٦)، وهو لا يزال يلقي خطابًا يمنح فيه صلاته للأرباب، وقد طلب إذا كان انتصاره العظيم يثير الحسد، فإنه مستعد لدفع أي ثمن وتسديد الدين على نفقته، وليس على نفقة الدولة.

١٣-٤ فهل شاهدتِ الشجاعة التي أظهرها؟ إنه اعتبر فاجعته نعمةً، وهل كان يمكن أن يتأثر بعمقٍ بانعكاس الحظ؟ إنه فقد بضربةٍ واحدةٍ مصدر راحته ودعمه، ومن ثم لم يسمح للتيتان بأن يروا الحزن.

---

(٣٤) قد كرس معبد جوبتر على الكابتول في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وتقول مصادر أخرى إن بولفيليوس *Pulvillus* كان هو القنصل في هذه الفترة، ولم يقم بونتيفكس بعقد الباب وهو الجزء الأساسي من طقوس التكريس.

(٣٥) هزم إيميليوس بولوس *L. Aemilius Paulus* ملك مقدونيا بيرسيس *Perses* في معركة بيدنا *Pydna* عام ١٦٨، واحتفل بالنصر في العام التالي، والأبناء الذين تم تبنيهم كانوا من زواج سابق، وربما حدث موضوع التبني قبل ذلك بسنوات، وسينيكا يشير إلى الشخص الذي أصبح كورنيليوس سكيبيو أيميلينوس الإفريقي *P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus* الفاتح لمدينة قرطاجة.

(٣٦) إن أبناء القائد المنتصر عادة ما يركبون معه عربته.

١٤-١ لماذا أطرح عليكِ أمثلةً لا تُحصى للرجال العظام وأبحث عن رجل بائس، كما لو كان من الصعوبة أن أجد رجلًا محظوظًا؟! فكيف لعائلات قليلة قد بقيت بلا أذى إلى النهاية دون أن تلم بهم لامَّةٌ! واختاري ما شئتِ من السنين واستدعي أسياد هذه العائلات، وإن أحببتِ فاستدعي لوكيوس بيبولوس *Lucius Bibulus* وجايوس قيصر، وسترين هؤلاء الرفقاء رغم عدائهم المتبادل، قد كانوا سواء في مصائبهم(٣٧).

١٤-٢ لوكيوس بيبولوس رجل طيب، ولكنه ليس شجاعًا، وكان له ولدان قُتلا في نفس الوقت، بعد تعرضهما لمعاملة مذلةٍ من الجنود المصريين، ولذا استدعت ظروف الفقد الدموع بمدرج الفقد ذاته، وقد احتقر بيبولوس رفيقه طوال عام منصبه بمكوثه في البيت، وبعد يوم من تلقيه خبر وفاة ولدَيهِ استأنف واجباته العادية كحاكم(٣٨)، فمَن الذي فقد في ما يقل عن يوم واحد ولدَيه؟ وكم كان سريعًا توقفه عن حداد أبنائه، رغم أنه حزن على منصب القنصل لعام.

١٤-٣ وعندما كان جايوس قيصر الذي عجزت المحيطات في الحد من حسن حظه(٣٩)، في حملة عبر بريطانيا، ، سمع نبأ وفاة ابنته(٤٠) آخذة قدر الأمة معها، وهو يرى أن جنايوس بومبيوس لم ينل تكريمًا من أي شخص آخر في دولة جعلته عظيمًا(٤١)، وأرادوا أن يحدوا من تقدمه الذي شعر أنه مهدد رغم

---

(٣٧) أخطأ سينيكا؛ فكالبيرنيوس بابلوس وجايوس قيصر كان هما القناصل عام ٥٩م، وفي محاولة لعرقلة تشريع قيصر رفض بابلوس أن يغادر بيته معلنًا أنه كان يراقب النذير.

(٣٨) قُتل الأبناء عام ٥٠ عندما كان بابلوس حاكمًا *proconsul* لسوريا، وتقول مصادر أخرى إنهم قتلوا على يد جنود رومانيين مقيمين في مصر.

(٣٩) اعتُبرت بريطانيا كائنة عبر المحيط، وكانت أي محاولة لعبور المحيط دلالة على المجازفة المتهورة (واعتقد الرومان واليونانيون أن محيط أوربا وآسيا وإفريقيا يطوقه المحيط).

(٤٠) توفت جوليا ابنة قيصر عام ٥٤ ق.م، وعزز زواجها من بومبي عام ٥٩ التحالف بين قيصر وبومبي، ويُعتقد أنه ضعف بموتها.

(٤١) كانت كنية بومبي "ماجنوس *Magnus*" أي العظيم.

أنه كان للنفع العام، واستأنف جايوس خلال ثلاثة أيام واجباته كحاكم، وغزا حزنه بأسرع مما يغزو أي شيء آخر.

١٥-١ هل أحتاج إلى تذكيركِ بفواجع أخرى ألمَّت بقيصر؟ وأعتقد أن الحظ يهاجمهم أحيانًا حتى يتمكنوا من منح جنس البشر إحسانًا آخر لتوكيد أن مَن ولدتهم الأرباب بسمعة طيبة وصاروا إلى أب الأرباب[٤٢] لا يملكون سلطة على حظهم، كالتي حازها الآخرون.

١٥-٢ وبعد أن فقد أوغسطس المقدس أبناءه وأحفاده ونفد مدده، اتجه للتبني ليملأ بيته الخالي[٤٣]، لقد تحمل كل هذا بشجاعة رجل مهموم حقًّا، ومراهنًا على ألَّا يشكو أحدًا من الأرباب[٤٤].

١٥-٣ لقد فقد تيبريوس قيصر كلًّا من ابنه من صلبه وابنه بالتبني[٤٥]، ومن ثم مدح ابنه أمام المنصة *Rostra*، ووقف بجوار الجثة يُملِّي نظره ويمسك الحجاب ليحجب أعين بونتيفكس *pontifex* عن الجسد الميت[٤٦]، وكان الشعب الروماني يبكي ولا يُظهر وجهه أي شعور، لقد أثبت لسيجانوس أنه يقف بجواره، فكيف تحمل بجلد فقْد[٤٧] أقرب الناس إليه.

١٥-٤ هل رأيتِ كمَّ الرجال العظماء الذين لم يُعفهم سوء الحظ الذي يضرب بكل

---

(٤٢) اتبعت جوليا *Julii* سلفها فينوس، وقد تأله يوليوس قيصر وأوغسطس بعد الموت، ويضم سينيكا أعضاء لاحقين قد يُألهون في المستقبل.

(٤٣) جمل سينيكا المقتضبة تتعالى على التفاصيل، فقد كان لأوغسطس طفل واحد وهو ابنته جوليا والتي نفيت وأُبعدت عنه، ومع ذلك قد يشمل صهره مارسيلوس (انظر ٢ , ٣) وحفيدين هما جايوس ولوكيوس وكلاهما مات قبله، ولكنَّ الأحفاد الآخرين بقوا على قيد الحياة (رغم أن أوغسطوس لم يفكر أنهم يستحقون خلافته)، والتبني المشار إليه تيبريوس (رغم أن أوغسطس تبنى جايوس ولوكيوس كأبناء).

(٤٤) إله أوغسطس بعد موته، وكان يُسمى في حياته ربًّا من قبل الشعراء.

(٤٥) توفي دروسوس ابن تيبريوس عام ٢٣ م، وابنه بالتبني جيرمانيكوس عام ١٩.

(٤٦) كان تيبريوس هو بونتييكس مكسيموس، ولذلك تجنب أن يرى تدنيس الجثة.

(٤٧) قد يعني فعل *perdere* تدمير، وكذلك خسارة، على سيجانوس (انظر ١ , ٢).

شيء إلى الأدنى، هؤلاء الرجال الذين حفلوا بصفات عقل جمة وباحترام العامة والخاصة؟ ولكن دوائر هذه العاصفة تدور وتدور، وتدمر كل شيء بعشوائية أو تحمله كما لو تتملكه، تمضي نحو كل امرئ تتفحص أموره، ولا ينجو أحد من أن يُولد دون تكبد تكلفة.

١٦-١ أعرف ما تقولينه: «أنك نسيت أنك تمنح السكينة للمرأة وتعطي أمثلة للرجال»، فمَن الذى يقول إن الطبيعة شحيحة في تعاملها مع صفات المرأة، وتفرض قيودًا ضيقة على فضائلها؟ صدقيني إنهن لديهن نفس القدر من القوة ونفس القدر من الإمكانية للخير الأخلاقي طالما نوين فيه، إنهن سيتحملن الحزن والشقاء بنفس الفاعلية إذا طورن هذه الطباع.

١٦-٢ في أي مدينة نتحدث عن مثل هذه الأرباب الخيرة؟ في المدينة التي أطاح فيها لوكريتيا وبروتوس بالملك الذي كان يقهر مواطني روما، فنحن مدينون إلى بروتوس بالحرية وإلى لوكريتيا ببروتوس[٤٨]، وفي المدينة التي تجاهلت كويليا *Cloelia* فيها العدو والنهر، وإننا نتعامل معها مثل رجل لشجاعتها المفرطة، حيث جلست في تمثالها على ظهر الحصان في موضع مكتظٍّ على الطريق المقدس، والشباب يتدافعون نحو الجسر، وكلويليا توبخهم لرحيلهم بهذه الطريقة عن المدينة التي مُنحت الخيول حتى للنساء[٤٩].

١٦-٣ وإن أردتِ أمثلةً على النساء اللواتي تحلين بالشجاعة حينما فقدوا أقاربهم، لن أمضي من باب إلى باب لأبحث عنهم، بل سوف أقدم لك اثنتين من كورنيلياس *Cornelias* من أسرة واحدة، الأولى هي ابنة سكيبيو *Scipio* وأم جراشي

---

(٤٨) الأسطورة تقول إن لوكريتا *Lucretia* أُجبرت على أقتراف الزنا مع ابن تاركوين *Tarquin* آخر ملوك روما، وبعد أن كشف زوجها وأبوها ما فعلته قتلت نفسها، وحث موتها بروتوس لقيادة الثورة التي طردت الملك، وأسست الجمهورية عام ٥٠٩ ق.م.

(٤٩) وكانت الأسطورة في السنوات الأولى للجمهورية أن سلوليا *Cloelia* أعطت ملك كليسيوم *Clusium* كرهينة للارس بورسيننا *Lars Porsenna*، ولكنها دبرت لتعبر نهر التيبر.

Gracchi [٥٠]، وهي التي أنجبت اثنتي عشرة مرة وتعددت جنائزها، ومن أبنائها مَن لم يكن له أي تأثير في المدينة سواء في ولادته أو في زواله، أي لم يكن له ثقل، ولكن يعترف الجميع بأن تيبيريوس وجايوس كانا عظيمين، حتى مَن ينكرون أنهما كانا أشرارًا، لقد رأتهم يُقتلون ولم يدفنوا، وأما الذين جلبوا لها العار والبؤس قالت فيهم: «لن أتوقف عن قول إنني محظوظة وإنني أنجبت جراشي»[٥١].

١٦-٤ وكورنيليا *Cornelia* زوجة ليفيوس دروسوس *Livius Drusus*؛ قد فقدت شابًّا ذا قدرة استثنائية، كان يسير على خطى جراشي، وحين قُتل في بيته ترك مشاريع قوانين لا تزال حيز التحقيق، ولم يُعرف مَن كان المسؤول عن قتله[٥٢]، وتحملت موت ابنها الذي لم يُتَّهم فيه أحد، وكان قبل أوانه بنفس الشجاعة التي ذكرها هو في تشريعاته.

١٦-٥ والآن هل تتصافين مع الحظ يا ماركيا إذ بعد أن رشقوا أسلحتهم والأمهات والبنات في سكيبيوس *Scipios* وبعد أن صوبوها نحو القيصر، فإنها لم تصرف بعيدًا عنكِ أيضًا؟ إن الحياة حُبلى بمصائب عدة، لا تمنح أحدًا سلامًا دائمًا بل بالكاد هدنة، يا ماركيا أنجبتِ أربعة أطفال للعالم، ويقولون إن القذيفة التي تُلقى على صفوف جيش مكتظ لا تسقط دون أثر، فهل تُفاجئ مثل هذه الفئة العريضة ألَّا تمر على دربها الآمن بالنكاية والضرر؟

١٦-٦ "ولكن الحظ كان أشد ظلمًا؛ لأنه لم يأخذ أبنائي فحسب، بل تخطفهم"، ولكن لا تتحدثي عن الظلم حين تحصلي على النصيب ذاته كشخص أشد بأسًا، حيث ترك لك الحظ ابنتين وحفيدين منهما، وإنه لن يزيل كل مكرمة

(٥٠) كانت كورنيليا *Cornelia* هذه ابنة سكيبيو الإفريقي (انظر ١٣، ٣).

(٥١) تيبريوس وجايوس جراكوس، اللذان كانا برنامجهما الإصلاحي متقاربا في حياتهما ماتا بقتلة شنيعة، حيث رميت أجسادهم في نهر التيبر عام ١٣٣ و١٢١ على التوالي.

(٥٢) كان زوج كورنيليا هو م. ليفيوس دروسوس *M. Livius Drusus* والمحامي عام ١٢٢ق.م، وكان لابنها الاسم نفسه والذي قُتل عام ٩١ (أو حسب رواية أخرى أقل موثوقية انتحر).

للابن الذي تحزنين عليه، فانسي ما فقدتيه، فلديكِ ابنتان له، فالحمل عظيم إن أخطاتِ، وهينٌ إن نحيتِ صوابًا، واجعلي هذا غايتك، وحين ترينهم تذكري ابنكِ ولا تحزني.

١٦-٧ وحين تسقط الأشجار بسبب تمزيق الريح لجذورها أو بسبب اندلاع مفاجئ لإعصار يلوي جذوعها، فإن الفلاح يرعى براعم أوراقها، ويزرع ويقلع في المكان نفسه الذي انمحت فيه، ويمضي الزمن عاجلًا سريعًا في اللحظة التي يكون فيها الفقد والنمو، فالنمو الجديد أكثر وفرةً مما فُقد.

١٦-٨ ودعي بنات ميتيليوس يعوضونه، ويملأن فراغه، وخففي حزنكِ عليه بالانفراج الذي حصلتي عليه من البنتين، وهذه هي طبيعة البشر؛ لا شيء أعز علينا مما فقدناه، ولسنا منصفين لما تبقى من خثارهم؛ لأن توقنا دومًا لما أُخذ منا، ولكن لو قيَّمتِ كم كان الحظ متساهلًا معكِ حتى في حالة الغضب، ستدركين أنَّ لديك شيئًا أكبر من العزاء، انظري إلى أحفادكِ الكثر ومنهم البنتان، وعليكِ أن تقولي لنفسكِ هذا يا ماركيا: "سأكون مستاءةً إذا قُدر حظ كل امرئٍ بسجيته، وإن الأمور السيئة لا تحدث للطيبين، كما أني أرى الطيبين والأشرار يصابون بنفس الطريقة دون تمييز".

١٧-١ من الصعوبة أن تفقد شابًّا في مقتبل عمره شرع في تقديم العون والمشورة لأمه وأبيه، فمَن الذي ينكر أن هذا صعب؟ ولكن هذا هو الإنسان، أنت وُلدت لأجل هذا[٥٣] للمعاناة والفناء والأمل والخوف، وتنزعج بالآخرين وبنفسك، ولتخاف الموت وترغبه أيضًا، والأسوأ من هذا كله ألَّا تفهم حالتك الحقة.

١٧-٢ إذا قال امرؤ ما لرجل كان متوجهًا إلى سيراقسة: «اعرفْ مسبقًا كل المحاسن والعيوب من رحلتك التي تقصدها، وبعد ذلك أبحرْ، وهذه هي الأشياء التي

(٥٣) يعود سينيكا مرة أخرى إلى تعميم الذكورية (أنت).

ربما تتعجب منها؛ لأنك أولًا سوف ترى الجزيرة ذاتها منفصلة عن إيطاليا بقناةٍ ضيقةٍ، ولكن حالما تعتقد أنها مرتبطة باليابسة، وفجأةً ينفلق البحر ويتصدع جانب هيسبيريا[٥٤] من صقلية، وسوف ترى أسطورة شاريبديس (لأنه بمقدورك أن ترى حافة الدوامة العاتية)، وتبقى هادئا لا تتأثر بالرياح الجنوبية، ولكن إذا كانت ضربات العاصفة قوية من هذا الاتجاه، فإنه يبتلع السفن بفمه العميق الواسع[٥٥].

١٧-٣ سوف ترى ربيع أريثوزا المشهور في الشِّعر بأناقته الجميلة ينتقل صوب الأسفل وهو يدفق المياه الثلجية الباردة، سواء أكانت وُجدت فيها لأول مرة، أو تستعيد النهر الذي قد تدفق بلا نقصان تحت الأرض وتحت كل هذه البحار ويحفظها من الاختلاط بالمياه الملوثة[٥٦].

١٧-٤ وسوف ترى ملاذًا أهدأ مما شكلته الطبيعة أو حسَّنته يد البشر لأجل حماية الأساطيل، وكذلك تأمن بألَّا يحدث تجاوز حتى في ثوران العواصف الهائلة، وسوف ترى حيثما حُطمت سلطة أثينا وحيثما الأسر الطبيعي الذي نحتت فيه الصخور لعمقٍ لا يُقاس، وأسر كل هذه الآلاف من الأسرى[٥٧]، وسترى المدينة الهائلة ذاتها، التي يُغطي تصميمها المساحة الأكبر من الأرض كلها التي تُسيطر عليه المدن الأخرى العديدة، وسوف ترى شتاء معتدلًا، ونهارًا به بصيص من شمس.

١٧-٥ ولكن عندما تمر بهذه الاكتشافات، فقد يفسد الصيف الجائر والمعتل منافع مناخ الشتاء، وسوف ترى هناك ديونيسيوس الطاغية *tyrant Dionysius* مدمر

(٥٤) وفقا *Virgil Aeneid* ٣, ٤١٨ فإن هيسبيريا *Hesperia* اسم لشاعر إيطالي.

(٥٥) البحر الهوميري الموحش كاريبدس *Charybdis*، قد حُدد بالدوامة بين إيطاليا وصقلية.

(٥٦) قيل إن نهر ألفيوس *Alpheus* يختفي تحت الأرض في بر اليونان، ويتدفق تحت البحر، ويظهر مرة أخرى نبعًا لماء أرذوسا *Arethusa* العذب في سيراقوسة *Syracuse*، والمياه الملوثة هنا المياه المالحة.

(٥٧) انتهت الحملة الأثينية ضد صقلية عام ٤١٥-٤١٣ ق.م بكارثة، حيث أصبح العديد من الأثينيين سجناء.

الحرية والعدالة والقانون، الرجل الجشع للسلطة المطلقة حتى بعد أفلاطون، ولأجل الحياة حتى بعد المنفى[٥٨] سوف يحرق بعض الناس ويقهر الآخرين ويأمر بقطع رؤوس الآخرين بسبب إساءة تافهة، وينزل الذكور والإناث لخدمة شهوته، ولأجل الداعي الشائن لسلطة القصر لا يكفيه أن يزاوج بين اثنين في نفس الوقت، لقد سمعت ما يمكن أن يجذبك، وما يمكن أن يعيقك، فإما الإبحار، أو التوقف هنا».

١٧-٦ وبعد هذه النصيحة إذا كان هناك امرؤٌ يود أن يدخل سيراكوز، فإنه هو الوحيد مَن يشكو ما سيكون لنفسه، نظرًا لأنه لم يعثر على الموقف فحسب، بل وصل بأعين مفتوحة وعلم تام. إن الطبيعة تقول لنا جميعا[٥٩]: «أنا لا أخدع أحدًا، فلو أنك تربي أطفالًا، فربما تنجذب لأحدهما وتستقبح الآخر، والكثرة تولد لكِ، فأحدهما يمكن أن يكون منقذًا لوطنه أو خائنًا على قدم المساواة.

١٧-٧ لا تتخلَّ عن الأمل الذي سوف يُكسبهم السمعة الطيبة التي لا يجرؤ أحد أن يلومك عليه، وتخيل تكبدهم الخزي فيصبحون أمثلة للشر، ولا يمنعهم شيء بأن يؤدوا طقوس جنائزكم، ويتولى أبناؤكم تأبينكم، وأعد لإمكانية وضع الولد أو الشاب أو الشيخ على المحرقة، فالعمر لا علاقة له بالموت، فأي موكب للجنازة قد يكون لموت مبكر لوالد». وبعد هذه الحدود التي وُضعت إن كنت تُربي طفلًا، حرِّر الأرباب من كل عيب لأنهم لم يمنحونك كفالة.

١٨-١ وأقبلِ الآن وتخيل دخولك إلى حياتك بالحدود ذاتها، وقد أفسر لك ما يغريك، وما يقف أمامك إن تعجبت من زيارة سيراقسة، فتخيلني قادمًا لأعطيك نصيحة كما لو كنت مولودًا حديثا.

---

(٥٨) ديونيسيوس الثاني طاغية سيراقوسة عام٣٦٧-٣٥٧ ق.م، ثم أطيح به، وكان هناك محاولة فاشلة لعودته ٣٤٦-٣٤٤ ق.م، تقاعد في كورنثة، وزار أفلاطون محكمته مرتين.

(٥٩) هذا الكلام وكلام سينيكا في الفصل ١٨ موجه عمومًا لجمهور الرجال.

١٨-٢ أنت على وشك أن تدخل مدينة يتقاسمها الأرباب والبشر(٦٠)، وهي تشتمل على كل شيء مرتبط بالثبات والقوانين الأبدية، وتحوي كل الأجرام السماوية الدوارة التي تؤدي واجباتها بلا كلل، سوف ترى هناك وميض نجوم لا حصر لها، وسوف ترى العالم يضيئه نجم واحد، وترسم الشمس بمسارها اليومي فترات الليل والنهار، وتفصل بمسارها السنوي الصيف والشتاء بالتساوي(٦١)، وسترى القمر يُنتزع في الليل ويقتبس اللطف، وتعكس النور من ملاقاتها قريناتها، فأحيانًا تخبو وأحيانًا أخرى ترتسم فوق الأرض بوجهها الكامل(٦٢)، تتحول مثل الشمع وتنمحي، وهي تختلف عن ليلتها المنصرمة دومًا.

١٨-٣ وسوف ترى الأجرام الخمسة تتبع مسارات متباينة، وتندفع نحو حركة العالم السريعة(٦٣)، فقد تعتمد ثروات الأمم على غيض حركاتها، وتتشكل أصغر الأشياء وأكبرها بنجم مواكب وغير مواكب، وسوف يخلبك تجمع السحب وهطول المطر والبرق المنعرج والسماء المتخمة بالرعد.

١٨-٤ وحين تُملِّي عينيك بمشهد العالم العلوي، وتحوِّل نظرك للأسفل نحو الأرض، سوف ترحب بأنماط متفاوتة للعالم بأعاجيب متنوعة، حيث هنا تمدد السهول المترامية التي تمتد بلا نهاية، وهنا تحلق قمم الجبال التي ترتفع بشموخ بنتوءاتها الثلجية التي تخر مجاريها للأسفل، وتتدفق أنهار الشرق والغرب الفسيحة من نبع واحد، وتتمايل الغابات بأشجارها والأحراش

---

(٦٠) اعتبرت الرواقية أن العالم كله دولة مدنية فيها كل البشر مواطنون.

(٦١) يشير سينيكا إلى أن طول اليوم يتفاوت دومًا حسب فصول السنة، فأحيانًا يطول النهار على الليل، وأحيانًا العكس، ولكن طول الصيف يساوي طول الشتاء.

(٦٢) "يلوح فى الأفق *looming*" ظلال قمر أوديسا هوراس *Horace Odes 1.4.5*.

(٦٣) الكواكب الخمسة المعروفة آنذاك "ميركوري= عطارد"، و«وفينوس= الزهرة»، و«ومارس= المريخ»، و«وجوبتر= المشترى»، و«ساتورن= زحل»، وجملة "يندفع نحو حركة العالم السريعة" تشير إلى حركتهم التدريجية الظاهرة تجاه الشرق من خلال دائرة البروج كما هي، وتتحرك النجوم الثابتة الأخرى تجاه الغرب.

المتسعة بحياتها البرية، وتراتيل الطيور في اختلاف تنافرها.

١٨-٥ ومدن في مواقع متنوعة، وأمم تقطعها تضاريس وعرة بعضها تمتطي الجبال وأخرى تأوي إلى ضفاف البحيرات والمستنقعات[٦٤]، فيعززون المحاصيل بالفلاحة، وتُفلح الأشجار من تلقاء ذاتها، وتتدفق النسائم اللطيفة خلال الرياض والخلجان الماتعة، فتنسحب الضفاف لتشكل الموانئ، وكل هذه الجزر المنتشرة عبر المياه الخالية تزين البحار حيث انبثاقها.

١٨-٦ وماذا عن بهاء الأحجار الكريمة، والذهب الذي يختلط مع رمال السيول السريعة، وانفجارات النار الملتهبة *blazing* في باطن الأرض والبحر[٦٥]، والمحيط الذي يُطوِّق الأرض ويعيق تواصل الأمم بخلجانه الثلاثية[٦٦] مع ارتفاع المد والجز يمحوها كاملًا؟

١٨-٧ هنا سوف ترى سباحة في الماء لا تسكن، وتلاطمًا حتى في عدم وجود رياح، ومخلوقات تتجاوز حجم حيوانات البرية، بعضها ثقيل الوزن، يتحرك تحت سيطرة الآخر[٦٧]، وبعضها خفيف أسرع من المجدفين بقوتهم كاملة، وبعضها يرشف في الماء ويتنفس بالخارج ويسبب خطرًا كبيرًا في مرور الرحالة، هنا سوف ترى سفنًا تبحث عن أرض مجهولة، ولن ترى شيئًا لا يجذب غرور البشر سواء أكنت متفرجًا أم شريكًا فيه فهو مسعى عظيم، وسوف تتعلم وتفهم مهاراتها، بعضها يحافظ على الحياة، وبعضها يعززها، وبعضها يوجهها.

---

(٦٤) النص اللاتيني محتم في الجملة الآتية: *aliae ripis lacuum paludibusque pauidae circumfunduntur.* وترجَمته على افتراض مادفيج المبدئي (*others fearfully encircling themselves with the shores of lakes and with marshes*) وترجمته إلى العربية (وأخرى تأوي إلى ضفاف البحيرات والمستنقعات).

(٦٥) كلمة *blazing* منمحية في الأصل اللاتيني، ولكن الإشارة إلى ثوران البراكين واضح.

(٦٦) وهنا إشارة إلى البحر الأبيض المتوسط وبحر قزوين والبحر الأحمر، حيث اعتبر مفككا للكتلة الواحدة.

(٦٧) حيث اعتقد أن بعض الحيتان لديها ضعف في الرؤية وتسترشد بالأسماك الأصغر.

١٨-٨ ولكن في المكان ذاته سوف يكون هناك آلاف المحن للجسد والعقل والحروب والسلب وحطام السفن والسموم والاضطرابات المناخية والجسدية، والحزن المرير لمَن تعزيهم، والموت قد يكون هينًا أو حصيلة عقاب وعذاب، وفكر مليًّا، وزنْ ما تريد، وكي تصل إلى مجموعة خبرات عليك أن تمتد لبلايا الآخرين»، ستردين بأنكِ تريدين أن تعيشي بالطبع، (أو أفترض اعتقادًا آخر، أنكِ لن تضعي نفسكِ في موقف فيه تقصير يسبب لكِ حزنًا!)، وهكذا عيشي على الحدود المتفقة، ولكنكِ تقولين: «لا أحد استشارنا»، ولكنَّ والدينا كانوا يستشيروننا حينما عرفونا حدود الحياة، ونشؤونا لنعيش معهم.

١٩-١ ولكن اسمحي لي أن أنتقل إلى أسباب العزاء، ودعونا نرى أولًا حيث الحاجة إلى العلاج ثم نوع العلاج، فالشخص المحزون مصاب بالتوق لمحبوب، وهذا في حد ذاته يبدو قابلًا للتحمل؛ لأنهم وهم على قيد الحياة لم نبكِ على الناس الذين غابوا أو الماضين في الغياب رغم أننا فقدنا كل اتصال بهم حين غفلنا عنهم، وهكذا اعتقادنا أن هذا يُعذبنا، والشرور قد تعظم بتقديرنا لها، والمداوة بأيدينا، فدعونا نفكر في المتوفي كغائب، ودعونا نخدع أنفسنا، فقد أرسلناهم إلى مآلهم، أو بالحري قد أرسلناهم قدمًا ونحن ماضون في اتباعهم.

١٩-٢ والشخص المحزون يتأثر بهذا التفكير أيضًا، «لن يحميني أحدٌ ولن تنجدني من معاملة مزدرية»، أنا أقدم عزاء بعيدًا عن ما هو جدير بالثناء بل هو حق، ويخلق العزاء في مدينتنا الرغبة الحسنة أحرى من أن يدمرها، والشعور بالوحدة الذي اعتيد استخدامه ليكون لعنة للشيخوخة يمنحها قوة ادعاء بعض الناس كرهوا أبناءهم وأنكروا ذريتهم ويجعلون أنفسهم بلا أبناء عمدًا[٦٨].

---

(٦٨) يلمح سينيكا إلى الطريقة التى يجذب بها الأثرياء الذين ليس لهم أطفال انتباه صيائدي التركة.

١٩-٣ أعرف ما ستقولينه: «إنني لستُ مضطربة لما ضاع مني، ولا يستحق الناس عزاءً إذا استاؤوا لموت ابن وكأنه مُستخدم عندهم، وإذا وجدوا في حال ابنهم زمنًا للتفكير في أي شيء إلا ابنهم ذاته»، فما الذي يزعجكِ يا ماركيا؟ هل موت ابنكِ أم لأنه لم يعش طويلًا؟ فإن كان قد مات فاحزني عليه طوال الدهر، وأنتِ تعرفين على الدوام أنه ماض نحو الموت.

١٩-٤ وعليكِ أن تدركي أن الميت لا يشقى بمعاناة، وأن الأشياء التي تُصنع من العالم السفلي المرعب هي مجرد خرافات، فليس من ظلام يخيم على الموتى، ولا سجن، ولا أنهار تشتعل بالنار، ولا نهر للنسيان *Oblivion* [٦٩]، ولا محاكم للقانون ومُدَّعى عليهم، ولا تقويض للحرية من قبل الطغاة[٧٠]، لقد انغمس الشعراء في هذه الأوهام وطاردونا برعب أحمق.

١٩-٥ الموت انعتاق من كل ألم، وحد لا يمكن تجاوزه، وهو يعيدنا لحالة السلام التي كنا نرقد فيها قبل ميلادنا، فكل مَن يشعر بالشفقة على الميت ينبغي أن يشعر بالشفقة على مَن لا يولد، فالموت ليس خيرًا وليس شرًّا، فالشيء يمكن أن يكون خيرًا أو شرًّا، ولكن هو في حد ذاته ليس شيئًا، ويختزل كل شيء إلى لا شيء، ولا يتركنا في رحمة الحظ؛ لأن الخير والشر يبقيان في بعض الموجودات المادية، ولا يمكن للحظ أن يقبض على ما أعتقته الطبيعة، ولا يمكن لغير الموجود أن يكون بائسًا.

١٩-٦ لقد عبر ابنك الحدود، وخلَّف وراءه مكان العبودية، ورحب به السلام الأبدي الفسيح، لا يهاجمه الخوف من الفقر أو القلق على الثروة، أو طعنات الشهوة التي تُفسد العقل باللذة، ولا يطوله حسد الناس المرفهين أو يرهقه، ولا يَغَيْرُ على مسامعه الحساسة أي نوع من الشتيمة، ولا يتوقع كوارث سواء أكانت

(٦٩) تعني في اليونانية *Lēthē* أي النسيان.

(٧٠) قارن إدانة لوكريتوس للعالم السفلي التراثي في ٩٧٨ ,٣-١٠٢٣، وسينكا في خطاب ١٨ ,٢٤.

عامة أم خاصة، ولا يقلق على مستقبل متعلق بنتائج تؤدي دومًا إلى مزيد شك[٧١]، إنه أتى أخيرًا حيث لا شيء يمكن أن يجبره على الخروج، ولا يمكن أن يرعبه شيء.

٢٠-١ آه، كم ينقص الوعي بمعاناة مَن لا يثنون على الموت ولا ينظرون إليه على أنه اكتشاف أرقى للطبيعة، سواء أكان ختمًا على سعادتنا، أم يحفظ الكارثة في غار، أم ينهي تعب إنسان مسن وورعه، أم يقطع حياة قصيرة لشاب في مقتبلها وهو يتوقع أشياء أفضل، أم يوقف طفولة قبل أن تصل لمراحل متقدمة، فموت كل امرئٍ هو نهايته، وهو للكثرة علاج، وللبعض جواب للصلاة، ولا أحد أفضل ممَّن يأتيهم دون انتظار دون أن يطلبوه.

٢٠-٢ إنه يجلب الحرية من العبودية ضد صاحب الأماني، إنه يمحي السلاسل من الأسرى، إنه يُخرجنا من سجن الذين رفضت سلطتهم المطلقة أن تفرج عنا، إنه إبانة المنفيين الذين يجهدون عقولهم وأعينهم دوما نحو وطنهم، فلا يبالي الموت بمَن يُدفن تحت التربة، وحين يُقاسم الحظ الممتلكات العامة بلا عدل، ويُعطي ممتلكات المرء لآخر رغم أنهم ولدوا بحقوق متساوية، فإن الموت هو المسوي الأعظم، ولا أحد بعد الموت يعمل في هوى آخر، ولا يشعر أحد بالدونية، إنه يساوي الكل، لما تتوقينى لأبيكِ، إني أقول لكِ: ما الذي يضمن أن هذا الميلاد ليس عقابًا؟ وما الذي يضمن أنني لن أسقط حين أواجه تهديدات الحظ؟ وبإمكاني أن أُبقي على صوت عقلي وأسيطر عليه، حيث لديَّ شيءٌ لما يمكن أن أصنعه في النداء الأخير.

٢٠-٣ هنا أرى الرموز، ليست كلها من نفس النوع فحسب، بل بُنيت على نحو مختلف بأناسٍ متفاوتين، فالبعض يعلقون ضحاياهم من رؤوسهم، وآخرون يقودونهم بعصي نحو موطنهم، وآخرون يمدون أسلحتهم على المشنقة،

---

(٧١) اقرأ *incertiora reponenti*.

أرى مخادع الأسلحة وأرى السوط وأدوات التعذيب قد صممت لكل متضامن[٧٢] – ولكن أرى الموت، وهنا أعداء قساة ومواطنون متعجرفون، ولكن أرى الموت أيضًا هنا، وليس من مشكلة لكونك عبدًا حين تسأم من ملكية شخص آخر، فيمكنك أن تعبر نحو الحرية بخطوة واحدة، وقد تعز حياتك عليَّ بفضل الموت!

٢٠-٤ فكر في النعمة المناسبة للموت، وكم هم الناس الذين قد حرموا من العيش طويلًا، وإن كان جنايوس بومبيوس مجدًّا وسندًا للإمبراطورية، فقد حُمل لاعتلال صحته حين كان في نابلس، ورحل وهو زعيم بلا منازع للشعب الروماني، ولكن الموت ذهب به إلى منقلبه، إنه رأى جحافل ذُبحت أمام عينيه، ومن هذه المعركة التي شكلت الخطط الأمامي للسوناتو رأى الحاكم يظهر للعيان على قيد الحياة[٧٣]، ورأى الجزَّار المصري، واستسلم لجسد خاضع وقبض المنتصرون على القدسية، وحتى لو تُرك دون أن يصاب، فإنه يأسف لكونه مدخرًا، فما هو الأشد عارًا من أن تعتمد حياة بومبي على كرم ملك[٧٤]؟

٢٠-٥ إذا كان ماركوس شيشرون قد سقط حين كان يتجنب خنجر كاتيلين الذي وُجِّه فيه وفي وطنه على حد سواء، وحين كان المنقذ للدولة التي حررها، أو حتى لو مات بعد ابنته بفترة وجيزة، إلَّا أن ميتته كانت سعيدة، فإنه لم يرَ السيف يرسم حياة مواطنيه أو ينبش القتلة ممتلكات القتلى حتى يتكفلوا بنفقة موتهم، أو مزادًا علنيًّا لغنائم القنصلية، أو منع الذابح عطاء العامة، أو السرقة والحرب والنهب، وكثير مما زاد فيه كاتيلين[٧٥].

---

(٧٢) الجملة في اللغة اللاتينية ممحية، ولكن المعنى واضح.

(٧٣) هو كقائد يفضل أن يُقتل في المعركة.

(٧٤) بعد هزيمة جيشه في فارسالوس *Pharsalus*، هرب بومبي إلى مصر، وقُتل على يد قائد محلي بمجرد أن نزل فيها.

(٧٥) توفي شيشرون عام ٤٣ق.م ، وكانت مؤامرة كاتلين عام ٦٣ ، وموت ابنته عام ٤٥ .

٢٠-٦ وإذا كان البحر قد ابتلع ماركوس كاتو وهو في طريق عودته من قبرص، حيث كان يدير ميراث الملك هناك، وحتى لو كان ابتلع المال الذي كان يجلبه لدفع الحروب الأهلية، أليس هذا نعمة؟ ويقينا قد توفي وهو يعتقد أنه لا أحد يجرؤ على فعل خطأ في وجود كاتو، ولكن اضطر الرجل الذي وُلد لأجل حرية وطنه وليس حريته فحسب لتحاشي القيصر وأتباع بومبي(٧٦). ولذا لم يُسبب له موته المبكر أي معاناة، وأنجاه حقيقةً من كل صنوف المعاناة(٧٧).

٢١-١ «ولكنه مات في عجلة وهو شاب يافع»، وأفترض أنه كان يتطلع إلى أن يعيش إلى أقصى مدى يعيشه الإنسان، فكم من الزمن سوف يعيش؟ إنه وُلد لفترة وجيزة ليفسح الطريق للآخرين، ونحن نرى أن كل وافد جديد ينتقل لهذه المساكن المؤقتة، وأنا أتحدث عن حيواتنا فحسب، فهل نعلم أنها تدحرجنا للأمام بسرعة لا تصدق؟(٧٨). وعُدِّي قرون المدن التي خلت وسترين كيف تباهت بعراقتها التي لم تصمد طويلًا، فكل أعمال البشر مقتضبة وعابرة وتشغل جزءًا تافهًا لزمن لا نهائي.

٢١-٢ وهذه الأرض بمدنها وشعوبها وأنهارها وبحارها المتاخمة نعدها كثقب إبرة بمقارنتها بالكون، وتشغل فترة حياتنا جزءًا أصغر من هذا الثقب إذا قُورنت بالزمن كله الذي يتجاوز أمده العالم حيث يعيد العالم ذاته مرارًا وتكرارًا داخل مسار الزمن(٧٩)، ولذا ما الغاية من إطالة شيء مهما عظمت زيادته وهو ماضٍ إلى لا شيء؟ إن الطريق الوحيد الذي يُمكن أن نطيل به حياتنا هو ما وجدنا أنه كافٍ.

---

(٧٦) انتحر كاتو الأصغر في ٤٦ ق.م بدلًا من طلب العفو من القيصر بعد هزيمة قوات بومبي، وكان قد أشرف على ضم قبرص عام ٥٨.

(٧٧) فجأة يتحدث سينيكا مرة أخرى عن ابن ماركيا.

(٧٨) في اللاتينية *quas <scimus> incredibili celeritate conuolui.* ونعرف أنها تدفعنا بسرعة لا تصدق.

(٧٩) إشارة للمذهب الرواقي في دورات العالم المتكررة والمتطابقة.

٢١-٣ ربما تعطينني أسماء لأناسٍ عمَّروا سنواتٍ طوالًا قد انصرمت في التاريخ، وربما تعد لكل منهم مائة وعشر سنوات، ولكن ركزي ذهنكِ على الزمن برمته، فالفارق بين أقصر حياة وأطولها كأنه لا شيء، وإن فحصتِ عمر المرء الذي عاشه وقارنتِه بطول الزَّمن فستعرفين أنه لم يعش.

٢١-٤ وعلاوة على ذلك، ومن وجهة نظره كان زمن وفاته حسنًا؛ لأنه عاش ما قُدِّر له عيشه، ولم يترك شيئًا أزيد مما فعله، ولا يوجد مقياس واحد لكبر العمر عند البشر ويختلف عن الحيوانات؛ لأنها تنفق في غضون أربعة عشر عامًا، وأقصى عمر يمكن أن تعيشه هو المرحلة الأولى للإنسان، فكل مخلوق قد وُهب قوة مختلفة للعيش، ولا أحد يموت باكرًا؛ لأنه لن يمضي للعيش أطول مما عاش.

٢١-٥ وقد ثبت حجر الحد القوي في مكان لكل منا، وسوف يبقى دومًا حيثما يتم إعداده، ولا يستبعده أي عمل أو تأثير بعيدًا، وأدركي أن فقدكِ له كان معدًّا سلفًا، وأنه وصل للفترة المقدر له عيشها، «ووصل إلى غاية الحياة المحددة له»(٨٠).

٢١-٦ لا تكتئبي بالتفكير «بأنه كان يمكن أن يعيش أطول»، إن حياته لم تكن قصيرة، ولا تتدخل الصدفة في سنين المرء أبدًا، وكل امرئ مدفوع لما وُعد به، وتمضي الأقدار في طريقها لا تُضيف ولا تطرح ما وعدت به، والسعي والتضرع بلا جدوى، فكل امرئٍ ماضٍ لما كتب له من يومه الأول، وفي اللحظة الأولى التي رأى فيها النور، بدأ الرحلة نحو الموت، ويقترب من مصيره، وما يضاف له من سنين مراهقته يُطرح من حياته.

٢١-٧ كلنا عرضة لخطأ التفكير في أن كبار السن فحسب هم الماضون نحو الموت، ولكن الحقيقة أن الطفولة والشباب وكل مراحل العمر تأخذنا لهذا الاتجاه، والأقدار تقوم بعملها، وهي تتيقن بأننا لسنا على وعي بأدائها، ولذا تزحف

(80) Virgil Aeneid 10.472.

نحونا بيسر، ويستتر الموت تحت كلمة الحياة، فالمهد انتقال للطفولة، والطفولة انتقال للبلوغ، ويمحو الرجلُ العجوزُ الشابَّ، وإن أحصيتِ مراحل نموها حقًّا فهي في الواقع مفقودة.

٢٢-١ هل تشتكين يا ماركيا من أن ابنكِ لم يعش وكان يمكن أن يطول عمره؟ فكيف تعرفين ما سوف يحصده من طول عمره؟ هل تجدين اليوم أحدًا قد رسخت ظروفه وتوطدت ولا يخشى انصرام الزمن؟ إن الأمور الإنسانية زلقة ومائعة، وليس هناك مرحلة في حياتنا عرضة للخطر وغير حصينة كالتي يمنحها المرء للمرحلة التي تُعطي أعظم لذة، ولذا علينا أن نتمنى الموت ونحن في أوج سعادتنا؛ لأنه لا يقين وسط اللغط والفوضى إلا ما كان في الماضي.

٢٢-٢ لقد جذبت هيئة ابنكِ الوسيمة نظرة المدينة المنكوبة، وقد حافظ على طهارتها لاحتراسه وشرفه، ومع ذلك مَن الذى يضمن لكِ أن هيئته ستبقى على ما هي عليه؟ فقد يُذهبها المرض، والحفاظ على المظهر قد يشينه كبر السن! فكري في ألف خطأ يُؤثر على العقل، فاستقامة وموهبة الأفراد التي تظهر في شبابهم لا تبقى دومًا حتى الشيخوخة، وغالبًا ما تنساق لمسار انحطاط يهاجم الحياة اللاحقة، ومن ثم تصير مخزيةً، وتجلب التشويه على البدايات المشرفة أو تغرق في مستوى الشهوة والتسول، وينحصر همهم فيما يأكلون ويشربون.

٢٢-٣ فكري في الحرائق وانهيار الإنشاءات وحطام السفن والمجزرة التي يحدثها الأطباء الذين يزيلون العظام، وينفذون أيديهم بكاملها في أمعائهم، ويسببون الألم بصنوفه أثناء تعاملهم مع أعضائهم، ومن ثم فكري في النفي؛ فإن ابنكِ لم ينأْ عن اللوم الذي لم ينج منه روتيليوس[٨١]، وفكري في السجن؛ فإن

(٨١) روتيليوس روفس *P. Rutilius Rufus* قنصل عام ١٠٥ ق.م، حُوكم بتهمة الاغتصاب، ونُفي عام ٩٢ ، رغم اعتراف العموم ببراءته، وأُدين سقراط في محكمة أثينا عام ٣٩٩ ق.م ، ورفض أن يذهب إلى المنفى تجنبًا للإعدام. وعن كاتو انظر ٣, ٢٠.

ابنكِ لم يكن أحكم من سقراط، وفكري أن ابنكِ لم يكن قديسًا أكثر من كاتو الذي ثقب صدره بنفسه، وحين تهضمين كل هذا، ستدركين أن الذين تم علاجهم هم الذين سحبتهم الطبيعة على عجل نحو السلامة؛ لأن هذا كان نوعًا من الحملة نتوقع أن تخدم حياتهم، ولا شيء خادع مثل حياة الإنسان، ولا شيء مثل هذه الغادرة، فهيروكليس يقول: لا أحد يقبلها دون وعي بما تقدمه، وإن لم يولد الأكثر حظًّا أعتقد أن التمتع بحياة قصيرة وسريعة يعيدنا إلى حالتنا الأصلية.

٢٢-٤ صوري لنفسكِ الفترة التي سببت لكِ هذا الألم، حين وهب سيجانوس والدكِ تابعه ساتريوس سيكوندوس *Satrius Secundus* [(٨٢)] قد غضب معه لإفصاحه في مناسبة أو مناسبتين أن ليس بمقدوره تحمل الصمت حين لا يرق سيجانوس علينا فحسب بل يتسلقنا، وكان هناك اقتراح بإنشاء تمثال له في مسرح بومبي الذي أعاد قيصر بناءه بعد الحريق[(٨٣)]، واعترض كوردوس *Cordus*؛ لأن هذا يدمر المسرح حقًّا.

٢٢-٥ حسنًا، ولماذا لم يشتطْ غضبًا من شأن سيجانوس لموقفه من جنايوس بومبيوس *Gnaeus Pompeius* لتمجيد الجندي الخائن للنصب التذكاري للقائد العظيم؟ إن الاتهام قد سُوِّيَ تمامًا[(٨٤)]، والكلاب الشرسة التي كانت تتغذى على دم الإنسان ليجعلها مطيعة له فقط ومفترسة لأي أحد آخر بدأت في العواء حول الرجل[(٨٥)].

٢٢-٦ وماذا كان يفعل؟ إذا رغب في العيش، كان عليه أن ينشد سيجانوس، وإن رغب في الموت فعليه أن ينشد ابنته، وكلاهما يرفض الاستماع، فقرر خداع

---

(٨٢) ساتريوس سيكوندوس *Satrius Secundus* وهو أحد أتباع جراميتيوس كوردوس *Cremutius Cordus*.

(٨٣) المقصود بقيصر هنا تيبريوس.

(٨٤) تقرأ في اللاتينية تكون تمامًا *consarcinatur*.

(٨٥) تركت بعض الكلمات الممحية التي من الصعب ترجمتها، ولم تغير في المعنى شيئًا، والكلاب هم أتباع سيجانوس.

ابنته، وبعد أن استحمَّ ليستعيد قوته، انزوى إلى سرير نومه كما لو أنه يتناول وجبة، وطرد عبيده، وألقى ببعض الطعام من النافذة ليخلق انطباعًا بأنه أكله، وغاب عن العشاء، وتظاهر بأن لديه ما يكفي من الطعام في غرفة نومه، وقد فعل الشيء نفسه في اليومين الثاني والثالث، وفي اليوم الرابع خارت قواه البدنية واستسلم، فعانقكِ وقال: «ابنتي العزيزة، هذا هو الشيء الوحيد الذي أبقيتُه لكِ من حياتى كلها، لقد بدأت الرحلة نحو الموت، وأنا الآن في منتصف الطريق، ولا تطلبي مني العودة»، ومن ثم مكث النهار بطوله في غرغة الموت، ودفن نفسه في الظلام.

٢٢-٧ وعندما عُرفت نواياه، عمت الفرحة؛ لأن الفريسة انتُزعت من فكَّي ذئب جشع، وذهب المهمشون في دعوة سيجانوس إلى محكمة القناصل، واشتكوا بأن كوردوس قد مات، ولذا قد يُدخلون فيما أجبروه على عمله، وحقًّا كانوا يشعرون أن كوردوس يهرب منهم، وكانت القضية المحورية في جلسة الاستماع، عمَّ إذا كان قد فقد المدعي الحق في الموت، وحين جرى هذا النقاش، جاء المهمشون للمحكمة للمرة الثانية، وحصل على براءته.

٢٢-٨ هل ترين يا ماركيا التقلبات التي تهددنا بشكل غير متوقع في أزمنة بائسة؟ هل تنوحين؛ لأن أحد أفراد أسرتكِ تُوفي؟ إنه فقد الحق في عمل هذا تقريبًا.

٢٣-١ وبصرف النظر عن حقيقة أن المستقبل برمته غير يقيني، إلا أنه يقينا يزداد سوءًا، والعقول التي تحررت توًّا من المجتمع البشري لديها أيسر رحلة للعالم العلوي؛ أن يسحبوا معهم قليل دنس ومتاع، وأن يتحرروا قبل أن يصابوا بفرط العواطف ويتأثروا بالأمور الدنيوية، إنهم يطيرون بخفة عودة إلى مكانهم الأصلي، ويغسلون بيسر أثر الرجس والسخام.

٢٣-٢ ولا تفرح العقول العظيمة دومًا في الجسد، إنها تتطلع للرحيل عنه وتحطيمه، ويمتعضون من هذه القيود؛ لأنهم يستعملونها بسمو للتجوال في العالم وبدنوٍّ

في الأمور البشرية، وهذا هو الأساس لما يقوله أفلاطون[٨٦]: إن عقل الحكيم موجه بكليته نحو الموت، وهذا ما يرغب فيه وما يفكر فيه، إنه مدفوع دومًا بالرغبة الساعية نحو المتعالي.

٢٣-٣ أخبريني يا ماركيا، حين رأيت في هذا الشاب حكمة الشيخ، والعقل الذي يتغلب على صنوف المتع الشتى، ولا يعيبه عيب، ومتحررًا من الخلل، طامحًا للثروة دون جشع، وللشرف دون أنانية، وللمتعة دون إفراط، هل فكرتِ أنه سوف يتمتع بكل هذا دون أن يصيبه اللمم على الدوام؟ إن ما يصل إلى أَوْجِهِ تقترب نهايته، وتهرب فضيلة كماله من نظرنا وتنمحي؛ فالأشياء التي تنضج باكرًا لا تبقى حتى نهاية الموسم.

٢٣-٤ وإشراق النار المضيء يخرجه السرعة، فقد يحيا طويلًا حين يناضل احتراقًا بطيئًا بوقود صلب ومغلفٍ بالدخان وامضٍ في الظلمة، والمصدر الذي يُغذيه على مضض يأتي بنهايته، وبالطريقة نفسها كلما زاد سطوع عقل البشر قصرت حياته؛ لأنه لا مجال للنمو ودنو الضعف.

٢٣-٥ يقول فابينوس *Fabianus* [٨٧] –وهذا ما رآه والداه أيضًا، إنه كان في روما صبيًّا بلياقة رجل كامل، ولكن سرعان ما توفي، وقد توقع ذوو العقل أن موته قد يكون عاجلًا؛ لأنه لا يمكن أن يعيش لأجل وقد توقع موته مبكرًا، وكيف كان هذا؟ فالانتكاس دلالة على زوال محدق، وتبلد كل قوى النمو اقتراب للنهاية.

٢٤-١ وإن شرعتِ في تقييمه في حدود فضائله لا سنينه، فإنه عاش بما يكفي، لقد ترك جناحًا لرعاية اليتامى حتى سن الرابعة عشرة وكان تحت وصاية والدته، ورغم أنه كان له منزل، إلا أنه لم يغادركِ، وكان لا يزال يعيش مع والدته في

(86) Phaedo 64a, 67d.

(٨٧) كان فابينوس *Papirius Fabianus* خطيبا وفيلسوفا في الفترة الاستعمارية المبكرة، وأثر في سينيكا بعمق.

سنٍّ يعيش فيه الأطفال مع آبائهم، فقوامه وظهوره الحسن وقواه البدنية القوية جعلت منه شابًّا مولودًّا للخدمة العسكرية، ولكنه رفض دخول الجيش حتى لا يتركك.

٢٤-٢ وتدبري يا ماركيا كيف ترين نادرًا الأمهات اللائي يعشن في بيوت منفصلة بلا أطفالهن، وتأملي كيف تفقد الأمهات أبناءهن في الجيش لسنين طوال وهي قلقة عليهم، وستدركين أنكِ لم تفقديه لفترةٍ ممتدةٍ، ولم يغب عن بصركِ، وتحت رعايتكِ تطورت ممارساته العقلية لموهبته البارزة التي تتشابه مع جده، ولم يثبطه التواضع الذي يجعل إنجازات كثير من الناس غامضة.

٢٤-٣ وهو كشاب بمظهر وسيم على نحو استثنائي طوقته النساء بالمغازلة لم يعطِ إحداهنَّ ما تصبو إليه، وحين تضيق عليه إحداهن في المغازلة كان يحمر وجهه حمرة الخطأ، إنه كان يجذبهن، وطهارة هذه الشخصية كانت تستحق الكهنوت منذ كان صغيرًا، ومما لا ريب فيه كان دعمًا لأمه، ولكن لم يكن لأمه أثر كبير إلا في دعمه لمنصب حسن.

٢٤-٤ وحين تتأملين هذه الفضائل، تشبثي في عناق ابنكِ كما كنتِ، الآن لديكِ مزيد من الوقت له، ولا شيء يستدعيه بعيدًا، ولن يسبب لكِ قلقًا ولا حزنًا مطلقًا، وإن كان لديكِ نوع واحد من الحزن قد سببه لكِ هذا الابن الحسن، فإن المستقبل خالٍ من قبضات الفرص ومليء بالسرور، بشرط أن تعرفي كيف تتمتعين بولدكِ، وبشرط أن تفهمي ما الأعظم نفعًا له.

٢٤-٥ إنها مجرد صورة لابنكِ الذي مات، والشبه لم يكن قريبًا، فهو ذاته أبدي، وهو الآن في حالة فُضلى مجردة من متاع الظاهر، وهو يخلو بنفسه فحسب، فما ترينه يغلفنا من عظام وعضلات وغطاء الجلد والوجه وأيدينا والأشياء التي نعرج عليها، هي لعقولنا قيود وظلام، ويختنق العقل بها ويُسمم، وهو تبتره عن ما هو حق، وعن ما يتبعه حقًّا، فينغمس فيما هو باطل، إنه في صراع

أبدي مع هذا اللحم المرهق، لينقذ نفسه من أن ينسحب إلى الوراء والغرق، إنه يناضل صوب المكان الذي نُفي منه، وينتظره البقاء الأبدي، وسوف يرى هناك الطهارة والإشراق بدلًا من الفوضى والكآبة.

٢٥-١ وليس هناك سبب يدفعك إلى قبر ابنكِ، الذي يرقد فيه فتاته التالف الذي سبب له متاعب جمة، لم يبق من عظامه إلا رماد، ولا الأشياء الأخرى التي كانت تملأ ملابسه، لقد غادره كل شيء، ولم يترك له شيء على الأرض، الكل رحل عنه بعد أن بقي معه لفترة وجيزة وهو يتطهر منه ويتخلص من آثامه المتبقية وكل قشور الحياة الفانية، ومن ثم صعد للأعالي، وعجل ليلحق بالنفوس المباركة.

٢٥-٢ يا ماركيا، لقد رحب به الملكوت المقدس من قبل سكيبوس وكاتو، ومن بينهم الذين احتقروا الدنيا وتحرروا بفضل الموت الذي حققه والدكِ فيهم، الذي يأخذ حفيده الآن تحت جناحه، وهو فرِحٌ بنور غير مألوف، وهو يعلمه مسارات النجوم المجاورة، تسعده بدايات أسرار الطبيعة هناك، ولا يعتمد على فرضيات، بل على تجربته لكلٍّ ما هو حقًّا، وهو كزائر يمتن ليحصل على دليل لهذه المدينة غير المألوفة، ولذا كل حرصه فهم أسباب الأحداث السماوية، وقد يمتن أن يكون له أحد من عائلته يفسر له الأشياء، وهو لا يوجه نظره للأرض إلا قليلًا، فمن الأفضل أن ينظر إلى الأسفل من أعلى لما تركه.

٢٥-٣ ولذا يا ماركيا تصرفي كما لو كنتِ ترين أباكِ وولدكِ تمامًا، وليس كما اعتدتِ أن تعرفيهم، بل كنبلاء يعيشون في السماوات العُلى، واشعري بالخجل من البكاء على أقاربكِ الذين انتقلوا إلى مكان أفضل، إنهم ربحوا الأبدية، وهاموا في ساحات أرحب، إنهم يصلون إلى كل شيء بيسر، فلا بحار متداخلة أو جبال شاهقة أو وديان غير مطروقة أو حواجز رملية *Syrtes* ضحلة تعيق سيرهم(٨٨)، إنهم يتنقلون بسهولة ودون تقيد، إنهم في متناول

(٨٨) الحواجز الرملية مناطق خطرة في البحر الضحل قبالة سواحل شمال إفريقيا.

بعضهم البعض ويتخالطون بالنجوم.

٢٦-١ وتخيلي يا ماركيا أنه كان لوالدكِ تأثير عليكِ، كما كان لكِ تأثير على ولدكِ وهو يتحدث من القلعة السماوية، وليس من البلاغة أن يرثي الحروب الأهلية ويحرم المسؤولين عن هذه الانتهاكات للأبد، ولكن البيان يعلو على ذلك كما أنه ذاته قد علا شأنه الآن.

٢٦-٢ ولماذا يا بنيتي تقبعين في هذا الحزن الأبدي المديد؟ ولماذا تواصلين في جهالة الحقيقة التي عاملت اعتقادكِ بابنكِ بظلم؛ لأنه مضى ليلتحق بأسلافه في آن رسخت فيه ظروف عائلته، ومُكن له؟ هل لا تدركين بأي نصيب تهز العواصف كل شيء؟، وكيف لا تتعامل مع أحد بود وتسامح باستثناء مَن لديهم قدرة للتعامل معها؟ هل أعطيكِ أسماء الملوك الذين قد غمرتهم السعادة حيث انتشلهم الموت عاجلًا من الأمراض التي داهمتهم؟ أو أسماء القادة الرومان الذين لم تُنتقص عظمتهم، إذا طرحتِ قليلًا من حياتهم؟ أو أسماء أعظم وأنبل الرجال الذين انتظروا بثبات ضربة سيف الجندي على رقابهم الصامدة؟

٢٦-٣ انظري إلى والدكِ وجدكِ، إنه وقع في براثن قاتل أجنبي[٨٩]، لم أدع لأحد عليَّ سلطةً، وحرمت نفسي من الطعام، وأظهرت أن شجاعة كتابتي تعكس جرأة معيشتي، ولماذا مَن يموت في عائلتنا ينال حظًّا أوفر من النحيب عليه؟ كلنا واحد، ولا يطول ما يحيطنا ليل عميق مديد، ولا شيء في عالمك كما تفرضين وترغبين، ولا شيء مهيب ولا مجيد، وكل شيء رديء وجائر ومقلق، وهو وعي ضئيل بالنور الذي نتمتع به!

٢٦-٤ هل تحتاجين أن أقول لكِ: هنا الجيوش لا تحتق على الجيوش ولا تحطم

(٨٩) لا نعلم شيئًا عن جد ماركيا.

الأساطيل الأساطيل، ولا يخطط قتلة العائلة أو حتى يتدبرون، ولا تطن الأسواق بالقضايا في المحاكم يومًا بعد يوم؟ وهل تحتاجين أن أقول لكِ: لا شيء يبقى سرًّا، وترقد العقول عارية، والقلوب شفافة، وتمضي الحياة في العلن والعراء، وكل التاريخ مرئيًّا يسير جنبًا مع الأحداث القادمة؟

٢٦–٥ اكتسبتُ المتعة من الكتابة عن أعمال جيل واحد، منفتحًا في الجزء البعيد للكون وبين قلة من الناس، ولكن الآن من الممكن أن تري عديدًا من الأجيال وتبادل وتعاقب سنين عدة خلال الزمن برمته، ومن الممكن أن ننظر إلى نهوض وانحدار الممالك وانهيار المدن العظمى، والانتهاك الجديد الذي يحدثه البحر.

٢٦–٦ إن كانت كلية القدر عونًا لكِ في فجيعتكِ، فاعلمي أنه لا شيء يبقى واقفًا حيث يقف الآن، فالشيخوخة سوف تسقط كل شيء وتكسحه بعيدًا، وهي لا تتلاعب بالبشر فحسب، بل بالأماكن وبالبلدان وبأقسام العالم كلها، إنها تُسطح الجبال كلها، وتزج في أماكن أخرى جروفًا جديدة، وتبتلع البحار، وتحول الأنهار، وتعطل الاتصال بين الأمم، وتمحو الترابط والتماسك بين جنس البشر، وتُخفي المدن في هوات عميقة، وتهزها بالزلازل، وترسل الهواء محملًا بالطاعون من نفخ عميق، وتغمر السكان بالفيضانات، وتقتل كل مخلوق حي، كما تغرقه بالماء، وتحرق وتُشيط كل ما هو بشري في نيران ضخمة، وعندما يحين الزمن للعالم ليطفئَها تجدد نفسها، كل شيء سوف يحطم ذاته بقوتها، فالنجوم سوف تصطدم بالنجوم، وسوف تستعر المواد كلها، والأجسام تسطع الآن في احتراق منظم سوف يحرقها كلها في نار واحدة.

٢٦–٧ ونحن نفوس مباركة موجهة نحو الأبدية حين يقرر الرب إعادة خلق العالم، كما ينهار أي شيء آخر، وسوف نكون لاحقةً ضئيلةً للتدمير بجملته، وسوف نعود إلى عناصرنا الأصلية.

عزاء إلى هلفيا

مقدمة

يجاهد سينيكا في هذه الرسالة لتخفيف حزن أمه على معاقبته بالنفي إلى كورسيكا عام ٤١م على ما يبدو بتهمة الزنا مع جوليا ليفيلا أخت الإمبراطور جايوس (*cf. Dio 60.8.5*)، وقد يرجع تاريخ الرسالة إلى عام ٤٢-٤٣ م، والجدة المتناقضة التي يقدمها الرثاء تبعث الأسى وتريح مَن يعزيه، وتعطي طابعًا بعينه لهذا التنوع السينكي من التراث العزائي القديم، وعزاء المنفى لسينيكا من النماذج التي بقيت في اليونانية سواء بقيت بكليتها أو جزئيًّا ومنها الرواقي موسونيوس روفوس (٣٠- ١٠٠م)، وديو كريسوستوم *Dio Chrysostom* تلميذ موسونيوس، وبلوتـارخ وفافورينوس *Favorinus (ca. 85–155 ce)* ، والمعروف في التراث الرواقي أن الاستبعاد من الوطن لا يمثل عندهم مشقة؛ لأنهم مواطنو العالم، فالمنفيون لا يحرمون الحق من وطنهم، بل من المدينة التي مُنحت لهم كما يقول موسونيوس روفوس في الفصل الذي عنونه (المنفى ليس شرًّا) *p. 42.1–6 Hense*، ويحث سينيكا نفسه في موضع آخر (*Letters 28.4*) قائلًا: "إنني أعيش في اعتقاد هو أنني لم أُولد لركنٍ بعينه في العالم، فالعالم بأسره وطني".

ويستحضر سينيكا هذا الموروث في عزائه إلى هلفيا: "وأينما نمضي ستتبعنا خصلتي الطبيعة العالمية والفضيلة الفردية"(٢,٨)، وهو يبني على هذا المحور

الجوهري تحليل حالة النفي من منظور أقل وضوحًا في التراث اليوناني، وإن كان وجودنا لا يرتكز في مكان محليٍّ بل في العالم بأسره، وإذا كان العقل يوجه بعيدًا عن الأمور الدنيوية الضيقة ليرتبط بدلًا منها بشساعة العالم، فإن فكرة النفي تحمل نوعا من التناقض، فمن المنفي حقًّا؟ أهو مَن نُفيَ من الدولة المحلية أم من غُرب عنها أم عمي عن الدعاوى الأسمى للمواطنة الكونية؟ وعلى هذه المقاربة الرمزية يجسد نفي سينيكا في هذا العزاء نوعًا من العودة إلى الوطن، وفي مختتم الرسالة يرتفع برؤية جاذبة من المستوى الأرضي بلا قيود متصاعدة إلى السموات العلى، حيث يُحلق مؤخرًا "في مشهد بهيج للأشياء الإلهية" (٢٠-٢)، إن سينيكا يصل بعيدا عن مجرد الملاحظة المثيرة لإبهاج هلفيا في العزاء، فإن التحليق بعقلة تجاوز الرحلة عن منفاه وعن الأوحال اليومية والاضطرابات التي يربطها باغترابنا عن النظرة الكونية، فالحكيم مَن يُبقي على مسافته من الحشد وعوامل الجذب والمغريات الظاهرية (٥-١)، وهذا نفي رمزي من القيم اليومية، في حين تنفصل الجماهير عما يتصوره سينيكا كظروف مناسبة لميلادنا (فنحن ولدنا في ظروف مناسبة إذا لم نُعزل عنها ٥ , ١)، والشراهة التي تتوق لمزيد من الغذاء الغريب من مناطق العالم النائية ١٠-٢-١١ تعطي تعبيرًا متطرفًا لهذه القطيعة، وتغترب بيأس من الحياة البسيطة في وفاقها مع الطبيعة، ويؤكد سينيكا من ماضي روما أن الفساد الحاضر المتجذر فيها يجعلها مغتربة ١٢-٥-٧، ويقارن ما يتصوره بالرذائل بالأنثوية التي يقترفها الروماني بشكل معتاد في يومه ١٦-٣-٥، إن هلفيا هي نفي حق لأنواع الانحطاط المعاصر، وزيادة عن رفقتها في المنزل لأصحاب المناصب الجمهورية مثل كورنيليا أم جراشي ١٦-٦.

وبهذه الطرق المتنوعة يقدم سينيكا في عزائه لهلفيا مجالًا واسعًا من فلسفة الأدب بأساليب ودلالات وروايات مختلفة لاغتراب المنفى، ولم يكن موضوعه عن منفاه بقدر ما هو عن حال المنفي ذاته سواء في أدبه أو رمزيته، وربما قد تجد هلفيا راحة وافرة من دعم عائلتها لها لفقدها سينيكا في المنفى ١٨,٢-٧-١٩,٧، ولكن تظهر

الفلسفة مصدرًا للعزاء الأعظم ٥-٣,١٧، ومن ثم الاعتماد على الذات الذي غرسه في ذهنها بفصلها عن الضعف للظرف الخارجي إيحاءً يُوسع القضية بشكل مثير في اتجاه آخر راسخ، برز فيه انسحاب النفس كمنفى باطني، وقد تمتد الرعاية التي قُدمت إلى هلفيا للاعتماد على الذات بدورها إلى صلة رسالة سينيكا بحزن أمه إلى وصفه لطريقة حياة وطريقة منسوخة لأي قارئ في ضائقة مماثلة، ولا يمثل عزاؤه إلى هلفيا حالة خاصة بها في أعماله الفلسفية، بل يرقى إلى مرحلة أخرى، أو جانبٍ من برنامج علاجي يستعرض جسده النثري بشكل تراكمي.

وإضافة لنقده لطبيعة النفي ذاته، فإن روما ذاتها تتصف بأنها مدينة مكتظة بالمنفيين، ومكان قامت هويته على النزوح، حيث كانت روما متورطة بوضوح في الاستعراض المتنقل في الفصل السابع للمشردين عبر العصور والمدن الموجودة بالاستعمار والهجرة والسلطة الرومانية، ومع الرومان كانوا لا مثيل لهم وكلي الوجود ونفوذهم في اتجاه واحد، "فأينما غزا الرومان، استقروا" ٧-٧، وهم تطبعوا بدمج خصالهم بأنماط التجربة المترامية للتجربة الإنسانية- وجانب العزاء الذي يستنطق دعائم تأكيد الذات الرومانية بافتراض "كونها رومانية" ليس بضاعة ثابتة بل عملية تنامٍ أو حالة تفاوض في عالم متقلب. ولا تعمل وجه النظر الكونية على تخفيف الصدمة على المستوى الشخصي فحسب بتحديد السلطة الرومانية ضمن رؤية شاملة لتطور الإنسان والانتقال عبر الزمن، فإن سينيكا يؤكد على شكل من أشكال الانفصال عن السلطة ذاتها التي نفته في المقام الأول، فيمكن التحكم في المرء والسيطرة عليه بمرسوم إمبراطوري، إلَّا أن سينيكا ارتفع عن هذا القيد والضعف في روما في عهد كلاوديوس في الأربعينيات بممارسة المواطنة الأولية في الكل الكوني. والنتيجة النهائية المتناقضة هي أن المنفى مكنه بعقابه، وحرره كما لو كان الإطلاق الكوني في العزاء إلى هليفيا يرى فيه مكان روما في العالم من جديد.

لمزيد من القراءة:

Fantham, E. 2007. "Dialogues of Displacement: Seneca's Consolations to Helvia and Polybius." In Writing Exile: The Discourse of Displacement in Greco-Roman Antiquity and Beyond, ed. J. F. Gaertner (Leiden: Brill), 173–92.

Williams, G. D. 2006. "States of Exile, States of Mind: Paradox and Reversal in Seneca's Consolatio ad Heluiam." In Seeing Seneca Whole: Perspectives on Philosophy, Poetry and Politics, ed. K. Volk and G. D. Williams, Columbia Studies in the Classical Tradition (Leiden: Brill), 147–73.

١-١ يا أعز أم، كثيرًا ما استشعرتُ الرغبة في أن أرسل إليكِ عزاء، وكثيرًا ما كبحتُ هذا، والاعتبارات التي دفعتني لأجرؤ على المحاولة كانت عدة، أولها أني تخيلت أنني سوف أطرح متاعبي جانبًا حين أمسح دموعكِ لفينةٍ وجيزةٍ حتى لو لم أتمكن من كفِّها تمامًا: وثانيها تيقنت أنني إذا استنهضتُ قوتكِ فسوف تنتشى قدرتي، وخشيتُ أن يقهركِ الحظ من جانبي وهو يخضع عزيزًا لي، وكذلك وضعتُ يدي على جرحي الغائر، محاولًا بقدر ما أستطيع أن أزحف قدمًا نحو ضمادة جروحك.

١-٢ ومن جانب آخر هناك أسباب قد أجلت ما أصبو إليه، وأدركت أن حزنكِ لا يُجابه وهو متوهجٌ في مهده، والعزاء ذاته يلهبه ويفاقمه، والأمراض على الشاكلة نفسها لا يزيد التهابها إلا بالمداواة على عجل[٩٠]، وكذلك انتظرتُ حتى يهدأ وهج حزنكِ من ذاته، ويلطفه الزمن ليداويه ويخضعه، ويسمح من ذاته بلمسه ومسه، ورغم أنني قرأت كل الأعمال التي ألَّفها كتاب مرموقون بهدف السيطرة والحد من الحزن، إلَّا أنني لم أجد مثالًا لامرئٍ قد رثى أقاربه، في حين كان هو موضوع رثائهم، ولهذا ترددتُ وخشيتُ أن يكون جهدي ليس عزاءً بل مُفَاقَمَة.

---

(٩٠) تمشيا مع تفضيل خريسبوس في عدم تطبيق المعالجة في حين "لا يزال تورم العقل ناضرًا" (*cf. Cicero Tusculan Disputations 4.63*).

١-٣ وإلى جانب ذلك، فإن الشخص الذي رفع رأسه من ركام الدفن ليواسي قريبًا له يحتاج إلى كلمات مختلفة لا تستمد من عزاء يومي مألوف، ولكن كل حزن متجاوز في الحجم يمحو بالضرورة قدرتنا لاختيار الكلمات، وغالبًا ما يخنق الصوت ذاته.

١-٤ في أي حال سأكون حسنًا بقدر ما أستطيع، وليس ثقة في قدراتي، بل بمقدوري أن أقدم عزاءً ناجزًا لكوني مُعَزيًا، ولا ترفضي مني شيئًا، وكذلك أتمنى ألَّا ترفضي مني هذا الغيض، فالحزن لا ينضب دومًا، فاقبلي مني وضع حد لشعورك بالفقد.

٢-١ وانظري كيف واعدتُ نفسي بحبكِ لي، وأنا لا أشك بأنني سوف أؤثر على إرادة حزنكِ رغم أنه لا يوجد شيء له قدرة على البؤس، وحتى لا أنخرط في معركة معها على الفور، فسوف آخذ جانبها وأقوم على تشجيع نموها، وأسوف أُعري وأفتح كل الجروح التي اندملت بالفعل.

٢-٢ والاعتراض الذي سيكون، «أي نوع للعزاء وهو أن تستدعي البلية المنسية، وأن تضع العقل في مرأى من كل شقاوته وهو بالكاد يتحمل واحدة منها؟»، ودعه يعكس الاعتراض، فمهما كانت الأمراض المهلكة تستجمع القوة ضد مداواتها يمكن أن تُعامل بطرائق معاكسة، وكذلك سوف أقف أمام العقل بكل أحزانه ومآسيه، ولن يكون هذا لتطبيق نهج لين للشفاء، ولكن للكيِّ والاستئصال، فما الذي بمقدوري تحقيقه؟ وإن العقل الذي تغلب على مآسي شتى يخجل من أن يُكرب من جرح على البدن يشبه الندبة.

٢-٣ ودع أولئك الذين يضعف طول الرخاء عقولهم المدللة يواصلون النحيب والرثاء، ودعهم يخرون باهتين في اضطراب ينجم عن أبسط ضرر، ولكن دع الذين قضوا سنينهم في سلسلة من الكوارث يتحملون حتى الضربات الثقيلة بعزم وصمود، فمنفعة المرء من المصيبة المتواصلة هي أنها تُقوي مَن تصيبهم دومًا.

٢-٤ لم يمنحكِ الحظ راحةً من الضربات الثقيلة، ولم يستثن حتى يوم ميلادك، حيث فقدتِ أمكِ بمجرد ولادتكِ، وبالحري أثناء ولادتكِ، ودخلتِ الحياة بلا أم، وربتكِ زوجة أبيكِ التي أظهرت الامتثال والتفاني كله الذي يمكن أن يُلحظ حتى في الابنة، وجعلتِها أمًّا فعليةً رغم أن زوجة الأب حتى لو كانت صالحةً تأتي بتكلفة وخيمة على أي طفل، وفقدتِ عمكِ وأنتِ تترقبين وصوله وهو من أرق وألطف وأعظم الرجال شجاعةً، ولم يخفف الحظ من قساوة ضرباته حيث دفنتِ أعز زوجٍ في نفس الشهر، وأنتِ أم لثلاثة أبناء منه[٩١].

٢-٥ ووصلكِ خبر هذه الضربة وأنتِ حزينة بالفعل، وكان أطفالكِ في مكان آخر، كما لو كانت المصائب تتعمدكِ في هذه الفترة، ولذلك لم يجد حزنكِ مكانًا للسلوى، لقد مررتِ بمهالك عدة ومخاوف شتى كتلك التي هاجمتكِ بلا توقف، واستعدتِ عظام ثلاثة أحفاد[٩٢] في الحضن نفسه الذي أرسلتِ فيه الثلاثة في أقل من عشرين يومًا من دفنك لولدكِ، الذي تُوفي بين ذراعيكِ أنت تقبلينه، وسمعتِ أنني انتزعته بعيدًا[٩٣]، وهذا فحسب ما كنت تحتاجين له من قبل.

٣-١ ومن بين الجروح التي اخترقت جسدكِ هذا الأخير، وأعترف أشدها ضراوة؛ لأنه لم يشق الجلد فحسب، بل فصل طرفًا من صدركِ والأعضاء الداخلية العميقة، وكما أن المجندين الجدد يصرخون من جرح سطحي وترتعش أيديهم أكثر من مسكها للسيف، في حين أن قدامى المحاربين لو جرحهم مثقاب لا يتأوهون، ويتركون الأمر لأجسادهم تطهره كما لو كان الجرح ليس

(٩١) أنجبت هلفيا لسينيكا الأكبر بجانب سينيكا أخوين هما نوفاتوس *Novatus* وميلا *Mela*. انظر هامش ٥٩.

(٩٢) هويتهم غير معروفة، ومن غير الواضح إن كان بينهم ابن سينيكا.

(٩٣) وفي اللاتينية *Raptum* خطفوني، كما لو كانت المعيشة في المنفى موتًا.

فيهم، وعليكِ إذنْ أن تُقبلي على المداوة بشجاعة.

٣-٢ وبعيدًا عن العويل والتفجع وبقية الاضطرابات التي ترافق حزن المرأة عادة، ستهدرين كثيرًا من الحزن إذا لم تتعلمي كيف تكونين بائسة، ومدواتي لكِ تبدو مترددة، أليس كذلك؟ وأنا لا أحجب عنكِ مصيبة واحدة، ولكني أكومها كلها وأضعها أمامك.

٤-١ لقد اتخذت هذا النهج الجريء؛ لأنني عازم على التغلب على حزنكِ، وليس الحد منه، وسوف أهزمه، وأعتقد إذا تبين لي أولًا أنني لا أواجه شيئًا يسبب لي ما يُسمى بؤسًا، أو أن يجعل أقاربي بائسين، ثانيًا إذا تحولت إليكِ وبرهنت أن الكثير الذي تحملينه برمته يعتمد عليَّ وليس من الصعب تحمله.

٤-٢ وسوف أتعامل أولًا إرادتك وما تريدين بشغف أن تسمعيه، فإنني لا أشعر بضائقةٍ، وإذا استطعتُ فسأوضح لكِ تلك الظروف التي تعتقدين أنها ترديني للأسفل يمكن تحملها، وإن وجدتِ أن هذا غير معقولٍ سأكون سعيدًا مع نفسي على الأقل؛ لأننى قد لممتُ بالظروف التي تجعل الناس بائسين عادة.

٤-٣ وما من حجة لكِ في أن تأخذي عني كلام الآخرين لأحميكِ من المصيبة لا يُدرك ما تدبره، وأخبرتكِ أنني لستُ مستاءً، وكي تقر عينكِ لا يمكن أن أكون مستاءً.

٥-١ إننا نولد في ظروف قد تكون مناسبة إذا لم نتخل عنها، ولا يحتاج نظام الطبيعة إلى عدة ناجزة للعيش على وجه حسن، فكل امرئٍ بمقدوره أن يجعل نفسه سعيدًا، والخيرات الظاهرة أهميتها زهيدة، وتمارس أثرًا ضئيلًا في اتجاه أو في آخر، فالحكيم لا يعبأ بالرفاهية ولا يُلقي بالًا للملمات؛ لأنه يسعى للاعتماد على ذاته دومًا، ويستمد سعادته من ذاته.

٥-٢ وهل أقول إنني حكيم؟ لا على الإطلاق! وإذا كنتُ أدَّعي بقدر ما، فلا أنكر

أنني مستاء، بل أعلن أنني أوفر حظًّا من كل جنس البشر، وأنني جلبتُ القرب من الرب، ولكن الأمور على ما هي عليه، وضعت نفسي بين يدي حكيم، وهذا كاف ليخفف عني كل ضائقة، فلست قويًّا بما يكفي لعون نفسي، وقد يكون ملاذي كوخ الآخرين(٩٤)، الذين يحمون أنفسهم وتابعيهم بسكون.

٥-٣ لقد أمروني أن أراقب باستمرار كجندي على الحراسة، وأن أستبق كل محاولة لضربة الحظ وهجومها قبل أن تعصف، فالحظ يسقط بثقله على مَن يباغتهم على نحو مفاجئ، وأما مَن يتحرص لهجومها فيقاومها بسهولة؛ لأن نهج العدو يربك فحسب الذين يُؤخذون على غرة، وأما الذين يعدون أنفسهم لحرب وشيكة قبل اندلاعها، فإنهم ينظمون ويجهزون لها، ويستوعبون الضربة الأولى بيسر وهي الأشد عنفًا.

٥-٤ لم أضع ثقتي في الحظ حتى حين يبدو سلامًا، وكل هذا يدر عليَّ بسخاء المال والمنصب المرموق والنفوذ، لقد تموضعت في مكان يمكنني أن أستدعيهم دون أن يحدث لي اضطراب، واحتفظت بمسافة بيني وبينهم، وكذلك أخذهم الحظ بعيدًا عني، ولم يقشرهم بعيدًا، ولا أحد يُكسر بمعاداة الحظ إذا لم يُخدع أولًا بفضله.

٥-٥ وأولئك الذين أحبوا عطاياها كما لو كانت أبديةً، والذين رغبوا في احترامها فيسجدون رياء بحزنٍ حين تتخلى مباهجها المتقلبة والزائفة عن عقولهم الصبيانية الفارغة، وهي متعجرفة كما لو كانت متعة أبدية، ولكن المرء الذي لا ينتفخ بالرخاء لا يضعف حين تتغير الأحوال، فقوة غايته مختبرة بالفعل، وعقله المعصوم مسالمٌ في مواجهة الحال؛ لأنه في خضم الرخاء يختبر قوته ليتغلب على السوء.

(٩٤) المدرسة الرواقية، ولكن تهمة الانشقاق عنها والانضمام للمعسكر المنافس وها الأبيقورية. انظر رسالة عن التفرغ *On Leisure 1.4*.

٥-٦ ولذلك لا أعتقد أن الأشياء التي يُصلي من أجلها الجميع فيها خير حق، ناهيك عن أني وجدتها عرضًا مزينًا بألوان جاذبة ولكن خادعة، ولا شيء فيها يشبه مظهرها الخارجي، وأسميها في أحوالي الحالية شقاء، ولا أجد شيئًا قد أخاف وأجار كما هددت هي بالاعتقاد المتفشي، حيث يقع المعنى الحقيقي للحرمان على الأذن بقوة الآن بسبب قناعة بعينها وشعور شائع، وإنه يضرب السامعين مثل شيء بغيض قاتم، وهكذا قد تقضي الجماهير بأمر، ولكن الحكماء يتجاهلون حكم الناس.

٦-١ ولذلك تجاهل حكم الأغلبية الذين يعبؤون بمظاهر الأشياء مهما كان دافع الثقة بها يتخلى عن اعتبار الحرمان أيًّا كان، وبالطبع تغير النطاق، حتى أتجنب أي انطباع أُضعف قوته وانمحت صفته الأسوأ، وترافق عوائق بعينها هذا التغير في المكان مثل الفقر والعار والاحتقار، وسوف أتناول هذه القضايا في وقت لاحق[٩٥]، وفي الوقت نفسه فإن السؤال الذي أضعه في الاعتبار هو ما يتبع الضائقة في التغير الفعلي للنطاق.

٦-٢ «الحرمان من وطنك لا يُطاق»، أسرع! وانظر على هذا الحشد الفسيح الذي بالكاد تستوعبه مباني المدينة الضخمة مهما اتسعت، فمعظم هذه الحشد قد ينفصل عن وطنه، لقد تجمعوا معًا من مدنهم ومستعمراتهم ومن العالم كله، بعضهم مندفع بالطموح، وبعضهم بمتطلبات الواجب العام، وبعضهم مكلفون بالأعمال الدبلوماسية، وبعضهم بانغماس الذات في طلب المكان الغني بالرذيلة، وبعضهم بالتوق للمعرفة الأسمى، وبعضهم بالعروض العامة، وبعضهم تجذبه الصداقة، وبعضهم بشهيته للعمل متطلعًا لمجال أرحب[٩٦] ليظهر للعيان طبائعه، وبعضهم يجلب بضاعته ويراقب البيع وبلاغة الآخرين فيه.

(٩٥) الفصول من ١٠ -١٣ في الأسفل.

(٩٦) كما لو أن سينيكا لا يزال في روما ليتصور المشهد.

٦-٣ لقد احتشدوا من كل صنف يمكن تصوره صوب المدينة التي تُثمِّن فضائلهم ورذائلهم، وتستدعي كلًّا باسمه وتسأل كلًّا منهم «من أين أنت؟»، وسوف تجد غالبهم قد تركوا منازلهم ليأتوا لهذه المدينة العظيمة والأعظم جمالًا بلا ريب ولكن ليس لهم.

٦-٤ ومن ثم انتقلي من هذه المدينة التي يُمكن أن يقال إنها تتبع الجميع، وزوري كل مدينة، حيث لا تخلو إحداها من نسب الأجانب الكبيرة، ومرِّي على هذه المدن التي يستقطب محيطها المبهج وموقعها المريح أعدادًا غفيرةً، وحوِّلي عقلكِ عن الأماكن المقفرة والجزر الوعرة مثل سكياتوس *Sciathus* وسيريفوس *Seriphus* وجيارا *Gyara* وكوسورا *Cossura* [٩٧]، ولن تجدي مكانًا للمنفى حيث لا يمكث المرء فى المنفى لمتعته.

٦-٥ فما الذي تجدينه عاريًا مثل هذه الصخرة[٩٨]؟ وما الوعر على كل جوانبه؟ وإذا تأملتِ موارده، فما الذي يمكن أن يكون متعريًا؟ وإذا نظرتِ شعبه، فما الذي يبدو أكثر وحشيةً؟ وإذا كانت تضاريس المكان فما الأكثر وعورة؟ وإذا كان الطقس متطرفًا، فقد عاش هنا الأجانب أكثر من أصحاب البلد، فتغيير المكان في حد ذاته مشقة، حتى إنه يطرد بعض الناس من وطنهم.

٦-٦ وأجد بعض[٩٩] الذين يقولون إن الفطرية لعقولنا دافع بعينه لتغيير السكن والانتقال من مكان لآخر؛ لأن جنس البشر مُنح عقلًا جوَّالًا ولا يهدأ، ولا تحط رحاله ويمضي في كل اتجاه، ويبث أفكاره في كل أينٍ معروف أو

---

(٩٧) أماكن النفي ثلاثة: الأول إيجي، والثاني بارين "*Barren*" في كوسورا *Cossura* انظر(*cf. Ovid Fasti 3.567*)، والثالث ما نحن بصدده الآن وهو بانتيللاريا *Pantellaria* وهي بين صقلية وشمال إفريقيا.

(٩٨) صُورت كورسيكا *Corsica* هنا بكآبة مبالغ فيها.

(٩٩) يتصور الرواقيون في هذا الحدس النفس جزءًا من البنيوما. وانظر ٦ ,٧. وانظر بحثنا عن البنيوما عند أرسطو ، مجلة كلية الآداب بقنا ، عدد ٤٣، ٢٠١٣ (المترجم).

مجهول، ولا يمكن للهائم أن يتسامح مع السكون ويأخذ بهجته العظمى في مقابلة الجديد والمختلف.

٦-٧ وهذا لا يسبب لكِ مفاجأة إذا تأملتِ أصوله الأولى، إنه ليس مؤلفًا من جوهر أرضي ثقيل، بل ينحدر من اللطف والنفثة السماوية(١٠٠)، والكيانات السماوية بطبيعتها جائلة وسريعة وتدفع بحركة رشيقة، وتأمل الكواكب التي تضيء العالم، التي لا يبقى منها واحد ثابتًا، فالشمس تنزلج على الدوام، وتتحول من مكان إلى آخر، ومع أنها تدور مع الكون وتتحرك في اتجاه معاكس للسماوات ذاتها(١٠١)، فإنها تمر بكل علامات البروج، ولا تتوقف حركتها كما لو أنها تهاجر من مكان إلى آخر.

٦-٨ كل الكواكب تنتقل دومًا في مداراتها ومساراتها وفقًا لقانون الطبيعة الذي لا يقبل الجدل، وتُنقل من مكان إلى آخر، وحين تثبت في المسار فترات للسنين فإنها تكمل دورانها وستستمر بطول الدروب التي سلكتها من قبل، ويا للعبث أن تتخيل أن العقل الإنساني الذي يتألف من نفس العناصر مثل الموجودات الربانية يسأم من الترحال وتغير المسكن، وفي حين يجد الرب المتعة على نحو طبيعي، وحتى يصون ذاته بالتواصل والحركة السريعة للغاية!

٧-١ وتحولي الآن من السماوي إلى الأمور البشرية، وانظري إلى الشعوب والقبائل كلها قد غيرت مسكنها، فما معنى أن المدن اليونانية في قلب المناطق البربرية؟ ولماذا سُمع اللسان المقدوني بين الهنود والفارسيين؟(١٠٢) وسيثيا *Scythia* وكل المناطق البرية والقبائل التي لم تُغْزَ تُظهر المدن الآخية

(١٠٠) انظر رسالة عن التفرغ ٥, ٥ .

(١٠١) النسبة إلى الأرض والشمس والقمر والكواكب التي تدور من الشرق إلى الغرب تعمل مثل النجوم الثابتة، ولكن الشمس والقمر والكواكب تدور أبطأ من النجوم الثابتة، والنسبة التي تحركهم من الغرب إلى الشرق في اتجاه معاكس. انظر صمود الحكيم ٤-١٤ وعزاء إلى ماركيا ٣-١٨.

(١٠٢) نتيجة للحملات الشرقية للإسكندر الأكبر.

التي أقيمت على شواطئ البحر الأسود، وليست قسوة الشتاء الدائم ولا طبيعة السكان وحشية مثل مناخهم، ولا تردع المهاجرين عن الإقامة هناك.

٧-٢ وهناك حشود للأثينيين في آسيا(١٠٣)، وقد أرسلت مالطية *Miletus* في اتجاهات مختلفة ما يكفي من الناس لملء خمسٍ وسبعين مدينة، وساحل إيطاليا كله غسله البحر الأدنى(١٠٤) وأصبح اليونان الكبرى، وأطلق على آسيا الأتروسكان *Etruscans*(١٠٥)، واستقر التيريان *Tyrians* في إفريقيا، والقرطاجيون في إسبانيا، وأُجبر اليونانيون نحو بلاد الغال(١٠٦)، والغال نحو اليونان، ولم يمنع البرانس *Pyrenees* الجرمانيين من العبور(١٠٧)، وقد شق ضجر البشر طريقه خلال المناطق التي لا طريق فيها والأطراف غير المعروفة.

٧- ٣ فالأطفال والزوجات والآباء الذين تقدم بهم السن ينخرطون في الفسحة، وبعض الناس يندفعون ذهابًا لتريضهم الطويل، ولم يختاروا وجهتهم عمدًا بل يستقرون بهدوء الأرض التي تقربهم، وآخرون وطدوا حقهم في بلد أجنبي بقوة السلاح، واجتيحت بعض القبائل بالبحر حين سارت في مناطق مجهولة، بينما استقر البعض في المكان، وقد تقطعت بهم السبل بسبب نفاد مؤنتهم.

٧-٤ ولم يكن لديهم الدافع نفسه للترحال والسعي نحو أرض جديدة. فبعضهم

---

(١٠٣) على سبيل المثال أيونيا الجانب الغربي لآسيا الصغرى.

(١٠٤) بحر توسكان *Tuscan* أو التيراني *Tyrrhenian* مقابل البحر الإدرياتيكي.

(١٠٥) وفقا للتراث كان التوساكانيون ليديون *Lydian* في الأصل (*cf. Herodotus 1.94*).

(١٠٦) اليونان: من المفترض أن يكون الفوكاين مؤسسي مارسيلليس *Marseilles* عبر كورسيكا بعد أن اختار معظم المواطنين الهجرة أثناء الحصار الفارسي عام ٥٤٠ ق.م (*cf. Herodotus 1.163–7, and see n. 20 below*).
والغال: الكلتيون وهي مجموعة واحدة وصلت إلى دلفي عام ٢٢٩ ق.م ، والأخرى عبرت هيللسبونت *Hellespont* واستقرت في آسيا الصغرى وأعطوا أسمهم الكلتي للغاليون.

(١٠٧) الخلط الممكن للجرمان مع الغال والغزاة الأوائل لإسبانيا الذين اندمجوا بالأيبريين *Iberians* لتشكيل غالتو أيبرين *Celtiberians*.

أدى تدمير مدنهم بهجوم العدو إلى الهروب إلى أراض أجنبية حيث نهبت ممتلكاتهم. وبعضهم تقاعدوا في البيت بسبب الخلاف السياسي. وبعضهم أُرسل لتخفيف العبء الناجم عن الكثافة السكانية المفرطة. وبعضهم كان مدفوعًا بالمرض وبسبب الكوارث المتكررة أو بعض النقص الذي لا يحتمل في التربة الجدباء. وبعضهم قد غُش بالأخبار المتزيدة عن الشاطئ الخصيب.

٧-٥ وقد يقود أناسٌ شتى أسباب عدة لترك بيوتهم، ولكن هذا الأمر جلي على الأقل، حيث لا يمكث أحدٌ في المكان الذي جاء منه إلى الوجود، وجنس البشر ينتقل باستمرار من هذا الاتجاه وذاك، والعالم يتسع للتحولات كل يوم، حيث تُبنى قواعد مدن جديدة، وتبزغ أسماء جديدة من الأمم، في حين قد تطمس القوى القديمة وتتحول تبعيتها إلى سلطة أقوى، ولكن هل كل حالات هجرات الناس ما هي إلا نفي طائفي؟

٧-٦ ولماذا أجركِ في دائرة مطولة؟ ولماذا تنزعجين لذكر أنتينور *Antenor* مؤسس بادوا *Padua* وإيفاندر *Evander* الذي أنشأ مملكة أركاديان على ضفاف نهر التيبر؟، ولماذا تذكرين ديوميديس *Diomedes* وآخرين على أنهم مقهورون مثل الغزاة الذين انتشروا في الأراضي الأجنبية بسبب حرب طروادة؟

٧-٧ ومن المؤكد أن الإمبراطورية الرومانية ذاتها تنظر إلى المنفى[١٠٨] مثل مؤسسها اللاجئ من مدينة أسيرة والذي أخذ معه قليلًا من الناجين منها، والذي أجبر بالخوف من الغزاة أن يُنفى لأطراف بعيدة، وقد انتقل إلى إيطاليا، وكم من المستعمرات قد أرسلت إلى المقاطعات! فأينما غزا الرومان استقروا، والناس وضعوا أنفسهم لهذا النوع من الهجرة، وحتى القدامى تركوا مذابحهم واتبعوا مستعمري ما وراء البحار.

(١٠٨) أينياس *Aeneas* في التاريخ الواسع للهجرات واضح في الفصل السابع، وأسطورة تأسيس روما هي ذاتها مُعاير بالارتباط بمثل هذه الرحلات: انظر تقديمي لهذا المقال.

٧-٨ ولا يحتاج هذا الموضوع قائمةً أخرى من الحالات، ولكن مع ذلك سوف أُضيف واحدة تفرض نفسها على انتباهي، وهي تلك الجزيرة التي كثيرا ما تُغير سكانها، وللمرور على تاريخها المبكر الذي عتمه مرور الزمن الطويل، فالإغريق الذين تركوا فوكيس *Phocis* ويقطنون الآن ماسيليا استقروا على هذه الجزيرة أولا[١٠٩]، فما دفعهم لتركها غير واضح، فهل قسوة المناخ أم وجهة نظرهم عن قربها من سلطة إيطاليا المتميزة، أم قلة موانئها، ولكن السبب الواضح ليس في وحشية سكانها الأصليين، نظرًا لأنهم استقروا بين أشد شعوب الغال تخلفًا وعنفًا في ذلك الوقت.

٧-٩ وعبر الليغوريين إلى هذه الجزيرة في وقت لاحق، وكذلك الإسبان كما هو واضح من عاداتهم المتشابهة، حيث يرتدي سكان الجزيرة مثل الكانتابريانيين *Cantabrians* نفس النوع من الأحذية وغطاء الرأس، ناهيك عن تشابه كلمات بعينها، وبعضها فقط؛ لأن لغتهم كلها فقدت طابعها الأصيل بارتباطها باليونانيين والليغوريين[١١٠]، وقد أُسست مؤخرًا مستعمرتان لروما؛ الأولى أنشأها ماريوس *Marius*، والثانية أقامها سوللا *Sulla*[١١١]، وهكذا قد تغير سكان هذه الصخرة القاحلة الوعرة!

٧-١٠ وخلاصة القول: من النادر أن تجد أرضًا لا تزال يعيش بها سكَّانها الأصليون، وكل السكان مركب خليط وسلالة غريبة، وقد قدمت الشعوب بعد أخرى، وما يزدريه شعب يرغبه بشدة شعب آخر، وقد يلفظ شعب آخر ليدفعه خارج

---

(١٠٩) هجرة الفوشيد *Phocide* خطأ إلى الفوشيين في آسيا الصغرة خطأ (وأسس الفوشيين *Phocaeans* (انظر هامش ١٧ في الأعلى)، إذ سمح الاستعمال في الواقع تطبيق كلمة الفوشيد *Phocis* بشكل خاطئ للفوشيين (*cf. OLD Phocis 1b*).

(١١٠) ويترتب على ذلك أن اللغة الكورسيكانية *Corsican* كانت كانتابريان- إسبانية، وتضررت بمرور الزمن بتأثير الفوشيين والليجوريين.

(١١١) كولونيا ماريانا *colonia Mariana* فى ١٠٠ ق.م وسولان أليريا *Sullan Aleria*.

ذاته فحسب، وهكذا بأمر القدر لا شيء يبقى على حاله للأبد.

٨-١ وموازنة التحول الفعلي للمكان، وحجب المساوئ الأخرى التي تلحق المنفى. تمسك فارو *Varro* [١١٢] أكثر الرومانيين تعلمًا بكفاية هذا العلاج أينما قدمنا وتجربتنا حتمًا نفس النظام من الطبيعة، ويعتقد ماركوس بروتوس[١١٣] أن التعويض الكافي للمنفيين أن يأخذوا فضائلهم معهم.

٨-٢ ولو كان هناك رأي يحكم هذين الاعتبارين، فهو ليس كافيًا للراحة في المنفى بشكل فردي، بل يقبل أنها فعالة للغاية في حال الجمع، وكم من القليل ما نفقده بالفعل! أينما نمضي، فمن أجمل ما ينسب إلينا أن يذهب معنا الاثنان الطبيعة الكلية والفضيلة الفردية.

٨-٣ صدقوني، هذا كان مقصودًا ممن صنع الكون، سواء أكان ربًّا كلي القدرة أم سببًا روحانيًّا قادرًا على إنتاج أعمال واسعة، أم نفثة إلهية تنشر الأشياء كلها من الأكبر إلى الأصغر بتوتر موحد، أم قدرًا وتسلسل علل مترابطة غير قابلة للتغير[١١٤]، لذا أقول كان المقصود لا شيء، إلا أنه لا قيمة لممتلكاتنا وهي تحت إمرة أحد آخر.

٨-٤ وكل ما هو خير يكمن خلف سيطرة البشر، وليس بمقدورنا أن نمنح ولا نتخذ طريقًا، فهذا العالم الذي هو أعظم خلق وأجل هبة للطبيعة، والعقل الذي يطالع العالم ويتعجب فيه والأعظم مجدًا له، هذه هي ممتلكاتنا الدائمة لأجل غير مسمًّى التي تبقى معنا طالما بقينا على قيد الحياة.

٨-٥ وهكذا الواثق والمتحمس يدعنا نسرع بخطوة شجاعة إلى حيث تقودنا

---

(١١٢) تيرينتوس فارو *M. Terentius Varro* ١١٦-٢٧ ق.م من الباحثين البارزين في عصره، والعبارة المنسوبة له في عمل مفقود.

(١١٣) جونايوس بروتوس (٨٥-٤٢ ق.م) متأمر ضد يوليوس قيصر، وعبارته هنا ربما تكون من كتابه المفقود عن الفضيلة.

(١١٤) تسميات رواقية مختلفة للقدرة التي شكلت الكون. انظر *On Favors 4.7–8, Natural Questions 2.45*.

الظروف، ويدعنا نسافر إلى أي أرض مهما كانت، فليس هناك مكان موجود في العالم يمكن أن يكون منفًى، فلا شيء غريب في العالم تغترب فيه البشرية[١١٥]، فمن أي مكان على وجه الأرض ترفع عينيك نحو السماوات على مبدأ سواء، والمسافة بين كل الأمور الربانية وكل الأمور البشرية هي دومًا سواء.

٨-٦ وطالما عيني ليست بعيدةً عن المشهد الذي لا يمكنهم أن يحملقوا فيه كفاية، وطالما بمقدوري مشاهدة الشمس والقمر، ونظري ثابت على الكواكب الأخرى، والمسافات بين الحادثات وأسباب حركتها البطيئة والسريعة، وطالما أراقب النجوم المتلألئة طوال الليل، فبعضها ثابتٌ والآخر يدور في نطاقه ولا يرحل عنه إلى مسافة بعيدةً، وبعضها ينفجر فجأة، وبعضها يُبهر أعيننا بالنار المنشورة كما لو كانت تتساقط، أو تحلق في درب طويل بضياءٍ زاهٍ، وطالما أُناجي هذه بقدر ما يمكن للإنسان أن يُخالط الأشياء الربانية، وطالما أُبقي عقلي ساعيًا للتأمل في الموضوعات اللطيفة- وماذا تحدث لي الأرض التي أدوسها؟

٩-١ «ولكن هذه الأرض لا تنتج أشجارًا مثمرة بالفاكهة أو الورق، ولا تُروى بقنوات لأي أنهار كبيرة أو قابلة للإبحار فيها، إنها لا تنتج شيئًا مما تريده الأمم الأخرى، وبالكاد تثمر ما يكفي سكَّانها، لا تستخرج أحجارًا ثمينة هنا، وليست ملغومة بعروق الذهب والفضة.

٩-٢ والعقل الضيق هو الذي يبتهج بالأمور الدنيوية، وينبغي أن تتوجه إلى تلك الموضوعات التي يتساوى فيها الظاهر من أي نقطة للنظر، ومن أي نقطة

(١١٥) وقرأها رولاند *fill the lacuna in nullum inueniri exilium intra mundum <potest; nihil enim quod intra mundum> est alienum homini est*. ليس من مكان يكون مقامًا للمنفى في العالم، ولا غربة للإنسان في العالم.

يتساوى فيها النظر، وشيء آخر يوضع في الاعتبار، وهو أن الموضوعات الدنيوية تحجب رؤيتنا عن الخير الحق لاعتقادنا المغلوط في الخير الكاذب، حيث توسع الشعوب مستعمراتها كلما رفعت أبراجها، ووسعت رقعة وطنها، وعمقت حفر كهوفها الصيفية[١١٦]، وكلما زادت البنية الضخمة التي ترفع أسقف رَدَهات مآدِبُهم، فإن المزيد من هذا سوف يحجب السماوات عن أبصارهم.

٩-٣ وقد يُلقيك سوء الحظ نحو منطقة حيث أعظم ترف للمأوى هو مجرد كوخ، وحقًّا يظهر لك ضيق الأفق الذي يُواسي ذاته ببخل إذا وضعت مع هذا الإقدام فحسب؛ لأنك تعرفين كوخ رومولوس[١١٧]، والأحرى أن تقولي لنفسكِ: «هل هذا الكوخ المنخفض فيه غرفة أتخذها للفضائل؟ قريبًا تصبح أجمل من كل المعابد حينما تُرى العدالة هناك والتسامح والحكمة والبر ونظام لتقسم كل الواجبات كما ينبغي ومعرفة الأمور الإنسانية والربانية، وقد لا يُحدد مكان يأوي كثرة هذه الفضائل، ولا يصعب منفى على التحمل حين تدخله في هذه الرفقة».

٩-٤ يقول بروتوس *Brutus* في الكتاب الذي كتبه عن الفضيلة[١١٨]، إنه رأى ماركيليوس *Marcellus* في منفى ميتيلين، يعيش سعيدًا كما تُجيز الطبيعة البشرية، ولم يُكرس للدراسات الحرة وقتًا كبيرًا كما هو الآن[١١٩]، وهكذا يضيف أنه حين حددوا عودته من المنفى دون ماركيليوس، شعر بأنه ذاهب

(١١٦) كهوف متكلفة للهروب من الشمس مثل كهف فاتيا *Vatia*. انظر *Letters 55.6*.

(١١٧) واحد من كوخين متواضعين سقفه من القش، وعرف بكوخ روميلو، وكان أحدهما على البالاتينو *Palatine*، والآخر على الكابيتول، وحفظا كآثار قديمة ترمز لبدايات روما المتواضعة.

(١١٨) انظر ١,٨ هامش ٢٤ أعلى.

(١١٩) كلاوديوس مارسيلوس قنصل عام ٥١ ق.م، كان منافسًا قويًّا ليوليوس قيصر الذي تقاعد في ميتيليني *Mytilene* بعد أن قاتل بومبي الخاسر من معركة فارسالوس *Pharsalus* عام ٤٨، وقد وافق القيصر على عودته لروما، ولكنه قُتل في بيريوس *Piraeus* عام ٤٥.

إلى المنفى أكثر من أنه ترك ماركيليوس في المنفى.

٩-٥ كم كان ماركيليوس محظوظًا حين فاز باستحسان بروتوس في المنفى أكثر من كسبه استحسان الدولة لظفره بلقب القنصل! وكم هو عظيم ذلك الرجل الذي جعل بروتوس يشعر كأنه في المنفى حين فارق المنفى! وما هذا الرجل الذي استقطب إعجاب أحدًا ممَّن أعجبوا حتى بكاتو نسيبه(١٢٠).

٩-٦ ويقول بروتوس أيضًا إن جايوس قيصر(١٢١) قد أبحر إلى ميتيلين؛ لأنه كان لا يحتمل أن يُلطخ رجلًا عظيمًا بالعار، وأقر مجلس الشيوخ استدعاءه بتوسل عام، وبدت على الجميع حالة القلق والحزن، وهي نفس المشاعر التي انتابت بروتوس في هذا اليوم، وكان توسلهم ليس لأجل ماركيليوس، بل لذاتهم خوفًا من شعورهم بالنفي أن رحل عنهم ماركيليوس، ولكنه حقق الكثير في هذا اليوم حين لم يحتمل بروتوس رحيله أو أن يراه قيصر في المنفى؛ لأنه تلقى شهادة من كليهما حيث حزن بروتوس لعودته دون ماركيليوس وتورد خجل القيصر.

٩-٧ هل تشكين في أن هذا الرجل العظيم المبجل غالبًا ما يُشجع نفسه باتزان كلمات مثل هذه؟ «ففقدانكِ وطنكِ ليس علة للضيق، وأنتِ غارقة في دراساتك كما كنتِ، وتعرفين أن كل مكان هو وطن للحكيم، إلى جانب هذا أليس هو الرجل الذي أبعد نفسه عن وطنه عشر سنوات متتالية؟(١٢٢) وكان السبب توسيع الإمبراطورية بلا شك دون وطنه.

٩-٨ وانظري الآن يُجر إلى إفريقيا التي تعج بتهديد تجدد الحرب، ويُجر نحو إسبانيا التي تُعيد إحياء قوة المعارضة المكسورة والممزقة، ويُجر نحو مصر

(١٢٠) كان بروتوس صهر بوركيوس كاتو (٩٥- ٤٦ ق.م) وهو معتنق للرواقية والمذهب الجمهوري.

(١٢١) هنا يوليوس قيصر، ولكن كان الحديث عن كاليجولا في ١٠-٤ في الأسفل.

(١٢٢) من عام ٥٨-٤٩ ق.م كانت فترة حروب قيصر الغالية *Gallic*.

الغادرة[١٢٣]. وباختصار نحو العالم كله الذي يراقب عن كثب فرصة ضد الإمبراطورية الواهنة، وما المشكلة التي تواجهه أولًا؟ وإلى أي طرف من العالم سوف يركن أولًا؟ سيدفعه انتصاره نحو كل أرض، ودع الأمم تُعجب به وتعبده، ويعيش ما حيا إعجابًا في بروتوس!.

١٠-١ تحمل ماركيليوس منفاه على نحو حسن، ومن ثم لم يُحدث تغيير مكانه أي تغيير في عقله مطلقًا، رغم أن الفقر قد ذهب معه هناك، ولا شيء كارثي في الفقر كما يعلم الذين لم يدفعهم جنون الطمع والانغماس المفرط الذي يُفسد كل شيء، فكم هي زهيدة القيمة المطلوبة لدعم الإنسان! ومَن الذى يفتقر إلى هذا إن يمتلك أي فضيلة أيًّا كانت؟

١٠-٢ أما فيما يتعلق بمسألتي التي أركز عليها، فإنني أعلم أنني لم أفقد ثروة، بل انشغلت بالتفكير فحسب، وحاجات الجسد بسيطة، إنه يرغب في البارد ليحفظه، ويسكن ألم الجوع والعطش بزاد أساسي، وإذا تُقنا إلى شيء أكثر فإننا نُجهد أنفسنا لأجل رذائلنا وليس لاحتياجاتنا، ولست في حاجة إلى أن تطهر كل محيط وأن تُحمل المعدة بمجزرة حيوانات أو تجلب طعام البحر من الشاطئ المجهول لأبعد البحور، فالأرباب والربوبية تدمر الذين تتجاوز أذواقهم المرفهة حدود الإمبراطورية التي تثير الحسد بالفعل!

١٠-٣ إنهم يرغبون في طريقة من وراء فاسيس *Phasis*[١٢٤]؛ ليزودوا مطابخهم الفاخرة، ولا يشعرون بالخجل في محاولة الحصول على لحم الدجاج من البارثيين *Parthians*، أو حتى من عند الذين بيننا وبينهم ثأر[١٢٥]، ومن كل الأطراف التي يجمعون منها كل شيء يعرفه الحنك المُنعم، ومن طعام أعماق

---

(١٢٣) كان قيصر في مصر عام ٤٨-٤٧ ق.م وسميت مصر "الغادرة" لقدر بومبي بها. انظر *On the Shortness of Life* (*13.7 and n. 28*).

(١٢٤) نهر في كولشيس *Colchis* يتدفق نحو الجانب الشرقي للبحر الأسود.

(١٢٥) بعد هزيمة كراسوس المشينة في كارهاي *Carrhae* عام ٥٣ ق.م.

المحيطات الذي ينقلونه إلى بطونهم، ووهنوا بحياتهم المرفهة وأصبحوا بالكاد يستوعبوا، إنهم يتقيؤوا ليأكلوا ويأكلوا ليتقيئوا، ويستقصون الولائم من جميع العالم ولا يتنازلون فيها عن النبش، ولو أنكر الإنسان هذه الأشياء فكيف يمكن أن يضره الفقر؟ وإذا كان الإنسان يتوق لهم فإنه يستفيد حتى من الفقر، ويشفي رغم أنفه، وإذا لم يتجرع دواءه حتى تحت إكراه على الأقل لفترة لعدم مقدرته للحصول على مثل هذه الأشياء يماثل ضعف الرغبة لها.

١٠-٤ جايوس قيصر[١٢٦] الذي ولدته الطبيعة، يبدو لي أنه اقترف إثمًا حيث جمع علية السلطة على العشاء، وقد تكلف عشرة ملايين سيستيركس والكل تفانى في عونه لتحقيق هذه الغاية، لقد أنفق الضريبة التي جمعها بالكاد من ثلاث محافظات في عشاء واحد.

١٠-٥ ويا للبؤس مَن لا تُحفَّز شهيتهم إلا بالطعام المكلف؛ لأن ما يجعله مكلفًا ليس نكهته الطريفة أو الإحساس المبهج في الحلق، بل ندرة وصعوبة الحصول عليه، ولو عاد هؤلاء إلى الحكمة طوعًا فلمَ الحاجة إلى المهارات الشتى للمحترفين التي تخدم البطن؟ وما الحاجة إلى الاستيراد أو تدمير الغابات أو مخر البحر؟ وكل ما أعدته الطبيعة من طعام متاح في كل مكان، ولكن هؤلاء يمرون عليه كالأعمى، فيجوبون كل بلد ويعبرون البحار رغم أنهم يمكن أن يسدوا جوعهم بتكلفة زهيدة بدلًا من النفقة الكبيرة.

١٠-٦ أشعر وكأنني أقول لهم: «لماذا تطلقون سفنكم؟ ولماذا تشهرون سيفكم على البشر والبهائم؟ ولماذا تندفعون بفوضى عارمة؟ ولماذا تكدسون الثروة على الثروة؟ ألم تنظروا كيف أن أجسادكم هي ضئيلة؟ أليس جنونًا ونهمًا مفرطًا أن ترغب في الكثير في حين يكفيك القليل؟ وهكذا ربما تُزيد منفعتك وتُمدد أرضك، ولا تستطيع أن تُوسع قدرة جسدك، ورغم أن عملك قد

(١٢٦) كاليجولا، وراجع ٦، ٩.

يزدهر، وتجلب خدمتك العسكرية لك طائل، وتتعقب الطعام وتجمعه من كل حدب، وقد لا تجد مكانًا تخزن فيه مؤنك الفاخرة.

١٠-٧ لماذا يطاردون أشياء عدة؟ أنا أسألكِ! إن أسلافنا الذين تسند فضائلهم رذائلنا كانوا تعساء بلا ريب؛ لأنهم قدموا الطعام لأنفسهم بأيديهم، وكانت الأرض سريرهم؛ لأن بيوتهم لم تلمع بالذهب ولم تسطع معابدهم بالأحجار الكريمة، وفي هذه الأيام يكون القسم جليلًا بالحلف بآلهة الطين[١٢٧]، وهؤلاء يتوسلون للآلهة أن يرجعوا للعدو حتى لو كانوا متحققين من الموت أكثر من أن يكسروا كلمتهم[١٢٨].

١٠-٨ لا شك أن ديكتاتورنا[١٢٩] الذي استمع إلى مبعوثي السامانيين *Samnites*، كما طبخ أبسط نوع من الطعام بيده، تلك اليد التي وجهت للعدو على الغالب ووضعت إكليل النصر في حضن كابيتولين جوبتر *Capitoline Jupiter*، هذا الرجل عاش أقل سعادةً من أبيكيوس *Apicius* [١٣٠] في ذاكرتنا، وهو الذي ألقى دروسًا في الطبخ في المدينة التي طُرد منها الفلاسفة[١٣١] من قبلُ على أساس إفساد الشباب، وهو الذي دنس عمره بتعاليمه، و«جدير أن تعرف نهاية أبيكيوس».

١٠-٩ وبعد أن سكب مئة مليون سيستركس في مطبخه، وبعد أن جرع كل واحد

---

(١٢٧) لهذا الرمز من البساطة. راجع *Letters 31.11*.

(١٢٨) إشارة إلى أتيليوس ريجولس *M. Atilius Regulus* بطل الحرب البونية الأولى *Punic War* ، والذي قبض عليه القرطاجيون *Carthaginians*، وأُرسل إلى روما عام ٢٥٠ ق.م للتفاوض إما على السلام وإما على تبادل السجناء، ولكنه حث مجلس الشيوخ على رفض كلا الاقتراحين، وبعد أن استوفى شروط إفراجه عاد إلى قرطاجة حيث عُذب حتى الموت، انظر أيضا ١٢, ٥ .

(١٢٩) كوريوس دينتاتوس *M.' Curius Dentatus* راجع *On the Shortness of Life 13.3 and n. 22* .

(١٣٠) جافيوس أبيكوس *M. Gavius Apicius* عالم سيئ السمعة في عهد تريبتيوس (*cf. On the Happy Life 11.4*)، والذي أصبح اسمه مرادفًا للانغماس الشره.

(١٣١) عام ١٦١ ق.م.

متعته بما يعادل عطايا الإمبراطورية الكثيرة وإيرادات الدولة الجمة من الكابيتول تغلبت عليه الديون وأجبرته أن يراجع بعناية حساباته للمرة الأولى، وعد ما تبقى وهو عشرة مليون سيستريكس، كما لو كان محكومًا عليه أن يعيش في مجاعة مفرطة إن لم يوجد سوى عشرة ملايين سيستريكس، ومن ثم انتحر بالسم.

١٠-١٠ يا للفخامة إذ تعد عشرة ملايين حدًّا للفقر بالنسبة له! ويا لها من حماقة أن تفكر أن الأمور تحسب بمقدار المال لا بغنى العقل! امرؤ ارتعد في عشرة ملايين سيستريكس وهرب بالسم، فبمَ يتوسل الآخرون! والحقيقة أن رجلًا بمثل هذه العقلية الفاسدة كان الشراب الأخير معافاة له، حيث لم يكن تمتعه بمآدبه التي لا حد لها بسيطًا، وكان يجاهر برذائله، ويُلفت انتباه المدينة إلى مسالك بهرجته، ويثير الشباب لتقليده وهم قابلون للتأثير دون أمثلة للإفساد، ولذلك كان حقًّا عليه أن يأكل السم ويشربه.

١١-١٠ وتُصيب هذه النهاية الذين لا يقيسون ثروتهم بمعيار العقل الذي ثبتت حدوده، ولكن الرغبة الفاسدة مَيّعت حدوده وصارت غير مألوفة، فلا شيء يكفي الطمع، ولكن قليل الطبيعة يكفي، ولذا لا ينطوي فقر المنفى على شقاء، حيث لا يفتقر أي مكان للنفي على حد كفاية للمرء.

١١-١ «ولكن سيشعر في المنفى بفقدان ملابسه وبيته»، إذنْ سوف يفتقد هذه الأشياء بمدى احتياجه إليها، ولن يفتقر إلى المأوى والملبس الأساسي؛ لأن القليل يحمي الجسد وكذلك يطعمه، ولم تجعل الطبيعة ما هو ضروريًّا للبشر صعبًا في الحصول عليه.

١١-٢ ولكنه يتوق للكسوة الأرجوانية المرصعة بالذهب، والتي تتلألأ بالرسوم والألوان المختلفة، إنه ليس خطأ الحظ، بل خطؤه، إن كان يشعر بالفقر، وحتى لو رددت إليه ما فقده أيًّا كان، فإنك لن تُنجز شيئًا؛ لأن رغباته سوف

تجعله أشد حرمانًا، وما استعاده من ممتلكاته الآن سوف يجعله يشعر بالمنفى.

١١-٣ ولكنه يتوق للمآدب التي تلمع آنيتها بالذهب وصحائف الفضة التي تتميز بأسماء حرفييها القدامى، والبرونز الذي كُلف بجمعه من قلة مهوسين، وحشود العبيد يكتظ بها المنزل، والحيوانات التي سُمنت قسرًا، والرخام من كل قطر، ورغم أن هذه الأشياء التي احتشدت، إلا أنها لا تُرضي نفسه التي لا تشبع، وكذلك لن تكون كمية أي سائل كافية لترضي الرجل الذي يُشيط اللهيب بواطنه وليس العوز للماء؛ لأن هذا ليس عطشًا بل مرضًا.

١١-٤ ولا ينطق هذا على المال والطعام فحسب، فكل رغبة تنشأ لا عن حاجة، بل عن رذيلة وصفتها كذلك، ورغم كثرة ما تكرسه لها فلن يكون هذا نهاية للرغبة، ولكن مرحلة فيها فقط، ولذا مَن يُبقي نفسه في الروابط التي تحددها الطبيعة، لن يشعر بالفقر، وأما مَن يمضي وراء هذه الروابط، سوف يستشعر الفقر، حتى لو كان بين أعظم ثروة، وأماكن المنفى كافية للضروريات وليست ممالك للوفرة.

١١-٥ ما يصنعه الأثرياء هو العقل الذي يرافقنا في المنفى وفي البرية المتوحشة، فحين يجدون ما يكفي ليسند الجسد، فإنهم يغتبطون بخيراته الوافرة، ولا يهمهم المال بل تشغلهم الأرباب الخالدة.

١١-٦ وكل هذه الأشياء من رخام وذهب وفضة ومناضد مصقولة كبيرة مدورة تفوز بها عقول تافهة وتعلق بأجسادهم، وكلها أعباء دنيوية، وليست محببة للعقل الذي لا تشوبه شائبة وواعٍ بطبيعته الحقة؛ لأنه منير ولا يعبأ بشيء ويرتفع للسماوات العلى في الوقت الذي يتحرر فيه من الجسد، حيث لا تعيقه أطرافنا ولا عبء اللحم الثقيل الذي يحيط به، ويحلق فوق الأشياء الإلهية بومضات خفيفة للفكر.

١١–٧ وكذلك لا يمكن للعقل أن يُنفى أبدًا، وهو محرر بما هو، وقريب للأرباب، ومساوٍ لكل العالم وكل الأزمان؛ لأن فكره يتحرك حول السماوات كلها، وقد مُنح مدخلًا لكل الأزمان سواء الماضي أو المستقبل(١٣٢)، أما هذا الجسد فمجرد سجن للنفس وقيد لها، يقضي فيه العقل عقوبةً وُقعت عليه وأمراض وضعة، ولكن العقل ذاته مقدس وأبدي، ولا يمكن أن تُوضع عليه يد قوية.

١٢–١ وإن اعتقدت أنني أستعمل تعاليم الفلاسفة للتقليل من مشقة الفقر التي لا يفكر في أنها مرهقة سوى مَن يفكر فيها كذلك، وتاما أولًا أن نسبة الفقراء تزداد كثيرًا، وسوف تُلاحظ أقل تعاسةً واضطرابًا من الأغنياء، وأعتقد أنهم أقل في شكواهم التي تُلهي عقولهم، وأسعد منهم.

١٢–٢ ودعونا نمر على الأغنياء، فكم يظهرون في كثير من المناسبات مثل أصحاب الفاقة! وحين يرتحلون تكون أمتعتهم محدودة، وحين تجبرهم قيود رحلتهم على العجلة، وينبذون حشودهم التي ترافقهم، وحين يؤدون الخدمة العسكرية الفعلية يبقون جزءًا بسيطًا من متاعهم؛ لأن الانضباط في المعسكر يحظر جميع الأدوات الفاخرة!

١٢–٣ وليست الظروف الخاصة بالعصر والمكان هي التي تضعهم على قدم المساواة مع أصحاب الحاجة، فحين يقبض عليهم ملل ثروتهم يخصون أيام بعينها ليتناولوا طعامهم على الأرض ويطرحون صحائف الفضة والذهب جانبًا ليستعملوا أطباق الفخار، فيا لهم من مجانين! إنهم يرهبون حالة الفقر التي يحنون إليها أحيانًا! ويا لظلام العقل، ويا للجهل بالحق الذي يُعمي أولئك الذين يضطربون خوفًا من الفقر(١٣٣)، والذين ينهلون المتعة بالزيف!

١٢–٤ وكلما نظرت على أمثلة الماضي أخجل من ألَّا أجد عزاء للفقر، فقد تفسخ

---

(١٣٢) راجع *On the Shortness of Life 15.5*.

(١٣٣) وتكملة فاهلين *Vahlen* في اللاتينية يضل الذين يخشون الفقر *excaecat, quos timor paupertatis*.

بذخ العصور إلى الدرجة التي يسمح فيها الانتقال إلى المنفى بأكثر مما يخلفة إرث القدماء، ونعلم جيدًا أن هوميروس كان له عبد واحد، ولأفلاطون ثلاثة، ولم يقتنِ زينون المؤسس الأساسي للرواقية عبدًا، وهل أي أحد تفترض أنهم عاشوا حياة بائسة من دونه، وبالتالي يبدون للجميع بائسين؟

١٢–٥ مينينيوس أجريبا *Menenius Agrippa*(١٣٤) الذي كان وسيطًا بين الشريف النبيل *patricians* والعامي الروماني لحفظ سلام الدولة دُفن بهبة عامة، وأتيليوس روجولوس (*Atilius Regulus*) (١٣٥) الذي كان يوجه القرطاجيين في إفريقيا، كتب للسوناتو أن يده المستأجرة قد ذهبت، تاركًا مزرعته مهجورة، فقرر السوناتو في غياب روجولوس أن تؤول مزرعته لنفقة العامة، أليس من لديه أجرة الدفع للعبد فالشعب أولى بأن يكون المزارع المستأجر؟

١٢–٦ وتلقت بنات سكيبيو(١٣٦) مهرًا من الخزانة العامة؛ لأن أباهم لم يترك لهم شيئًا، وكان من المقبول للشعب الروماني أن يدفع سكيبيو الضريبة مرة واحدة حيث كان يخرجها دومًا من قرطاجة، وكان أزواج البنات محظوظين أن يكون الشعب الروماني حماهم! وهل تعتقد أن البنات الذين تزوجوا بمهر مليون سيستركيس أكثر سعادة من سكيبيو، فهؤلاء البنات قد تلقوا من السوناتو كفالتهم بوزن من النحاس كمهر؟

١٢–٧ هل يمكن أن يشعر أي أحد بالازدراء للفقر حين تعرض هذه النماذج المميزة؟ وهل للمنفى أن يحزن من أنه يفتقر لشيء ما في حين افتقر سكيبيو للمهر ورجويليوس لليد المستأجرة ومينينيوس لثمن الجنازة؟ ومتى تُلبى حاجة كل هؤلاء على نحو شريف لأنهم كانوا في حاجة؟ وهكذا بمثل هذه الدعوى

---

(١٣٤) قنصل عام ٥٠٣ ق.م، وعلى ما يبدو أنه أقنع عامة الرومان *plebeians* بعقم انفصالهم عن روما ٤٩٤.

(١٣٥) انظر ١٠, ٧ و هامش ٣٩ أعلاه.

(١٣٦) انظر *On the Shortness of Life 17.6* وهامش ٤٤.

التي نتوسل بها، فإن الفقر ليس ضمانة للإعفاء بل هو محبب فحسب.

١٣-١ ولهذا قد يكون الرد: «لماذا تفصل بشكل غير طبيعي العوامل التي ذكرتها التي يمكن تحملها على نحو فردي ولا تدمجها؟ فتغيير المكان يمكن تحمله إذا غيرته فحسب، والفقر يمكن أن تطيقه إذا لم ينطوِ على عار كفيل بأن يسحق الروح».

١٣-٢ وفي الرد على أي أحد يحاول تخويفي بكتلة من المتاعب، فهذا يحتاج مني أن أقول: «إذا كنت محصنًا بما فيه الكفاية من جانب واحد للحظ، فإن الشيء نفسه ينطبق على كل الجوانب، فقد تُقوي العقل فضيلة واحدة، وتجعله محصنًا من أي جهة، وإذا خفف الجشع والأوبئة التي تفترس جنس البشر قبضتها عليك، فإن الطموح لن يعيقك، وإذا نظرت إلى يومك الأخير على أنه ليس عقابًا بل على أنه قانون الطبيعة، فلا تخشَ شيئًا يجرؤ أن يدخل صدرك ويخيفك من الموت.

١٣-٣ ولا تعتقد أن الرغبة الجنسية قد مُنحت للإنسان لأجل المتعة، بل من أجل تواصل جنس البشر، فأحيانًا تهرب من هذا البلاء الخفي الذي غُرس في حيواتنا، وقد ترحل عنك رغبات أخرى دون أن تمسها، ولا يضرب العقل الرذائل واحدة تلو الأخرى، بل جميعها في آن، والنصر قطعي ونهائي».

١٣-٤ هل تعتقد أن أي حكيم يركن إلى ذاته كليًّا ويحتفظ لنفسه بمسافة من رأي العامة الذي قد يصيبه بالعار؟ والموت المشين أسوأ حتى من العار، ولذا واجه سقراط السم بنفس التعبير الذي تحلى به حين أخفض الطغاة الثلاثين[١٣٧]، وثبت ليزيح أي عار حتى من السجن[١٣٨]؛ لأنه لا محل حيث يبدو سقراط مسجونًا.

---

(١٣٧) "الطغاة الثلاثون" تشير إلى الأوليجاركية التي استولت على السلطة في نهاية الحرب البلوبونيزية *Peloponnesian War* (٤٠٤- ٤٠٣ ق.م). ولتحدي سقراط انظر محاورة الدفاع *32c-d* ومسرحية السحب لأكسينوفان *Xenophon Memorabilia 1.2.32*.

(١٣٨) بعد إدانته عام ٣٩٩ ق.م. انظر *On Leisure 8.2*.

١٣-٥ ومَن الذى يعمى عن حقيقة أن ماركوس كاتو قد لقي هزيمة مزدوجة في سعيه للحصول على لقب البرايتور والقنصل[١٣٩] وكان عارًا عليه؟ وقد حل العار على البرايتور والقنصل الذي كسب الوجاهة بترشيح كاتو.

١٣-٦ ولا أحد يُحتقر من آخر إن لم يكن قد احتقر نفسه أولًا، وربما يوجه العقل الخنوع والذليل ذاته لإهانة الآخرين، ولكن المرء الذي يقتلع ذاته ليواجه المصائب الصعبة ويتغلب على الشرور التي تطغى على الآخرين يرتدي أحزانه كعلامة للوجاهة؛ لأن نزعتنا لهذا لا تقودنا للإعجاب بشيء بقدر إعجابنا بالرجل الشجاع وسط الشدائد.

١٣-٧ وحين كان يُقاد أريستيدس *Aristides*[١٤٠] إلى تنفيذ حكم الإعدام على كل مَن قابله، يلتفت إليه ويولي كما لو كان ليس مجرد إنسانٍ فحسب، بل وكأن العدالة ذاتها قد جرت إلى الموت، وكان الوحيد الذي لم يولّ عنه هو مَن جلس في مواجهته، وبدلًا من أن يرد أريستيدس بفعل الضيق وهذا فعل يصنعه مخلوق سليط اللسان، ولكنه بَشَّ وجهه، وابتسم وقال للقاضي الذي يرافقه: «أحذر هذا الرفيق الذي لم يفغر فاهه على نحو زميم في المستقبل»، وهذا فرض إهانة على الإهانة ذاتها.

١٣-٨ اعلم أن بعض الناس يقولون لا شيء أصعب من تحمل الازدراء ويجدون الموت أفضل. وردي عليهم أن المنفى محرر من أي ازدراء، وإذا سقط رجل عظيم وبقي عظيم فإنه يُهان بعد موته، فإنه لا يزيد ازدراؤه أكثر من أنقاض المعبد التي تُداس بالأقدام، ذلك المعبد الذي يُعامل بورعٍ وهو لا يزال واقفًا على أنه مبجل.

---

(١٣٩) في عام ٥٥-٥١ ق.م على التوالي، أما بالنسبة لكاتو انظر ٩, ٥ وهامش ٣١ أعلاه.

(١٤٠) سياسي أثيني من القرن الخامس ملقب بالعادل(*d. ca.467*)، ومن المحتمل أنه أعطى هنا خطأ لفوكيون *Phocion* (*ca. 402–318*) رجل الدولة والجنرال الأثيني الذي حكى عنه بلوتارخ القصة نفسها في كتابه حياة فوكيون (*The Life of Phocion 36.1–2*).

١٤-١ وبما أنه ليس لديك سببٌ يا أعز أم يدفعك لدموع لا نهاية لها كما أرى، فربما قد تبكين لأسباب تخصكِ، وهناك احتمالان، أنكِ محزونة لأنكِ فقدتِ بعض الحماية، أو أنكِ وجدتِ توقكِ لي لا يطاق في ذاته.

١٤-٢ وعليَّ أن ألمس الاحتمال لمسًا خفيفًا؛ لأنني أعلم أن في قلبك حبًّا لعزيزكِ لا يعلوه شيء، ودع هذه الأمهات تلحظ اللائي يستغلون قوة أطفالهن بضعف المرأة، والنساء اللائي لا يُسمح لهن بتقلد المنصب، فيحرصن على إحراز تقدم من خلال أطفالهن، والذين يبتلعن ميراث أبنائهن ويحاولن أن يكنَّ هن الورثة، واللائي يبلين فصاحة أبنائهن بإقراضها للآخرين.

١٤-٣ ولكنكِ أخذتكِ الفرحة الشديدة بقوة أبنائكِ، واستثمرتِ الحد الأدنى فيها، ووضعتِ دومًا حدودًا على كرمنا وليس عليكِ، ومنحتِ العطايا لأبنائك الأثرياء رغم أن والدكِ كان لا يزال حيًّا[١٤١]، وكنتِ تديرين ميراثنا كما لو أنكِ ترعين ميراثكِ وتعاملتِ بحذر مع الأغراب، واقتصدتِ في استعمال نفوذنا كما لو كان يتبع شخصًا آخر، ولم يجلب عليكِ زمن منصبنا شيئًا سوى السعادة والنفقة، ولم يجعلكِ العطف تنظرين إلى مصلحة أنانية، والآن وقد انتُزع ابنكِ بعيدًا، لا يمكن أن تشعري بغياب هذه الأشياء التي اعتبرتِها لا تهمك حين كان هو آمنًا في المنزل.

١٥-١ وبالنسبة للاحتمال الآخر عليَّ أن أوجه عزائي كليةً للمصدر الذي تنشأ منه القوة الحقيقية لحزن المرأة حين تقولين: «لقد فقدت حضن ابني الأعز»، وأيضًا «ولا يمكنني أن أفرح بطلعته والحديث معه، وحين كنتُ أراه كان يخفف الحزن عني وأعهد إليه بما ينتابني من قلق، أين هو؟ وأين الحديث الذي كنت أنتظره طويلًا؟ وأين دراسته التي كنتُ أشاركه فيها بأكثر من رغبة

(١٤١) على سبيل المثال قبل أن تعتمد على ميراثها.

المرأة وبمودة وراءها علاقة أمومتنا؟ وأين هي مجالسنا؟ وأين شعور الصبي بالفرحة حينما يراى أمه؟».

١٥-٢ وأضيفي إلى كل هذا الأماكن التي احتفلنا فيها معًا، وقضينا فيها وقتًا معًا، والذكريات التي تشاركناها مؤخرًا- الذكريات التي تُسبب الكرب العظيم، وهذه ضربة وحظ يبدع تجاهك بقساوة، لقد أعطاني يومين قبل أن يهدمني وعليكِ أن ترحلي عني[١٤٢] بعقل هادئٍ ولا تخشي أي مصيبة مثل هذه.

١٥-٣ إنه شيء حسن أننا نعيش بعيدًا عن بعضنا البعض، وحسن أن غيابي عنكِ لسنوات طوال قد أعدكِ لهذه الضربة، وأثر عودتكِ لروما لم يُكسبكِ متعة رؤية ابنكِ بل فقدتِ عادة التوق إليه، ولو كنتِ رحلتِ قبل منفاي لتحملتِ الفقد بشجاعةٍ أكبر؛ لأن المسافة قد هونت توقكِ، ولو لم تعودي كنتِ قد كسبتِ فائدةً أخيرةً، وهي أن تري ابنكِ ليومين أطول على الأقل، وكما هو الحال قد رتب القدر القاسي الأمور، ولن تكوني معي حين وقعت المصيبة، رغم أنكِ لم تعتادي البعد عني.

١٥-٤ ولكن إن اشتدت هذه الظروف، فزيدي من شجاعتكِ، وقاتلي بضراوة، كما لو أنكِ كنتِ تعرفين العدو الذي هزمتِه في الماضي غالبًا، والدم لا يتدفق من الجسم الصحيح، إنكِ ضُربتِ في ندوبكِ.

١٦-١ ولا تتعذري بكونكِ امرأةً، حيث مُنحتِ رخصة واقعية بالبكاء المفرط وليس بدموع لا تكفكف، ولهذا السبب سمح أسلافنا بأن ترثي الأرامل أزواجهنَّ لمدة عشرة شهور، وبهذه الطريقة يصل الاستقرار بقرار عام بمراعاة حزن المرأة، فهم لا يحرمون حدادهن، بل يضعون حدًّا له، وحين تفقدين شخصًا عزيزًا، عليكِ ألَّا تنكبي في حزن يغمس النفس في حماقة لا نهاية لها، وألَّا

(١٤٢) من المفترض أن تغادر من روما إلى إسبانيا.

تشعري أن عدم الحزن تبلد للإحساس وليس إنسانيًّا، وأفضل توازن بين عاطفة الواجب والعقل أن تشعري بإحساس الفقد ثم تقمعيه.

١٦-٢ وعليكِ ألَّا تدفعي انتباهك نحو نسوة بعينهنَّ لم ينتهِ حزنهنَّ إلا بالموت، وتعلمي أن البعض لم يتخلوا عن ردائهم حين فقدوا أبناءهم(١٤٣). فتحليكِ بالشجاعة التي بدأتِها يطلب منك المزيد، والذريعة بكونكِ امرأة لا يمكن أن تنطبق على واحدة مثلكِ لم تُظهر أي أثر للضعف النسوي.

١٦-٣ وقد عُفيت دون غالبية النساء من أعظم آفة لعصرنا وهي عدم الحياء، فلا تحولك الأحجار الكريمة الثمينة ولا اللؤلؤ، وبريق الثروة لا يجعلها خيرًا أسمى لجنس البشر، وقد تسمو وأنتِ في القديم والمألوف القاسي، فلا تنقادي إلى الضلال بمحاكاة أسوأ النساء، فوبالها حتى الصفات المستقيمة، ولا تخجلي من خصوبتك أبدًا كما لو أنها جلبت اللوم على العمر الذي تعيشينه، وخالفي النساء اللواتي يعولن على جاذبيتهن لمجرد جمالهن، ولا تُخفي حملك كما لو كان عبئًا قبيحًا، ولا تُحبطي آمال أطفالكِ بعد تصورهم فيكِ.

١٦-٤ لا تشوهي وجهكِ بالزينة ومستحضرات التجميل، ولا ترغبي في نوع الملابس التي لا تشف اللحم حين تخلعينها، لقد رأيتُ فيكِ زينةً فريدةً وهي قبس من الجمال يدوم لكل عمر، وأعظم وجاهة هي تواضعكِ.

١٦-٥ لا تضعي أمامكِ الأنوثة ذريعةً لتبررى حزنكِ؛ لأن فضائلكِ تُبقيك بصرف النظر عن الأنوثة، وينبغي أن تبتعدي عن دموع الأنثى كما ابتعدتِ عن رذائلهن، ولن يسمح لكِ النسوة أن تنزوي عن جرحك، بل سوف يأمرونكِ بضرورة تعجيل نصب الحداد ليظهر إجهاد القلب مرةً أخرى، إذا كنتِ على

---

(١٤٣) أوكتافيا هي أخت أوغسطس التي برزت بعد وفاة ابنها مارسيلوس. انظر عزاء إلى ماركيا (*cf. Consolation to Marcia 2.3–4*).

استعداد للنظر إلى هذه النسوة اللائي وضعتهم الشجاعة الملفتة للنظر في مصاف الرجال العظماء.

١٦-٦ كورنيليا[١٤٤] كان لها اثنا عشر طفلًا، واختزلهم الحظ في طفلين، وإذا أردتِ أن تحسبي خسائرها في العدد، فإنها فقدت عشرة، وأما في القيمة فقد فقدت جراشي *Gracchi*، وعندما كان تبكي حولها رفيقاتها وينعين قدرها، منعتهم من لوم الحظ؛ لأن الحظ منحها جراشي مثلما أعطاها أبناءها، ومن هذه المرأة فحسب يمكن أن يولد نوع الرجل الذي يهتف في العلن: "هل تتحدثين عن سوء المرأة التي ولدتني؟"، ويبدو لي كلام الأم أكثر حيويةً؛ فالابن وضع قيمة كبيرة على نسل جراشي، ولكن الأم ركزت على موتهم.

١٦-٧ تبعت روتيليا[١٤٥] ابنها كوتا *Cotta* في المنفى، وكانت معروفة بتفانيها، حيث فضلت أن تحمل المنفى على توقها له، ولم تعد إلى البيت حتى رجع، وبعد عودته برز في الحياة العامة، وحين مات تحملت فقده بشجاعة كما تحملت مرافقته للمنفى، ولم يرَ أحدٌ منها دموعًا بعد دفنه، وبانت شجاعتها حين كان منفيًا والحكمة حين فقدته، ففي الحالة الأولى لم يثبطها شيءٌ عن واجب حبها، وفي الحالة الثانية لم تصرَّ على حزن لا طائل منه، وأنا أريد أن أواجهكِ بمثل هذه النساء، حتى تتبعي هذه الأمثلة من النسوة التي ستُحاكين حياتهم في دأبكِ للسيطرة على قمع آلامكِ.

١٧-١ وأنا أعلم أن هذه المسألة ليست في سيطرتنا، ولا نقوى[١٤٦] على المشاعر التي تولد مع الحزن؛ لأنها عنيفة وتقاوم أي مداواة بالعناد، وفي الوقت نفسه نريد أن نتجاوز الحزن ونتجرع طعنات ألمنا، ولكن دموعنا تتدفق في قناع

(١٤٤) ابنة سكيبيو الإفريقي الثانية. انظر ١٢-٦ أعلاه وأم تيبيريوس وجايوس جراكوس *Gaius Gracchus* .

(١٤٥) والدة الخطيب المميز أوريليوس كوتا الذي نُفي عام ٩٠ ق.م، بتهمة تحريض الإيطاليين على الثورة، ويذكر أنه كان قنصلًا عامًّا ٧٥. راجع *Cf. On the Shortness of Life 14.2* وهامش ٣٦.

(146) *On the Shortness of Life* 14.2 and n. 36.

خاطئ لاتزان وجوهنا، وأحيانًا نُلهي العقل بالألعاب العامة والمجالدة، ولكن بين المشاهد الفعلية التي تُلهي الحزن يتراجع بصيص من ذكرى فقدانه.

١٧-٢ ولذلك من الأفضل أن نهزم أحزاننا وألَّا نحتال عليها، فالحزن قد يُخدع ويُشتت بالسعادة وبزوغ شواغل جديدة، ونستجمع من الراحة فيها قوة تعيننا على الغضب مرة تلو الأخرى، ولكن الحزن الذي يخضع للعقل ينمحي أبدًا، وهكذا لن أصف لكِ تلك التدابير التي تداوى بها الكثيرون، وعليكِ أن تشغلي ذاتكِ بالترحال إلى أماكن بعيدة أو خلابة، واستثمري وقتك في تأمل شؤونكِ بجد، وأديري حالكِ أو اربطي نفسكِ ببعض النشاطات الجديدة على الدوام، وتعين كل هذه المبادرات لفترة وجيزة، وهي ليست شافية للحزن بل تعيقه فحسب، وإنني أفضل أن ننهي الحزن أفضل من أن نحتال عليه.

١٧-٣ وهكذا أوجهكِ لملاذ يسعى إليه كل الذين يفرون من الحظ حيث الدراسات الحرة، إنهم يشفون جراحهم، ويقتلعون حزنهم كله، وحتى لو لم تتعايشي معهم فأنتِ في حاجة للاستفادة منهم الآن، لدرجة أن صرامة تقاليد أبي القديمة سمحتْ لكِ أن تلتمسي كل الفنون الحرة حتى لو كنت خبيرة فيها.

١٧-٤ وكم تمنيت أن أبي -وهو أعظم الرجال- أن يقلل من الارتباط بعادة الأجداد، ويعدكِ لتلقي المذاهب الفلسفية بدلًا من مجرد التوجيهات البدائية! كنتِ ستصبحين بلا حاجة لاكتساب وقاية تجاه الحظ، بل تطبيق لها فحسب، ولم يكن لأبي رغبة ليكرسكِ للدراسة الفلسفية؛ لأن النساء يستخدمون الكتب لا ليكسبوا الحكمة بل كأداة لإظهار الوجاهة، ومع ذلك بفضل عجلتكِ وعقلكِ النهم حصَّلتِ قدرًا كبيرًا في وقت وجيز من الزمن، ووضعتِ أسسًا لكل فروع الدراسة الفلسفية،عودي الآن إلى هذه الدراسات، فسوف تبقيكِ آمنةً.

١٧-٥ وسوف تجلب لكِ الراحة وتمنحكِ السعادة، وإن دخلت عقلكِ حقًّا لن يداهمكِ الحزن ولا القلق مرَّةً أخرى، ولن تحدث لكِ كربًا غير لازم بمعاناة لا

معنى لها، وسوف ينفتح قلبكِ لإحداها؛ لأنها أغلقت منذ آمد كل الإسقاطات الأخلاقية الأخرى، وهذه الدراسات قالب حمايتكِ الموثوق، وهي المصدر الوحيد لنجاتكِ من سطوة الحظ.

١٨-١ ولكن لأنكِ في حاجة لدعم لتتكئي عليه حتى تصلي إلى ملاذٍ تضمنه لكِ الفلسفة، أود أن أعرض لكِ عزاء هو لك بالفعل.

١٨-٢ فكري في أخويَّ[١٤٧] حينما كانا حيين، لم يكن حقًّا أن تجدي خطأ مع الحظ، وباختلاف تميز طبائعهما المختلفة وجدتِ في كلٍّ منهما سببًا للبهجة، فأحدهما قد حقق منصبًا بجهد دؤوب، في حين حقره الآخرون في حكمته الفلسفية، فاقتبسي الراحة من علو ابن واحد وتقاعد عن الآخرين وأخلصي للجميع، واعرفي المشاعر العميقة لكل إخوتي، فأحدهم يُحسن مكانته ليُكسبك بريقًا، في حين ينجر الآخر نحو حياة السكينة المريحة؛ ليمنحك ترفيهًا.

١٨-٣ وقد رتب لكِ الحظ بشكل إيجابي أبناءكِ ليجلبوا لكِ جميعًا العون والبهجة، فأنتِ في حمى مكانة أحدهما، وفي فرحة راحة الآخر، إنهم يتنافسون في خدمتهم لكِ، ويتفانى الابنان ليعوضا توقكِ لابنٍ واحدٍ، وأعدكِ بكل ثقة أنكِ لن تفتقري إلى شيءٍ سوى العدد الكامل لأبنائكِ.

١٨-٤ وبعد هذا، فكري في أحفادكِ، فماركوس صبي وسيم[١٤٨]، فلا أحد ينظر إليه ويظل حزينًا، ولا تهون المصيبة وتكون لبادة طرية وأنتِ عاجزةٌ عن تهدئتها في حضنكِ.

١٨-٥ ومن دموعه له بهجه وليست ضبطًا؟ وما العقل الذي قد يضيق بالقلق ويفشل

---

(١٤٧) نوفاتوس (جاليو *Gallio*)، ويلا، انظر ٢-٤ وهامش ٢ أعلاه، ترقى الأول ليكون قنصلًا لأخيا *proconsul* عام ٥٢، والثاني كان أذكى أبناء سينيكا الأكبر وأقلهم طموحًا سياسيًّا (*Controversiae 2 pref. 3–4*).

(١٤٨) ربما كان الشاعر لوكان ابن ميلا (*39–65 ce*).

في الاسترخاء بلغوه السريع؟ ومَن الذي لا ينجذب للسرور بمرحه؟ ومَن الشخص الذي مع تركيزه على أفكاره لا يتحول أو يُؤسر بالحديث لنفسه الذي لا يمكن أن يرتديه أي أحد؟ وأتضرع إلى الرب أن يميتنا قبل أن يفعل!

١٨-٦ وربما تنهك كل قساوة القدر ولا تطولني، ومهما يكن حزنكِ لما قد خصَّصتِه لتعاني كأم أو كجدة ربما ينتقل إليّ، وربما تزهو بقية عائلتي دون ضرر، ولم أشكُ من طفولتي ولا من ظروفي الحالية، ودعيني أخدم ككبش فداء فحسب للعائلة التي ليس لها سببٌ آخر للحزن.

١٨-٧ احتضني نوفاتيلا[١٤٩] بحماس، وهي التي ستمنحك الأحفاد قريبًا، لقد نقلتها لرعايتي وتبنيتها[١٥٠]، وبفقدانها لي ستبدو يتيمة حتى لو كان والدها حيًّا، واعتزي بها مثلما صنعت! لقد انتزع الحظ منها أمها مؤخرًا، ولكن بحبكِ الشديد لا تشعريها بالحزن على أمها.

١٨-٨ والآن هو الوقت المناسب لتنظمي وتشكلي شخصيتها، حتى يترك الإرشاد أثرًا أعمق حينما يُطبع على العقول الحساسة، ودعيها تعتاد على الحديث معكِ، وتشكلي بما ترينه مناسبًا، لقد منحتِها كثيرًا حتى لو أعطيتِها مثالًا فحسب، وهذا الواجب الجليل دواء لكِ؛ لأن الفلسفة الوحيدة أو الجدير بالاحترام من الانشغال يصرف عن العقل الذي يحزن على محبوب آلامه.

١٨-٩ ومن بين عزاءاتكِ العظيمة أعتبر أن والدكِ كذلك لم يكن بعيدًا منكِ[١٥١]، وأتخيل حبه لكِ فامنحيه حبكِ، وستفهمين الأكثر ملائمةً لكِ لتحفظي نفسك له بدلًا من أن تستهلكي نفسكِ لي، وحينما يداهمكِ الحزن ويصدر أمرًا لتخضعي له، فكري في والدكِ، فامنحيه أحفادًا كثيرين وعظماء، ولا تجعليه

---

(١٤٩) أخت نوفاتوس (جاليو).

(١٥٠) ليس رسميًّا، ولكن بمعنى العاطفة لها.

(١٥١) من المفترض أن هلفيا كانت في إسبانيا وقد عادت إلى روما، راجع (*cf. 15.2–3*) بعد أن وصلتها أخبار نفي سينيكا.

بطفل وحيد، فالتتويج الكامل للحياة التي عاشها سعيدًا يعتمد عليكِ، وطالما أنه يعيش، فمن الخطأ أن يشتكي من حياتكِ.

١٩-١ وحتى الآن لم أقل شيئًا عن مصدر الراحة الأكبر وهو شقيقتك(١٥٢)، وهي القلب الذي كُرِّس لكِ، وتلقت كل المخاوف التي تنقلها لكِ دون تحفظ، وهي إحساس الأمومة لنا جميعا، فاخلطي دموعكِ بدموعها وارتمي في حضنها.

١٩-٢ وهي تشاطركِ المشاعر دومًا، ولم تحزن لحالي كما تحزن من أجلكِ، لقد حُملت إلى روما بين يديها(١٥٣)، وبفضل ما كرسته وتمريضها الأمومي تعافيتُ من مرضي الذي دام طويلًا، ومارستْ نفوذها لأجلي حين وقفت بجانبي في وظيفة الكويستور *quaestorship*(١٥٤)، رغم أنها افتقرت إلى الثقة في الصوت أو التحية بصوت عالٍ، فحبها لي عزاه الخجل، فليست طريقة حياتها المنعزلة ولا تواضعها المتوارث يقارن بفجاجة المرأة اليوم، ولا هدوؤها ولا شخصيتها المتحفظة بميلها للعزلة، ولم يمنعها هذا من أن تحقق طموحي.

١٩-٣ هي أعز أم، وهي مصدر الراحة بما يمكن أن تمدكِ به من قوة، فاقتربي منها بقدر الممكن، وتعلقي بها باحتضانها بقوة، ويميل المشيعون لتجنب الأشياء التي يحبونها جدًّا ويسعوا للحرية ليغمسوا حزنهم، وعليك أن تتشاطري كل فكركِ معها، وسواء رغبتِ في مواصلة هذه الحالة من الشعور أم طرحتِها جانبًا، ستجدين عندها نهاية لحزنكِ أو رفقة له.

(١٥٢) أخت هلفيا غير الشقيقة نظر للإشارة لهلفيا على أنها طفل وحيد في ١٨ ,٩ ، وهي زوجة جايوس جاليريوس *Gaius Galerius* حاكم مصر ١٦- ٣١، ومن المفترض أنها مرَّضت سينيكا وأعادة له صحته في مصر (٢- ١٩) في الجزء الأخير من هذه الفترة.

(١٥٣) وكطفل من قرطبة في إسبانيا من المفترض أن يكون والداه في روما.

(١٥٤) بعد فترة وجيزة عام ٣٣ م عادت عمته من مصر عام ٣١.

١٩-٤ ولو أعلم حقًّا الحكمة التي كملت لهذه المرأة، فإنها لن تسمح لكِ أن تتزيي بحزن لا طائل منه، وسوف تسرد لكِ قصص تجاربها التي شهدتها أنا أيضًا، فهي فقدت محبوبها عمي في وسط رحلة بحرية[١٥٥] وهو أول زوج لها، وحملت ثقل حزنها وخوفها معًا، ورغم غرق السفينة تغلبت على العاصفة وألقت بجسدها على الشاطئ.

١٩-٥ وكم عدد النساء اللواتي خبت أعمالهم المجيدة في ظلام! وما أكثرت من هذا إلَّا لتحيي في أزمنة غابرة، في حين جهر الناس إعجابًا بأعمالهم العظيمة، وكم كان التنافس بين الفنانين الموهوبين ليتغنوا بمديح الزوجة التي تناست ضعف قواها البدنية وتناست البحر الذي يخشاه حتى الجَسور، والتي وضعت حياتها في خطر لتدفن زوجها، والتي لم تخشَ جنازتها مطلقًا في حين كانت تفكر فيه! التي كانت على استعداد أن تمنح حياتها لزوجها[١٥٦]، وذاع صيتها بين كل الشعراء، ولكن هذا إنجاز عظيم لامرأة سعت أن تدفن زوجها وهي تخاطر بحياتها، وأعظم حب الذي يربح عائدًا أقل من خطر مساوٍ.

١٩-٦ ولا يندهش أحد وهي في عمر الستين حين كان زوجها حاكم مصر، ولم يشاهدها العامة، ولم تسمح لأي مواطن أن يدخل بيتها، ولم تسعَ لمصالح سياسية من زوجها، ولم تسمح بأن يبحثوا عنها، وكانت المقاطعة مولعة بالقيل والقال وموهوبة في شتم حكامها، وحتى الذين بعدوا عن الزلل لم يسلموا من سوء السمعة، فانظري لها كمثال فريد للنزاهة –والأمر الصعب للغاية أن يمنح الشعب طُرفًا حتى في الخطر– إنه يحد من لغته المزاحية المتحررة، وحتى هذا اليوم يبتهلون رغم أنهم لا يتوقعوا أن يروا مثيلتها، وكانوا سوف يرون إنجازًا جديرًا بالاعتبار لو فازت بموافقة المقاطعة لمدة

(١٥٥) ربما في طريق العودة من مصر في ٣١ م.

(١٥٦) في الأسطورة اليونانية ألسيستيس *Alcestis* زوجة أدميتوس *Admetus*.

ستة عشر عامًا، ولكن الجدير بالملاحظة أنها بقيت غير معروفة هناك.

١٩-٧ وإني لأذكر هذه الأمور ليس بغرض أن أعدد صفاتها الجديرة بالثناء، بل لذكر معاملتهم لها بظلم، ولكنكِ تدركين عقلية المرأة الواسعة التي لم تستسلم للطموح ولا الجشع والآفات التي ترافق السلطة دومًا، التي لم يردعها الموت من أن تتشبث بزوج لا حياة له، حين تعطل قاربها وهي تشاهد حطام سفينتها، والتي لم تبحث عن طريق للهرب من السفينة بل لتأمين دفنه، وعليكِ أن تُظهري شجاعةً مساويةً لها، واسحبي عقلكِ من الحزن، وبالتالي تأكدي ألا أحد يأسف لأنه لديكِ أطفال.

٢٠-١ ولكن رغم كل تدابيركِ وأفكاركِ، عليكِ أن تعودي إليَّ باستمرارٍ حتمًا، ومهما كانت الظروف، لا تجعليها تتخلل عقل أطفالكِ؛ ليس لأنهم أقل في المعزة، بل لأن من الطبيعي أن تتمسكي بألَّا يمس المكان ضررٌ، ولذا عليكِ أن تفكري فيَّ على أنني سعيد وحيوي كما لو كنتُ في أفضل حالاتي؛ لأن أفضل ما لديَّ أن يتحرر عقلي من كل الانشغالات، وبمرور الزمن تبدأ اهتماماتي، فالآن أبتهج بدراسات خفيفة تحرص على بغية الحق، ثم أرتفع إلى تأمل طبيعتي، ثم الكون.

٢٠-٢ وتسعى هذه الدراسات إلى معرفة الأرض وموضعها[١٥٧] وطبيعة البحر الذي يحيط بها، وتناوب طفوه وانحداره، ثم يتسع تمحصي إلى الظواهر الخفية التي تكمن بين السماوات والأرض، ذلك الفضاء القريب المضطرب بالرعد والبرق وهبوب الرياح وسقوط الأمطار والبرد والثلج، وبعد العبور على الروافد الدنيا نعرج للأعالي ونبتهج بأجمل مشهد للأشياء الربانية ونتعقل أبديتها، حيث تتحرك بحرية على كل ما هو كائن وما سيأتي لتعبر الزمن في كل دهر.

---

(١٥٧) للتمييز بين الأرضي والسامي والسماوي (وإن كان في ترتيب عكسي). انظر *Natural Questions 2.1.1–2*.

عزاء إلى بوليبوس

مقدمة

نحن نعرف أن هذه المحاورة كُتبت في عهد الإمبراطور كلاوديوس حين كان سينيكا في منفى كورسيكا، أي بين عامي ٤١م و٤٩م، وهو يعبر عن الرغبة في أن يفتح كلاوديوس بريطانيا ويحتفل بالانتصارات، مما يعني أن هذه المحاورة قد كُتبت قبل غزو بريطانيا وانتصار كلاوديوس اللاحق عام ٤٣م، أو ربما بعد ذلك بقليل، على افتراض أن الأخبار قد استغرقت بعض الوقت للوصول إلى سينيكا. إن المخاطب في المحاورة هو بوليبوس وهو أحد الأحرار الذين أدوا دورًا مهمًّا في القصر الإمبراطوري مع ماركوس أنطونيوس باللاس *Marcus Antonius Pallas* وناركيسوس *Narcissus* في عهد كلاوديوس، كان بوليبوس مسؤولًا عن الوثائق ولا سيما الالتماسات، وقد يكون أستاذًا مسؤولا عن المسائل الأدبية، ودوره كرجل إمبراطوري حر يشهد به كتاب أقدمون آخرون في تلك الفترة، ولكن نعرف من سينيكا أنه كان أديبًا فقط، وترجم هوميروس إلى النثر اللاتيني وفيرجيل إلى النثر اليوناني.

لقد دفع موت شقيق بوليبوس سينيكا لكتابة هذا العزاء، وبدأ العمل بالفقد، ولا نعلم ما المفقود، ولكن المفقود ما لدينا، ويغطي سينيكا عددًا من الموضوعات القياسية لأدب العزاء القديم (راجع مقدمة المترجم لرسالة عزاء إلى ماركيا)، وقليل من المحتوى رواقي تحديدًا، والحقيقة أن سينيكا يتوارى في تسمية نظرائه ووجهة النظر الرواقية الدقيقة التي ترى أن الحكيم لا يشعر بحزن على الإطلاق، وقد حيكت الخطط لتناسب ظروف بوليبوس، حيث يفترض سينيكا أنه يستعمل مواهبه الأدبية

ليكتب عن شقيقه ويحفظ ذاكرته للأجيال القادمة، وهو يستدعي العلاقة الوثيقة التي تربط بوليبوس بكلاوديوس، متخيلًا أن الإمبراطور يقول خطاب عزاء للرجل الحر ويخبره أن مجرد حضور الإمبراطور وطلب خدمته قد يصرف الحزن عنه.

وليست الرسالة مجرد مقالة عزاء لبوليبوس، بل نداء إلى كلاوديوس ليستدعي سينيكا من المنفى، ويبدو مديح سينيكا للإمبراطور أجوف وزائفًا، ويعتقد البعض أنه مثيرٌ للسخرية عمدًا، ويبدو أن هناك تباينًا قويًّا بين ما يقوله سينيكا عن كلاوديوس في هذه الرسالة وما يقوله عنه لاحقًا في *Apocolocyntosis*، وقد كُتب الهجاء الخبيث والجزل على تأليه كلاوديوس في فترة مبكرة من عهد نيرونن، حيث تثني الرسالة على عدل كلاوديوس وإنصافه وبلاغته، في حين يفضح الهجاء ظلمه وتعسفه وقسوته وعدم تماسكه، وتتطلع الرسالة إلى كسبه لمكانة مستحقة في السماء بعد موته، ولكن الهجاء قد طرده من أوليمبوس وأرسله إلى قدر حافل ضيق في العالم السفلي، ولا ينبغي أن نُغالي في الصراع رغم أنه كان حقيقة، وإن معظم الثناء لكلاوديوس في المحاورة يتناسب تمامًا مع ميثاق الإطراء الإمبراطوري الذي نشأ في عهد أوغسطس، وربما قد تضخم النقد الموجود في المصادر التاريخية مثل *Apocolocyntosis* بعد وفاة كلاوديوس.

وإن بنية الرسالة بما هي واضحة ومباشرة حيث تقدم الفصول من ١-١١نصائح تراثية متباينة، والفصول من ١٢-١٣ تخبر بوليبوس أن يفكر في الراحة التي يمكن أن يكسبها من أقاربه الأحياء ومن الإمبراطور، ويعرب سينيكا عن أمله في أن يستدعيه كلاوديوس من المنفى، ويعطي في الفصول من ١٤-١٧ أمثلة ليحاكيها بوليبوس، حيث يصيغ الفقرات ١٤, ٢-١٦, ٣ بفم كلاوديوس، وقدم في الفصل ١٧ المثال السلبي لكاليجولا، وفي الفصل ١٨عرض النتيجة.

شكر وتقدير:

إنني مدين بالامتنان إلى إليزابيث أسميس *Elizabeth Asmis* وقارئ دار النشر لاقتراحاته في تحسين الترجمة، وأنا مسؤول عن أوجه القصور المتبقية.

لمزيد من القراءة:

Atkinson, J. E. 1985. "Seneca's Consolatio ad Polybium." Aufstieg und Niedergang der römischen Welt II.32.2:860–84.

Kurth, T. 1994. Senecas Trostschrift an Polybius: Dialog 11; Ein Kommentar. Beiträge zur Altertumskunde 59. Stuttgart: B. G. Teubner.

Olberding, A. 2005. "The 'Stout Heart': Seneca's Strategy for Dispelling Grief." Ancient Philosophy 25:141–54.

١–١ إذا قارنت المدن وجبال الصخر بحيوات البشر[١٥٨]، فهي أقوى. وإذا طبقت معايير الطبيعة التي تدمر كل شيء وتعيده إلى أصوله، فهي قابلة للفساد. فهل ما يُصنع بأيدي الفانين فانٍ؟ وتلك العجائب السبع[١٥٩] وما يعلو عليها في الروعة بُنيت بطموح السنين المتعاقبة، وسوف يراها الزائرون يومًا ما تُسوى بالأرض، نعم، لا شيء أبدي، وقليل الأشياء يدوم طويلًا، فالأشياء هشة بطرق مختلفة، ويأخذ فناؤها أشكالًا عدةً، وكل ما له بداية له نهاية.

١–٢ يهدد بعض الناس العالم كله بالدمار، وهذا الكون الذي يحتضن كل ما هو رباني وإنساني إن كنت تعتقد أنه غير مجدف على تصديقه سيأتي يومٌ ويتفسخ وينهار في العماء[١٦٠] والفوضى الأصليين، وما من سبيل في نحيب الأنفس الفرادى أو في رثاء رماد قرطاجة ونومانتانيا وكورنثة[١٦١]، وسوف يسقط أي مكان آخر من أقصى ارتفاع، وحين لا يجد مكانًا يسقط فيه سيؤول للفناء[١٦٢]، وإن مضت الأقدار بعيدًا لترتكب مثل هذا الشر العظيم فما من فائدة من شكوى الفرادى في أنه لم ينجُ منهم.

١–٣ ومَن الذي يُعفي نفسه وأهله على نحو متعجرف ومتغطرس من الضرورة التي

(١٥٨) الجملة اللاتينية غير واضحة، ولكنَّ سياقها يؤدي إلى هذا المعنى باللغة الإنجليزية والعربية معًا.

(١٥٩) عجائب الدنيا السبع كانت قائمة في زمن سينيكا.

(١٦٠) يلمح سينيكا إلى مذهب الاحتراق *ecpyrosis* الرواقي.

(١٦١) ثلاث مدن دمرها الرومان قرطاجة وكورنثة عام ١٤٦ ق.م ونومانتانيا *Numantia* عام ١٣٣ ق.م.

(١٦٢) لا يوجد شيء خارج العالم، ولذلك لا يوجد مكان تقع فيه.

تفرضها الطبيعة التي تدعو كل شيء لنفس النهاية؟ أو يحاول أن ينقذ أهل بيت بعينه من دمار يهدد العالم ذاته؟

١-٤ إن ما يواسينا هو أن نفكر فيما قد يحدث في النفس على أن الجميع يعانيه وسوف يعانيه، ويبدو لي أن الطبيعة قد اتخذت أفجع شيء فعلته وجعلته كليًّا، وحتى تكون معاملة القدر مساوية للجميع، فإن بعض التعزية لقسوة القدر.

٢-١ وسوف يعينك إلى حد كبير إن كنت تفكر أن أحزانك لا تفيدك أو تنفع من تفقده بمرارة، فأنت لا ترغب في متاعب لا طائل منها، وإن كنا نعقد أي أمل على اليأس فلن أعترض على أن أذرف الدموع المتبقية من مصيبتي لك[١٦٣]، والآن سأجد شيئًا يمكن أن يتدفق من هذه الأعين التي جفت من النحيب إذا كان قد يسبب هذا لك خيرًا.

٢-٢ وماذا تنتظر؟ دعونا نشكو معًا أو بالأحرى أن أكون أنا المدعي «والكل ينظر للحظ على أنه ظالم، وكشفتين أنك تحتضنين هذا الإنسان، والذي بفضلك قد فاز بهذه المهابة التي لم يجلب ظفرها أي حسد– وهذا أمر يندر أن يحدث لأحد، وانظر لقد أصبته بالحزن الأكبر الذي قاساه حين كان القيصر على قيد الحياة، وبعد التحقق الدقيق من كل زاوية أدركت أن في هذه المرحلة كان يعري لك مصائبك.

٢-٣ وأي شيء قد صنعت فيه؟ هل سرقت ماله؟ إنه لم يكن عبدًا له، حتى ينأى عنه قدر الإمكان، رغم أنه يسهل عليه كسب المال، وأكبر فائدة يسعى إليها منه هي أنه يحتقره.

٢-٤ هل سلبته أصدقاءه؟ إنك تعلم أنه محبوب للغاية، ومن السهل عليه أن

(١٦٣) يلمح سينيكا هنا إلى منفاه.

يستبدل الذين فقدتهم بآخرين؛ لأني رأيت هؤلاء يمارسون السلطة في القصر الإمبراطوري، وأعتقد أنني لم أجد أحدًا منهم صوابًا يمكن يدفع نفوس الناس للبحث عن صداقتهم، فالرغبة تقودهم بقوة.

٢-٥ وهل سلبت سمعته الطيبة؟ يقينًا لم تهتز من جانبك، فهل سلبت صحته الحسنة؟ إنك عرفت أن أساسه قوي في الدراسات الحرة[١٦٤]، والتي لم تطوقه في نشأته فحسب بل منذ ميلاده، والتي يترفع بها عن كل ألم جسدي.

٢-٦ وهل سلبته أنفاسه؟ وكم ضئيل ما سببته له من ضرر! لقد وعدته الشهرة بحياة مديدة لموهبته الأدبية، لقد بذل كل شيء ليضمن أنه صمد مع الجزء الأول لنفسه[١٦٥]، وأنه سيحمي نفسه من الفناء بأعمال الأدب البارزة التي كتبها، وما دام الشرف قد دفعه للأدب وما دام بقيت قوة اللغة اللاتينية وأناقة اليونان، فإنه سوف يزهو بجانب العمالقة الذين يباري موهبتهم بموهبته، أو إذا رفض تواضعه هذا الوصف فسيكرس نفسه له.

٢-٧ ولذلك ابتدعت هذه الطريقة التي يمكن أن تسبب له ضررًا شديدًا، فكلما كان المرء فاضلًا، كلما درب ذاته على تحملك حين يستعر غضبك، ويستثير الخوف حتى مع سخائك، كم كان سيكلفك أن تمنح حصانة من هذا الضرر لإنسان أظهر أن كرمك قد ثبت بخطة مدروسة ولا يتلعثم بعشوائية في نمطك المعتاد.

٣-١ دعونا نضيف لهذه الشكاوي -إن أحببت- أن مواهب الشاب قد تُختزل بمجرد أن يبدأ تطورها، لقد استحق أن تتخذه أخًا، ويقينًا تستحق ألَّا تعاني حزنًا حتى لأخ لا يستحق، إنه تلقى الثناء نفسه من الجميع، فالناس يحزنون

---

(١٦٤) كانت الآداب الحرة هي الموضوعات التي يكفلها التعليم العام، وقد وضعت معايير في وقت لاحق ليشمل التعليم القواعد (أساسًا لدراسة الأدب) والجدل والخطابة والهندسة والحساب والموسيقى والفلك.

(١٦٥) هذا مع عقله.

عليه ثناء لك، وهم يثنون عليه إطراءً للإنسان ذاته.

٣-٢ وما من شيء فيه يشقيك لتسلم به، وقد تكون خيرًا حتى للأخ الأقل خيرًا، ولكن حبك فيه أخذ النوع الصواب للمادي، وجرى بطيب نفس، ولم يختبر أحد قدرته لضررهم، إنه لم يستعمل حقيقة أنه أخوه ليهدد أي أحد، وقولب نفسه على مثال ضبط نفسك، واعتاد أن يفكر على الطريقة التي رباك بها أهلك ليس لمجرد الاختلاف الكبير، بل الحمل الكبير للمسؤولية، فقد كان قويًّا بما فيه الكفاية لتحمل الحمل.

٣-٣ ويا لقساوة أقدار الذين لا يتعاملون مع الفضيلة باعتدال! لقد اختُطف أخوك قبل أن يتعلم من حسن حظه، إنني أعلم أن شكوايَ ضعيفة؛ لأنه لا شيء أعظم صعوبةً من أن تجد كلماتٍ تتناسب مع الحزن الكبير، ومع ذلك فإن كنت فاعلًا للخير دعنا نشتكي.

٣-٤ هل كنت ترقى للثروة والظلم والعنف؟ هل كنت تندم سريعًا على لطفك؟ وما هذه القسوة حتى تهاجم إخوتك وتقلل حجم هذه المجموعة المترابطة بمثل هذا الهجوم المتوحش؟ هل تريد أن تدمر بيتًا مملوءًا بأجمل الشباب، حيث لم يدع الإخوة العائلة تسقط، هل تريد أن تقلل حجمها دون سبب على الإطلاق؟!

٣-٥ هل البراءة يُحكم عليها بقوانين لا فائدة منها؟ هل هو تقليد قديم لعدم الفائدة، أم اعتدال في الحظ الحسن، أم ضبط أقصى للذات يُبقي عليه حين امتلاك السلطة القصوى، أم حب أصيل ومأمون للأدب(١٦٦)، أم عقل متحرر من أي نوع للزلل؟ بوليبيوس حزين ومتحسر من حالة أخ واحد فيما يمكن أن يخشاه على الآخرين، إنه خائف على الناس الذين يوفرون الراحة لحزنه، يا له

(١٦٦) يعتبر الأدب مسعى أكثر أمنًا من السياسة أو أي مجال من مجالات الحياة العامة.

من شيءٍ مضنٍ، حين يحزن بوليبيوس ويعانس وينظر إليه القيصر مستبشرًا! وهذا دون شكٍّ ما كنتَ تتطلع إليه وهو الحظ المجازف- وهو برهان بأن لا أحد يمكن أن يحميك ولا حتى القيصر.

٤-١ يمكننا أن نمضي في اتهام الأقدار، ولكن يمكننا أن نغيرها، فهي لا تزال قاسيةً ولا ترحم، ولا أحد يمكن أن يؤثر عليها بالسباب ولا النحيب ولا مناقشة حجتها، وهي لا تستثني أحدًا، ولا تدعهم يخرجون عن حوزتها، ولذلك دعونا نتجنب الدموع التي لا تحقق شيئًا؛ لأن هذا الحزن سوف يُضيفنا إلى أعداد الموتى بدلًا من أن يعيدهم إلينا، وهو يعذبنا ولا يعيننا، ولذا علينا أن ننحيه جانبًا في الحال، وعلينا أن ننقذ عقولنا من الحزن الفارغ ومن الرغبة المؤلمة له. وإن لم يضع العقل نهاية لدموعنا، فإن الحظ لن يكون مواتيًا.

٤-٢ تعال نستقصي البشرية جمعاء، وكل مكان قد تجده وارفًا، وواصل الأسباب للدموع، حيث يستدعي الفقر المضني امرأً ما للواجب اليومي، وآخر يعذبه طموح لا يسكن أبدًا، وآخر يخشى الثروات التي تضرع لها، وترهقه بما كان يتوق إليها، وآخر يُعذب بالقلق، وآخر بالعمل، وآخر بالجماهير التي تُحاصر فناءه باستمرار، وهذا يحزن لأن له أطفالًا، وهذا لأنه فقد أطفاله. إن دموعنا سوف تستنزف أقرب من أسبابنا للحزن.

٤-٣ ألا ترى نوع الحياة الذي وعدتنا الطبيعة به حين قررت أن أول ما يفعله البشر عند ولادتهم هو البكاء(١٦٧)؟ هذه بدايتنا حين قدمنا للعالم، ويتبع تسلسل السنون كلها هذا النمط، ونحن نعيش حيواتنا على هذه الحدود، ولذا علينا أن نمارس الاعتدال، ونقوم بما يجب علينا القيام به في الغالب، ونرمي خلفنا كل صور الحزن التي على كواهلنا وتهددنا، وينبغي لنا إن لم نضع حدًّا كاملًا لدموعنا فعلى الأقل نحتجزها، وألَّا نستعمل شيئًا بأكثر مما نحتاجه غالبًا.

---

(١٦٧) قارن *Lucretius 5.222–27*.

٥-١ سوف تُعان كثيرًا بالتفكير في أن لا أحد يجد حزنك أقل إرضاءً من الشخص الذى يبدو أنك تنغمس في مصلحته، وهو لا يريدك في عذاب أو لا يعي أنك معذب، ولذلك ليس من سبب أن تقدم خدمةً بقدر ما يهتم المنتفع إن كان لا يعيها ولا لزوم لها، وإن كان يعيها فهي مرغوبة.

٥-٢ إني أؤكد وبجرأة بأنه لا أحد في العالم كله يستمتع بدموعك، وهل تعتقد أن أخاك يتبنى موقفًا نحوك لم يقم به أحد ويضرك بتعذيبك، ويرغب في صرفك عن عملك ودراساتك والقيصر؟ وهذا ليس محتملًا؛ لأنه أظهر لك الحب المناسب للأخ، والإخلاص المناسب للأب، والاحترام المناسب لما هو أسمى، وهو يرغب أن تنساه، ولكن لا يرغب أن يسبب لك الألم، وما الفائدة من وهن الحزن إذا كان لدى الأموات أي وعي، ويرغب أخوك أن تكون له نهاية؟

٥-٣ هل كنت أتعامل مع أخ آخر تبدو نواياه الحسنة موضع ريب، وسوف أعامل كل هذا على أنه مشكوك فيه، وسوف أقول: «إذا كان أخوك يريد أن يعذبك بدموع لا نهاية لها، فهو لا يستحق هذا العاطفة، وإذا كان لا يرغب هذا، فدع الحزن الذي يطاردكما معًا، ولا ينبغي التفجع على الأخ غير المحبوب بهذه الطريقة، ولا يرغب المحبوب أن يكون هكذا»، ولكن في حالته حيث إن حبه قد ثبت تمامًا، فعلينا أن نوقن أنه لا شيء يضايقه أكثر من رؤية سوء حظه يضايقك، وأنه جعلك تعاني بأي شكل، وأدمع عينيك التي لا تستحق هذا الألم والتشويه والجفاف دون نهاية لنحيبها.

٥-٤ ولا شيء يحول حبك عن هذه الدموع غير المجدية على نحو فعال سوى أن تعطي لإخوانك مثالًا على كيف يتحملون بشجاعة جرح الحظ الذي أصابهم، فعندما صارت الأمور على نحو سيئ مع قادة عظام، تعمدوا أن يُظهروا أنهم مبتهجون ويخفون الأخبار السيئة بإظهار السعادة، خشية إذا رأى

الجنود معنويات قادتهم تنهار فسينهارون كذلك، وهذا ما يجب عليك فعله الآن.

٥-٥ وضع تعبيرًا ينطوي حالة عقلك، وإن استطعت أن تتخلص من أحزانك تمامًا، وإن لم تستطع خبِّئها داخلك حتى لا تُرى، واحذر أن يقلدك إخوانك؛ لأنهم يعتقدون أن أي سلوك يلاحظونه فيك صحيح، وسوف ينهلون الشجاعة من تعبيرك، وينبغي أن تكون لهم التعزية والمُعزِّي، وليس بمقدورك أن تمنع نواحهم إذا أُعطيت حرية المنع لك.

٦-١ وشيء آخر يمنعك من الحداد المفرط، وهو تذكير نفسك أن لا شيء تفعله يمكن تخفيه عن الأنظار، لقد منحك الرأي العام دورًا مهمًّا يجب عليك الالتزام به، وهناك مجموعة من الجماهير يقفون حولك يقدمون الخدمة ويدققون عقلك ويلاحظون مقدار قوته حين يواجه الحزن، وعمَّ إذا كنت حسنًا في التعامل مع ظروفك المواتية، أو تواجه المعكوس منها كرجل، إنهم يراقبون عينيك.

٦-٢ ومَن يخفون مشاعرهم يتمتعون بحرية أكبر، وأنت لست حرًّا لتتقصى الأسرار، لقد وضعك الحظ في النور المشرق، فالجميع يعلم كيف كنت تتصرف بعد هذه المصيبة، سواء إذا كنت وضعت أسلحتك بمجرد أن أصبت أم وقفت على الأرض، وقد أعلاك حب القيصر، وقد أعزتك مواصلة الأدب إلى مستوى أسمى، فما كان يناسبك ليس شيئًا عاديًّا ولا شائعًا، وما البذاءة والأنوثة التي تستهلكك بالحزن؟

٦-٣ لن يُسمح لك أن تتصرف مثل إخوتك، مع أن خسارتكم متساوية، ولن تسمح لك السمعة التي اكتسبتها كتاباتك وشخصيتك من فعل أشياء كثيرة، فالناس يطلبون منك ويتوقعون الكثير، وإن كنت ترغب أن تتصرف كما تحب فلا تلفت انتباه الجميع نحوك، وكما آلت الأمور عليك أن تسلم ما وعدت به،

فكل الذين يثنون على ما أنتجته في الأدب، والذين ينسخونه، والذين لا يريدون حظك ويرغبون في قدرتك يضعون عقلك تحت المراقبة، وليس بمقدورك أن تقوم بشيء لا يليق بهدوئك؛ لأنك تربيت بسمو، ولأنك إنسان متعلم، وعلَّمتَ، دون أن يندم كثير من الناس على إعجابهم بك.

٦-٤ لن يحق لك أن تبكي إطلاقًا، وهذا ليس هو الشيء الوحيد الذي لم يُسمح لك عمله: فلن يحق لك أن تنام في طرف الصباح أو تهرب من صخب العمل إلى الراحة فتنسحب إلى ملاذ ريفي هادئ، أو حين ينهك جسدك باستمرار مراقبتك في موضع طلب منك لتستعيده بعطلة ممتعة بالخارج، أو تسعى لتسلية عقلية بأنواعها المختلفة أو تنظم يومك كما يحلو لك، لن يسمحك لك بعمل أشياء عدة، قد يُسمح لأحقر الناس بعملها في أحلك الظروف، فالحظ العظيم عبودية عظيمة.

٦-٥ ولا يحق لك أن تفعل أي شيء كما يحلو لك، وعليك أن تسمع آلاف الناس، وتنظم آلاف الوثائق، وتفحص تراكمات الأعمال التي جمعت من كل أنحاء العالم، ويمكن لفت انتباه إمبراطورنا المرموق بالأمر المناسب، وأخبرك لا يحق لك البكاء، وأنت في حاجة إلى أن تسمع لأناس كثر بكائين، واستمع لطلبات أناس كثر يقيمون محاكمة، ويتوقون للحصول على رحمة قيصرنا المبجل، وتقوم على كل ما يجفف دموعك.

٧-١ وقد تعاملت مع علاجات معتدلة رغم أنها معينة، ولكن حين ترغب أن تنسى كل شيء فكر في القيصر، وانظر لما فيه ولاء عظيم ومثابرة قوية تدينك بالعودة لما فيه صالحك، فسوف تدرك أنه لا يقع على كاهلك أكبر مما يقع على أكتاف العالم- أو كذلك تقول الأساطير[١٦٨].

---

(١٦٨) في الأساطير كان أطلس يحمل العالم على كتفيه.

٧-٢ إن قيصر ذاته يحق له أن يفعل كل شيء، ومن ثم لهذا السبب هناك أشياء عدة لا يحق له أن يفعلها، فيقظته تحمي نوم الآخرين، وعمله الشاق راحة للكل، ومثابرته ملذات للآخرين، ونشاطه الدائم عهد حرية للجميع، ومنذ أن كرَّس قيصر للعالم سلب نفسه من نفسه، مثل النجوم التي تتبع مساراتها دون راحة، فلا يحق له أن يتوقف أو يفعل شيئًا لنفسه.

٧-٣ وهكذا قد تفرض عليك الضرورة نفسها بمدى معين، فلا يجوز لك أن تلتفت لمصلحتك وتأملاتك فحسب، وفي حين يسيطر القيصر على العالم لا تستطيع أن تكرس طرفًا من نفسك للملذات أو الألم أو أي شيء آخر، إنك مدين بوجودك كله للقيصر.

٧-٤ وأضف إلى ذلك، ما دمتَ تقول على الدوام إن القيصر أغلى عندك من نفسك، فليس من الصواب أن تشتكي الحظ في حياته، وطالما لم يُصب بضرر وأهلك آمنون معافون، ولم تفقد شيئًا، فلا ينبغي أن تجف عيناك، بل تبتهج، فأنت تأخذ كل شيء فيه وهو يحل في كل شيء، وأنت لا تمتن بما فيه الكفاية لحظك الحسن، وهذا سلوك غريب عن مشاعرك الحكيمة المخلصة إذا أحققت لنفسك أن تحزن على شيء وهو على قيد الحياة.

٨-١ لن أصف لك علاجًا أقوى، بل أكثر خصوصيةً لك، حين تذهب إلى البيت نحِّ الحزن جانبًا، حتى لا يتمكن من الوصول إليك طالما تتطلع إلى ألوهيتك، سوف يُشغل القيصر إخلاصك، ولكن حين تتركه كما لو سلمت للحزن فرصةً فيحاصر وحدتك ويزحف تدريجيًّا إلى عقلك وهي مسترخٍ.

٨-٢ وعليك ألَّا تدع لحظة دون أن تُشغلها بتأملاتك، وفي هذه الفترة دع الأدب الذي أحببته طويلًا وارجع إلى الفضل بوفاء، وفي هذه الفترة دع الأدب يحميك بكاهنه ومتعبده، وفي هذه الفترة دع هوميروس وفيرجيل فهم خدموا جنس البشر كما خدمتهم والآخرون، وإن أردت أن تجعلهم معروفين لقراء

أكثر من الذين كتبوا لهم[١٦٩]، دعهم يتريثون في رفقتك: فكل الوقت الذي عهدت به للحفاظ على سلامتهم سيكون آمنًا، واكتبْ في هذا الزمن ما يمكنك فعله حول ما أنجزه قيصرك، حتى يمرروها عبر العصور بالرسول في أسرته، وحين تصبح هناك صياغة لتاريخ وكتابة، فسوف يكون هو ذاته الشخص الأفضل الذي يقدم لك موضوعًا ونموذجًا[١٧٠].

٨-٣ لن أغامر لتحصل على مؤلف بأسلوبك المعتاد المقبول والخرافات والقصص من أيسوب *Aesop*، وهذا أسلوب أدبي لم تعهده الموهبة الرومانية[١٧١]، ويقينًا يصعب على عقلك أن يجد طريقًا لتباشر هذه الصور الخفيفة من الأدب بعد أن تلقت صدمة شديدة، ولكن خذها دليلًا لعقلك الذي قوي وطُوِّر بالفعل إن كان يمكن أن ينتقل من أشكال الكتابة الجادة إلى هذه الكتابة المبسطة.

٨-٤ وبالنسبة للنوع الأول قد تشتت ذهنك ظلامية الموضوع، رغم أن كثيرًا منها لا يزال منحرفًا ويكدح مع ذاته، ولكن لا يحتمل عقلك الأعمال التي يلطف تأليفها تعبيرٌ مريحٌ حتى لو كانت مكتملة مع ذاتها في جانب واحد، ولذلك تحتاج أولًا أن تمارسها على موضوع صارم، وتتحول بعد ذلك إلى نظام ألطف بشيء أخف.

٩-١ وسوف تجد راحة كبيرة لو سألت نفسك مرارًا: «هل أحزن على حالي، أم على حال المتوفي؟»، إن كان على حالي؛ فإظهار الولاء لا معنى له، وقد يبرر الحزن حين يكون مبجلًا، وهو يبدأ بجانب الرفقة مع الحب حين تأخذ المصلحة الذاتية بعين الاعتبار، وحين يتعلق الحداد بالأخ، وما هو جدير

(١٦٩) ترجم بوليبوس هوميروس إلى اللاتينية وترجم فيرجيل إلى اليونانية.

(١٧٠) كان كلاوديوس يكتب في التاريخ الروماني والأتروسكاني والقرطاجي.

(١٧١) يتجاهل سينيكا عمدًا أو جهلًا الأساطير الخرافية لفايدروس، والتي كُتبت في عهد تيبريوس.

بالرجل الخيِّر لا يكون معدودًا.

٩-٢ وإن كان الحزن على حاله، وبالضرورة أن أحكم بأحد البديلين التاليين لتكون هي الحالة، إن لم يكن للميت أي إحساس، فإن أخي قد نجا من كل مساوئ الحياة، وهو يستعيد الحالة التي كان عليها قبل أن يولد، وهي التحرر من كل شر ولا يخشى شيئًا ولا يرغب في شيء ولا يعاني شيئًا، فما هذا الجنون؟ ألا تتوقف عن الحزن على مَن لا يحزن؟

٩-٣ ولو كان للميت بعضٌ من إحساس، فإن عقل أخي الآن قد يفرح كما لو أفرج عنه من عقوبة السجن الممتد وسيده وقاضيه، وهو يتمتع بتأمل العالم، وينظر إلى عالم البشر كله من مكان أعلى، وأفضل من ذلك كله أنه ينظر بالقرب من مقام الربوبية التي سعى كثيرًا لفهمه وفشل[١٧٢]، ولماذا أضيع الطريق بالشوق لامرئٍ إما أن يكون سعيدًا أو غير موجود؟ فالبكاء على الإنسان السعيد حسدٌ، والبكاء على غير الموجود جنونٌ.

٩-٤ هل يزن معك إنه يبدو قد خسر البركات العظيمة حينما كانت تتنزل عليه؟ حين تظن أن هناك أشياء عدة قد غابت عنه، وأن هناك أشياء كثيرة لا يخاف منها، ولا يعذبه الغضب ولا يصيبه المرض ولا تساوره الشكوك، ولن يلاحقه الحسد الذي يُعادي نجاحات الآخرين، ولن يزعجه الخوف، ولن يزعزعه تقلب الحظ الذي يُعيد توجيه هباته عاجلًا في مكان آخر، وإن أعتبت لما سبق، فإنه صرف ما هو مكبوت أكثر من كونه حُرم منه.

٩-٥ لن تتمتع بحظ ولا نفوذ سواء أنت أو هو، ولن يتلقى فضلًا ولن يمنحه، وهل تعتقد أنه تعيس؛ لأنه فقد كل هذا أو مبارك لأنه لم يفقده؟ وصدقني، إن المرء الذي عنده حسن الحظ ليس بالضرورة أكثر نعمةً ممن امتلكه في قبضته، وكل

(١٧٢) تشمل كلمة الإلهي هنا الأجرام السماوية التي تعتبر من منظور واسع كائنات إلهية.

الأشياء التي تبهجنا بجاذبية هي ملذات خادعة، فالمال والشرف والسلطة وأشياء أخرى عدة من التي تُغري جنس البشر تجلب المتاعب لمالكيها، وهي مرأى للحسد، وتضطهد مَن تميزهم، ويزيد خطرها على نفعها، وهي زلقة ولا يعول عليها، والقبض عليها غير مأمون، وحتى لو افترضنا أنها لا توجد في المستقبل، فالحفاظ على الرفاهية الممدودة في حد ذاته عمل مثير للقلق.

٩-٦ وإن كنت تعتقد أن هؤلاء لهم رؤية أكثر عمقًا للحقيقة؛ فكل الحياة عقاب، فقد أُلقينا في عمق البحر المائج، والذي يتدفق مده إقبالًا وإدبارًا، ويرفعنا في لحظة لمكاسب فجأةً، ويُجرنا للأسفل لخسائر أعظم، ويتقاذفنا على الدوام فلا نستقر في موضع ثابت، بل نتأرجح ونموج جيئةً وذهابًا، ونتصادم بعضنا ببعض، ونعاني غرق السفينة من آن لآخر، ونخاف من البحر على الدوام، وبينما نجوب البحر العاصف نتعرض لكل العواصف، ولا مرسى سوى الموت.

٩-٧ فلا تحسد أخاك على حاله، إنه في حال الراحة، على الأقل هو حرٌّ ومأمون وأبدي، إنه نجا من قيصر وذريته(١٧٣)، ونجا منك وإخوتك الذين تقاسمهم، وقبل أن تسحب الثروة طرفًا من فضله، فإنه تخلى عنها، بينما كانت لا تزال بجانبه ويكوم العطايا بأيدي المن.

٩-٨ الآن يستمتع بالسماء المطلق من هذا المنخفض، فقد صعد من البقعة الغويطة إلى فوق إلى ذلك المكان، ومهما كان يرحب بالأنفس المحررة من قيودها إلى أحضانها المباركة، الآن يتجول هناك بحرية، إنك مخطئ، إن أخاك لم يُسلب ضياؤه بل اكتسب نورًا أنقى، كلنا نتشاطر الرحلة هناك، فلماذا نولول

(١٧٣) حين كان سينيكا يكتب هذه الرسالة، كان لكلاوديوس ثلاثة أطفال وهم: أنطونيا *Antonia* من زواجه الثاني بإيليا باتينا *Aelia Paetina*، وأوكتافيا وبريتانيكوس *Britannicus* من زواجه الثالث بميساللينا *Messallina*.

على الموت؟ إنه لم يفارقنا بل مضى قدمًا للأعالي، صدقني، إن في حتمية الموت سعادة بالغة، ولا نوقن في شيء حتى بقية يومنا، وحينما تُكفر الحقيقة وتغمض، فمَن الذي بمقدوره أن يخمن إن كان أخوك قد استاء من الموت أم رغبه في قلبه؟

١٠–١ إن أفعالك تتجذر دومًا من شعور قوي بالعدالة، ولذا أنت مرهون بأن تُحصل مزيدًا من الراحة من هذا الفكر، فأنت لا تُعاني ظلمًا حين فقدت هذا الأخ، بل منحت فضلًا حين سُمح لك بأن تتمتع بالثناء على حبه لفترة طويلة.

١٠–٢ وليس عدلًا ألَّا تدع المعطي يحتكم العطية، ومن الجشع ألَّا تعد ما تلقيته مكسبًا، بل تعد ما رُد إليك خسارة، والجاحد مَن يطلب كف لذة الظلم، والأحمق مَن يعتقد أن الأشياء الحسنة ليس لها جدوى باستثناء ما كان منها موجودًا، والذين لا يستمدون الرضى الأقصى منها حين تمر عليهم يفشلون في إدراك أن الأشياء لا تطول ملكيتنا لها أعظم موثوقية، حيث لا حاجة بالنسبة لهم من الخوف من أن تُقبل على النهاية.

١٠–٣ وأيًّا ما يعتقد أن يستفيد فقط من شيء ملكه أو يراه، ومَن ينظر أن ما ملكه بلا قيمة، وهي نظرة مفرطة للفرح؛ لأن الملذات تهجرنا على عجل وتتلاشى تقريبًا قبل وصولها، لذلك على عقلنا أن يركز على الماضي، وكل شيء قد أبهجنا علينا أن نستدعيه ونكرره في أفكارنا، فذاكرة الملذات أطول دوامًا وأكثر وثوقًا من وجودها.

١٠–٤ لذلك اعتبر أن لك مثل هذا الأخ الجميل من أكبر نعمك، وعليك ألَّا تفكر في المدة التي لم تملكه فيها، بل في المدة التي ملكته فيها، وإخوتك مثل باقي الناس، فالطبيعة لم تمنحك ملكيته، بل أعارته لك[١٧٤]، وتطلب منه العودة

---

(١٧٤) قارن *Lucretius 3.971*.

إليها حين يناسبها، ولا يرشدها فاعلية استمتاعك به بل قانونها.

١٠–٥ وهل مَن ينزعج من رد المال المقرض إليه وخاصة المال يستعمله دون فائدة يعتبر منصفًا؟ إن الطبيعة منحتك حياة أخيك، ومنحتك إياها وإن مارست حقوقها لطلبت الدين من المرء مبكرًا ولا تلام؛ لأن حدودها معروفة، ويكمن اللوم في آمال العقول البشرية الجشعة التي تنسى مرارًا ماهية الطبيعة، ولا تتذكر حالها إلَّا حين تتلقى تذكيرًا.

١٠–٦ وافرح بأن لك مثل هذا الأخ، وارضَ بتمتعك به، رغم أن المتعة كانت أقصر مما تريد، واعتبر أن حقيقة أنك ملكته بهجة بالغة وأنك فقدته كإنسان، وما من شيء أشد تناقضًا من امرئ ينزعج من أنه قد مُنح مثل هذا الأخ لفترة قصيرة، ولا يسعد على أي حال أنه قد منح إياه.

١١–١ «ولكن قد خُطف، ولم أتوقع هذا». إن الناس مخدعون لسذاجتهم، وبالنسبة لهؤلاء ينسيهم حبهم عمدًا بشريتهم، وقد قررت الطبيعة ألَّا تمنح أحدًا حقًّا من متطلباتها، فقد تمر أمامنا أعيننا يوميًّا جنازات لأناس نعرفهم ولا نعرفهم ولا نولي اهتمامًا، ونعتبر غير المتوقع الذي قد سمعناه في حياتنا سوف يحدث، ولذلك هذا ليس ظلمًا من القدر، بل انحراف العقل البشرى برغبته النهمة لكل شيء، الذي يشتكي من مفارقة المكان الذي قد استحسنه.

١١–٢ كم كان معتدلًا ذلك الذي سمع خبر موت ابنه، ونطق كلمات جديرة برجل عظيم: «عندما وُلِدَ لي، علمتُ أنه سيموت»، ولن يفاجئ هذا الرجل على الإطلاق، كان له ولد قادر على أن يموت بشجاعة، ولن يتعامل مع موت ابنه على أنه خبر غير متوقع، فهل ما هو غير متوقع عن الإنسان يموت في حين أن الحياة كلها مجرد رحلة نحو الموت؟

١١–٣ «حين وُلد لي، علمتُ أنه سيموت»، ومن ثم أضاف شيئًا يبرز حكمة وشجاعة

أعظم: «ولهذا رُفع»[١٧٥]، ولهذا نحن نرفع جميعًا، ومهما يُجلب للحياة فإنه محدود بالموت، فدعنا نفرِح بما منحناه، ودعنا نرده حين يُطلب منا، وسوف تستولي الأقدار على أناس مختلفين في أزمنة مختلفة، ولن يفقدوا أحدًا، دع العقول تقف على أهبة الاستعداد، دعها لا تخشى مما لا يمكن تجنبه، ودعها تتوقع باستمرارٍ ما لا يمكن التنبؤ به.

١١-٤ هل أنا في حاجة للحديث عن الجنرالات ونسل الجنرالات والناس البارزين لقناصلهم وانتصاراتهم المتعددة الذين واجهوا فيها المصير؟ امتلكوا ممالك مع ممالكهم، وأممًا مع أجناسهم، وقد تحملوا قدرهم وقدر الجميع أو كل شيء آخر واجه يومه الأخير، ولم تكن النهاية متماثلة في كل حالة، والحياة تتخلى عن امرئ بعينه في منصف الطريق، ويهجر حقًّا آخر في البداية، ويطلق سراح آخر في سن الشيخوخة، حين يسأم ويحن للرحيل، ورغم اختلاف مواعيد الزمن، فإننا نتجه جميعًا إلى نفس المكان، وأنا لست على يقين أمن الغباء ألَّا أكون على وعي بقانون الفناء، أم من الإعلاء أن أعترض عليه؟

١١-٥ تعالَ الآن واحضر قصائد أي من مؤلفيك[١٧٦]، تلك القصائد التي أصبحت معروفة على نطاق واسع بفضل كل جهود أدبك العبقري، تلك القصائد التي حولتها إلى نثر بالكيفية نفسها، وظلت جاذبيتها رغم فقدان نسيجها الشِّعري (فقد ضمنت في ترجمتها من لغة إلى أخرى أن تتبع لك خصائصها المميزة في اللسان الأجنبي- وهذا كان أمرًا صعبًا في تحققه): وفي هذه الأعمال لا يمدك كتاب منها بأمثلة عدة بضعف الإنسان والمصائب غير المتوقعة، وتتدفق الدموع من أسباب مختلفة.

---

(١٧٥) يقتبس سينيكا شذرة من التراجيديا الرومانية لمؤلف غير معروف، كما اقتبسها أيضا شيشرون في *Tusculan Disputations 3.28, 58* بتصرف، وهي تقول: "عند الولادة رفع الأب الروماني المولود عن الأرض، وهذا اعتراف رسمي بأن المولود هو طفله".

(١٧٦) كانت ترجمات بوليبوس لهوميروس وفيرجيل نثرًا وليست شِعرًا.

١١-٦ اقرأْ واطلعْ كيف كان الملهم رعدًا لكلماتك القوية، وسوف تخجل من أن تمضي قُدمًا في بعضها، وستتخلى عن عظمة كتابتك القوية، ولن تؤيد هؤلاء الذين أعجبوا بكتاباتك على الإطلاق، ويتساءلون كيف لهذا العقل الضعيف أن يتصور شيئًا قويًّا وثابتًا.

١٢-١ وبدلًا من ذلك تحول عن الأشياء التي تعذبك إلى مصادر عدة عظيمة تمتلكها للراحة، انظر إلى إخوتك الباهرين، وانظر إلى زوجتك، وانظر إلى ابنك، لقد اتفق الحظ معك على أن تدفع مقابل سعادتهم جميعًا[١٧٧]، ولديك أناس عدة يمكن أن تجد فيهم الراحة، وتجنب عيب كل امرئٍ يفكر أن المصدر الوحيد للحزن يعد عندك أعظم من كل مصادر هذه التعزية.

١٢-٢ وسوف تراهم قد صدموا مثلك ولا يستطيعون عونك، والحقيقة أنك تدرك أنهم يتطلعون إلى دعمك، وبما أنهم كانوا أقل تعليمًا وموهبةً منك، فمن الضرورة أن تتحمل المعاناة التي تواجهكم جميعا، وهذا شكل للراحة لمشاركة حزن المرء مع الآخرين، حيث يُوزع الحزن على كثير من الناس، ويبقى طرفًا ضئيلًا منه عندك فقط.

١٢-٣ لن أتوقف عن توجيه انتباهك للقيصر مرارًا، وفي حين يحكم القيصر العالم يبرهن أن ما يحمي الإمبراطورية بفعالية هو السخاء وليس القوة العسكرية، في حين أنه مسؤول عن الشيء وعن الإنسانية، وليس هناك خطر على شعورك في أن تُعاني أي فقدٍ، ويكفي المرء في هذا الأمن والراحة، ولذلك استجمع نفسك، وحين تترقق عيناك بالدموع حولها إلى القيصر، وسوف تجف عند رؤية هذا المعبود الأعظم في قوته والغالب في مجده، وسوف يبهرهم إشراقه فلا يرون شيئًا آخر غيره، فيثبتون على رؤيته.

---

(١٧٧) صورة مالية: الحظ هو الدائن الذي يطلق سراح المدين المتعثر عن دفع جزء مستحق مما يدان به في مقابل أن يدفع ثمن حياة أخيه، وبمقدور بوليبوس أن يحافظ على حياة أقاربه الآخرين.

١٢-٤ عليك أن تفكر فيه، وتنظر إليه ليل نهار ولا تحول انتباهك عنه، وعليك أن تنشد عونك ضد الحظ، وأنا لا أشك في عظم سخائه وخيره للقريبين منه، لقد ضمد جروحك هذه بصنوف عدة من العزاء، وكدس أدوية شتى لتقاوم ألمك، وبجانب ذلك حتى لو افترضت أنه لم يفعل هذه الأمور، أليس مجرد رؤية قيصر وفكره راحة كاملة لك؟

١٢-٥ وللأرباب والربات أن تمدد قرضها له وللأرض لفترة طويلة قادمة(١٧٨)، وقد تتساوى إنجازاته مع أوغسطس الإلهي قياسًا بسنينه(١٧٩)، وطالما لا يزال بين البشر لم يجرب فناء أي شيء في بيته، ويبني ثقة الناس في ابنه ليفوز باستحسانهم ليكون حاكمًا للإمبراطورية الرومانية، ويراه شريكًا لأبيه قبل أن يراه خلفًا له(١٨٠)، وقد يتأخر اليوم حين تدعوه عائلته للسماء، وقد يشهده أحفادنا(١٨١).

١٣-١ فض يدك عنه والحظ ولا تُظهر قوتك عليه إلا في الجانب النافع، واسمح له أن يعالج جنس البشر الذي طال عياه وسقمه، وأسمح له أن يسترجع ويحيي ما دمره الإمبراطور السابق(١٨٢)، وهذا النجم الذي هوى على العالم بزغ في الهاوية وغرق في الظلام وأضاء للأبد(١٨٣).

---

(١٧٨) وقد شاع هذا الإطراء في الإمبراطورية الرومانية، حيث منزلة الإمبراطور الحقة بين الأرباب، ولكن الكاتب يناشده أن يبقى على الأرض بقدر الممكن.

(١٧٩) توفي أوغسطس في عمر السادسة والسبعين، وكان كلاوديوس في الخمسينيات من عمره عندما كتب سينيكا هذه الرسالة.

(١٨٠) الابن المقصود هو بريتاننيكوس، والذي كانت أمه ميسالينا الزوجة الثالثة لكلاوديوس، ولد بريتاننيكوس عام ٤١م بعد زواج كلاوديوس بأجريبينا *Agrippina*، وقد رقُى ابنها نيرونن فوق بريتاننيكوس والذي قتله نيرونن عام ٥٥م وفقًا للمصادر القديمة، وأصبح نيرونن إمبراطورًا بعد هذه الحادثة بعام، ورأى كلاوديوس أن بريتاننيكوس خليفة له بعد موته وصعد للسماء.

(١٨١) كانا يوليوس قيصر وأوغسطس من أسلاف كلاوديوس وأُلهوا، وتتبع أصولهم إلى فينوس، ولكن عائلته تشير إلى الأرباب عمومًا.

(١٨٢) كان كاليجولا هو الإمبراطور السابق حيث حكم من٣٧-٤١ م.

(١٨٣) كان الإطراء شائعًا في الإمبراطورية، حيث مقارنة الحاكم بالنجم.

١٣-٢ وأصلح جرمانيا[١٨٤]، وفتح بريطانيا[١٨٥]، وقاد للانتصارات مثل والده[١٨٦]، وانتصارات جديدة، والفضيلة التي احتلت مكانًا بين فضائله هي رحمته التي صبرت بأنني أكون متفرجًا على هذه الانتصارات[١٨٧]، لأنه لم يوقعني دون يكون على استعداد ليرفعني أو الأحرى لم يوقعني حقًّا، بل حين هاجمني الحظ وقد سقطت أمسك بي، وحين كنت أندفع بسرعة نحو الدمار منحني بلطفٍ هبوطًا لطيفًا بلمسة من يده الإلهية، فتوسط لي في السوناتو، وهو لم يمنحني قط حياتي بل تشفع لها.

١٣-٣ أنا أترك الأمر له، فدعه يفكر كيفما يشاء في حالتي، فإما تبين عدالته أنه أفضل أو تجعله رحمته أفضل، والفضل يعني الشيء نفسه لي، سواء أكان يعرف أنني بريء أم أتمنى أن أكون كذلك، وإنها لراحة بالغة لتعاستي أن ترى رحمته تتخلل العالم كله، ومن هذه الزاوية التي دفنت فيها والتي دفنت بالفعل أناسًا عدة غمرتهم المصيبة منذ سنوات عدة وأعادهم للنور، فأنا لست خائفًا؛ لأنني الوحيد الذي سيتجاهله، ولكنه هو فحسب مَن يعلم الوقت المناسب الذي ينقذ فيه كل واحد، وسأبذل كل جهدي لأضمن أنه لن يخجل حين يحين دوري.

١٣-٤ يا لرحمتك المباركة أيها القيصر، فبفضلك يعيش المستبعدون حياة هادئة تحت إمرتك أكثر من قيادة المواطنين التي فعلها جايوس تحت قيادته! فهم

(١٨٤) هزم جابينيوس سيكوندس الكوشي *the Chauci*، وهي قبيلة جرمانية في عهد كلاوديوس، كما قام جنايوس دوميتوس كوربيلو *Gnaeus Domitius Corbulo* بحملة ضد الكوشي في ٤٧ م، ومن المحتمل أنها بعد كتابة هذا العمل.

(١٨٥) قاد كلاوديوس غزوة ناجحة إلى بريطانيا عام ٤٣ق.م، وقد كتبت هذه الفقرة قبل هذه الغزوة أو على الأقل قبل وصول الأخبار إلى سينيكا في كورسيكا.

(١٨٦) قام دروسوس *Drusus* والد كلاوديوس بحملة في جرمانيا من عام ١٢ حتى وفاته عام ٩، وفاز بشارة النصر، واحتفل كلاوديوس بالنصر بعد غزوة بريطانيا.

(١٨٧) يقرر سيتونيوس *Suetonius* فى كتابه *The Life of Claudius 34.3* أن كلاوديوس سمح لبعض المنفيين بالعودة إلى روما لرؤية أنتصاره، ولكن لم يكن سينيكا بينهم.

ليسوا خائفين، ولا ينتظرون السيف كل ساعة، ولا يرتعدون في كل مرة يشاهدون فيها السفينة، وبفضلك هم لا يستمتعون بوضع حدٍّ لوحشية الحظ بل بالأمل في تحسينه، وراحة البال حين يبقى الحظ كما هو، ويمكن للمرء أن يخبر الصواعق برمتها عندما تُعبد حتى من الذين ضربتهم[١٨٨].

١٤-١ ولذلك هذا الإمبراطور هو مصدر الراحة الكلي لكل امرئٍ، استعاد معنوياتك بالفعل إن لم أكن مخطئًا، وجرب لجرحك أدوية أعظم، لقد استعمل بالفعل كل الوسائل ليمنحك القوة، لقد ملك حقًّا ذاكرة قوية تستدعي كل السوابق التي تحثك نحو الاتزان، وشرح حقًّا تهاذيب كل الفلاسفة ببلاغته المعهودة.

١٤-٢ ولا يمكن لأحد أن يؤدي دور المعزي بشكل أفضل، فحين يتكلم يكون للكلمات وقع خاص، كما لو كان ينطق بالوحي، فإن سلطته الإلهية سوف تسحق كل قوى حزنك، ولذلك تخيل أنه يقول لك: «إن الحظ لم يخترك لوحدك ليخضعك لقسوة الحزن، ولم تُعف أسرة في العالم بأسره من الحداد على امرئ ما، وسوف أمر على أمثلة بسيطة، حتى لو كانت أقل دلالة فهى لا تزال وافرة، وسوف أنقلك إلى تقويمنا العام والسنوي[١٨٩].

١٤-٣ هل ترى هذه الصور التي مُلئت بآهات *atrium* القياصرة؟ وكل واحد منهم جدير بالذكر لبعض مصائب قومه، وكل واحد من هذه النجوم التي جلبت التميز للقرون السابقة قد ابتُلي بالحزن لفقد أقاربه أو شعر أقاربه بالكرب تجاهه.

---

(١٨٨) الصواعق التي يستعملها جوبتر في الأساطير على نطاق واسع، وهي مجاز مألو للعقوبة التي يفرضها الأباطرة، وتقام الطقوس الدينية التراثية في روما في أي بقعة ضربها البرق.

(١٨٩) التقويم العام والفاستي *the Fasti* هو السجل الرسمي للقضاة الذين يتقلدون فيه المنصب كل عام، وتشير السجلات العامة إلى الوقائع الأعظم *annales maximi* التي يسجلها الكاهن الأعظم *pontifex maximus* في الجمهوريات المبكرة والمتوسطة، وعلى الأرجح يشير إلى الأعمال التاريخية الرومانية، حيث كان كلاوديوس نفسه مؤرخًا. انظر ٢,٨ أعلاه.

١٤-٤ هل تحتاج أن أذكرك بسكيبيو الإفريقي الذي سمع عن وفاة أخيه في المنفى[١٩٠]؟ وهذا الأخ الذي أنقذ أخاه من السجن لم يستطع أن ينقذه من القدر، وكان تعصب الإفريقي لحب أخيه واضحًا، ففي اليوم نفسه الذي خطف فيه أخاه من يدي مسؤولي المحكمة، ورفض منبر الشعب رغم أنه كان مواطنًا جنديًّا[١٩١]، ولكن ندب خسارته لأخيه بالشجاعة نفسها التي قد دافع بها عنه.

١٤-٥ هل تحتاج أن أذكرك بسكيبيو أيميلينوس *Scipio Aemilianus* الذي شهد انتصار أبيه وجنازة أخويه في الوقت نفسه[١٩٢]؟ رغم أنه كان مجرد شاب أو صبي تقريبا حين ضُربت عائلته أعقاب انتصار بولوس وتحمل الخراب المفاجئ بكل شجاعة الرجل الذي ولد ليضمن ألَّا تحتاج مدينة روما لسكيبيو ولم تسبقها قرطاجة[١٩٣].

١٥-١ هل تحتاج أن أذكرك بأقرباء لوكالي *Luculli* الاثنين اللذين مزقهما الموت بعيدًا[١٩٤]، أم بومبي[١٩٥] اللذين لم يحالفهما الحظ العاثر، وماتا مؤخرًا

---

(١٩٠) هذا هو بوبليوس كورنيلوس سكيبيو الإفريقي الأكبر *Publius Cornelius Scipio Africanus the Elder* الذي هزم حنبعل، وهو أخو لوكيوس كورنيلوس سكيبيو أسيجينيس *Lucius Cornelius Scipio Asiagenes*، ومن المحتمل أن يكون بعض الكتاب على صواب حين يقولون إن بوبليوس قد توفي قبل لوكيوس، ومن المحتمل أن بوبليوس ذهب للمنفى الطوعي عام ١٨٠ق.م ليتجنب المحاكمة، وتوفي في العام الذي يليه.

(١٩١) أنقذ بوبليوس أخاه قبل أن يُنفى بسنين قليلة، والتاريخ بالضبط غير مؤكد، ومن يحكم في المنصة يمكن أن يكون له حق التصويت في منصة أخرى.

(١٩٢) هذا هو أفريكانو الأصغر *Publius Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Numantinus* ابن لوكيوس إيميلوس باولوس *Lucius Aemilius Paullus* وتبني بالتالي ابن أفريكانو الأكبر، واحتفل أبوه الطبيعي بالنصر بعد هزيمته لبوروس *Perseus* عام ١٦٧ق.م، وتُوفي الابن الأول بعد خمسة أيام من الاحتفال بالنصر، وتُوفي الابن الآخر بعد ثلاثة أيام من الاحتفال.

(١٩٣) دمر سكيبيو قرطاجة عام ١٤٦ق.م.

(١٩٤) لوكيوس ليكينيوس لوكيلليوس *Lucius Licinius Lucullus* الذي قاد الجيش الروماني في الحرب الميترادكية الثالثة *Third Mithradatic War* وتوفي عام ٥٥ أو ٥٦ ق.م، وأخوه ماركوس ليكينيوس لوكيلليوس *Marcus Licinius Lucullus*.

(١٩٥) أبناء بومبيوس المعظم (بومبي العظيم) جنايوس بومبيوس المعظم الأصغر (الذي أُعدم بعد معركة موندا عام ٤٥ ق.م) وسكتوس بومبيوس المعظم (الذي أُعدم عام ٣٥ ق.م بعد هزيمته في معركة نايلوكوس *Naulochus*).

بالكارثة نفسها؟ وسكتوس بومبيوس *Sextus Pompeius* نجَّى أخته التي بموتها ارتدت أواصر السلام التي شكلاها معًا على نحو حسن في روما[١٩٦]، إنه نجى أخاه الفاضل الذي أقامه الحظ ليطيح به من مكان لا يقل ارتفاعا من الذى أسقط منه والده، ولا يزال سكتوس بومبيوس بعد هذه المحنة يؤكد أنه ليس كفأً للحزن فحسب بل للحرب أيضًا.

١٥-٢ وهناك أمثلة لا حصر لها لأشقاء فرق الموت بينهم، أو وضعهم في اتجاه معاكس، فبالكاد ترى إخوة قد تقدموا في السن معًا، وسأكتفي بأمثلة من عائلتنا، لم يفتقر أحدهم لملكة الحكم والحس الحسن ليشتكي بأن الحزن قد يلحق بشخص آخر عندما يعلم أن الحظ قد أصاب دموع القياصرة.

١٥-٣ فقد أوغسطس الإلهي أوكتافيا، وهي أخته المحبوبة، فالطبيعة لا تمنح تعويضًا عن حتمية الحزن حتى لو كان قدر المرء من السماء، والحق أنه قد هاجمته كل أنواع الفجيعة وفقد ابن أخته الذي كان يعده لخلافته[١٩٧]، وبعد فترة وجيزة فقد صهره وابنه وحفيده، ولم يزد وعي الناس عن كونه موجودًا بشريًّا يعيش بين البشر[١٩٨]، ولكن قلبه كان قادرًا على أن يتعامل مع كل شيء، فقد تعامل مع كل هذه الأشياء المتعددة والخسائر الفادحة، ولم ينتصر أوغسطس الإلهي على الأمم الأجنبية فحسب، بل على أحزانه أيضًا.

---

(١٩٦) تمثل هذه الجملة إشكالية؛ لأن أخته كانت بومبيا *Pompeia* التي تزوجت سوللا، لذا لم يكن لوفاتها تأثير يوصف هنا، ويفترض أحيانًا أن سينيكا كان يفكر بارتباك في موت جوليا أخت يوليوس قيصر، إنها تزوجت بومبي العظيم عام ٥٩ ق.م، ودعمت التحالف بين بومبي وقيصر، وكانت وفاتها عام ٥٤ ق.م بمثابة حافز لانهيار التحالف، وكانت الزوجة الثانية لبومبي، ولذلك زوجة للأب وليس أختًا، وأخوا بومبي محل نقاش هنا، ومن المحتمل أن سينيكا يشير إلى الطفلة ابنة بومبي وجوليا والتي لم تكن شقيقة للأخوين، لقد توفيت جوليا أثناء ولادة هذه الطفلة التي ماتت بعدها بأيام قليلة لاحقة.

(١٩٧) توفيت أوكتافيا عام ١١ ق.م، وابنها مارسيلوس توفي عام ٢٣ ق.م.

(١٩٨) كانوا أصهار مارسيللوس وأجريبا، وكان أحفادهم جايوس ولوكيوس قيصر، وكان لديه طفل وحيد هو ابنته جوليا، وماتت في المنفى، وربما يفكر سينيكا في جايوس ولوكيوس هنا أيضًا؛ لأنه تبناهما كأبناء (انظر الهامش الآتي)..

١٥-٤ جايوس قيصر ابن وحفيد أوغسطس الإلهي[١٩٩] وخالي[٢٠٠] فقَدَ في سنوات رجولته المبكرة -وهو قائد للشباب- أخاه المحبوب لوكيوس *Lucius*، وهو زعيم للشباب في الاستعدادات لحرب بارثيا[٢٠١]، وعانى جرحًا عاطفيًّا أشد ألمًا من الجرح الجسدي الذي ألم به مؤخرًا، وتحمل الحب والشجاعة العالقين في آن.

١٥-٥ وفقد تبيريوس قيصر عمى أخوه دروسوس جرامايكوس *Drusus Germanicus* وهو أصغر منه سنًّا، وهو يُخضع القبائل الجرمانية المترامية للحكم الروماني، واحتضنه وقبله وهو ميت، ومع ذلك لم يفرض حدًّا للحزن لنفسه فحسب بل على الآخرين: فلم يحزن الجيش برمته بل صُدم، وطالبوا بجسد عزيزهم دروسوس ذاته، ولكن تيبريوس أعاده لشكل الحداد في التراث الروماني، ورأى أنه لا ينبغي الحفاظ على هذا الانضباط في الأمور العسكرية فحسب، بل في الحزن أيضًا، وكان ليس بمقدوره كبح دموع الآخرين ولم يتمالك نفسه في الصدمة.

١٦-١ وكان جدي ماركوس أنطونيو *Marcus Antonius* لا مثيل له، سوى الرجل الذي هزمه حين أعاد تنظيم الدولة، وحين خولت له السلطة الثلاثية ولم يسلم بالسلطة الأعلى، والحقيقة أنه كان ينظر في كل شيء في الحكم بعيدًا عن رفيقيه، لقد سمع أن أخيه قد قُتل[٢٠٢].

١٦-٢ أيها الحظ العاثر كيف تروق لك معاناة الإنسان! ففي الوقت الذي كان يحكم فيه ماركوس أنطونيو على حياة مواطنيه وموتهم، نُفذ حكم الإعدام على

---

(١٩٩) كان حفيدًا بالولادة (ابن أجريبا وجوليا وابنة أوغسطس) ابن بالتبني.

(٢٠٠) كان العم الأكبر لكلاوديوس (ابنته أنطونيا كانت ابنة أوكتافيا أخت أوغسطس)

(٢٠١) تلقى كليهما لقب قائد الشباب *princeps iuuentutis* عام ٢ م، وكان لقبًا رسميًّا.

(٢٠٢) ماركوس أنطونيوس والد أم كلاوديوس، وشكلت أنطونيا حكومة الثلاثة مع أوكتافيان وأوغسطس لاحقًا وماركوس ليبيدوس *Marcus Lepidus*، وقد هزمه أوغسطس عام ٣١ ق.م، وقُتل أخوه جايوس أنطونيوس عام ٤٢ ق.م.

أخيه، وتحمل ماركوس أنطونيو الجرح القاسي بالشجاعة نفسها التي تحمل بها المحن كلها، وقدم في حداد أخيه قربانا بدماء عشرين فيلقًا[٢٠٣].

١٦-٣ وحتى أمر على كل الأمثلة الأخرى، وأتجاهل وفيات الآخرين التي تأثرت بها، فإن الحظ هاجمني مرتين لحزني على أخي، وعلمني في المرتين لا يمكن أن أصاب أو أهزم[٢٠٤]. فقدت أخي جرامانيكوس، وأي امرئ يرى ما كرست لكل الإخوة المخلصين الآخرين سوف يُدرك بسهولة ما كرسته له، ولكني سيطرت على مشاعري حتى لا أنسى شيئًا قد يطلبه أخ حسن، ولم أفعل شيئًا يمكن أن يُنتقد في الإمبراطور.

١٦-٤ وكذلك تخيل راعي قومه يقدم لك هذه الأمثلة ويبين لك أنه لا شيء مقدس وكل شيء ينتهكه الحظ، الذي ملك الجرأة ليؤدي مواكب الجنازات من البيت الذي قُصد فيه السعي عن الأرباب، فلا يفاجئ أحدًا إن تصرف بقسوة أو بظلم، فهل تعلم له أي حس للإنصاف، أو أنه يتراجع في تعامله مع البيوت الخاصة حين تؤرق وحشيته العنيدة مضاجع الأرباب بالموت؟

١٦-٥ وربما لا تلعنه أصواتنا فحسب، بل أصوات الناس أجمعها، ومع ذلك لا يتغير شيء، وسوف تقف علله أمام صلواتنا وشكوانا، وهذه هي الطريقة التي تصرف بها تجاه البشر والتي سوف يتصرف بها، لم يترك شيئًا إلا اخترقه، ولن يغادر شيئًا صحيحًا، إنه سوف يهتاج في كل أينٍ كما يفعل دومًا حتى يصيبه، وحتى قد تبلغ الصفاقة به موضعًا أنه يدخل تلك المنازل التي تضاهي المعابد، وسوف يعلق على مداخل الأبواب المفسطنة بالغار قماش أسود[٢٠٥].

---

(٢٠٣) يشير إلى هزيمة جيوش بروتوس وكاسيوس في فيليببي *Philippi* عام ٤٢ ق.م.

(٢٠٤) من المحير أن يوصف الحظ كمهاجم مرتين، ولكن جيرمانيكوس هو الأخ الوحيد المذكور، ولكن يصف تاكيتوس في *The Annals 2.82* كيف وصلا عام ١٩ نبأ وفاة جيرمانيكوس إلى روما ، التقرير الأول كان خطأً والثاني صحيحًا.

(٢٠٥) كان مدخل القصر الإمبراطوري يشبه المعبد، حيث نمت شجرة الغار أمامه.

١٦-٦ دعونا نسعى للحصول هذا الطلب الوحيد منه بالنذور العامة والصلوات إذا لم يقرر بعد أن يختزل جنس البشر إلى لا شيء، وإذا كان لا يزال ينظر بإيجاب على اسم روما: فهذا الإمبراطور كان هبة لعالم الإنسان المرهق، ولذلك رغب في تبجليه وقدسه، كما يفعل البشر كلهم، فيتعلمون الرحمة منه، وتحلى بلطف الأباطرة كلهم.

١٧-١ انظر إلى كل هؤلاء الذين ذكرتهم للتو الذين صعدوا للسماء أو اقتربوا منها، إن الحظ لم يكف يده عن الذين نُقسم بأسمائهم(٢٠٦)، وعليك أن تتفاعل برباطة جأش حين تمتد يده إليك أيضًا، وعليك أن تتحلى بإصرار الذين تحملوا أحزانهم وتغلبوا عليها، بالقدر الذي يحق لك فيه أن تسير على خطى الألوهية.

١٧-٢ ورغم أن هناك تفاوتًا شاسعًا للوضع والتمايز في مجالات أخرى؛ فالفضيلة متاحة للجميع، فهي لا تفكر بأن لا أحد يستحقها طالما أنه يفكر بأنه يستحق، ويقينًا ستعمل على محاكاة الذين قد اشتكوا من إنهم لم يعفوا من المعاناة، ولكن الذين قضوا أن يعاملوا بالطريقة نفسها مثل الآخرين في هذا الاعتبار لم يظلموا، بل هو قانون الفناء، والذين عانوا مما يحدث بالوجع المفرط، ولا الامتعاض في ضعف وسلوك مخنث؛ لأن الإخفاق في الاعتراف بمعاناة المرء لا إنساني، والإخفاق في تحملها ليس رجوليًّا.

١٧-٣ وحيث إنني ذكرتُ كل القياصرة الذين سلبهم الحظ إخوتهم وأخواتهم، وليس بمقدوري أن أُسقط أحدًا من الذين شطبوا من كل قوائم القياصرة، والذين خلقتهم الطبيعة لجلب الخراب والعار على جنس البشر، والذين حرقوا الإمبراطورية ودمروها جملةً، واستردتها الآن رحمة إمبراطورنا الكريم.

---

(٢٠٦) في الفترة الإمبراطورية حلف الناس اليمين للإمبراطور الحالي، ولأوغسطس بعد وفاته.

١٧-٤ حين فقد جايوس قيصر أخته دروسيللا *Drusilla*[(٢٠٧)]، لم يزد رفيقه الحزن أكثر من المرح مثلما فعل الإمبراطور، وولى الإمبراطور النظر ورفقة مواطنيه، ولم يلحق بجنازة أخته، ولم تقم لها الشعائر الجنائزية الواجبة، وخفف صدمة هذه الفجيعة المؤلمة بإقامته في ألبا *Alba* بالنرد ولعب القمار وغيرها من الأمور المثيرة للاشمئزاز[(٢٠٨)]، يا له من عار على الإمبراطورية! القمار هو عزاء الإمبراطور الروماني الذي حزن على أخته!

١٧-٥ وجايوس نفسه بتقلبه المجنون أطلق لحيته وشعره، وهام على وجهه بطول شواطئ إيطاليا وصقلية، ولم يوقن إن كان يرغب الحزن على أخته أم يعبدها، في حين كان يقيم لها المعابد والتكايا[(٢٠٩)]، وكان يوقع أقسى العقوبة على مَن لا يحزنون عليها بما فيه الكفاية؛ لأنه تحمل الشدائد بالافتقار إلى ضبط النفس، فعندما صدمته الأحداث تبجح بما هو خارج عن حدود اللياقة الإنسانية.

١٧-٦ وعلى الرجل الروماني أن يتجنب على سبيل المثال الحزن المثير للاشمئزاز بفوارج مسلية غير ملائمة، أو يلهب أحزانه بملابس حداد وقحة ومظهر فظ، أو يستمتع بأحزانه بمعاناة الآخرين، أو شكل لا إنساني من الراحة.

١٨-١ وأنت لست في حاجة إلى أن تغير سلوكك المعتاد على الإطلاق، حيث بدأت تكرس ذاتك للدراسات التي تزيد من سعادتك وتقلص بيسر مصائبك التي تجلب السمو الأعظم والراحة الأسمى للإنسان، لذا اغرس نفسك في دراساتك بعمق الآن، وأَحِطْ نفسك بها الآن، مثل التحصينات لعقلك، بحيث لا يجد الحزن طريقًا له في أي اتجاه.

---

(٢٠٧) تُوفيت دورسيللا عام ٣٨م.

(٢٠٨) حذفت بعض الكلمات من النص حتى يمكن ترجمته.

(٢٠٩) كانت صور الأرباب تعرض بانتظام على المضاجع.

١٨-٢ أدم ذكر أخيك في بعض متون أدبك، فهذا هو المنتج الوحيد الذي لا تضر به عاصفة ولا يتلفه طول الزمن في حياة الإنسان، فأثار الآخرين شيدت من بُنى الحجر وكتل الرخام، أو شُيدت من ركام تراب قد اعتلى، وهذه الآثار لا تكفل البقاء الطويل؛ لأنها فانية لا محالة، والبناء التذكاري بالأدب العبقري خالد، فأغدق على أخيك واذكره ليسكن في هذا، فمن الأفضل لك أن تحتفي به في عبقريتك الأدبية، التي يُقدر لها أن تدوم للأبد بدلًا من أن ترثيه بحزن لا معنى له.

١٨-٣ أما بالنسبة للحظ ذاته؛ فإن حالته لا يمكن الدفاع عنها في هذه اللحظة أمامك – كل ما قدم لنا يدفعنا لكراهيته لأنه يخطف الشيء بعينه بعيدًا– ومع ذلك أنت في حاجة لتدافع عن الحظ بمجرد أن يمكنك الزمن لتحكم بطريقة أكثر عدلًا، ومن ثم سوف يكون بمقدورك المصالحة معه، فإنه وضع تدابير شتى لعلاج هذا الضرر، وسوف يمنحك في المستقبل عطايا عدة لتعوضك عنه، وفي النهاية قد يعطيك هو ذاته ما أخذه منك.

١٨-٤ فلا توظف موهبتك ضد نفسك، ولا تدافع عن حزنك، فقد تصنع بلاغتك الأشياء الصغيرة عظيمة، وقد تقلص ما هو عظيم فيبدو ضئيلًا، وحافظ على قوى موهبتك لمناسبة أخرى، وكرسها بكليتها لعزائك، ومن ثم احترس إن كان هذا غير ضروري الآن، فالطبيعة تطلب منا بعض الحزن، ولكن تتزيد فيه أنفسنا بفخر فارغ.

١٨-٥ لن أطلب منك ألّا تحزن مطلقًا، رغم أنني أعلم أنه بمقدور المرء أن يجد رجالًا قساةً بدلًا من حكمة جسورة يقولون إن الحكيم لا يشعر بأي حزن[٢١٠]، ويبدو أنهم لم يواجهوا مثل هذا النوع من الشدائد أبدًا، وقد يطرح الحظ

(٢١٠) هذا هو الرأي الرواقي، ولكن سينيكا ينأى بنفسه عن وجهة النظر الصارمة التي ترى أن الحكيم ليس لديه مشاعر على الإطلاق، ويعتنق مذهب أرسطو المعتدل الذي يرى على سبيل المثال على المرء أن ينأى بنفسه عن الانفعالات المفرطة كما يقول في ١٨, ٦.

فلسفتهم المتجبرة خارجهم، ويجبرهم على الاعتراف بالحق رغما عنهم.

١٨-٦ وسوف يحقق العقل ما يكفي إذا استأصل ببساطة أي حزن لا طائل منه ولا لزوم له، ولا ينبغي لهذا العقل أن يسمح للحزن أن يُحيي على الإطلاق شيئًا لا يأمله أحدٌ أو يرغب فيه، ودع العقل بدلًا أن من يبقى في منتصف الطريق لا لا يعاني فيه تشابه في افتقار الحب أو افتقار سلامة العقل، ودعه يبقينا في إطار الفكر محبوبين ولا نكره: حيث يدع الدموع تتدفق ولا يدعها تتوقف، ويدع التأوهات تخرج من أعماق القلب، ويدعها تصل إلى نهاية، أبق عقلك تحت السيطرة بطريقة تفوز فيها باستحسان كل من الحكيم وإخوتك.

١٨-٧ تيقن من أنك ترغب في تذكيرك بأخيك مرارًا، وأنت غالبا تذكره في محادثتك، وبتذكرك المستمر سوف يبقيه في عين عقلك، سوف تنجح إن تيقنت أن تذكرك له يسعدك ولا يغمك، لأنه من الطبيعي أن يكره العقل أي شيء يرجعه للحزن.

١٨-٨ فكر في تواضعه، وفي دهائه حين يُقبل على العمل، وفي طاقته لإنجاز الأمور، وموثقيته حين يتعلق الأمر بالوعود، ومر على الآخرين واستدعِ لفائدتك كل ما قاله وما فعله، وفكر فيما كان يحبه، والتمنيات التي يكنها لَه، فهل هناك شيءٌ ليس بمقدور المرء أن يعد به بثقة فيما يتعلق بهذا الأخ؟

١٨-٩ لقد كتبت هذا بأفضل ما استطعت بعقل مُجهد ومخدر بعدم الاستعمال الطويل، وإذا كانت كلماتي تبدو لا تناسب عقلك، ولا تلائم علاج حزنك، ففكر كيف يتحرر المرء وهو يُعزي امرأً آخر وهو منشغلٌ بمعاناته، وكيف لا تأتي الكلمات اللاتينية بسهولة عند ثرثرة البرابرة غير المفهومة، وحتى حين تجدها آذان البرابرة الأكثر تحضرًا وصعوبةً(٢١١).

---

(٢١١) تستدعي الخاتمة نهاية كتاب أوفيد *Ovid's Tristia book 3 (3.14.47–52)*، حيث يشتكي الشاعر من الأصوات الغريبة التي تحيط به في مكان في منفاه.

قِصَرُ الحياة

مقدمة

من المحتمل أن بولينيوس *Paulinus* الذي افتُتحت به الرسالة هو بومبيوس بولينيوس *Pompeius Paulinus*، وهو فارس من أريليت *Arelate* وهي آرلس حديثًا، وكان خازنًا الذرة من ٤٨ -٥٥ ق.م، ومسؤولًا عن إمداد الحبوب الرومانية، ومن المقبول عمومًا أنه كان والد بومبيا بولينا *Pompeia Paulina* زوجة سينيكا *(cf. Tacitus Annals 15.60.4)* ، وبالنظر إلى نصائح سينيكا المباشرة إلى باولينيوس للتقاعد عن وظيفته المهمة (١٫ ١٨-٢٫ ١٩)، يبدو أن العمل قد أُرِّخ في ٤٨-٥٥ تلك الفترة التي سينيكا منهمكًا فيها في الحياة العامة وسياسات البلاط بعد عودته من المنفى عام ٤٩، وإذا قبل هذا التأريخ، فإن هنالك معضلتين يفرضان نفسهما على الفور، الأولى بالنسبة للذين ينجذبون لعقلانية نصائح سينيكا لباولينيوس في التقاعد عن وظيفته في الدولة، فكيف للخيار العملي أن يكون انسحابًا فلسفيًّا ليس لباولينيوس فحسب (ناهيك عن الدولة التي يخدمها) بل لقراء سينيكا الكثر القدامى والمعاصرين وسط كل مسؤوليات الحياة وتحدياتها؟ والثانية كيف يخرج سينيكا من تهمة المداجاة لحث باولينيوس على التقاعد في السنوات التي انخرط هو نفسه فيها في البلاط؟

ربما تكون الإثارة المطلقة لكلا السؤالين هو أفضل إجابة عليهما، حيث إن نصائح سينيكا إلى باولينيوس ذات جدوى إذا أحدثت له ولنا خطًّا للرجوع من مسيرة الحياة التي تسير بلا هوادة، لتقيم جذريًّا بديلًا لترتيب أولويات وجودنا، ونفكر في استعمالاتنا اليومية ونقسم زمننا، وقد صنف الرواقيون الزمن الواقعي لا اللا مادي

كأحد اللا ماديات الأربعة، بجانب «ما يمكن القول عنه *sayable*" الخلاء والمكان، إلا أن سينيكا في هذه الرسالة يتصور الزمن كما لو كان سلعة مادية أو شكلًا للملكية التي يمكن أخذها وردها أو اكتنازها أو إنفاقها أو حفظها أو إهدارها(*cf. 3.1, 8.1*)– وهو منهج مادي يتصور فيه الزمن عملة بقيمة انتقالية ويحتاج إلى ميزانية دقيقة، وهكذا يدخل الزمن المجال الأخلاقي؛ لأن الحرية الباطنة عند الرواقية تعتمد على سيطرتنا على الزمن، وهنا فإن الفاعلية الإيجابية التي يغرسها سينيكا بالحث يمكن أن تُسترجع من نهب الآخرين(*cf. 2.4–5*) بغرس درب جديد مبني على العيش "الحق الآن"(١ , ٩)، وبتعزيز عدم التهاون مع الزمن المفقود بالإذعان للرذيلة(*cf. 2.1–2*)، أو المشاركة غير المجدية في السخافة (٢ , ١٢–٩ , ١٣). وأسلوبه الرشيق يجمع محاور السخط المبرر أخلاقيًّا، والتوجه اللطيف والإيجاز الحكيم وقص الطرفة، ويؤكد هذا في حد ذاته إلحاحه على نقده اللاذع لقيمة الزمن، وتعصب الصوت الذي يشارك التفاؤل الجوهري للعمل الذي يصر بأن هناك طريقًا آخر.

والتمييز الذي يصنعه في رسالة وقت الفراغ *On Leisure* بين جمهور العامة المحليين وما يقابلهم في المدينة العالمية الكونية (١ , ٤–٢) يتوازى بالتناقض مع ما يصنعه في رسالة قصر الحياة *On the Shortness of Life* بين واجبات باولينيوس الشاقة من عمله خازن وهو يقول في ١٩–١ و١٨–٢: "استدعِ عقلك المفعم بالحيوية... من الوظيفة المرموقة حقًّا، ولكن من الصعب أن تُبقي على الحياة السعيدة". وبين المساعي المستنيرة التي تنتظره في التقاعد الفلسفي وهو يقول في ١٩–٢: "عليك أن تتخلى عن المستوى الدنيوي، وتحول عين عقلك إلى هذه الدراسات"، والتحول الملحوظ في المنظور الذي استحثه في ١٩–٢ , ١ في اتجاهين قد سبق له عرضهما في الرسالة، والاتجاه الأول في الفصل الأول حتى التاسع حيث شجبه للزمن الضائع بالانشغالات المضللة لكل وسائل الراحة والمداهنة حيث يستريح باولينيوس بالإبعاد، وبالتالي بقرائه من المخالفين الذين يحصيهم، وتلك الانشغالات التي تداهننا لتفض عنا

عصب حياتنا، ونُخضع أنفسنا لتدقيق معذب للزمن المهدر والذي يوجهنا سينيكا إليه في حوار خيالي ٣-٢ , ٣. والاتجاه الثاني من الفصل العاشر ١٠-٢ حتى الفصل ١٧-٦، ورغم التحول المعلن فى فى ١٠-١ من الشجب الصريح إلى المقاربة الاستدلالية، "على المنشغلين أن يتعلموا درسًا وهو أنهم لم يعفوا من الفقد"، وتتواصل نبرة الشجب عند سينيكا في استقصائه للزمن المهدر على المساعي التافهة في الفصل من ١١-١٢، ولكن في هذه الفصول ذاتها تنعرج بتحول الاتجاه للتركيز في ١٤ , ١ على هذه الجهود الفلسفية والتي تدلل على الحياة الحقة في وقت الفراغ، وعلى النقيض من المنشغلين وأبرزهم من بين جمهور العامة الروماني الذي ينفع بلهفة من التزام بعينه إلى آخر في دائرة التذللات اليومية (١٤-٤- ٣)، تبنى سينيكا أسلوبًا رمزيًّا ليوفق بين رعاة الفلسفة مثل سقراط وكارنيادس *Carneades* وبين أبيقور أو زينون ٢-٥ -١٤، وخلافًا للرعاية المعهودة فإن هذا الأسلوب للرعاية متحرر على نحو متناقض، ويحرر الفيلسوف من أن يعيش على نحو أستاذه في السيطرة على ماضيه وحاضره ومستقبله ١٥-٥، وهذه الآثار المتحررة تقرب المشاركة في المدينة الكونية الكبيرة.

ومن هذا المنظور الأسمى لحالة باولينيوس كخازن للذرة، ومهما كان ساميًا من جانب واحد فإنه يتشابه في جانب آخر لهذا التابع المثُقل في الفصل ١٤، حيث تنتظره الخدمة الأسمى إن حقق الاستغناء من كل القيود والانشغالات اليومية، وكل التكهنات عما إذا كان أنصت بالفعل للتقاعد بإقناع سينيكا، والمسألة الجوهرية الإثارة التي يطرحها سينيكا لتسوية المواقف بمعالجة شخصية باولينيوس البارزة من وجهة نظر راديكالية، وحتى لوكان سينيكا ذاته كان في المنصب في زمن كتابة هذه الرسالة، فإن تهمة النفاق كما يزعم مسألة ثانوية مقارنة بقيمة هذا النداء إلى اليقظة والعودة إلى الحياة، وربما لا ينظر إلى رسالة قصر الحياة على المداجاة بل المداجاة تجسيدًا لرسالته، لأن سينيكا حتى لو كان منشغلًا في خضم البلاط فإنه يمارس بكتابته الوعي الذاتي عن قيمة الزمن الذي تروج له أطروحته في الآخرين.

لمزيد من القراءة:

Griffin, M. T. 1962. “De Brevitate Vitae.” JRS 52:104–13.

———. 1976. Seneca: A Philosopher in Politics (Oxford: Oxford University Press / Clarendon Press; repr. with postscript, 1992), esp.317–21, 401–7.

Williams, G. D., ed. 2003. Seneca: “De Otio,” “De Brevitate Vitae” (Cambridge: Cambridge University Press), esp. 18–25.

١-١ يا بولينيوس *Paulinus*، يشكو معظم البشر دناءة الطبيعة؛ لأن مدى الحياة المقسوم لنا قصير للغاية، ولأن هذا المدى من الزمن الذي أُعطي لنا يسير مجراه عاجلًا سريعًا، حتى مع الاستثناءات القليلة تتخلى الحياة عن البقية منا حين نكون على استعداد للعيش، وليست الجماهير والحشود غير المتخيلة هي التي تشكو مما يعتبرونه شرًّا كليًّا فحسب، بل تجد الشعور نفسه حتى عند أناس متمايزين، ومن ثم جاء القول المأثور لأعظم الطبيعيين "الحياة قصيرة وفن طويل"[٢١٢].

١-٢ وهنا اشتكى أرسطو أعظم الفلاسفة تنفيرًا[٢١٣] حين دعا الطبيعة أن تمنح مزيدًا من الزمن للحيوانات؛ لأنها تعيش خُمس أو عُشر الفترة التي يحياها الإنسان، وهو أقصر مما مُنح للبشر، مع أنها ولدت لعمل أشياء عظيمة شتى.

١-٣ ليس ما نملكه زمنًا قصيرًا للعيش، ولكننا نُضيع كثيره، فالحياة طويلة بما يكفي، وأُعطيت لنا بمقدار أوفى؛ لنحقق أمورًا أعظم إن استثمرناها كلها على نحو حسن، ولكن حين تهدر الحياة بالعيش الناعم اللا مبالي، وحين نقضيها فيما هو غير جدير بالسعي، فإن الموت يزحم في النهاية فندرك أن الحياة التي لم ننتبه إليها قد ولت.

---

(٢١٢) القول الأول المأثور لأبيقراط الخيوسي *Hippocrates of Cos* وهو معاصر لسقراط في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد.

(٢١٣) ينسب شيشرون هذا الرأي (*Tusculan Disputations 3.69*) لثيوفراسطس رفيق أرسطو وتابعه، وربما أخطأ في النسبة، إذ لم يذكر سينيكا عمدًا أن حضور أرسطو هنا أثقل وزنًا من أبقراط.

٤-١ وليست الحياة التي مُنحناها قصيرة، ولكننا جعلناها كذلك، ولسنا في معاش عليل بل ضيعنا الحياة، كما أن الثروة السَّخية والمُعْجِبة تُبدد في لحظة حين ننفقها في أيدي الفقراء بِالوَكَالَة، ولكنها تتنامى باعتدال بانتقال حريص إذا عهدنا بها لولي مسؤول، وكذلك زمن حياتنا يوفر مجالًا أرحب لمَن يخطط له بشكل حسن.

١-٢ لماذا نشكو الطبيعة؟ إنها خدمت بسخاء، فإن تعلمت كيف تستعمل الحياة فهي طويلة، ولكن أحدهم حبيسٌ في قبضة نهم البخل، وآخر في نوع الكد الذي يشغل ذاته بمغامرات لا طائل منها، فهذا ثمل بالخمر وآخر راكد بالكسل، وهذا أنهكه طموحه السياسي الذي يتقيد بحكم الآخرين دومًا في حين أن رغبة الآخرين مُتّقدة لتجارة تقودهم بتهور فوق كل وطن وكل بحر بأمل المنفعة، ويولعون بتعذيب بعض الناس المكافحين الذين لا يلحقون بالآخرين ضررًا أو يخشون الضرر على أنفسهم، ويتزيا البعض بالاستعباد الطوعي للحاشية الجاحدة.

٢-٢ والكثير منهم مهموم بالسعي وراء ثروة الآخرين أو يشكو ما لديه، والكثير منهم ليس له غاية محددة في الحياة يتأرجح من عزم إلى آخر بتقلب جائل غير مستقر وحتى غير راض مع ذاته، والبعض ليس له غاية على الإطلاق تجاه ما يوجِّه مساره، ولكن الموت يأخذهم على حين غرة وهم يفغرون أفواههم ويتثاءبون، ولا أشك في حقيقة الكلام الذي يبدو نبويًّا وهو لأعظم الشعراء «البخل طرف الحياة الذي نعيش فيه»[٢١٤]، وكل ما تبقى من الوجود ليس عيشًا بل مجرد زمن.

٣-٢ تحيط بنا الرذائل وتهاجمنا من كل حدب، ولا تسمح لنا أن نرتفع وتحجب

(٢١٤) التقديم غير العمودي لشاعر تتنازع هويته، راجع ٩-٢ حيث أطلق على فيرجيل أنه أعظم الشعراء، وفي *Letters 63.2* أطلق على هوميروس أعظم شعراء اليونان، ولا يوجد أي أثر واضح للقول المأثور هنا.

أعيننا عن البصيرة الجلية للحقيقة وتحشيها وتبقيها منكسة وتثبتها على مجرد الرغبة التي لا تُمكِّن ضحاياها من العودة إلى ذواتهم الحقة، ومن قبيل الصدفة أن يجدوا بعض الراحة، فهي تكورهم بلا هوادة مثل البحر العميق الذي يستمر موجَهُ حتى بعد سكون الريح، حيث لا يجدون راحة من رغباتهم.

٢-٤ هل تعتقد أنني أتحدث عن الذين قد قُبلت نقائصهم فحسب؟ انظر إلى هؤلاء الذين تستقطب رفاهيتهم الحشد، وهم الذين اختنقوا من متعهم، فكم صارت ثرواتهم عبئًا! فكم استُنزفت دماؤهم بفصاحتهم! وانشغالهم اليومي بعرض قدراتهم! وكم شحبوا من ملذاتهم المتواصلة! وكم تخلوا عن العديد من تابعيهم المحاصرين! باختصار انظر إلى كل منهم من أسفل إلى أعلى، فهذا يستدعي المحامي ليدافع عن قضيته، وآخر يلبي الدعوة، وهذا يقف أمام المحكمة، وآخر يدافع، وآخر يدير كالقاضي، والكل يسايره لمصلحة أخرى ولا نصير له بالفعل، واسأل عن المواطنين المؤثرين الذين حُفرت أسماؤهم بالمثابرة، وسوف ترى التمايزات التالية توضح بعضها بعض، فالأول يزرع للثاني، والثاني للثالث، ولا أحد يصدقه.

٢-٥ وأناس بعينهم ينفسون عن هيجان الغضب غير العاقل، حيث يشكون غطرسة رؤسائهم الذين احتفوا باستقبالهم حين أرادوا جمهورًا، وهل يجرؤ أي أحد على أن يشتكي غطرسة الآخرين في حين ليس لديه وقتٌ لإدانة نفسه؟ ولكن الرجل العظيم أحيانًا ينحني لينظر إليك مهما كان شخصك، فهم مهيكلون لسماع كلماتك، ويسمح لك أن تسير جواره، ولكنك لم تفكر إطلاقًا أن تنظر لنفسك وتسمع لها، وكذلك لا تملك سببًا لتتوقع ردًّا من أي أحد لانتباهك لنفسك، حيث قدمت لهم؛ ليس لأنك تريد رفقة الآخرين، ولكن لأنه بمقدورك مناجاة نفسك.

٣-١ وتتفق كل العقول اللامعة التي أشرقت عبر العصور على غاية واحدة، وهي

أنها لا تستطيع التعبير عن دهشتها بشكل كاف في هذا الضباب القاتم في العقل البشري، ولا أحد يسمح لأحد أن يقدر ممتلكاته، وإذا نشأ نزاع تافه حول الحدود فإنهم يتراشقون بالحجارة ويتدافعون بالأذرع ولكن يسمح الناس للآخرين أن يتعدوا على وجودهم، أو بالأحرى يصل بهم الحد لدعوة من يريدون أن يأخذوا ممتلكات حياتهم، ولن تجد أحدًا على استعداد أن يوزع ماله ولكن كم من الناس منا قد وزَّع حياته! فالناس مُمسكون في حراسة ممتلكاتهم التي بمجرد أن تُقبل تُضيع الزمن، وهم أكثر تطرفًا بسلعة واحدة التي تُحترم بدافع الجشع.

٣-٢ وهكذا أود أن أتوج أحدًا من الحشد القديم: «انظر إلى الحد الذي وصلت إليه الحياة الإنسانية التي قست عليك منذ مائة عام أو يزيد، تعال الآن، وقدم حياتك للتدقيق، واحسب كم من الوقت قضيته مع المرابين والعشيقات والغرماء والجمهور، وكم من الوقت قد انصرم في الجدل مع زوجتك وفي معاقبة أنفسكم وفي النقاش حول المدينة والواجبات الاجتماعية، وأضف إلى حساباتك الأمراض التي جلبناها لأنفسنا، وكذلك الزمن الذي تبدد في الخمول، وسوف ترى أن سنونك أقل مما حسبت.

٣-٣ انظر إلى الوراء، وتذكر حين كنت على يقين من غايتك، وكم حولت الأيام القليلة ما كنت تنويه، حين كان في إمرتك التدبير، وحين كشف وجهك عن تعبيره، وحين كان عقلك خاليًا من الاضطراب، فما الإنجاز الذي يمكن أن تدعيه في مثل هذه الحياة الطويلة، وكم الذين نهبوا وجودك وأنت لا تعي ما ضاع منك، وكم من وقت ضيعته في معاناة وسخافة ومتعة ورغبة وجشع ومفاتن للمجتمع لا أساس لها، كم هو قليل ما تبقى لك من مخزون زمنك، وعليك أن تدرك أنك قد تموت قبل أوانك!

٣-٤ وما السبب لهذا؟ إن نوعك يعيش كما لو كان يحيا للأبد، ولم يدخل ضعفك

البشري رأسك، ولم تُلقِ نظرًا لكيف ينصرم الزمن بالفعل، لقد ضيعت الزمن كما لو أنه يأتي منبعًا مملوءًا ليفيض، واللحظة التي تُعطى لامرئ ما ربما تكون آخر لحظة له، أنت مثل كل الفانيين في الخوف من كل الأشياء، وأنت مثل الخالدين المُبْتَغين كل شيء.

٣-٥ لقد سمعت الكثيرين يقولون: «بعد عامي الخمسين سأنسحب لحياة الراحة، وبعد عامي الستين سأعتق نفسي من كل الواجبات»، وإنني أتساءل هل تضمن أن تمتد حياتك لأمد طويل؟ ومَن الذي سوف يسمح لترتيباتك أن تمضي قُدمًا وفقًا للخطة التي رسمتها؟ ألم تخجل من أن تمنح نفسك بقية وجودك، وتُعيْن للفكر الفلسفي هذه الفترة من الزمن التي لا تقدر فيها على أي عمل؟ كم تأخرت في أن تبدأ العيش والحياة توشك على النهاية! ويا لسخافة النسيان من موتانا؛ حيث يضعون الخطط الحكيمة لخمسينيينا وستينيينا أو أن يرغبوا أن يبدأوا الحياة من النقطة التي وصل منها قلة!

٤-١ وسوف تجد أن معظم الناس الأقوياء في المكانة العالية يقطرون الكلمات في تضرعهم من أجل الراحة ويثنون عليها ويفضلونها على كل النعم، وأحيانًا ينسحبون من رفاهيتهم إذا استطاعوا فعل ذلك بسلام دون اضطراب أو صدام؛ فإن الحظ يحطم نفسه تحت ثقله.

٤-٢ إن أوغسطس الإلهي *The divine Augustus* الذي منحته أكثر من أي إنسان لم يكف عن الصلاة ليريح نفسه وليسعى لتحريرها من أعمال الدولة، وكل كلامه يرتد إلى هذه القضية وهي الأمل في الراحة، إنه يخفف كدَّه بهذه العزوبة حتى لو كانت وهمًا ومواساةً، وسوف يعيش الفكر يوم ما لنفسه.

٤-٣ ففي الخطاب الذي أرسله إلى مجلس الشيوخ أكد على أن تقاعده ليس رغبة في الكرامة ولا يتعارض مع مكانته السابقة، وقد عثرت على هذه الكلمات منه: "ولكن هذه الأشياء أكثر إعجابًا في تحققها من تعهدها، ومن ثم رغبتي

العميقة لهذا الزمن الذي صليت من أجله طويلًا تدفعني إلى توقع شيء ما أبتهج فيه بمتعة الكلمات، ولا تزال متعة هذه الحقيقة بطيئة القدوم"[(٢١٥)].

٤-٤ ويبدو الترفيه شيئًا مرغوبًا فيه؛ لأنه لم يستمتع به في الواقع، واستمتع في التفكير به في البكور، وهو من رأي أن العالم يعتمد عليه وعليه فحسب، وهو الذي حدد حظوظ الأشخاص والأمم، إنه كان سعيدًا بالتطلع إلى هذا اليوم الذي سيطرح فيه عظمته جانبًا.

٤-٥ عرف بالتجربة ما اغتصبه الكدح منه بهذه النعم التي أضاءت العالم بأسره، وعرف حجم القلق الخفي الذي تحجبه[(٢١٦)]، وأجبر على التمسك بالسلاح مع مواطنيه في البداية، ثم مع رفقائه ونهاية مع أقربائه، لقد سفك الدم على الأرض والبحر، ودفعته الحرب إلى مقدونيا وصقلية ومصر وسوريا وآسيا وكل أرض معروفة على الغالب، وحول جيوشه إلى حروب غريبة حين تعبوا من ذبح الرومان، وحين قهر جبال الألب والأعداء رسخ السلام في قلب الإمبراطورية، وحينما كان يوسع حدوده إلى ما وراء الراين والفرات والدانوب وجَّه مورينا *Murena* وكاييبو *Caepio* وليبيدوس *Lepidus* وأجناتيوس *Egnatius* وغيرهم سيوفهم ضده في المدينة ذاتها.

٤-٦ لم يهرب بعد مؤامراتهم حين ارتكبت ابنته وكثيرٌ من العشيقات النبلاء

---

(٢١٥) الخطاب مفقود وسينيكا هو الشاهد الوحيد على وجوده، وتاريخه غير واضح كعلاقته الممكنة أو علاقته بالتقارير التاريخية بتفكير أوغسطس للتقاعد في العقد الأول من حكمه.

(٢١٦) يمضي سينيكا في تقديم ملخص لتوحيد أوغسطس للسلطة من موت قيصر في ٤٤ ق.م حتى هزيمة أنطوني في أكتيوم في ٣١، وتهدئة الإمبراطورية القريبة (قبائل ألبانيا ٦-٧ ق.م) وتوسعه لحدود الإمبراطورية، وهذا التوكيد على المكاسب الظاهرية يتناقض بشكل كبير مع التهديد المتزايد الذي يقترب من المنزل في الفصل الرابع ٥-٦ أولًا بالمشاكل الداخلية في روما (بمؤامرات كل من أميليوس ليبيدوس *M. Aemilius Lepidus* عام ٢٩ق.م، وفارو مورينا *Varro Murena* وفانيوس كايبو *Fannius Caepio* عام ٢٢-٢٣ وإجناتيوس روفوس *M. Egnatius Rufus* عام ١٩)، ومن ثم الفتنة في الأسرة الإمبراطورية نفسها بالعلاقات الجنسية الخطيرة لجوليا ابنة أوغسطس التي نُفيت عام ٢٩ ق.م.

الزنا كما لو كان ميثاقًا للولاء، وسببت له قلقًا في سنوات ذبوله -كما فعل إوللوس *Iullus* والمرأة التي شكلت تهديدًا مع أنطوني *Antony*[٢١٧]- ولكنه استأصل هذه القروح وأطراف الحاشية الفاسدة، ولكنْ تنامى الآخرون في أماكنهم كما لو كانوا يتثاقلون بالدم، وكان الجسد السياسي ينزف دمًا تقريبًا، ولهذا السبب تضرع أوغسطوس من أجل الراحة، ولماذا عثر على الراحة من أعماله، وقد أمل ذلك وفكر فيه، وهذه هي صلاة الرجل الذي سلم بصلوات الآخرين.

٥-١ وقد أثار ماركوس شيشرون *Marcus Cicero* عاصفة بين أمثال كاتيلين *Catiline* وكلاوديوس *Clodius* من كراسوس وبومبي، حيث أعلنا له العداء من جانب، وهم أصدقاء مشكوك فيهم من جانب آخر[٢١٨]، وكان مهمومًا بسفينة الدولة على الدوام، وقد حاول أن يحفظ ثباتها كلما تحطمت، ولكنه ارتد في النهاية، فلم يكن يسكن في الرخاء ولم يقدر على التحمل في المحنة، فكم مرة لعن فيها قناصلته[٢١٩] الذين مجدهم بلا انقطاع ودون سبب!

٥-٢ وكم هي مثيرة للشفقة تلك الكلمات التي انتزعها من نفسه في رسالته إلى أتيكوس *Atticus* عندما هزم بومبي الأكبر، ولا يزال ابنه يحاول إحياء القوات المحطمة فى إسبانيا[٢٢٠]، وهو يقول: «تسأل ماذا أفعل هنا؟»، سأبقى في

---

(٢١٧) أوللوس هو الابن الثاني لأنتوني، والذي عوقب بالموت عام ٢ بتهمة الزنا مع جوليا التي قُذفت هنا مثل كليوباترا الثانية.

(٢١٨) أحبطت مؤامرة كاتلين لتحويل النظام الروماني بإسقاط سلطة مجلس الشيوخ الأرستقراطية عن طريق شيشرون القنصل في عام ٦٣ ق.م، وشهد شيشرون عام ٦١ ضد كلاوديوس بولشير في المحكمة لانتهاك العبادة الأسرارية لإلهة الخير، وبُرِّئ بالرشوة، وانتقم كلاوديوس مدبر له المنفى عام ٥٨، وكان بومبي وكراسوس حليفين وفي البداية كانا مع يوليوس قيصر في الحكم الثلاثي، ووجد شيشرون بومبي صديقًا محل شك حين واجهه في المنفى عام ٥٨.

(٢١٩) - على ما يبدو أنه تشويه من سينيكا، فكتابات شيشرون الممتدة لا تعطي دليلًا لهذا الاحتقار.

(٢٢٠) بعد هزيمة بومبي من قيصر في فارسالوس *Pharsalus* في ٤٨ ق.م هزم ابنه الأكبر جنايوس *Gnaeus* في موندا *Munda* (إسبانيا) عام ٤٥، ولكن التلميح قد يمتد إلى سيكتوس وأخي جنايوس الذي مدد النشاطات البومبية في إسبانيا حتى بعد موت قيصر في ٤٤.

مقاطعة توسكولان *Tusculan* نصف حر[٢٢١]، وبعد ذلك ذهب إلى بومبيان حيث حياته السابقة، وظل يشكو الحاضر ويأسى من المستقبل.

٥-٣ قال شيشرون عن نفسه «نصف حر *Half-free*"، ولا داعيَ لقول هذا، فالحكيم لا يلجأ لمثل هذا الاصطلاح البائس، فلم يكن نصف حر، بل تمتع بحرية كاملة وغير مشوبةٍ ولا تخضع لأي قيود، وكان سيد نفسه، وصرحًا فوق الآخرين، فما الذي يعلو الرجل الذي على فوق الثروة؟

٦-١ كان ليفيوس دروسوس *Livius Drusus*[٢٢٢] رجلًا نشطًا بقوة، والذي احتشد ضده من كل إيطاليا حشود ضخمة، احتجوا على التشريعات المتطرفة وأثاروا نوعًا من المشاكل التي صنعها جراشي *Gracchi*، ولم يجد له مخرجًا واضحًا لسياساته التي لم يقدر على تحملها، التي لم تترك له خيارًا للتخلي عنها، ويقال إنه لعن الحياة مستمرة النشاط التي قادته منذ بداياته، قائلًا إنه الشخص الوحيد الذي لم يحصل على إجازة حتى وهو صبي، وقد تزيا بلباس البالغين وهو لا يزال في سن الوصاية، وتجرأ ورفع دعوة أمام هيئة المحلفين لحق المدعي عليهم، ومارس تأثيره النوعي في المحاكم، ومثل هذا التأثير في الواقع كان مقبولًا على العموم؛ لأنه حصل على أحكام عدة ضد المحاباة.

٦-٢ وأين مثل هذا الطموح المبكر لا يجد له مخرجًا؟ ربما قد عرفت أن مثل هذه العجرفة السابقة لأوانها أدت إلى كارثة عليه وعلى الدولة، وهكذا بدأ يشتكي بعد فوات الآوان بأنه لم يحصل على إجازة، حيث كان مثيرًا للمشاكل،

---

(٢٢١) لا توجد الكلمات في مراسلات شيشرون الممتدة مع بومبونيوس أتيكوس *T. Pomponius Atticus* صديقه من الصبا وعلاقة الزواج.

(٢٢٢) قدم دروسوس *Drusus* عام ٩١ قانون الإجراءات الاجتماعية بما فيه توزيع الأرض للفقراء وإعتاق كل الإيطاليين، والذي أثار معارضة قوية، واغتيل دروسوس، ولكن هناك رأي آخر يرى أنه أنتحر، ويطور سينيكا هنا توضيحه الدراماتيكي عن الحاجة للهروب من ضغوط المسؤولية الكبيرة بل الخطرة، والحظوظ الشخصية التي تنهار عليهم ٤-١.

وحملا على بني طفولته، وكان موته غامضًا فيقال إنه خنق نفسه أو أنه سقط فجأةً من جرح في فخده، والبعض قد شك أنه خنق نفسه ولم يسعفه أحد في الوقت المناسب.

٦–٣ ومن التزيد أن نذكر مزيدًا من الشخصيات التي تبدو للآخرين أنهم أسعد الخلائق، والذين شهدوا على أنفسهم ضد أنفسهم حين أعربوا عن كراهيتهم المفرطة لكل عمل في حيواتهم، ومن ثم لم تغيرهم هذه الشكاوي ولم تغير غيرهم؛ لأن مشاعرهم عادت إلى وضعها الطبيعي بعد الفوران.

٦–٤ في الحقيقة لو امتدت حياتك ألفًا من السنين أو يزيد، ستُضغط إلى أقصر فترة للزمن، وسوف تبتلع رذائلك أي عدد من الزمن، وتيقن أن هذه الفترة للزمن يطيلها التدبير الحسن حتى وإن كانت طبيعتها العجل، ويجب أن تفلت من حالتك مسرعًا؛ لأنك تفشل في تقديرها واقبض عليها مجددًا، ولن تفعل شيئًا لتؤخر من سرعة الأشياء، ولكن اسمح لها أن تمضي كما لو كانت شيئًا فائضًا يمكننا أن نسترده مرة أخرى.

٧–١ وفي الحقيقة إن من أسوأ الحالات –كما اعتقد أولئك– الذين يمنحون وقتهم إلى لا شيء سوى الشراب والشهوة، وهذه أعظم الانشغالات خزيًا على الإطلاق، وأناسٌ آخرون حتى لو يستولِ عليهم مظهر المجد فهو زائف مع أنه يمضي للضلال في نمط محترم، ويمكنني أن أستشهد من جانبي بالناس الجشعين الذين يسارعون للغضب، أو الذين يشغلون ذواتهم بضغائن جائرة أو حروب، ولكن خطايا هؤلاء نمطٌ يميل للرجولة؛ لأنهم هجروا البطن والشهوة التي تحمل وصمة العار.

٧–٢ دقق في كل لحظة من حياة هؤلاء الناس، ولاحظ كم من الزمن يقضونه في عناية العوارض، وكم وقتًا صرفوا في وضع الفخاخ أو في التخويف منها، وكم قضوا في استنبات الآخرين أو يستنبتهم الآخرون، وكم قضوا في منح

الكفالة أو تلقيها، وكم قضوا في حفلات العشاء التي صارت ذاتها عملًا، وسوف ترى أن هذه هي أعمالهم سواء أكانت حسنةً أم سيئةً، وامنحهم لا زمن حتى يسحبوا أنفاسهم.

٧-٣ وخلاصة القول: يتفق الجميع أن مَن يسعى لنشاط ويشغل نفسه لا يفلح في بلاغة ولا فنون حرة؛ لأن العقل المشتت يركن إلى لا شيء حقيقي بعمق بل يرفض كل ما هو واقعي ويسحقه إن جاز التعبير، واللا شيء يقلل من سمات الإنسان المنشغل أكثر بالعيش، إذ ليس هناك معرفة قد تشقيه في الحصول عليها، فمعلمو الآخرين الانضباط يأخذون درهمين، ويمكن للصبية أن يعلموا مدربيهم ويصبحوا أستاذة في حجرة التعليم كذلك، فقد يعلمونهم كيف يعيشون العمر، وربما تندهش من هذا، فإنك تقضي العمر كله لتتعلم كيف تموت[٢٢٣].

٧-٤ ويطرح كثير من الناس في المناصب العالية كل أعبائهم جانبًا، ويتخلون عن ثروتهم وأعمالهم ومتعهم، ويعرجون للنهاية الحقيقية للحياة ويجعلونها الغاية الوحيدة للعيش، والغالبية منهم يرحلون عن الحياة معترفين بأنهم لم يحصلوا على مثل هذه المعرفة بعد.

٧-٥ صدقوني، إن دلالة عظم الإنسان في علوه على الضعف البشري وعدم سماحه لأي طرف من عمره أن يُنتزع، فحياة مثل هؤلاء تمتد طويلًا؛ لأنهم أبقوا لأنفسهم من كل ما عاشوه ما هو نافع، فليس فيه أرض مزروعة وغير مزروعة، وليس فيه شيء تحت إمرة الآخرين، بل هو الموجود الوصي على عمره، ولا يجد شيئًا يستحق ليتحول من أجله، فهذا الإنسان قد حاز من الزمن

---

(٢٢٣) المفهوم الرواقي عن (تأمل الموت) أصوله أفلاطونية على سبيل المثال (محاورة فيدون *Phaedo 67e*) وهو يقول: "إن الفلاسفة الحق يمارسون الموت بمثابرة". ويحث سينيكا على هذا التأمل مرارًا، على سبيل المثال في *Letters 70.18, 114.27* بسبب التحرر الذي يجلبه من الخوف من الموت، وعلى سبيل المثال *Letters 30.18, 36.8*، وبتوقع إطلاق النفوس من الأسر الجسدي، على سبيل المثال *Consolation to Marcia 23.2* .

ما يكفي، ولكن هؤلاء حُرموا الكثير من حياتهم التي أخذ منها العامة القليل بالضرورة.

٧-٦ ولا ينبغي أن تتخيل أن هؤلاء الناس ليسوا على وعي بما ضاع منهم أحيانًا، ومن المؤكد أنك ستسمع من هؤلاء المثقلين بنشاطهم العظيم أحيانًا وهم يصيحون وسط جحافل جمهورهم أو الشافعين لحالهم أو مَن يعتدون بمبدئهم في البؤس: «ليس لديَّ إمكانية للعيش».

٧-٧ وبالطبع أنت غيرهم! فكل الذين يجرونك في أعمالهم يسحبونك من نفسك، فكم من الأيام قد أخذها المدعي عليك منك؟ وكم من زكيتهم له؟ وكم سئمت المرأة العجوز وكأن وريثتها سوف تدفنها؟ وكم الذين اختلقوا المرض ليثيروا جشع صيادي التركة؟ وكم من صديق قوي حمل عليك لا من أجل صداقة حقة، بل بغرض المشهد، تحقق مما أقول وراجع أيام حياتك، وسوف ترى قليلًا منهم حقًّا بلا قيمة، وهم يبقونك فيما تملك، أي لا يريدون لك تقدمًا.

٧-٨ إن الإنسان الذي حقق منصبًا مرموقًا يتضرع لأجل أن يطرحه جانبًا، ويكرر القول: «متى ينتهي هذا العام؟»، والإنسان الذي يعين للألعاب فكرًا، فإن الامتياز العظيم الذي أولاه لها يرتد عليه، فيقول: «متى أتحرر منها؟»، والمؤيد الذي تنافس الناس على انتباهه في كل مكان في الميدان الذي استهواه الحشد، ينادي في الكل إلى أبعد مكان ويُسمعهم كلمة متى وهو يقول: «هل من إجازة؟»، ويرسل الجميع حياته في سباق سريع يعاني فيه توقًا للمستقبل وتحاشيًا للحاضر.

٧-٩ ولكن مَن يكرس كل لحظة من عمره لاحتياجاته ومَن يرتب كل يوم كما لو كان حياة كاملة لا يتوق فيها لليوم التالي ولا يخاف منه، فما النوع الجديد من اللذة هناك يمكن أن تجلبه أي ساعة؟ لقد شهدت كل شيء، واستمتعت به

إلى أقصى حد، وأما ما تبقى ربما يرتبه الحظ كما يشاء، وقد وصلت حياته حقًّا بسلام، والحياة قد تثريها الإضافة ولكن لا يفلت منها شيء، وتأتي الإضافة في مسلك مَن رضوا حقًّا، والمتخم الذي يأخذ نصيبًا من الطعام الذي لا يرغب فيه وشارك غيره فيه.

٧-١٠ وليس من سبب تصدق فيه أن المرء قد عاش طويلًا؛ لأن شعره أشيب مجعد، فإنه لم يعش طويلًا بل عانى أطول، وافترض أنك فكرت أن هناك امرأً أبحر بعيدًا ولحقته عاصفة هائجة بمجرد مغادرته للميناء، ونقل في هذا الاتجاه، ودُفع بحركة دائرية إلى المسار نفسه بتناوب الرياح التي تهب من مختلف الجهات، فإنه لن يقطع رحلة طويلة بل ما عناه هو الأطول.

٨-١ وأندهش دومًا حين أرى الناس يطلبون أعمار الآخرين، ويجدون أعظم الاستجابة من المقربين لهم، ويركز كلا الجانبين على موضوع الطلب، وليس على جانب الزمن ذاته، وكأنهم يطلبون لا شيء ولم يمنحوا شيئًا، فإن تفاهة الناس أثمن السلع على الإطلاق، وهي تمحو انتباههم؛ لأنها لا تُظهر لأعينهم شيئًا غير مادي، ولهذا السبب تُقيم بأبخس ثمن أو بالأحرى ليس لها قيمة عملية على الإطلاق.

٨-٢ يضع الناس مؤنًا كبيرةً بالمعاش السنوي والإكراميات ولمَن يستأجرون خدماتهم وأعمالهم أو مَن يجاملونهم ولكن لا أحد يقدر الزمن، والكل يستعمله بسخاء كما لو أنه لا يكلف شيئًا، وإذا هددهم خطر مميت سترى نفس الناس يعانقون ركب أطبائهم، وإذا أخافهم أمرٌ ماليٌّ فسوف تراهم مستعدين أن ينفقوا ما كرسوه طيلة حياتهم، إن صراع مشاعرهم عظيم للغاية.

٨-٣ وإذا عاين كل منا عدد السنين قبلنا مثل السنين التي قضيناها على وجه التحديد، فكيف يقلق مَن رأى فقط سنوات قليلة خلت، وكيف كان حريصًا في استعمالها! ومن ثم من اليسير أن ندير كمًّا مهمًّا كان صغيرا وهو معروف

تمامًا، وعلينا أن نكون أكثر حرصًا في الحفاظ على الكم الذي قد نوزعه في أي وقت.

٨-٤ وليس هناك ما يدعو إلى أن تعتقد أن هؤلاء الناس ليسوا على وعي بمدى عظم سلعة الزمن، واعتادوا أن يقولوا بحدة لمَن يحبونهم إنهم على استعداد أن يمنحوهم بعضًا من سنونهم، وهم يعطونهم دون أن يعلموا ما بقي من أعمارهم، ولكنهم أعطوا بالطريقة نفسها دون أن يُضيفوا سنين لمحبيهم ويقتطعوها من أنفسهم، وهذه حقيقة، أعني، سواء أكانوا يحرمون أنفسهم ويضيعونها أم يتحملون فقد ما لا يلحظونه في الخسارة.

٨-٥ لا أحد يُعيد السنين، ولا أحد يُرجع لك نفسك السابقة، وستتوالى الحياة في المسار الذي بدأت منه، ولن تعكس أو توقف مسارها، فلا داعيَ للهياج فلن تنتبه لسرعتها وسوف تنزلق في صمت، وسوف تُطيل نفسها لا بأمر ملك ولا بعجيج شعبه، ستجري على النحو الذي بدأت منه يومها الأول دون تحول أو تأخير، وما النتيجة؟ وتجري الحياة وأنت منهمك ويلوح الموت في كل حين، وعليك أن تستوعب هذا سواء أحببتها أو لا.

٩-١ وهل هناك سذاجة أعظم من وجهة نظر هؤلاء الناس الذين يفخرون ببعد نظرهم؟ وهم منشغلون بأعمال للعيش الأفضل، ويخططون حياتهم على حساب الحياة ذاتها، ويشكلون غاياتهم بالمستقبل البعيد في العقل، ويكمن الهدر الأعظم للحياة في التسويف الذي يختلسنا كل يوم في انعطاف، ويخطف الحاضر بوعد المستقبل، إن العائق الأكبر للعيش هو الأمل الذي يتكئُ على الغد ويُضيع اليوم، فقد حددت ما في يد الحظ ولكن فلت ما في يدك، فما الذي تهدف إليه؟ وما غايتك؟ كل ذلك يأتي من عدم اليقين، فعش الآن حقًّا.

٩-٢ واسمع صرخة أعظم الشعراء الذي يغني أغنيته كما لو كانت مستوحاةً من

الكلام الإلهي: «أول ما ينفلت من حياة البشر البائسين هو اليوم الأفضل»[٢٢٤]، وهو يقول: «لماذا تُؤخر؟ ولما تُبطئ في الفعل؟، إن لم تغتنم اليوم فسوف ينزلق منك»، وحتى حين تغتنمه لا يزال ينزلق منك، ولذا عليك أن تنافس عجلة الزمن في السرعة التي تستعملها، فعليك أن تشرب بسرعة كما لو كنت فيضانًا سريع الحركة ولا يفيض دومًا.

٩-٣ وهذا الشاعر يتحدث بجدارة في معاقبة التسويف الذي لا نهاية له لم يقل أفضل (عمر) بل أفضل (يوم)، وقد يبدد الزمن السكينة وخلو البال سريعًا، فلماذا تخطط لنفسك الشهور والسنين بتعاقبها الطويل، وإلى أي مدى ترى طمعك مناسبًا؟ والشاعر يتحدث لك عن اليوم، ذلك اليوم الحقيقي الذي قد تنزلق فيه.

٩-٤ وهل لديك أي شك أن أول ما ينفلت من حياة البشر البائسين هو اليوم الأفضل، فهل هذا انشغال؟ فالشيخوخة تأخذ سكون عقولهم الصبيانية اللا وعية، وهم يواجهونها عُزَّلًا وغير مستعدين، ولا يعدون لها مؤنًا، وفجأةً وبلا مخامرة شك يتعثرون عليها غير مدركين أنها أقرب من كل يوم.

٩-٥ كما هو الحال في المحاورة أو القراءة بعض التفكير العميق الذي يُلهي المسافرين يجدونه قد يصلهم إلى جهتهم قبل أن يعوا الاقتراب منها، ولذلك بهذه الرحلة المتواصلة والسريعة بلا نهاية للحياة التي نجعلها على نفس الوتيرة سواء كنا متيقظين أو نائمين يصبح الانشغال وعيًا بها فحسب في نهايتها.

١٠-١ وإذا أردت أن أقسم موضوعي إلى مقولات لكل منها براهينها يمكن أن أنتهي إلى حجج عدة؛ لأبرهن أن حياة الانشغال قصيرة جدًّا، ولكن فابيانوس

(224) Virgil Georgics 3.66–7; also quoted at Letters 108.24, 26.

Fabianus [٢٢٥] الذي لم يكن واحدًا من المحترفين الذين يشغلون منصبًا، بل كان فيلسوفًا حقًّا من الطراز القديم الذي اعتاد أن يقول علينا أن نكافح الانفعالات بهجوم قوي وليس بدقة الحجة، فخط العدو قد يتحول بهجوم أمامي كاملًا وليس بطعنة إبرة رقيقة، وليس لديه اعتبار لمجرد الجدل، حيث لا تسحق الرذائل بمجرد القرص، ومع ذلك يسحق الانشغال لسقوطه المتمايز، وتعلمهم الدرس ليس بالتخلي عن الخسارة.

١٠-٢ تنقسم الحياة إلى ثلاثة أجزاء، وهي: الماضي والحاضر والمستقبل، فالحاضر مقتضب والمستقبل مشكوك فيه والماضي يقين، وأما الماضي فليس للحظ عليه سطوة، وليس بمقدور سلطة أحد أن تعيده، ويفقد المنشغلون هذا الجزء، فليس لديهم فراغ ليتطلعوا للماضي، وحتى لو تمكنوا من النظر إليه لن يجدوا لذة في استدعاء شيء مؤسف.

١٠-٣ وهكذا لا يرغبون في أن يحولوا عقولهم للخلف لأوقات قضوها على نحو رديء، ولا يجرؤون على إعادة النظر في المستقبل؛ لأن رذائلهم في استنكار واضح، وقد تسلل إلى ذواتهم إغراء اللذة اللحظي، ولا أحد يُلقي فكره سرورًا بالرجوع للمستقبل سوى مَن أخضع كل أفعاله لتقييم ذاتي معصوم.

١٠-٤ والإنسان الطموح في حجم رغباته، متعجرفٌ في سخافته، ومفرطٌ في الهيمنة على الآخرين، وغادر في خداعه، وجشعٌ في نهبه، وسخيفٌ في تبذيره، ومثل هذا الرجل عليك أن تخاف من ذاكرته حتمًا، وهذا الجزء لوجودنا قد يُقدس ويُعزل ويسمو فوق كل تقلبات الإنسان، ويخبو بعد تأرجح الحظ، ويتعافى بعدم الفقر وعدم الخوف وعدم مهاجمة الأمراض، وهذا الجزء لا يمكن

---

(٢٢٥) بابيريوس فابيانوس *Papirius Fabianus*، وكان قبل عام ٣٥ خطيبًا موهوبًا، وأصبح عام ١٠ ق.م تابعًا لسيكتوس *Q. Sextius* مؤسس المدرسة الفلسفية المحلية الوحيدة في روما، وقد تركت تعاليم فابيانوس انطباعًا عميقًا على سينيكا الأصغر *Letters 40.12, 58.6* وكذلك على والده *Controuersiae 2 pref. 1–2*.

تعطيله ولا سرقته، وامتلاكنا له أبدي لا يزول، والأيام حاضرة في زمن واحد فحسب، وهي اللحظة باللحظة فحسب، ولكن كل أيام الزمن الماضي سوف تحضر لك ف عرض طلبك، وسوف تسمح لك أن تختبرها وتقبض عليها بإرادتك، وهي الشيء الذى لا يملك المنشغلون وقتا لفعله.

١٠-٥ إنها تأخذ العقل المطمئن وغير المضطرب ليتجول بحرية فوق كل أجزاء الحياة، ولكن العقول المنهمكة كما لو كانت تحت نير، ولا يمكن أن تتحول وتنظر إلى الوراء، وتختفي حياتهم في جهنم، كما لو أنهم لم يفعلوا خيرًا في أي لحظة لسائل في وعاء، إن لم يكن هناك شيء في الأسفل ليتلقوه ويبقوه[٢٢٦]، ولذلك لا تجعل فارقًا في مقدار الذي تمنحه إن لم يكن هناك مقرٌّ للسكن، وتسمح أن تمضي خلال الشقوق والثقوب في العقل.

١٠-٦ والزمن الحاضر مقتضب جدًّا، وأكثر اقتضابًا عند بعض الناس[٢٢٧] ويبدو غير موجود، وهو في حركة دائمة ومنزلقة بالسرعة عليها، وينقطع قبل وصوله، ولا يعاني بُطئًا كما في القبة السماوية والأجرام السماوية التي لا تكل الحركة التي تسمح لها بالبقاء في نفس الموضع، ولذلك ركز المنهمكون على الحاضر فحسب، وهربوا مما لا يمكن فهمه، وسُرقت منهم حتى اللحظة البسيطة؛ لأنهم انجروا في اتجاهات عدة.

١١-١ وباختصار، هل تريد أن تعرف كيف يعيشون حقًّا الاقتضاب، انظر كيف يحرصون على العيش حياة طويلة، فالشيوخ المضعفون تسولوا في صلواتهم ليضاف لهم سنوات قليلة، وتظاهروا بأنهم أصغر عمرًا مما هم عليه فعلًا، وهم يداهنون أنفسهم بهذا الباطل، ويخدعون أنفسهم بالسعادة كما لو

---

(٢٢٦) إشارة مرجحة لمصير الدنايدز *Danaids* وهم يعاقبن في العالم السفلة لقتلهن أزواجهن الجدد بسحب الماء بأوعية تسرب أو غرابيل.

(٢٢٧) بما فيهم الرواقيون حيث يشير (الآن) في ذاته إلى العابر وليس (حقيقة) كاملة أو (الآن) لكونه طرفًا للسلسلة الزمنية التي تتحرك باستمرار على طول الخط مع الكون الرواقي.

أنهم يخدعون القدر في نفس الوقت، ولكن حين يجتاحهم مرض يفنون، فكم كانوا مذعورين حين ماتوا كما لو كانوا لا يغادرون الحياة بل يُسحبون منها! ويتباكون مرارًا؛ لأنهم كانوا حمقى حيث لم يعيشوا حقًّا، وإنهم سوف يهرعون للراحة إذا هربوا من المرض فحسب، ومَن ثم يعكسون مدى بطلهم في تقييمهم للأشياء التي لم يتمتعوا بها في عيشهم ومدى غفلتهم في كدهم.

١١-٢ ولكن لماذا ليست الحياة وافرة لمَن يقضونها بالتخلي عن العمل؟ ليس ما فيها قد يعاد صنعه لآخر، ولا يتناثر في هذا الاتجاه أو ذاك، ولا تعهد الحياة بما فيها للحظ، ولا تُضيعه في الإهمال، ولا تفقد ما تهبه خالصًا ولا فائضًا، فكل الحياة تلد العودة إن جاز التعبير، ومهما كانت قصيرة ففيها ما يكفي، ولهذا السبب لا يتردد الحكيم في الإقدام على موته بخطوة واثقة حينما يُقبل اليوم الأخير.

١٢-١ ربما تريد أن تعرف مَن الذين أطلق عليهم (المنهمكون)؟ لا تتخيل أنني أعني هؤلاء المحامين الذين يُطردون من محكمة القانون حين تعوي كلاب الحراسة بالليل، أو الذين يفتتن بهم رعاياهم في العرض المعجب في حشد معجبيهم أو المزدرين لهم في حشد آخر، أو العملاء الذين تستدعيهم واجباتهم من بيوتهم لتسبقهم أمام أبواب الآخرين، أو الحكام *praetors* الذين تبقيهم رماحهم مشغولين بكسب سوء السمعة والتي ترتبط يومًا بالقبح[٢٢٨].

١٢-٢ وحتى في وقت الراحة ينشغل بعض الناس بتردي وطنهم أو بمضاجعهم، وفي وسط عزلتهم وحتى في انسحابهم من الجميع يهتمون بالرفقة، فوجودهم ليس مقصورًا على الترويح بل الخمول أحد الانشغالات، وهل

(٢٢٨) يُثبت الرمح في الأرض في المزادات العلنية، وعلى ما يبدو أن هذا ممارسة قديمة لبيع غنائم الحرب رمزًا لملكية المنتصر، والدلالون الذين يشرفون على بيع ملكية الدولة يتبعون سلك القضاء بما فيهم البرايتورات *praetors*، ومن ثم "رمح البرايتور".

تدعي أن الرجل في فراغه هو مَن يرتب بانتباه دقيق تفاصيل برونزه الكورنثي الذي تكلف صنعه كثيرًا والذي جُمع من القلة المهوسين، ومَن الذي يقضي معظم اليوم على صدأ شرائط النحاس، أو مَن يجلس حول حلبة المصارعة، العار لنا! إننا نعاني من الرذائل حتى غير الرومانية، ومَن يشاهد شجار الصبية بحماس؟ ومَن الذى يفصل قواته المناضلين الثملين إلى زوجين من نفس العمر ولون الجلد؟ ومَن الذي يحافظ على ثبات نضارة الرياضيين؟

١٢–٣ أخبرنى، هل تطلق على هؤلاء الناس متروحين وهم يقضون ساعات عدة عند حلاقهم يتشاورون في فرق الشَّعر وتصفيه أو تمشيطه للأمام ليتدلى على الجانبين ليغطي الجبهة؟ وكم سيحل الغضب إذا كان الحلاق ضعيفًا ومهملًا، كما لو أنه قص شَعر رجل حقيقي! وكم سينفجرون إذا قُص شيء ما خطأ من عُرْفُهم الثمين، أو أرقد الشَّعر في غير موضعه، أو إذا لم يرجع كل شيء إلى جديلته! أليس هؤلاء يتحرون شَعرهم أكثر من وطنهم الذي يُعاني الفوضى؟ أليس هؤلاء اهتموا بأن يبقى شَعرهم أنيقًا أكثر من أمان وطنهم؟ أليس هؤلاء يفضلون الهيئة على الاحترام؟ هل تطلق على هؤلاء متروحين وهم منشغلون بين المشط والمرآة؟

١٢–٤ وماذا عن الذين يستغرقون في تأليف واستماع وتعلم الأغاني؟ فإن الصوت الذي يفضلونه والذي يفيض بسذاجة هو بسيط طبيعيًّا، وهم يتذوقونه في نغمات نشاذ لدندنة ضعيفة، وإن أصابعهم تنهش دومًا في الزمن لبعض الأغاني التي تحملها رؤوسهم، وحين يُطلب منهم أن يعتنوا بمسائل جادة أو حتى شجية فإنك تسمع منهم طنين لحن هادئ، فهذه ليست إراحةً، بل انشغال باطل.

١٢–٥ والسماء تعرف! إنني لم أوزع وليمتها بين تسلية مرحة؛ لأنني أرى كم يقلقها ترتيب طبقها الفضة، وكم هي حريصة على أن تجمع سُتر أولادها الجذابين

على المنضدة، وكم يزعجها أن ترى الخنزير ينعرج عن الطهي، وكم هي حثيثة أن يهرع العبيد ذوو الجلد الناعم في أداء واجباتهم بإشارة بعينها، وكيف تنحت الطيور بإتقان الأجزاء المحبوكة بعناية، وكيف يُنشف الصبيان العبيد البائسون أباريق الخمور، ويسعون بهذه الوسائل إلى السمعة من أجل معيشة مترفة، وهؤلاء تتبعهم شرورهم في أي ركن من حياتهم ويصل بهم الحد إلى أن يأكلوا أو يشربوا دون مفاخرة.

١٢-٦ ولا أعد من بين المتروحين الذين يتجولون في هودج أو حمالة، الذين يصلون بأنعامهم في الوقت المحدد كما لو كانوا يحرمون عثرتها، والذين يذكرونهم بوقت الاستحمام ليستحموا أو ليتناولوا طعامهم، هؤلاء قد أضناهم التراخي المفرط للعقل المدلل الذي لا يستطيع أن يخبر ذواتهم إذا كانوا جائعين.

١٢-٧ وإنني أسمع أحد هذه الكائنات المدللة *pampered*– إذا المدللة هي الكلمة الصواب لحياة الجهل وممارسة الإنسان البسيط، وهم يرفعونه بأيديهم من الحمام ويجلسونه على كرسيه ويسأل هل أنا جالس الآن؟ وهل تعتقد أن شخصًا مثل هذا لا يعرف إذا ما كان جالسًا أم لا؟ هل يعرف هو أنه على قيد الحياة حتى يعرف أنه في الراحة؟ ومن الصعب بالنسبة لي أن أتحدث سواء أكنت أشفق عليه إن لم يكن يعرف حقًّا أم يتظاهر أنه لا يعرف.

١٢-٨ إنهم غامضون حيال أشياء عدة، بل يؤثر عليهم النسيان كثيرًا، حيث يرون أن رذائل بعينها تسعدهم وهي دليل رفاهيتهم، وتعرف أن ما يفعله دلالةً للإنسان المنحط والتافه، وأي حماقة أن تفكر أن تقليد الممثلين[٢٢٩] يهاجم الترف باختلاق تفاصيل جمة! ثق في قولي، إنهم يمضون فوق ما يصطنعون، ومثل هذه الثروة من الرذائل التي لا تُعقل تنهض في العصر الذي تُستعمل فيه المواهب التافهة في اتجاه واحد بمشاركتنا للممثلين المقلدين في جهلهم،

---

(٢٢٩) التقليد *Mime* وسيط مسرحي لواقعية غريبة وشاذة غالبًا، والذي يقدمه سينيكا في مكان آخر كعنصر أخلاقي شائع.

وعليك أن تتخيل كل مَن يفسد بإشباع الرغبة سوف يطلق عليه كلمة أخرى كالذي كان يسأل هل هو جالس!

١٢-٩ ولا ينبغي أن نطبق على الشخص الذي يتريض اصطلاحات متباينة، إنه مريض وبالأحرى ميت، والمتريض الحق هو مَن يعي تريُّضه، وأما الشخص الذي يحتاج إلى مَن يرشده ليجعله واعيًا بوظائفه الجسدية فهو نصف حي فحسب، فهل يمكن أن يتحكم في وقته؟

١٣-١ وسوف يكون عملًا طويلًا لتتقصى حالات الذين يقضون كل حيواتهم في لعب الداما *checkers* أو لعب الكرة أو يحمصون أجسادهم في الشمس، وضع هؤلاء الناس السعداء في عمل جدير بالاعتبار ليس فيه ترويض، وعلى سبيل المثال لا أحد يشك أن مَن يكرسون وقتهم لخلافات أدبية عديمة الفائدة متورطون بنشاط هو عمل لا شيء، وقد اكتظت روما بهؤلاء في أيامنا هذه[٢٣٠].

١٣-٢ وينصب جدلهم على فشل اليونانيين في معرفة عدد مجدفي أوليسوس *Ulysses*، وأيهما كُتب أولًا الإلياذة أم الأوديسة، وهل هي لمؤلف واحد، وغيرها من التساؤلات من الوتيرة نفسها، التي إذا ركنت إليها لن تغير شيئًا في تحسين معرفتك، وإن بُحت بها فلن تكشف عن علم أكثر بل سخط أكبر.

١٣-٣ والآن قد أصاب الرومان هذا الحماس الفاضح للحصول على المعرفة العقيمة، ومنذ أيام قليلة سمعت امرأً ما[٢٣١] يذكر أول ما فعله الجنرالات الرومان، وأول مَن انتصر في معركة في البحر هو دويليوس[٢٣٢]، وأول مَن

---

(٢٣٠) بالنسبة لسينيكا فإنه يعتبر هذا حذلقة تقعيد تنامت في روما في القرن الأول الميلادي تجهل المغزى الحقيقي للأدب وفقه اللغة وتنشأة الحكم الرشيد.

(٢٣١) غير معروف، قد يكون بليني الأكبر *the elder Pliny* ولكن لا يوجد دليل قوي على هذا، وربما يبسط سينيكا باستخدام أداة بلاغية ليقدم جزئية ما بنمط عامي.

(٢٣٢) جايوس دويليوس *Gaius Duilius* بعد أن قاد الرومان للنصر على القرطاجيين قبالة ميليا *Mylae* (صقلية) عام ٢٦٠ ق.م احتفل بأول انتصار بحري عام ٢٥٩.

استعرض الأفيال في النصر[٢٣٣]، وحتى لو كانت هذه الأشياء المذكورة توجهنا نحو المجد الحق، فإنها تدلل على قالب بعينه في خدمة الدولة، فمثل هذه المعرفة لن تنفعنا مع أنها من النوع الذي يستولي على انتباهنا؛ لأنها مجرد مسألة فارغة جاذبة.

١٣-٤ ربما نعذر المحققين الذين يسألون عن مَن أول مَن أقنع الرومان في نشر قوات بحرية- هو كلاوديوس *Claudius* [٢٣٤] الذي سُمي كوديكس *Caudex* لهذا السبب، ولأن القدماء اصطلحوا على بناء المركب من الألواح الخشبية بكوديكس، ومن ثم سميت السجلات العامة كوديكس أي المخطوطات، ولا تزال سفن الحمولات التي كانت تنقل التيبر تُسمى كوديكاريا وفقًا للاستخدام القديم.

١٣-٥ ومما لا شك فيه قد يكون لحقيقة أن فاليريوس كورفينوس *Valerius Corvinus* أول مَن قهر ميسانا *Messana* [٢٣٥] بعض الأهمية، وقد أُطلق على أول عائلة لفاليرى *Valerii* ميسانا بعد أن استولى على اسم المدينة المقهورة، وتغير الاستعمال العام وأصبح ميسالا *Messalla*.

١٣-٦ ولكن هل يسمح لك أن تهتم بحقيقة أن سوللا *Sulla* أو مَن عرض الأُسود مقيدة في المدرج الروماني *circus* [٢٣٦]، وانحصر دوره في عرضهم في سلاسل، وقذف الرماح التي مده بها الملك بوتشوس *Bocchus* [٢٣٧]

---

(٢٣٣) وبعد أن هزم ديناتاوس *Dentatus* بوروس ملك مولوسيين *Molossian king* لأبيروس، وهو بطل لحرب السامنيتا *Samnite* وحروب أخرى، ورمز لتواضع العيش *Consolation to Helvia 10.8*.

(٢٣٤) أبيوس كلاوديوس كايديكس *Appius Claudius Caudex* قنصل عام ٢٦٤ ق.م، عبر إلى صقلية في الحرب البونية الأولى ليواجه التحالف بين القرطاجيين وهيروان الثاني *Hieron II* من سيراقسطة.

(٢٣٥) فاليريوس ماكسيموس ميسااللا *M.' Valerius Maximus Messalla* قنصل عام ٢٦٣ ق.م الذي أجبر هيروان الثاني على التصالح مع روما في هذا العام، واحتفل بالنصر لأسره ميسانا الصقلي *Sicilian Messana*.

(٢٣٦) كما قيد البرايتور أورباوس *urbanus* ٩٣ ق.م الأسود على ما يبدو لأول مرة في الألعاب في روما عام ١٠٤ ق.م.

(٢٣٧) ملك مورتانيا *Mauretania* الذي أقنعه سوللا بخيانة جيويته *Jugurtha* صهره والرومانيين بقي على علاقة ودية مع سوللا بعد نهاية حرب جوجورثين *Jugurthine*.

ليقتلهم؟ حسنًا، دعونا نسمح بذلك، ولكن أي غاية مفيدة حقة قد تخدم معرفة أن بومبي أول مَن نظم معركة وهمية للقتال على ظهور ثمانية عشر فيلًا في المدرج الروماني(٢٣٨)؟ فالرجل الذي حظي بسمعة حسنة بين القواد الأقدمين بقيادة الدولة ورقة الفؤاد فكر في شكل بارز ليشاهد تدمير جنس البشر في نمط لا يُنسى وهو المعركة الوهمية، «فهل قاتلوا حتى الموت؟ فهذا ليس كافيًا، هل قطعوا إربًا؟ فهذا لا يكفي، بل تركهم يُسحقون تمامًا بأجساد الحيوانات الثقيلة!».

١٣-٧ ويقينًا من الأفضل أن تُنسى مثل هذه الأشياء؛ خوفًا من أن يعلمها رجل قوي في المستقبل، فينقل هذه الواقعة اللا إنسانية بالحرف، وآه يا لظلام الرفاهية العظمى الذي يخيم على عقولنا! إنه اعتقد أنه فوق قوانين الطبيعة حين ألقى بكثير من جحافل البشر البائسين لحيوانات تلد تحت سماء متباعدة، وحين أدار حربًا بين مثل هذه المخلوقات المتفاوتة، وحين سفك الدماء أمام أعين الرومان- والذين أُكرهوا على إراقة دمائهم بعدئذٍ، ولكن هذا الرجل نفسه تعرض لخيانة إسكندرانية مؤخرًا، وقدَّم نفسه ليجر من أحقر عبيده(٢٣٩)، ومن ثم أدرك في النهاية أن التفاخر الفارغ كان كنيته(٢٤٠).

١٣-٨ وعودة إلى النقطة التي استطردت منها حتى أبرهن على سخافة الآلام التي يعانيها بعض الناس من مثل هذه المسائل، فقد أفاد المصدر نفسه(٢٤١) أن ميتيلليوس *Metellus* كان متفردًا بين الرومانيين، حيث اتخذ في نصره بعد

---

(٢٣٨) حين احتفل بومبي بافتتاح مسرح الحجر الجديد في حرم مارتيوس *Campus Martius* احتج سينيكا على المذبحة العامة (*13.6–7; cf. Letters 7.3–5, 95.33*) وكما نقل شيشرون (*Letters to His Friends 7.1.3; cf. Pliny Natural History 8.21*) وأن الحشد قد تحرك لرحمة الفيلة المضطهدة.

(٢٣٩) بعد هزيمة فارساليوس عام ٤٨ ق.م سعى بومبي للحماية من بطليموس الثالث عشر في مصربحرسه ورجاله، ولكن حين ذهب إلى شاطئ الإسكندرية قتله نائب بطليموس .

(٢٤٠) *Magnus* تعني العظيم.

(٢٤١) انظر ١٣, ٣ أعلاه.

قهر القرطاجيين في صقلية مائة وعشرين فيلًا يقودون موكبه أمام عربته[٢٤٢]، وكان سوللا آخر الرومانيين الذين وسعوا الحدود *pomerium* التي كانت عُرفًا قديمًا للامتداد بعد الاستحواذ الإيطالي وليس الإقليم الريفي[٢٤٣]، وهل هناك أي فائدة في معرفة هذا أكثر من أن نعرف أن أفينتينا هيل *Aventine Hill* خارج الحدود، ووفقًا له هناك سبب من اثنين؛ الأول إما لأن ذلك كان نقطة تجمع العامة الرومانيين *plebeians* في انعزال روما[٢٤٤]، وإما لأن الطيور لم تتواءم حين حصل راموس *Remus* على الرعاية هناك[٢٤٥]، ومعرفة أسباب أخرى بجانب هذا قد تكون مشحونة بأكاذيب وغير مرجحة.

١٣-٩ وحتى لو منحت هؤلاء الناس الذين يقولون هذه الأمور بحسن نية، وحتى لو ضمنوا الصدق في كتاباتهم، فهل الأخطاء سوف تقل في مثل هذه المعلومات؟ وأي الانفعالات ستكون محلًّا للاختبار؟ ومَن الذي سيصنع منك شجاعًا، أو أكثر عدلًا، أو أكثر سخاءً في روحه؟ واعتاد صديقي فابيانوس أن يقول إنه يتساءل أحيانًا عمَّ إذا هو الأفضل حيث لا يطبق على نفسه أي بحث بدلًا من أن يتورط في هذا.

١٤-١ وهؤلاء فحسب من بين الناس مَن يمنحون وقتهم للفلسفة في وقت الفراغ، وهم فحسب مَن يحيون حقًّا، وليس لهم عمرهم الذي ينتبهون إليه بحرص، بل يضيفون كل عمر إلى أنفسهم، ويضيفون كل السنين التي انصرمت قبلهم

(٢٤٢) كايكيليوس ميتيللوس *L. Caecilius Metellus* قنصل عام ٢٥١ق.م، انتصر بعد هزيمة صدر بعل في بانورموس (باليرمو) عام ٢٥٠، وعدد الفيلة غير متفق عليه. صدربعل بن حملقار برقا، قائد قرطاجي، شارك في الحرب البونيقية الثانية وهو ثاني أبناء حملقار برقا والشقيق الأصغر لحنبعل. (المترجم).

(٢٤٣) كان لروما حدود *pomerium*، وكانت هذه الحدود مقدسة وهي محروثة أومُعلَّمة بأعمدة من حجر، ولا يمكن لرعايا المدينة *auspicia urbana* أن يتجاوزوها، وتعزى هذه الحدود بعد سولان إلى يوليوس قيصر وأوغسطس وكلاوديوس، ولكن سينيكا أو روايته تزعم أن سوللا كان يمدد الحدود لأسباب مشروعة (الأراضي الإيطالية المكتسبة).

(٢٤٤) مرتين وفقا إلى ليفي *Livy* عام ٤٩٤ ق.م وما بعدها في عام ٤٤٩.

(٢٤٥) في صراعهم الأسطوري ليصبح مؤسس روما قد هُزم راموس حين أخذ الرعايا على هضبة آفينتين *Aventine*.

إلى ذواتهم، وإذا لم نثبت عدم امتنان الذين ميزوا مؤسسي الأفكار المقدسة التي جاءت إلى وجودنا ومهدت طريقنا للعيش لنا، فإن عمل الآخرين يقودنا إلى حضور أعظم الكنوز جمالًا، والذي يسحبنا من الظلام وينقلنا إلى النور، فلا نُحرم من زمن ونتجاوز الكل، وإن أردنا أن نتجاوز الحدود الضيقة للضعف الإنساني بتوسيع العقل، فلدينا مدى زمني كبير للامتداد فوقه.

١٤-٢ فيمكننا أن نتناقش مع سقراط ونترفه بشك كارنيادس[٢٤٦]، ونكون في سلام مع أبيقور، ونتغلب على الطبيعة مع الرواقيين، ونتجاوزها مع الكلبيين[٢٤٧]، حيث إن الطبيعة تسمح لنا أن نتشارك ملكية أي عصر، فلماذا لا نتحول من لحظة الزمن القصيرة والعابرة ونمنح أنفسنا الماضي برمته والذي لا قياس له وأبدي ونتشاركه مع الفضلاء؟!

١٤-٣ وأما الذين يسيرون حول أداء واجباتهم الاجتماعية ويثيرون أنفسهم والآخرين حين يتصرفون على نحو مثل المجانين، وحين يعبرون على كل عتبة في جولتهم اليومية ولم يمروا على الأبواب المفتوحة، وحين يُسلمون تحيتهم النقدية لمنازل متفرقة عن بعضها بعض، وقليل هم الرعاة القادرون على التقاط نظرة في المدينة الواسعة المتشظية بالانفعالات! وكثير منهم الذين غطوا في النوم والانغماس والجلافة ينكرون أن يقترب المتصلون بهم!،وكثير الذين بعد أن عذبوهم بالانتظار الطويل ادعوا أنهم كانوا على عجلة وكأنهم مروا عليهم! وكثيرٌ منهم تجنبوا الخروج من بهو الاستقبال المكتظ بالجمهور وهرب من الأبواب الخفية عن النظر كما لو أنهم ليسوا

---

(٢٤٦) إذا كان سقراط أسّس فعلًا الأكاديمية الشكية (*cf. Cicero Tusculan Disputations 5.11*) فإن أرخيسلاوس *Arcesilaus (316/15–242/1 bce)* قد أسس الأكاديمية الثانية أو الأكاديمية الوسطى، وكارنيادس الكيريني *Carneades of Cyrene (214–129 bce)* مؤسس الأكاديمية الثالثة أو الأكاديمية الجديدة.

(٢٤٧) في حين تسعى الرواقية لتحرير الانفعالات (الأباثيا)، فإن الأباثيا الرواقية ليست جمودًا بحتًا (*cf. On Anger 1.16.7*)، ولكن الكلبية موقفها أكثر تطرفًا حيث يفصل الحكيم تمامًا، حتى إنه بلا عاطفة.

قاسين في خداعهم أكثر من رفضهم القبول! وكثير منهم نصف نائم مثقل بتأثير شراب الأمس، ويفغر الفاه بكلام مزرٍ ليخاطب هذا الجمهور البائس، ويطلبون منهم الكف عن الكلام انتظارًا لكلامه وهمس لهم ألف مرة بشفاهٍ تتحرك بالكاد!

١٤-٤ هل تفترض أن هؤلاء الجمهرة يقضون وقتًا على الواجبات الأخلاقية الجديرة بالثناء؟ ولكن نقول: كثير منهم يريد أن يكون مثل زينون وفيثاغورث وديمقريطوس، والآخرون كهنة في دراسة الفلسفة فيرافقهم أرسطو وثيوفراسطوس كل يوم، فليس هؤلاء غير متاحين لك في زمانك، ولا يفشل أحدهم أن يرسل زائره في حالة سعيدة والأيسر أن يأتي بنفسه، ولن يتركوا أحدًا يُغادر فارغ الوفاض، ويمكن أن يتقاربوا لكل البشر بالليل والنهار.

١٥-١ ولن يجبرك أحد من هؤلاء الفلاسفة على الموت، بل سيتعلم الكل كيف يواجهه(٢٤٨)، ولن يأخذ أحدٌ منهم شيئًا من عمرك بل سيقاسمك عمره، ولن يكون حديثه معك خطرًا يهدد حياة الصداقة أو يكلفك شيئًا، ومنهم سوف يأخذك إلى حيث تتمنى، ولا يخطئون إذا فشلت في أن تحصل على اللحظة التي تتوق إليها.

١٥-٢ ويا لها من سعادة ويا لجمال ما تستلقي عليه الشيخوخة في ذاكرة للشخص الذي وضع نفسه تحت رعاية هؤلاء الناس! إنه سيحوز أصدقاء ينصحونه في مسائلهم سواء أكبرت أم صغرت، ويراجعونه في نفسه يوميًّا، ويمكنه أن يسمع الحق بلا إهانة ويتلقى ما يستحق بلا تزلف، إنهم يقدمون له مثالًا يُقيمه لنفسه بعدئذٍ.

١٥-٣ وهناك قول شائع يقول إنه ليس في وسعنا أن نختار آباءنا الذين قُسموا لنا

---

(٢٤٨) راجع ٧,٣ وهامش ١٢.

وإنهم منحوا لنا بالصدفة، ومن ثم يمكن أن نولد لأي أحد نتمناه، وهناك أسر معظم عقولهم متمايزة، اختر واحدًا ترغب أن تعتمد عليه وسوف لا ترث الاسم فحسب بل ما يملكه حقًّا، وهو ليس مشحونًا ببؤس أو روح منحطة يتفق الناس عليها ويقبل عليها العظيم.

١٥-٤ هؤلاء سيفتحون لك طريقًا للخلود، ويرفعونك إلى سمو لم ينله أحدٌ، وهذا هو الوسيلة الفريدة لمد الفناء أو بالأحرى لتحويله إلى الخلود، فاحترم التراث الذي دُمر الآن، والذي شُيد بمطمح الفخر بأمر أو بنقش على حجر، ولا شيء يطول زمنه لا يُهدم ويتحول، ولكن الأعمال التي كُرست بالحكمة لا يمكن أن تتلف، ولا يطمسها عصر ولا يختزلها على الإطلاق، فالعصر التالي وكل ما يأتي بعده سيعزز احترامًا قد اتفقوا عليه، فموضع الحسد فيما اقترب من اليد وأما ما بَعُد عنها فقد يطوله منا الإعجاب.

١٥-٥ ولذلك حياة الحكيم فسيحة النطاق، ولا يتقيد بنفس الحد الذي يُكبل به الآخرون، وهو فحسب المعتوق من قيود جنس البشر، وهو سيد كل العصور كما لو كان ربًّا، ألم تنصرم بعض الأزمان؟ إنه يقبض عليها في الذاكرة، أليس الزمن يعلونا؟ إنه يستعمله أي يتحكم فيه، أليس الزمن واقعًا؟ إنه يتوقعه، إنه يجمع الأزمان كلها في زمن واحد يُطيل حياته.

١٦-١ وأما مَن ينسون الماضي ويتجاهلون الحاضر ويخافون المستقبل، فالحياة بالنسبة لهم مقتضبة ومضطربة للغاية، وحين يصلون لنهايتها يدركون متأخرًا بؤس الفقر الذي شغلوا به طويلًا، ولم يقوموا فيه بشيء.

١٦-٢ وأما حقيقة أنهم يطلبون الموت، فيمكن أن تُؤخذ كدليل على أن حياتهم طويلة، ويعانون في حماقتهم بالمشاعر المتقلبة التي تدفعهم للأشياء التي تُخيفهم، وغالبًا ما يطلبون الموت؛ لأنهم يخشونه.

١٦-٣ وليس هناك سبب لتجد دليلًا على أنهم عاشوا طويلًا في الواقع، فقد يبدو اليوم لهم طويلًا، أو أنهم يشكون مرور الساعات البطيء انتظارًا للساعة المحددة للعشاء؛ لأنه حين يفشل المنشغلون عادةً ولا يجدون شيئا يفعلونه فإنهم يرتبكون دون معرفة كيف يشغلون فراغهم أو كيف يسحبونه خارجًا، ولذلك ينتقلون إلى بعض الانشغالات الأخرى ويجدون الزمن المُتَخلل حملًا مرهقًا، ويصنعون كما يُفعل في المجالدة حيث يُعلن عن يوم بعينه لها، أو حين يحدد زمنًا لبعض العروض الأخرى أو تسلية ترتبط بالانتظار، فإنهم يرغبون أن يقفزوا على الأيام المتخللة، وينظرون لأي إرجاء على أنه طويل عليهم.

١٦-٤ ولكن زمن المتعة الفعلي قصير وعابر، وأخطاؤهم تجعله أشد قصرًا؛ لأنهم يرغبون في اللذة تلو الأخرى، ولا يستقرون بثبات على رغبة بعينها، فلا تطول أيامهم بل تُكره، فكم تبدو الليالي التي قضوها في الظفر بالعاهرات أو السكر!

١٦-٥ ومن ثَم فإن الإلهام المجنون للشعراء هو ما يغذي الضعف البشري بقصصهم وتخيلهم بأن جوبتر *Jupiter* يُضاعف امتداد الليل فعلا[٢٤٩] حين يُغوى باللذة الجنسية، ولا تساوي هذه الإثارة لأسوأ انفعالاتنا شيئًا سوى أنها تجنيد الأرباب على أنها تشكل مسبقًا رذائلنا، وتمنح للفساد رخصة مبررة بالنموذج الرباني، وكيف لا تبدو الليالي في كنف العشيقة قصيرة على هؤلاء الناس؟ إنهم أضاعوا النهار في انتظار الليل، وفقدوا الليل في الخوف من طلوع الفجر.

١٧-١ إن الملذات الحقيقية لمثل هؤلاء قلقة ومضطربة بأنواع التنبيه المتعددة، واللحظة الحقيقية التي يفرحون فيها هي اللحظة التي يسرقهم فيها الفكر الهائج، فإلى متى سوف يستمر هذا؟ هذه المشاعر تتسبب في تباكي الملوك

---

(٢٤٩) خلال زيارته إلى ألكمينا *Alcmena* زوجة أمفيتريون *Amphitryon* وأم هيروكليس.

على سلطتهم، حيث لا تمنحهم الرفاهية أي لذة، بل يرعبهم الأمل في نهاية مطافه.

١٧-٢ وعندما كان الملك الفارسي المتغطرس ينسق جيشه على السهول الفسيحة لمعرفة حجمه وليس عده، بكى وفكر في أنه في غضون قرن لن يبقى جنديٌّ من هذه الجحافل الضخمة على قيد الحياة[٢٥٠]، والرجل الحقيقي الذي بكى جلب عليهم قدرهم، ففقد القوات في بحر وآخرين في بر وبعضهم في معركة[٢٥١] وآخرون في قتال، وهكذا دمر كل هؤلاء في وقت قصير جدا قبل المائة عام التي كان يخشاها.

١٧-٣ وماذا عن حقيقة أن مرح مثل هؤلاء ينتابه القلق؟ لأنهم لم يرتكزوا على أسباب ثابتة بل ممزقة عند صدورها، ولكن هل تعتقد أن أوقاتهم قد تتشابه حين يشقيهم حتى قبولهم؛ لأن الأفراح التي ترفعهم وتحولهم أعلى عن رفقائهم بأي حال محضة؟

١٧-٤ وتسبب كل النعم العظمى القلق، ولا يقل الحظ في معظم توافقاته عن ميثاق حكيم، ولكي تحافظ على الرفاهية تحتاج إلى رفاهية جديدة، وتقدم توسلات بدلًا من التي تحولت بالفعل، وكل شيء يأتي لنا عن طريق الصدفة متقلب، ويرتفع حظنا الأسمى كلما كنا عرضة للسقوط، ولكن ما يسقط لا يسر أحدًا حتمًا، ولذلك فإن حياة الذين يكتسبون بالعمل المضني والذين يعملون بجد للامتلاك ليست مقتضبة فحسب بل بالضرورة بائسة.

١٧-٥ إنهم يحصِّلون بالجهد العظيم ما يرغبون فيه، ويقبضون على ما تحصلوا عليه بقلق، وفي الوقت نفسه لا يقيمون اعتبارًا لإمكانية إعادة الزمن، فتحل

(٢٥٠) الملك زركسيس في حملته ضد اليونان عام ٤٨٠ ق.م راجع *Herodotus 7.45–46*.

(٢٥١) الأكثر وضوحًا في البحر في سلاميس *Salamis* عام ٤٨٠، وعلى الأرض في ثيرموبيلي *Thermopylae* عام ٤٨٠ وبليتيا *Plataea* عام ٤٧٩.

الانشغالات الجديدة محل القديمة، وسيثير الأمل أملًا جديدًا والطموح طموحًا جديدًا، فهم لا يتطلعون إلى نهاية بؤسهم بل تغيير علته، هل عذبنا منصبنا العام؟ حيث أنفقنا جل الوقت على الآخرين، فهل نتوقف عن كدح الترشح للمناصب؟ حيث نتصيد أصوات الناخبين، وهل نكف عن مضايقة المدعي العام؟ حيث وضعنا في الاعتبار أنه قاض، وهل يتوقف عن كونه قاضيًا؟ حيث ينطلق لترؤس لجنة خاصة، ومَن الذي يقضي كل عمل حياته لإدارة ملكية الآخرين براتب؟ حيث يتحول عن رعاية ملكيته.

١٧-٦ **وقد عمل ماريوس** *Marius* **بخدمات الجيش، وشغلته القنصلية** *consulship*[٢٥٢]**، وتعجل كوينتيوس** *Quintius* **في الحصول على ديكاتوريته ولكن ناداه محراثه[٢٥٣]، وقد سما سكيبيو** *Scipio* **أمام القرطاجيين قبل أن يكون جاهزًا تماما لهذه المهمة[٢٥٤]، وسما فيكتوريوس** *Victorious* **على حنبعل** *Hannibal***، وسما فيكتوريوس على أنطاكوس** *Antiochus***، وقد انتصر بالتميز في قنصليته وعمل ضمانًا لقنصلية أخيه[٢٥٥]، ولكن لاعتراضاته نُقل تمثاله الذي كان يرافق فيه جوبيتر إلى معبد الكابيتولين**

---

(٢٥٢) ربح جايوس ماريوس انتخاب القنصلية عام ١٠٧ ق.م بعد هزيمة يوجيرثا *Jugurtha* وانتُخب مرة ثانية عام ١٠٤ ثم أربع سنوات حتى عام ١٠٠ ، ثم عام ٨٦، والأكثر الكامل للتلميح هنا لا يكمن في الانتقال السريع لماريوس من كونه جنديًّا إلى رجل دولة، ولكن إلى العدد الكبير لسنين وظيفته في القنصلية، ويوضح كيف تحل الانشغالات الجديدة محل الانشغالات القديمة.

(٢٥٣) وفقا للتقليد قلد الدكتاتور كينتيوس كينكيناتوس *L. Quintius Cincinnatus* عام ٤٥٨ ق.م (بعد هزيمة إكيو *Aequi* في خمسة عشر يومًا وترك منصبه) وتولى مرة أخرى عام ٤٣٩، والأسطورة التي يستدعيها من الجرف ترتبط مع فترته الديكتاتورية الأولى وربطه بالمرحلة الثانية، والتغاضي عن الفترة بين ٤٥٨ -٤٣٩، ويؤكد سينيكا على ضغوط منصب كينكيناتوس.

(٢٥٤) كورنيليوس سكيبيو الإفريقي *P. Cornelius Scipio Africanus (235–183 bce)* عُين في عمر السادسة والعشرين قائدًا ضد القرطاجيين في الحرب البونية الثانية، وربما كان الامتعاض من نجاحاته سببًا في توجيه الاتهام له بعدم الأمانة المالية وتسويتها فيما سُمي بمحاكمات سكيبيو في ثمانينيات القرن الثاني ١٨٠ ، ولسخطه انسحب إلى ليتيرنيوم *Liternum* حيث مات هناك عام ١٨٤-١٨٣.

(٢٥٥) كمفوض يعمل في ظل حكم أخيه، تفاوض سكيبيو على شروط السلام بعد الهزيمة في ماجنسيا *Magnesia* عام ١٨٩ ق.م من أنتيخوس الثالث *Antiochus III* ملك سوريا.

Capitoline، ولكن الخلاف بين المواطنين جلب المتاعب لمنقذهم، وبعد أن احتُقر في شبابه تنافس العامة الشرفاء على هؤلاء الأرباب، فقد سُر في شيخوخته في نهاية المطاف وهو يتفاخر في المنفى، وليست أسباب القلق مرغوبة سواء أكان السبب هو الرفاهية أم البؤس، وسوف تُدفع الحياة بانشغال بعد آخر، وسوف نطلب الراحة ولن تتحقق أبدًا.

١٨–١ وهكذا عزيزي بولينيوس أخرجْ نفسك من الحشد، واطرح ما يستحق أن يطيل سنين عمرك، وانسحب إلى ملاذ أكثر أمانًا في النهاية، وتأمل كم الأمواج الذي تحملته، والعواصف التي نجيت منها، وكم جلبت عليك وظيفتك العامة، وقد يبرهن على كفاية فضيلتك بالبراهين المنهكة والمتواصلة، فضع على المحك ما يمكن أن تحققه في وقت الفراغ، فإن الطرف الأعظم من حياتك ويقينا هو الطرف الأفضل قد منحته للدولة، فخذ بعضًا من وقتك لنفسك كذلك.

١٨–٢ ما أدعوك إليه في حالة التقاعد ليس هو الكسل والخمول أو أن تغط طاقتك الحية في النوم وفي الملذات التي تغوي الحشد، وليس لتجد راحة البال لأنك ستجد مهامَّ تشغلك عن الاعتزال الهادئ، ومن المهم أن تتعامل معها بحيوية.

١٨–٣ أليس حقًّا، أنت تدير عائدات العالم بموضوعية كما لو كنت غريبًا، وبمثابرة كما لو تدير ما تملك، وبضمير كما لو كنت أنت الدولة، لقد فزت بالمودة في المنصب من الصعب أن تجتنب فيه الكراهية، ومن ثم صدقني من الأفضل أن تعرف معيار التوازن في حياة المرء أكثر من إمداد العامة بالحبوب.

١٨–٤ واستدعِ عقلك النشط الذي أهَّلته بدرجة قصوى للتعامل مع التحديات العظمى للمنصب والذي يقينًا هو مرموق، ولكنه يتعامل بالكاد في الحفاظ على الحياة السعيدة، وتأمل أنك لم تجعلها هدفًا لك مع كل تدريبات الفنون التقدمية من العصر المبكر، فآلاف عدة لمقادير الحبوب قد تعهدت بأمانك،

ووعدت بشيء أعظم وأكبر وهو ألَّا يكون هناك نقص للرجال سواء في حسن الأخلاق والخدمة الدؤوبة، ولكن أسطول الحيوانات بطيئة الحركة أكثر من الخيول الأصيلة ملائمة في حمل الحمول الثقيلة، فمَن الذي يُعرقل سرعة هذه المخلوقات التي جُبلت على حمل الحمول الثقيلة؟

١٨-٥ وتأمل، رغم قسوة تحملك لهذه المسؤولية الثقيلة عليك أن تتعامل مع معدة البشر، فالجوعى لا يخنعون لعقل ولا تُلطفهم معاملة وسط أو تأثر فيهم مناشدة، ففي الآونة الأخيرة في غضون الأيام القليلة بعد وفاة القيصر جايوس، وكان لا يزال يعاني إلى أقصى حد؛ لأنه رأى الرومانيين أبقوه حيًّا ولا تزال لديه مؤن تكفيه لسبعة أو ثمانية أيام في جميع الأحوال لأنه بنى جسوره للقوارب وتلاعب بمصادر الإمبراطورية[٢٥٦]، لقد واجهنا أسوأ أنواع الكوارث، حتى الذين كانوا تحت الحصار عانوا نقص الطعام، ومحاكاته للغطرسة المشؤومة للملك الأجنبي المجنون جاءت بتكلفة الدمار الشامل بسبب الجوع، وتلا ذلك الكارثة العامة المجاعة.

١٨-٦ وماذا كان تهمة عقل المسؤولين المكلفين بإمدادات الحبوب حين قرروا مواجهة الحجارة والأسلحة والحرائق وجايوس؟ إنهم غطوا بتمويه متقن هذا المرض العظيم الكامن وسط الأجهزة المتوغلة للدولة، ولتتأكد بعقل وجيه، أنهم تعاملوا مع شكاوى بعينها دون أن يعيها المرضى ويعرفوا أن أمراضهم تسببت في الكثير حتى الموت.

١٩-١ والانسحاب من هذه الملاحقات أكثر أمنًا وهدوءًا وأزيد سلطةً، فهل تعتقد أنه يساوي نفس الشيء، سواء أكنت متهمًّا برؤية نقل الحبوب المستوردة إلى

(٢٥٦) قُتل جايوس في يناير ٢٢ أو ٢٤ عام ٤١ م، وهنا يخلط سينيكا الأحداث بربط أزمة الغذاء ببناء جايوس المشهور لجسرالقوارب من بايا *Baiae* إلى بوتيلو *Puteoli* عام ٣٩، ويزعم أن جايوس سعى إلى محاكاة جسر زركسيس *Xerxes* الذي بناه ٤٨٠ ق.م.

خزانات غير صالحة خيانة أم إهمال الناقلين، تلك الخزانات التي لا تمتص الرطوبة وتتعفن بالحرارة، وأنها تساوي الوزن والمقدار المعروف لها، أو سواء كنت تشغل نفسك بدراسات سامية ومقدسة تتعلم فيها جوهر الرب وإرادته وصفاته الكلية وهيئته، وما المخرج الذي تنتظره روحك، وأين تضعنا الطبيعة لتريح أجسادنا، وما الذي يحمل وزن كل المواد الثقيلة لهذا العالم نحو المركز ويدلي مكونات الضوء من أعلى، ويحمل النار إلى أعلى جزء، ويرفع النجوم إلى التغيرات التي أحدثتها الحركة، وتتعلم أشياء أخرى من هذا القبيل تحدوها العجائب الكبرى؟

١٩-٢ وعليك حقًّا أن تتخلى عن المستوى الدنيوي وتحول عين عقلك لهذه الدراسات، وقد تتقدم لأفضل الأشياء حينما لا يزال الحماس نشطًا والاهتمام بهذه الأشياء فعالًا، وهذا النمط من الحياة فيه الكثير من الدرس الذي ينتظرك، حيث حب الفضيلة وممارستها، وإغفال الانفعالات، ومعرفة كيف تحيا وتموت، والسكون العميق.

١٩-٣ ووعثاء كل الناس المنشغلين هي البؤس، ولكن معظم البائسين هم حال للذين يكدحون لشواغل ليست لهم، بل للذين يُنظم لهم الآخر نومهم، ويستيقظون على ركض شخص آخر، والذين أدنى تدريب لهم في مطلق كل النشاطات أي الحب والكراهية[٢٥٧]، وإن أراد هؤلاء أن يعرفوا كم هي الحياة قصيرة فدعهم يفكرون أن أبسط جزء فيها هو ما يخصهم.

٢٠-١ وحين ترى الرجل مستعرضًا رداء المنصب مرارًا، أو اسمًا معروفًا حقًّا للعامة فلا تحسده؛ لأنه اشترى هذه الزخارف بقيمة الحياة، ولأجل أن يُؤرخ عامًا

(٢٥٧) على سبيل المثال العميل الذين يستيقظ مبكرًا ويدفع رب العمل في الصباح (*salutatio; cf. 14.4*)، ويرافقه في العامة، وكانت العلاقة بين العميل ورب العمل *the client-patron* تُملي الولاء السياسي والاجتماعي.

واحدًا باسمهم فإنهم أضاعوا كل سنينهم[٢٥٨]، لقد تخلت الحياة عن بعضهم في وسط نضالهم الأول وقبل تسلقهم الوعث لقمة طموحهم، وآخرون بعد أن ارتقوا فوق ألف إذلال ليصلوا إلى جلال التتويج، ويُغير عليهم الفكر الهزيل الذي يختزل كل كفاحه لأجل النقش على القبر، وبعضهم يخطط لطموحات جديدة لشيخوخته المتقدمة كما لو كان في شبابه، وهم يستسلمون للوهن وسط مساعيهم العظيمة والجامحة.

٢٠-٢ إنها نهاية مخزية حين يقاضي الرجل الشيخ في المحكمة خصومًا لا يعرفون أن هذا هو نفسه الأخير، وحتى إن فاز في اللحظة التي صفق له فيها المتفرجون المتأثرون به، وإنها لنهاية شائنة حين لا يرتد المرء عاجلًا عن العيش بالعمل المميت وهو في وسط واجباته، وإنها لنهاية مؤسفة حين يموت المرء منكبًّا على أرصدته وهو يسحب الابتسامة من الوريث الذي انتظر موته طويلًا.

٢٠-٣ ولا أستطيع أن أمر على مثال واحد قد حدث لي، كان جايوس تورانيوس رجلًا كهلًا ظاهرًا على الكل وكان حينها في التسعين من عمره، وقد دعاه الإمبراطور جايوس قيصر للتقاعد من منصبه الإداري، ووجه أوامره بأن يرقد على سريره، وناح بمنزله الحاشد كما لو كان في حالة الموت، وندب أهل منزله لبطالة سيدهم الكهل، ولن يكف عن نواحه حتى استعاد عمله، فهل من السعادة أن تموت منكبًّا على العمل؟

٢٠-٤ والكثيرون عندهم الاتجاه نفسه، ورغبتهم للعمل تزيد على قدرتهم عليه، وهم يناضلون أمام عجزهم الجسدي، وتقضي عليهم الشيخوخة ذاتها بالشقاوة؛ لأنها تزيحهم عن المنصب وليس لأي سبب آخر، فلا يسمح بالتجنيد بعد

---

(٢٥٨) وفقًا لتاكيتوس (*Annals 1.7.2, 11.35.1*) كان جايوس تيرانيوس خازنًا للذرة *praefectus annonae* عام ١٤ م. (وبالتالي هذا مثال بطبيعة الحال للعلاقة الخاصة بباولينيوس *Paulinus*)، وهو لا يزال بالقرب من كلاوديوس عام ٤٨، ومن الصعب أن يكون تجاوز التسعين كما يقول سينيكا قبل نهاية حكم جايوس عام ٤١. ومكث في منصبه سبع سنوات بعد رجوعه إليه، ولذا فإن سينيكا يبالغ في تحديد عمره.

الخمسين، ولا يتطلب حضور عضو مجلس الشيوخ إذا تجاوز الستين، ومن الصعب على الناس أن يقبلوا على التقاعد من أنفسهم بدلًا من القانون.

٢٠-٥ وطوال الزمن وهم ينهبون وقد نهبوا، وكسروا راحة كل منهما الآخر، وأتعسوا بعضهم البعض، وجعلوا الحياة بلا نفع ولا متعة ولا تقدم في العقل، ولا أحد فيهم يضع الموت في المشهد، ولا أحد يُحجم عن الآمال البعيدة، والحقيقة أن بعض الناس يقيم ترتيبات لأشياء لما بعد الحياة -مثل إنشاء مقبرة ضخمة، وتدشين المباني العامة، والعروض المجالدية للجنائز، والمواكب الجنائزية الفارهة-، والحق أن جنائز مثل هؤلاء ينبغي أن تُقاد بضوء المشاعل والشموع الرفيعة[٢٥٩] كما كانوا يعيشون الفترة المقتضبة.

❊ ❊ ❊

(٢٥٩) ولتفادي جذب الانتباه شُيِّعت جنازات الأطفال ليلًا بالمشاعل والشموع.

عن صمود الحكيم

OCD Oxford Classical Dictionary, 3rd ed., ed. Simon Hornblower and Anthony Spawforth. Oxford: Oxford University Press, 1996.

SVF Stoicorum Veterum Fragmenta, ed. Hans F. A. von Arnim. Leipzig, 1903–24.

Use. Usener, Hermann. Epicurea. Leipzig, 1887.

مقدمة

عن العنوان الموضوع والبنية:

من المستغرب إلى حد ما أن رسالة صمود الحكيم *De Constantia Sapientis* لا تحتوي على الكلمة اللاتينية صمود *Constantia*، والحقيقة أنه في مرحلة ما من التراث أصبح هذا العنوان القصير ملائمًا للإشارة للعمل أكثر من الطويل، وهو العنوان الأساسي الذي يؤكد المفارقة الرواقية، حيث إن الحكيم لا يتلقى إهانةً ولا ضررًا، وكما يخبر سينيكا سيرينوس صديقه الذي يخاطبه في العمل، وبرز الرواقيون من بين مدارس الفلسفة بمسعى منفرد (مسار الإنسان) ١ , ١-٢، وهذا التحدي من سيرينوس أو المسار الحاد والمباشر يشجعه ويصبح المنحدر أسهل، ويصير الموضوع المركزي للعمل هو المسار "الذي يرتفع أو أبعد من أي مقذوف"(١ , ١).

وسرعان ما نكتشف أن سيرينوس يعبر عن غضب كاتو الأصغر الذي تعرض لإساءة لفظية والبصق(١ , ٣-٣ , ٢)، ويرد سينيكا في الوقت نفسه ويُطمئن سيرينوس بأن "الحكيم سالم ومعافى"(٢ , ٣)، وتنطلق المحاورة الحاضرة من هذا النزاع حيث يقدم سينيكا الآن خطابًا شكيًّا ومتحمسًا لسيرينوس(٣ , ١-٢)، ويستجيب سيرينوس بإصغاء لما يقصده بكلمة (لا يتلقى) ضررًا أو إهانة(٣ , ٣-٤ , ٣).

وقد يُتبع الاستهلال والحكي بتقسيم للموضوعات(٥ , ١-٢) والذي يقسم فيه موضوعه إلى قسمين الضرر *iniuria* والإهانة *contumelia*، ويفسر كيف يتعامل

معهما على نحو منفصل، وتمضي معالجته المنفصلة بعيدة بعض الشيء عن القانون الجنائي الروماني، والذي لم يتضمن فعل الضرر *actio iniuriarum* الضرر الجسدي فحسب منذ القرن الثاني قبل الميلاد- أي الإحساس الأولي بالضرر في القانون الروماني المبكر مثل قانون الألواح الاثني عشر(•)، بل كلمات وأفعال القذف(٢٦٠)، وليست غاية سينيكا التدقيق في القانون الروماني، بل توضيح كيف أن الدروب المتمايزة التي قد يفهم بها القارئ أنها ضرت المرء عمدًا لا تمس الحكيم، وهو التمييز بين الضرر والإهانة في (٥, ١) يسمح له باكتشاف الطيف كاملًا تدريجيًّا: حيث يستعمل مقولة الضرر ليركز أولًا على حالات مماثلة للاعتداء الجسدي تكون موضوعية وواضحة في انتهاك القوانين، في حين يستعمل مقولة الإهانة على حالات يتسبب فيها الأذى بالكلمات وتنطوي على تفسير، وقد تكمن وراء القوانين (على سبيل المثال حتى لو علمنا أن حالات القذف الواضحة تكمن بقوة داخل فعل الضرر)، وهذه هي طريقة سينيكا في إقرار تفسير المتلقي كمحدد واقعي عمَّ إذا كان الضرر قد أصاب الكل.

وفي مناقشة كلمة الضرر(٢٦١) التي تحتشد في النصف الأول من العمل (٥, ٣

(•) وهو أول القوانين الرومانية المكتوبة، وقد كُتبت هذه القوانين على اثني عشر لوحًا مثبتة على منصة المتحدث في المحكمة الرومانية، حيث كانت تدور مناقشة الأمور المهمة. وقد كانت هذه القوانين الأسس التي تقوم عليها الحقوق الخاصة للمواطن الروماني. ومع وجود خلاف حول وجود وزمن هذا القانون إلا أن معظم الباحثين يعتبرون تاريخ صدوره في سنة ٤٤٩-٤٥٠ ق.م. واعتبر الرومان قانون الألواح الاثني عشر قانونهم المدني، ويقصد بذلك قانون المدينة في نطاق القانون العام والخاص، وقد جاء هذا القانون من أجل كسر احتكار رجال الدين للقانون، وكذلك للسعي في مساواة الطبقة العامة بالأشراف. كانت الشكلية هي السمة الرئيسة في إجراءات الدعاوي في القانون الروماني. مما يترتب عليه أن أي خطأ حتى ولو كان لفظيًّا قد يؤدي بالشخص لضياع حقه في تقديم الدعوى. ولأن هذه الألفاظ كانت غير معروفة للجميع باستثناء رجال الدين، فقد جاءت هذه الألواح لتعلن كافة الألفاظ على الملأ.

(٢٦٠) الإهانة *contumelia* غالبًا مظلمة في فعل الضرر. انظر المناقشة العامة *Riggsby 2010, 191–94; also, OCD s.v. "iniuria and defamation"*، حيث تُظهر مناقشة سينيكا بعض حدود التقعيد القانوني والحجج الفقهية (*e.g., 5.3, 7.3–6*).

(٢٦١) كان من الممكن ترجمة كلمة الضرر *iniuria* بكلمة الخطأ كما فعل روبرت كاستر *Robert Kaster* في ترجمته لرسالة عن الغضب *On Anger*، وفي السياق الحالي استعملت كلمة الضرر حتى أحافظ على تباينها مع كلمة الإهانة، فالأولى مادية والثانية شفوية، وهذا أمر أساسي لتقسيم لعمل، ولتوكيد حقيقة أن سينيكا غالبًا ما يضع تمثلات باعتداءات جسدية (*e.g., 1.1, 3.5, 16.2*)، ولكن علينا الحذر؛ حيث إن الضرر في اللغة الإنجليزية يفترض السلوك غير القانوني والمعاملة غير العادلة والظلم.

-٩ , ٥)، يتناول سينيكا مباشرة كيف يمكن للمرء أن يقوم بالضرر، ومن ثم لا يتلقاه الحكيم- شيء ما كما يفترض رد فعل سيرنيوس الشكي، والذي يبدو بالقدر نفسه بديهيًّا في اللاتينية كما في اللغة الإنجليزية، ويعيننا أحد الافتراضات الأوسع نطاقًا في فهم أن الضرر يتعلق بالجسد وأمور أخرى لا علاقة لها بأمان العقل، وعززت هذه الفكرة بمجموعة من حجج القياس المنطقي(٥ ,٣-٥، ٨ , ١-٢) وتسعى جميعها إلى فصل قصد الأداة عن نتيجة الفعل[٢٦٢]، والقصدية يمكن أن يتجاهلها الحكيم الذي يتجاوز أفعال المخطئين كما لو كانت أحداث مصادفة لا أهمية لها(٨ , ٢-٩ , ١)، وتُنقل المناقشة للحياة بمثال تاريخي هو ستابليو الميجاري *Stilpo of Megara* *(ca. 360–280 bce; 5.6–6.7* الذي يعرض ما يعنيه التمييز بين العقل الراسخ *wellfounded mind* (٦ , ٤) وأسس مدينته المحطمة التابعة للحظ.

والموضوع الثاني هو الإهانة، وعرض بموسوعية أكثر من الموضوع الأول وهو الضرر (١٠ , ١-١٨ , ٦)، وقد تصنف الإهانة باعتبارها شكلًا أقل أو يقل واقعيًّا عن الضرر (١٠ , ٢، ١٦ , ٣)، ومن ثم تلقى الإهانة معالجة حساسة في حد ذاتها بتركيز سينيكا على مسألة غامضة للغاية في تفسير كلام الناس[٢٦٣]، وإن المظهر النفسي الذي يحمل المرء على تقبل الإهانة (١٠ , ٣) يعكس عظمة عقل الحكيم (١١ , ١)، وتحليل الإهانة باعتبارها مستمدة من الاحتقار *contemptus* يقدم اعتبارات للحالة النسبية للطرفين، وهذا يسمح لسينيكا أن يرفض الأسباب المختلفة للإهانات التي يتلقاها نخبة الرومان من الأدنى منهم اجتماعيًّا (على سبيل المثال ١٠ , ٢)، باستثناء هذا السمو الحقيقي وهو الأخلاقي وليس الاجتماعي، حيث إن حالة المرء مثل أن يكون ملكا لميداس (١٣ , ٣) لا تعني شيئًا في نظر الحكيم، والمثال الممتد الذي يُختتم به شرح كلمة الإهانة يركز على اغتيال جايوس قيصر (كاليجولا)، وكلاهما

---

(٢٦٢) تختلف حجج القياس المنطقي هنا عن اللعبة المنطقية التي ينتقدها سينيكا في مكان آخر (*e.g., Letter 49.5–6*) كما لاحظ *Barnes 1997, 18 n. 19. See also Cooper 2006*.

(٢٦٣) وضع رولر مناقشة سينيكا في سياق اجتماعي *Roller 2001, 146–54, esp. 151 n. 32*.

مستعمل نهم للإهانات ومفسر معاد لهم (١٨ , ١-٥).

ويعيد سينيكا في مختتم الرسالة الموضوع، حيث إن ما يتناوله بالفعل هو التحرر العقلي، ويفترض استبدال الحرية السياسية بالاستقلالية الباطنة المتجذرة في العقل، والحقيقة أن سينيكا يشير الآن إلى قرائه المعاصرين الذين يعيشون في ظروف المبدأ "أولئك الذين ليسوا كاملين... ينبغء أن يضعوا في حالة تأهب، وتعيش نفوسهم بين الأضرار والإهانات" (١٩ , ٣)، وفي الجملة الختامية لهذا العمل أيضًا يشير سينيكا باستبدال العمل العام بآخر حيث استبدال الحرية السياسية التقليدية بفكرة كونية لمجتمع العقل الذي يشارك فيه البشر والآلهة على حد سواء.

الصمود والحكماء:

رغم ما قيل أعلاه، فإن العنوان الذي أُضيف لاحقًا «عن صمود الحكيم» يُعيننا على إدراك الخيط الرئيس للعمل، يستخدم سينيكا في كل مكان كلمة صمود *constantia* ليصف ثبات السلوك من يوم إلى آخر، أو المثابرة على ما يقره المرء أو يحكم عليه دون أن يعطي مبررًا (على سبيل المثال *Letters 55.5, 92.3, 120.19–22*)[٢٦٤]، وفي هذا العمل توكيد بعينه على سمتين للحكيم يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بمفهوم الصمود وتماثله مع الاصطلاح اليوناني كارتيريا *karteria*، السمة الأولى التحمل *patientia (2.2)* التي ترتبط في حالة الحكيم بالسمة الأخرى وهي رسوخ العقل *magnitudo animi* أو *magnanimita* وباليونانية *megalopsuchia (1.11)*[٢٦٥]، ووضحت هذه المفاهيم من خلال نموذجين مجازيين رئيسين، أحدهما الصلابة وهو في اللاتينية *duritia* أو *robur* وكلاهما يصور حصانة الحكيم وأثره الديناميكي الهزيل على أولئك الذين يهاجمونه، والآخر هو التقييم الرأسي الذي يجمع الاستعارات المكانية المختلفة مثل صعود الفضيلة والارتفاع فوق الحظ والخروج عن متناول المقذوف

---

(٢٦٤) عن نثر سينيكا ودرامته في رسالة صمود الحكيم انظر *Star 2006*.

(٢٦٥) عن الصمود وارتباطه بالصبر والعقل الراسخ انظر *Viansino 1988, 66*.

وتأمل الآخرين من نقطة مراقبة هادئة والقرب من الرب، ويتجه الموضوع إلى التحول الأسلوب 'الرفيع' في نثر سينيكا (على سبيل المثال ٩ , ٤).

وقد أعانت صورة الحصانة أكثر بتركيز سينيكا على الحكيم بما هو، حيث لا يتعلق العمل بالثوابت المجردة بل "التأمل المعقد على طبيعة العقلانية الرواقية"[٢٦٦]، وقد تجسد كلاهما في كاتو وستيلبو، وكما رأينا على خلفية النماذج الشعبية (*Hercules, Ulysses, 2.1*) والتعريفات الفلسفية المجردة، ورغم أن سينيكا يقدم حقًّا ممنوحًا لقارئه وهو يركز على نقطة واحدة ليست هي الحكيم ١٦ , ٣ بل المستقيم *consipiens*، والجملة الأخيرة في العمل بمثابة تذكير بالإمكانيات الجدلية التي تأتي من معرفة وجود الحكيم في زمن ما[٢٦٧].

إن صورة سينيكا للحكيم الرواقي في هذا العمل ذكورية للغاية، وقد ظهر هذا في الجملة الأول حيث الاختلاف بين الرواقيين والفلاسفة الآخرين في مسألة الجنس(١ , ١)، وتجدر الإشارة إلى أن التوكيد على الرجل لكونه راشدًا، ويصف سينيكا الأطفال الخائفين بالظلال والأشياء الوهمية الأخرى باعتبار هذا مقارنة لكيف يقاد الناس بمجرد (فكرة الألم)؛ ليدركوا أن الإهانة مثل الضرر(٥ , ٢)، وهذا الوصف به تلميح إلى لوكريتوس (*On the Nature of Things 2.55–58*) أو كهف أفلاطون، ويعزز هذا فهمنا لمسار الإنسان في الفلسفة الرواقية باعتبار أن تقدم البلوغ محدد بكمال طبيعتنا العقلية.

إن سيرينوس ومفارقات الحياة الرومانية العامة في السعي لتقديم خطابه كمسار نحو تحمل الأضرار والإهانات اليومية للمجتمع الراقي، فهذا العمل به قواسم مشتركة برسالة سينيكا "عن الغضب" والمخاطب نوفاتوس *Novatus*، ويناقش العملان

---

(٢٦٦) *Wright 1974, 59* العنوان المختصر المناسب بل المضلل لرسالة عن الصمود ربما يدين بشيء لتبني جوستاس ليبسوس لعنوان سينيكا لعمله الرواقي الجديد *De Constantia* (١٥٨٤، ويعتمد عمل ليبسوس على مجموعة متنوعة من أعمال سينيكا وليس هذا العمل وحده.

(٢٦٧) لمزيد عن مكانة الحكيم عند سينيكا انظر *Inwood 2005, 295–96*.

رفض الانتقام والتوكيد على رسوخ العقل، وكلاهما أيضًا يعتمد على حكم كاليجولا ليبين أطراف الضرر المفترض والمزايا المتكافئة لضبط النفس.

كان أنايوس سيرينوس صديقًا لسينيكا، أو كما يفترض اسم عائلته أنه قريب لها، وكان موقفة خلال حكم نيرون إن لم يكن في عهود الأباطرة السابقين مضللًا لسينيكا، ومعظم الباحثين أرادوا أن يؤرخوا رسالة صمود الحكيم بأنها في منتصف الخمسينيات وسابقة على رسالة سكينة العقل، والمخاطب فيها سيرينوس أيضًا، وهي سابقة على رسالة عن التفرغ والمخاطب فيها هو أيضًا[٢٦٨]، ومنطقهم في رسالة سكينة العقل وعن التفرغ هي أن سيرينوس يتحدث عن موقف معظم الرواقيين، في حين يشير سيرينوس في هذا العمل إلى دعاوى الرواقيين المشكوك فيها(٣ , ٢)، حتى لو كان من المحتمل ألَّا يُنظر إليه باعتباره واحدًا من الأبيقوريين الذين يشير إليهم سينيكا لاحقًا في الرسالة (١٥ , ٤-١٦ , ١)، ويقينًا فالصور المتباينة لسيرينوس تدعونا إلى أن نتأمل أنه تحول إلى الرواقية- وهو الشيء الفعلي الذي يمزح به هنا(٣ , ٢).

وقد يدفع سخط سيرينوس إلى حد كبير باستعمال الرواقيين للمتناقضات التي يصفها بالأمثلة المضادة في ٣ , ١، والحقيقة أن معظم المفارقات التي ذكرها سيرينوس هنا قد وثقت في مكان آخر في التراث الرواقي[٢٦٩] بما فيها التصور الرئيس لهذه الرسالة، ويشير بلوتارخ على سبيل المثال إلى دعوى خريسبوس بأن «الحكيم لا يُظلم *adikeisthai*»[٢٧٠].

---

(٢٦٨) إن معيار التاريخ الوحيد المؤكد الذي ذكره فاليريوس أسياتيكوس بعد وفاته في ١٨ , ١ الذي يضع العمل لزمن لاحق على ٤٧ م، وهو العام الذي انتحر فيه فاليريوس في حكم كلاديوس *(Tacitus Annals 11.3.2)*، وحول سيرينوس والتسلسل الزمني للعمل المرتبط به انظر تذكر سينيكا لموته في *Letter 63.14–15* ومناقشة جريفين *discussion see Griffin 1992, 316–17, 354, 396, 399, 447–48; Williams 2003, 12–15; also Grimal 1953, 13–17, 19*.

(٢٦٩) وعن التراث انظر *Lee 1953*، وارتباط المتناقضات في عزاء إلى هلفيا لسينيكا التي أظهرها *Williams 2006*.

(٢٧٠) انظر بلوتارخ عن المتناقضات الرواقية في ١٠٤٤a، ولهذه الشذرة والشذرات الأخرى التي احتفظت بهذه المتناقضات بما فيها *(including Seneca On Benefits 2.35.2), see SVF 3:567–81*، وتشمل الاصطلاحات اليونانية المختلفة الظلم *adikia* والضرر *blabê* والقذف *diabolê* والمعاملة القاسية أو القسوة *hubris*.

إن ما يزعج سيرينوس هو أن المفارقات الرواقية غالبًا ما تشوه بالواقع، فكاتو تعرَّض لسوء المعاملة وبُصق عليه رغم أنه حكيمًا، ويرد سينيكا بأن مناخ الجمهورية المتأخرة لا يزيد عن كونه مسممًا، ومثال ذلك كاليجولا في نهاية العمل حيث انتقلت أجواء الجمعية الشعبية الكونتيو *contio* من المنتدى إلى غرفة الطعام الإمبراطوري(١٨ , ٢) وهي تقدم أطباقًا جديدة من الإذلال، والأحرى أن رده هو توضيح حيث إن حججه التحليلية مثل غزواته في التهكم تهدف إلى إلقاء الضوء على القيم المضللة وترابطات الحياة الاجتماعية الرومانية، وليس هناك مفارقة على الإطلاق في عملية الكشف عن المفارقة المركزية، ويسعى سينيكا بدوره إلى الكشف عن التناقضات الأسوء والأصيلة (إن لم تكن مفارقات فنية) في كيفية تقدير الناس لما لا قيمة له.

إن أمثلة ستيلبو وكاليجولا التاريخية التي يلجأ إليها سيرينوس يبرهن بها أن المفارقات خاطئة، ورغم أن ستيلبو ذاته ينتمي إلى المدرسة الميغارية، وأعماله يمكن أن تؤخذ بعموميتها باعتبارها دليلًا على الثقة بالنفس *autarkeia*، فإن مثاله هنا(٥ , ٦ -٦ , ٧) يجسد المفارقة الرواقية من خلال خروج المغزى على القمة مثل الفاتح.

ومثال كاليجولا (١٨ , ١-٥) يقدم نوعًا خاصًّا من الدفاع، يستند إلى بنية تاريخ جوليو كلاوديان[٢٧١]، وسوف تقودنا حجة سينيكا في العمل إلى توقع أنه حين أهان كاليجولا فاليريوس أسياتيكوس *Valerius Asiaticus* فإن عظم عقل فاليريوس سمح له أن يرتفع على الإهانة ويعيش في سكينة (١٨ , ٢)، ومن المستغرب أن سينيكا لم يطنبْ كثيرًا في رد فاليريوس إلا بقدر ما يعطي انطباعًا بأن فاليريوس تخلى عن الإهانة، وهو يبالغ بإعادة سرد التاريخ ووضع إهانة فاليريوس بجانب اغتيال كاليجولا بقيادة جاسيوس شايريا *Chaerea* (١٨ , ٣)، ويبدو أن أحدهما عقابٌ للأُخرى[٢٧٢]، وهذا يحول القصة نحو أيضًا دعوى أن مرتكب الضرر سوف يقابل غريمه عاجلًا أو آجلًا،

(٢٧١) وحول مثال كاليجولا انظر *Wilcox 2008, 466–72; Wright 1974, 63*.

(٢٧٢) كما لاحظ *Matthew Roller has noted (2001, 161–62*

حيث يخرج شخص ما ينتقم لك أيضًا (١٧ , ٤، وراجع ١٨ , ٥)، ولكن سينيكا لا يؤيد الانتقام بشكل صريح، وسرعان ما يؤكد أن كاليجولا باغتياله قد أصاب نفسه حيث ميله المرضي؛ ليرى الإهانات أينما حل والرد بقسوة (١٨ , ٤–٥)، لذا رغم أن مثال كاليجولا يبدأ بتوضيح كيف أن كبح الرجل –فاليريوس– قد قيده إلا أنه يوضح على نحو مكافئ كيف أن الرجل غير المقيد –كاليجولا– قد سمح لنفسه أن يهان بما يقوله الناس الذين سيقابلهم بعقوبة إيذاء النفس– وهذا ما يعضد من الدرس الرئيس للعمل، ومن الهين أن نشك أن سينيكا نفسه قد استحل اغتيال كاليجولا تبرئةً لنفسه، وأما الآخرون الذين تعرضوا لسوء معاملة كاليجولا في حين أنهم أظهروا ضبط النفس، وهو يفعل هذا هنا بطريقة تسمح له أن يبقى معارضًا لفعل الانتقام، بينما يجد ارتياحًا في نتائجه [٢٧٣].

(٢٧٣) يلاحظ جريفين *Griffin 1992* "ربما كان مثال كلاوديوس هنا إشارة معاملة سينيكا المهينة ودوره المجهول عام ٤١، ولكن سينيكا لا يخرج عن طريقه لتنويرنا بذكر السير.

١-١ ليس عدلًا من جانبي يا سيرينوس *Serenus* أن أقول إن هناك تباينًا كبيرًا بين الرواقيين وبقية الذين يطلبون الحكمة ويفرقون بها بين الإناث والذكور، وكلاهما يسهم في الحياة المجتمعية بمقدار متساوٍ، ولكن وُلد أحدهما ليمتثل والآخر ليأمر، ويمنح الحكماء علاجًا لطيفًا ومعتدلًا كالأطباء حين يصاحبون المرضى الذين يعالجون أجسادهم أو حين يترددون على منزلهم نفسه، وهم لا يعاملوهم بطريقة جدية فضلى إلا بقدر ما يسمحون، وقد سار الرواقيون على مسار الإنسان، ولم تهتم الرواقية بأن تكون ماتعةً لمَن يدخل عليها، وبالأحرى اهتمت بالطريق الذي قد يكشف لنا بقدر الممكن، وترشدنا إلى ربوة عالية ترتفع بعيدًا عن متناول مقذوف الحظ.

١-٢ "ولكن الطريق الذي نطلبه وعر وشاق، هل هذا حقًّا؟ وهل يمكن الوصول للأعالي بطريق مُعبد؟ ليس الطريق وعرًا كما يعتقد بعض الناس، والجزء الأول منه فيه صخور ومنحدرات ويبدو مستحيلًا، فهو كما نطالع الأشياء من بعيد تبدو مكسورة، أو تتداخل حيث يخدعنا نظرنا بسبب المسافة، ولكن حين نقترب تتكوم أخطاء أعيننا وتتلاشى تدريجيًّا، وخلف هذه النقطة تبدو الأشياء البعيدة وعرة وقد تنخفض إلى ميل هين.

١-٣ وحين ذكر حدث قد فعله ماركوس كاتو[٢٧٤] في الآونة الأخيرة، أعربتَ عن الغضب (كما أنك لا تتسامح مع الظلم)، وأن عصر كاتو لم تقدره تمامًا

(٢٧٤) كاتو الأصغر (٩٥-٤٦ق.م)، ولذكر كاتو عند سينيكا انظر هامش *On Providence 2.9*.

رغم أنه تجاوز بومبي والقيصر، وصنفه عصره أدنى من أمثال فاتينيوس *Vatinius* [٢٧٥] ويبدو لك كاتو فاحشًا حين كان يستعد لمعارضة القانون، ومزق تاجه *toga* في المحكمة، وكان مدفوعًا بأيدي عصبة محرضين على طول الخط بداية من روسترا حتى قنطرة فابيان *Fabian arch*، وقد تحمل الإساءات اللفظية والبصق وكل الشتائم الأخرى من الحشد المسعور.

١-٤ وفي الوقت نفسه أجبت أنه لديك سببٌ لتنزعج نيابة عن الجمهورية التي طرحها بوبليوس كلوديوس للبيع من ناحية *Publius Clodius*[٢٧٦]، وفاتينيوس والشامتون من ناحية أخرى، وهؤلاء الرجال نكصوا على عقبيهم برغبة عمياء؛ لأنهم لم يدركوا أنهم حين كانوا يبيعون الجمهورية كانوا يعرضون أنفسهم للبيع أيضًا، وأما بالنسبة لكاتو فقد أخبرتك لم يكن قلقًا؛ لأنني قلت إن الحكيم لا يصيبه ضُرٌّ ولا إهانة، ولقد وهبتنا الأرباب الخالدة كاتو مثالًا قويًّا للرجل الحكيم كما منحت العصور السالفة أوليسوس *Ulysses* وهيروكليس *Hercules*، ورفقاؤنا الرواقيون كانوا حكماء لم يهزمهم الكد، ولم تزعجهم اللذة، وانتصروا على كل صنوف الخوف[٢٧٧].

٢-٢ ولم يمض كاتو من جنب إلى آخر يصارع الوحوش التي يتتبعها الصيادون وسكان البلدة، ولم يطارد المسوخ بالنار والحديد، ولم يحدث أن عاش في زمن يعتقد فيه أن السماء ترتكز على كتفي رجل بعينه، وقد تخلخلت تمامًا عفوية السالفين الآن، وانتهى بنا الزمن إلى آفاق جديدة من الدهاء، وقاتل

---

(٢٧٥) هزم فاتينيوس *P. Vatinius* كاتو في انتخاب البرايتور عام ٥٥، وهذا ما يدور في عقل سيرينوس كما هو واضح في ٢, ٣ أدناه وفي *On Providence 3.14; Letters 118.4*).

(٢٧٦) كلاوديوس بولشر *P. Clodius Pulcher d. 52* هو أحد خصوم شيشرون، وأصبح رمزًا للفساد السياسي، وعنف الرعاع في الخمسينيات.

(٢٧٧) يقدم سينيكا هيروكليس مثالًا أخلاقيًّا بجانب ريجولوس وكاتو في رسالة سكينة العقل *On Tranquility of Mind* ١٦, ٤ وهو موجود في كل التراجيديات، ويظهر مثالًا عرضيًّا في أوليسوس (أوديسيوس) وخاصة في *Letters (e.g., 88.7*.

كاتو ضد الطموح، والفحش الذي جاء بأشكال عدة، والشهوة غير المقيدة للسلطة التي قسمت العالم كله إلى ثلاثة، ولم تكن مرضية[٢٧٨]، ووقف وحيدًا ضد رذائل مدينة مُنحلة تهتز تحت ثقلها، وظل قابضًا على الجمهورية الساقطة كما لو كان يمكن عودتها بيد واحدة فحسب، وفي نهاية المطاف فقد قبضته وقدم نفسه كرفيق للفساد الذي ماطله طويلًا، وقد أخمد اثنين منهم معًا، (وكان بالمقدور أن تحدث إهانة لا يمكن تصورها لفصلهما)؛ لأن كاتو لم ينتهك الحرية ولم تنتهك الحرية كاتو.

٢-١ هل تعتقد أنه قد يصيب هذا الرجل ضرٌّ من قبل الناس، لأنهم أخذوا الحكم أو تاجه أو لأنهم شوهوا هذا الزعيم المقدس بوسخ أفواههم؟ إن الرجل الحكيم سالم غانم، ولا يتأثر بأذى أو بإهانة.

٣-١ ويبدو لي أنني أرى عقلك يشتاط ويغلي، وأنت على وشك البكاء، «وهذه تأخذ النفوذ بعيدًا عن تعاليم مدرستك، أنت مَن وعدت الناس فوق ما يتمنون، فدعهم يعتقدون فحسب[٢٧٩]، ومن ثم على بيانك بعد قول إن الحكيم ليس فقيرًا ولا مجنونًا، ولا تنكر أنه يفتقر عادة للعبد المأوى والطعام، ولا تنكر أنه يرحل عن نفسه ويتلفظ بكلمات التعقل القليلة، ويجرؤ على الفعل مهما كانت تجبره قوة مرضه على القيام به[٢٨٠]، وبعد قول إن الحكيم ليس عبدًا، فلا تنازع أنك سوف تطرحه للبيع، وأنك ستفعل ما تُؤمر وستؤدي واجب العبودية لسيدك، ولذا حين شنفت أنفك في الهواء نزلت لنفس مستوى الآخرين وهم يغيرون بسذاجة أسماء الأشياء.

٣-٢ أظن أن هناك شيئًا مماثلًا في هذا، حيث يبدو للوهلة الأولى جميلًا وعظيمًا،

---

(٢٧٨) على سبيل المثال الحكومة الثلاثية الأولى في الخمسينيات بالسلطة المشتركة بين قيصر وبومبي وكراسوس.

(٢٧٩) حول مفارقات الرواقية انظر مقدمتي للرسالة.

(٢٨٠) ربما يشير الموقف إلى مرور الحكيم بفقد مؤقت للاعتدال وسلامة العقل، كما هو الحال في سكر كاتو في رسالة سكينة العقل *On Tranquility of Mind 17.4*، وحول السكر انظر *Letters 83.9–27*.

فالحكيم لا يتلقى إساءة ولا إهانة، وما يصنع الفارق الكبير إذا ما كنت تضع الحكيم وراء الإساءة أو الإهانة، وإن قلت إنه سيتحملها بعقل هادئ فليس هذا وضعًا خاصًّا، فإنه يمتلك شيئًا مشتركًا ولا يمكن تعلمه إلا بالتعرض للإساءة بشكل متكرر، أعني يتحمله، وإن قلت لا يتلقى إساءة فإنه يحاول ألا تصيبه، وأنا أتخلى عن كل ما يشغلني وأصير رواقيًّا!

٣-٣ حقًّا، ليس قصدي أن أُزين الحكيم بتأليف كلمات شرف وهمية، بل حتى أضعه موضعًا لا يُساء له فيه، «ماذا؟ لن يوجد أحد يتحداه، فمَن الذي يحكم عليه؟»، ولا شيء مقدس في طبيعة العالم لا يواجه انتهاكًا لقدسيته، ولكن الأمور الربانية لا يقل سموها لأنها موجودة في هؤلاء، مع أنهم لن يلمسوا العظمة التي تقبع خلفها رغم أنها تهاجمها، وليس الشيء المضروب هو المحزن ولكن الذي لم يضر، وهذا ما يميز الحكيم الذي أقدمه لك.

٣-٤ من المؤكد أنه ليس هناك خلافٌ على أن الثبات يزيد اليقين إن لم يكن مهزومًا وبالحري ليس متحديًا، فالقوة التي لا تُختبر تفتح باب الشك، في حين يحكم على صمود اليقين بصد كل هجوم؟ وبنفس الطريقة ينبغي أن تعرف أن الطبيعة الفضلى للحكيم إن لم يصبه إساءة أحرى من أن تصيبه على نحو رديءٍ، وأقول إن الرجل الشجاع الذي لا تهزمه الحروب، والذي لا يشعر بالخوف من اقتراب قوة العدو، وليس مَن يعيش مستسلمًا للقدر بين أناسٍ خاملين.

٣-٥ ومع هذا أقول إن الحكيم ليس عرضة للإساءة، ولذا لا يهم كم القذائف التي يُلقى بها؛ لأن لا شيء يمكن أن يخترقه، كما لا يمكن خرق الصخور الصلبة بالحديد، ولا يمكن قطعها أو سحقها أو طحنها، بل يتكسر حد الأشياء التي ترطمها، كما أن هناك أشياء بعينها لا يمكن استهلاكها بالنار، حتى حين نوقد النار عليها تحتفظ بمتانتها وشكلها، كما أن صخور بعينها تبرز وتخرق البحر

ولا يظهر أي أثر لوعورتها رغم تعرضها للانتهاك على مر العصور، وعقل الحكيم مثل هذه الصلابة، وقد اكتسب مثل هذه القوة التي تأمن الخلل مثل الأشياء التي رويتها.

٤-١ «وماذا؟ وهل هناك امرؤ يحاول أن يؤذي الحكيم؟ إنه يحاول، ولكن الأذى لن يصل إليه، والحكيم ينأى عن الاتصال بالأشياء الدنيئة حتى لا يحمل قوتها المؤذية على طول الطريق، وحتى حين يسعى الأقوياء ليلحقوا به ضررا يرأفون بقوتهم ويحتفظون بها، وهجومهم سوف يسقط كل شيء إلا الحكمة كأشياء تطلق من قلوع وأقواس حتى لو طارت بعيدًا عمَّا تراه العين ترتد ساقطة قبل أن تصل إلى السماء.

٤-٢ وماذا؟ هل تفكر في الحادثة حين أظلم الملك الأحمق النهار بقذائف كثيرة أي ما يشبه السهم يصيب به الشمس أو لمس الإله نيبتون *Neptune* برمي السلاسل في قاع البحر[٢٨١]؟ وكما أن الأجرام السماوية تملص أيادي البشر، وكما أن الذين يهدمون المعابد ويحطمون التماثيل لا يضرون الألوهية بشيء، فكذلك لا يهم الشيء المخزي والأرعن والمتغطرس الذي يُفعل ضد الحكيم، فالمحاولة عابثة.

٤-٣ ومن ثم كان من الأفضل ألَّا يرغب في فعل هذا"، أنت تتمنى شيئًا صعبًا لجنس البشر، وهو البراءة، وعلاوة على هذا لا ينبغي أن يُفعل هذا في إطار مصلحة مَن يفعلونه ولا في إطار مَن يمكن أن يتحمل حتى لو قام به، وأظن أن السكينة وسط الضجيج تقدم عرضًا أفضل لقوة الحكمة، كما أن أعظم برهان لقوة الجنرال في العتاد والرجال أن يكون آمنًا ومتحررًا من القلق في أرض العدو.

(٢٨١) أعمال الملك زركسيس أثناء الحروب الفارسية

٥-١ ودعنا نميز يا سيرينوس بين الضرر والإهانة، فالأول خطره وخيم بطبيعته، والثاني خطره أخف، وخطره الوحيد على المدللين، فهم لا يضرون به بل يستاؤون منه، ولكن هذا ضعف وغرور عقول أناس تفكيرهم ليس مؤذيًا، وهكذا سوف ترى العبد الذي يُفضِّل أن يكون مجلودًا على أن يكون مربوط الأذنين، الذي يعتقد أن الموت والضرب مقبول على تحمل الإهانة بالكلمات.

٥-٢ لقد وصلنا إلى منتهى التفاهة، وهي ألَّا يكدرنا الألم بل التفكير فيه مثل الأطفال الذين يخافون الظل وأقنعة الأشباح، الذين ينهمرون في الدموع لسماع أسماء بغيضة وإيماءات أصابع وأشياء أخرى يحاولون الفرار منها؛ لجهلهم بها فتدفعهم للتفكير الخاطئ.

٥-٣ إن القصد من الأذى هو ما يلي، تأثر المرء بالسوء، ولكن الحكمة لم تدع موضعًا للسيئ، حيث إن الحكمة الوحيدة للسيئ هي الخجل، والذي لا يمكن أن يدخل حيث تكون الفضيلة والخير الأخلاقي، إذنْ لا يوجد أذى دون سوء ولا شيء سيئًا باستثناء ما يكون مخجلًا، ولا يصل الخجل لامرئ يرتبط بأمور الخير الأخلاقي، ولا يصل الأذى إلى الحكيم، وإذا كان الأذى معاناة منشئ سيئ فإن الحكيم لا يعاني منشأً سيئًا، ولا يتناسب الأذى مع الحكيم.

٥-٤ وكل أذى نقص فيمن يهاجم، ولا يتلقى أحدٌ أذى دون أن يضر بحاله أو بجسده أو الأشياء خارجه، ولكن الحكيم لا يخسر شيئًا؛ لأنه وضع كل الأشياء في نفسه، ولم يضع شيئًا في إدارة الحظ، وقد حاز خيرًا على أرض صلبة قوامه الفضيلة، وليس في حاجة إلى أشياء الحظ فلا يزيد ولا ينقص؛ لأن الأشياء وصلت في حالةٍ إلى أقصى مدى، ولا مكان للزيادة فيه، ولا ينتزع الحظ شيئًا إلَّا ما أعطاه، ولا يعطي الحظ فضيلة وبالتالي لا يأخذها، والفضيلة حرة لا تنتهك ولا تنمحي ولا تتذبذب، وبالتالي فهي عصية أمام أحداث الصدفة التي لا يمكن أن تلويها ناهيك عن هزيمتها، ويبقى نمطها ثابتًا وهي تتفرس مكائد

الزلل، سواء أجاءت من الشقاء أم من السعادة.

٥–٥ وهو لا يرغب؛ لأن ما يرغب فيه قد يفقده، إنه ملك الفضيلة فحسب ولا يستغني عنها، وأما الأشياء الأخرى التي يستعملها كما لو كانت على سبيل الإعارة؟ فمَن الذي يستاء مما ليس له؟ ولا يطول الأذى الأشياء التي يمتلكها الحكيم؛ لأن أشياءه آمنه بأمان الفضيلة، ومن ثم لا يصيب الحكيم أذى.

٥–٦ قبض ديمتريوس على ميجارا *Megara* الذي أطلق عليه بوليوركيتيس (مثال المدن)، وسأل الفيلسوف ستيلبو ديمتريوس عمَّ إذا كان قد فقد شيئًا؟ فقال: "لا شيء، كل أشيائي معي"[٢٨٢]. وقد نُهب مُلكه وسُبيت بناته، وهيمن العدو على وطنه، وقد جره الملك المزعوم لاستجوابه بالسلاح.

٥–٧ ومع ذلك انتزع ستيلبو انتصار الرجل منه بشهادة أنه رغم غزو مدينته إلَّا أنه لم يُهزم ولم يُهدم؛ لأنه ملك خيرًا حقًّا لا يدعيه، وأما الأشياء التي انتُزعت والتي تنتقل من يد إلى يد قد حكم بأنها ليست له، وبالأحرى هي أشياء تغدو وتروح في دعوة الحظ، ولذا كان يتمتع بها وكأنه لا يملكها؛ لأن تملك الأشياء التي تتدفق من الخارج ريبٌ وانزلاقٌ.

٦–١ والآن تأمل ما إذا كان اللص وسيئ السمعة والجار الوقح أو بعض الأثرياء الذين يصنعون أنفسهم ملوكًا على فاقة ستيلبو ويمكن أن يصيبوه، فلا يمكن أن تنتزع منه الحرب والعدو والخبير في السطو على الفنون الجميلة للمدن شيئًا!

٦–٢ ووسط وميض السيوف في كل مكان، وضجيج نهب الجنود، ووسط اللهيب والدم والمذابح التي اجتاحت المدينة، ووسط تحطم المعابد التي تسقط

(٢٨٢) ديمتريوس *Demetrius (336–283 bce* هو ابن أنتيجونس *Antigonus* ملك مقدونيا، وستيلبو *Stilpo (ca. 370–290 bce)* وهو ينتسب للمدرسة الميجارية التي بدأت بإقليدس الميجاري *Euclides of Megara* تلميذ سقراط، وتؤكد أخلاقياتهم من بين الأمور الأخرى رضى النفس.

على أربابها، رجل واحد هو الذي في سلام. وليس من سبب لديك لتعتقد أن وعدي مغامرة، ورغم أنك لا تثق تمامًا فيَّ، فإني أضمن أن أعطيك، ولأنك قد تشك في أن هذا حمل ثقيل أو هذه عظمة للعقل، إلا أنه يمكن أن يكون حاضرًا في الإنسان، ولكن يصعد من بيننا أحد يقول(٢٨٣):

٦-٣ "ليس لديك سبب لترتاب من أن مَن يولد إنسانًا يمكن أن يرتقي بنفسه فوق الأمور الإنسانية، ويمكن أن ينظر دون قلق على الأحزان والفقدان والقروح والجروح والكوارث العظمى التي تحوط به، ويمكن أن يتحمل الشقاء بتؤدة ورضى، ولا يحن لما مضى ولا يستند على ما يأتى، والأحرى أن يُبقي الذات وسط الأحداث الشتى، ولا يفكر في شيء إلا نفسه.

٦-٤ وانظر لقد حضرتُ؛ لأبرهن لك أن تحت هذا الأمر المدمر لكثير من المدن الحصينة التي تهتز بضربة ساحقة، وأن الأبراج الشاهقة قد تقوضها الأنفاق والخنادق السرية فتسقط فجأة، وكذلك التل الذي يرتفع ويضاهي طوله القلاع، لا يُعثر على آلة يمكن أن تزعزع العقل الراسخ.

٦-٥ وزحفت الآن من أنقاض بيتي، والنيران المستعرة من حولي، وهربت من النيران خلال سيول من الدم، ولا أعلم إن كان قدر بناتث أسوأ من القدر العام أم لا، والعجوز وأنا وأرى العدو حولي فقط، ولم أعلن أن ممتلكاتي سليمة ولم تضر، فما هو لي هو لي، فأنا أملك وأُبقي لنفسي.

٦-٦ لا تعتقد أنني مَغزى وأنت الفاتح، وأن حظك غزا حظي، وأما أماكن هذه الأشياء العابرة التي يغيرها السادة لا أعلمه، وأما أشيائي التي تهمني فهي معي وستظل معي.

٦-٧ وقد فقد أدعياء الثروة ممتلكاتهم، وفقد الشهوانيون عشيقاتهم وعاهراتهم

---

(٢٨٣) لا يزال ستيلبو.

المفضلات بعد أن أنفقوا في العار تكلفة كبيرة، وقد فقد الطَّمَوحَ مقعده في مجلس الشيوخ والمحكمة والأماكن المحددة لممارسة الرذيلة في الأماكن العامة، وقد فقد المقرضون دفاترهم في بخل يهلوس ببهجة في الثروة، أما بالنسبة لي فقد ملكت كل شيء كامل وغير منقوص، فامض واسأل هؤلاء الذين يبكون ويرثون، والذين يلقون أجسادهم العارية أمام السيوف المسلولة دفاعًا عن أموالهم، والذين يفرون من العدو ويجرون جعابهم بوزنها الثقيل.

٦–٨ هذا هو الطريق يا سيرينوس؛ عليك أن تفهم كيف أن الإنسان الكامل وكمال الفضائل البشرية والإلهية لا تعاني فقْد شيء، وأن بضاعتهم بحصون صلبة لا يمكن اقتحامها، ولا يمكن أن تقارن هذه الحصون بحصون بابل التي دخلها الإسكندر، وليست هي حصون قرطاجة أو نيمانتيا *Numantia* التي غزاها بيد واحدة، وليست هي القلعة أو الكابتول الروماني، وتلك التي تحمل آثار العدو، وهذه الحصون تحمي الحكيم وتأمنه من اللهب والتسلل، ولا تتخلل فيه سبيلًا؛ لأنها شامخة وليست عرضة للعواصف، وتتساوى مع الأرباب.

٧–١ لا يمكن أن تقول –كما تفعل غالبًا– إن حكيمنا هذا لا يوجد في أين، نحن لا نصنع مثالًا فارغًا لطبيعة البشر أو نبتدع صورة ضخمة لشيء كاذب، والأحرى أننا أنتجنا وسوف ننتج واحدًا كما صممنا، ربما يندر وجوده حتى بعد فترات زمنية كبيرة، إلا أن الأشياء العظيمة تتجاوز التدبير الشائع والعادي وقد لا تُولد غالبًا، وأشعر بالهلع من الاعتقاد بأن ماركوس كاتو من الذين يضاهون هذا الحكيم وربما يتجاوز نموذجنا.

٧–٢ وفي نهاية المطاف فإن الأشياء الضارة أقوى من الأشياء التي يُلحق بها الضرر، وليس الأذى أقوى من الفضيلة، ولذا الحكيم لا يُضر، وليس الأذى محاولة ضد الخير باستثناء ما يأتي من قبل الأشرار، فالأخيار فيما بينهم في سلام، في حين يحقد الأشرار على الأخيار كما يفعلون فيما بينهم، ولكن

إذا كان الأضعف بمقدوره الضرر والمرء السيئ أضعف من الخير، والشيء الخير لا يخشى الضرر إلا من امرئ لا يكافئه، لذا فإن الحكيم لا يمسه أذى، وأنت لست في حاجة لأذكرك بأن لا أحد خيِّرًا سوى الحكيم.

٧-٣ وهو يقول: "إذا كان سقراط قد أُدين ظلمًا وقد تلقى الأذى"، نحن بحاجة إلى أن نفهم أن هذه الحالة يمكن أن تكون لشخص قد أصابني بضرر ولم أتلقَّه، كما هو الحال حين يضع امرؤ شيئًا في منزل بمدينتي وقد أخذ من وطني خلسة قصرًا، لقد ارتكب السرقة ولكنني لم أفقد شيئًا.

٧-٤ بعض الناس يمكن أن يكون مضرًّا حتى لو لم يضر، وإن نام مع زوجته يفكر في أنها زوجة رجل آخر، وسيكون زانيًا ومع ذلك ليست هي زانية، وبعض الناس أعطاني سمًّا، ولكن السم فقد قوته حين اختلط بالطعام، وقد صنع من نفسه مجرمًا بتجرعي للسم حتى لو لم يضر، ولا يقل اللص عن كونه لصًّا إذا أعاق سلاحه حزام ملابسه، وفيما يتعلق بالذنب فإن كل الجرائم قد تكتمل حتى قبل نتيجة الفعل.

٧-٥ وأشياء بعينها بطبيعتها ترتبط معًا بنفس طريقة أن (أ) يمكن أن يكون من دون (ب)، ولكن (ب) لا يمكن أن يكون من دون (أ)، وسوف أحاول أن أوضح لك ما أعني، فبإمكاني أن أحرك قدمي دون أن أجري، ولكن لا يمكن أن أجري دون أن أحرك قدمي، وبإمكاني رغم وجودي في الماء لا أسبح، ولكن إذا سبحت فلا يمكن أن أكون إلَّا في الماء.

٧-٦ والشيء الذي نتعامل معه في إطار هذه المقولة أيضا، فإذا تلقيت ضررًا فبالضرورة قد فُعل، وإن فُعل فليس بالضرورة تم تلقيه، وكثير من الأشياء تحدث ونتفادى فيها الضرر، وقد تقرع بعض الأحداث الصدفة بعيدًا عن اليد الممدودة أو تحول القذائف التي تُطلق، وهكذا يمكن للشيء أن يصد الأضرار بغض النظر عن نوعها، ويمكن اعتراضها في منتصف الطريق،

ولذلك قد تُفعل الأضرار ولكن لا يتم تلقيها.

٨–١ وإضافة إلى هذا لا يمكن للعدالة أن تعاني ظُلمًا؛ لأن الأضداد لا تجتمع، والضرر لا يحدث إلا بشكل ظلم، ولذلك لا يمكن أن يحدث ضرر للحكيم ولا تتفاجئ إن لم يستطع أحدٌ ضرره[٢٨٤]،! والحقيقة أن الحكيم لا يفتقر إلى شيء حتى يتلقاه على أساس الهبة، وعلى حد سواء لا يقدم السيئ شيئًا يستحق للحكيم؛ لأنه يحتاج لما يمكن أن يُعطيه، وليس لديه شيء يُفرح الحكيم حين يُمرره عليه.

٨–٢ وليس بمقدور أحد أن يضر الحكيم أو ينفعه، حيث إن الأمور الربانية لا تحتاج إلى عون وليس بالمقدور الإضرار بها، ويوجد الحكيم كجار مجاور للأرباب، وهو شبيه بالرب إلا في أخلاقياته، وهو يكافح ساعيًا نحو الأمور السامية والمحكمة والجسورة التي تتدفق من مسار متساوٍ ومنسجم متحررٍ من القلق والنوع، وموجودٍ لأجل الخير العام، وصافٍ لنفسه وللآخرين، لا يرغب في الدنية، ولا يدمع على شيء.

٨–٣ مَن يعتمد على عقله ليدعمه ويدخل في أحداث البشر بعقل رباني، لا يمكن أن يتلقى أذى في أي أينٍ، هل تعتقد أنني أقصد الضرر من البشر فحسب؟ ولا حتى من الحظ، فحين يقبل الحظ للقتال مع الفضيلة فإنه لا يسير بعيدًا عن موازاتها، ولو تلقينا بعقل هادئ وصافٍ أكبر الأشياء على الإطلاق التي تتجاوز الأوامر الغاضبة وقسوة السادة، فلا شيء يهددنا يستعمل الحظ نفوذه فيه، وإذا علمنا أن الموت ليس أمرًا سيئًا، وهو هكذا ليس ضرًّا، فسوف نتسامح مع الأمور الأخرى مثل الفقد والحزن وتلوث السمعة وتغير المناخ ووفاة الأقارب والفُرقة، وهذه الأشياء لا تغمر الحكيم ولا تطوقه، وهو يقلل حزنه على انقضاضاتهم الفردية، وإذا تحمل أذى الحظ باعتدال، فكم سيزيد

(٢٨٤) مفارقة رواقية أخرى: "لا يتحرك الحكيم بالامتنان مطلقًا" *(cf. Cicero On Behalf of Murena 61)*.

ما يتحمله من البشر، وهو يعلم أنهم في أيادي الحظ!

٩-١ وهكذا يتحمل كل الأمور كما لو يتحمل شتاء مخدرًا وطقسًا رديئًا في السماوات، وكما يتحمل الحمى والأمراض والأمور الأخرى التي تحدث بالصدفة، ولا يضع في باله أحدًا يعتقد أنه فعل شيئًا عمدًا ضده، وهذا ما ينسب للحكيم وحده، وكل الناس الآخرين لا يتشاركون في الروية، بل في الخداع والخيانة والتغوطات غير الموافقة للعقل، وهو يعد هذا مجرد أعراض، بل كل أحداث الصدفة الغاضبة حولنا ساعية لأهداف لا قيمة لها.

٩-٢ وتأمل الآتي أيضًا، إن عدة الأضرار متوفرة بقدر كبير في الأشياء التي يسعى المرء بها لتعريضنا للخطر مثل المتهم الخفي والتهم الكاذبة أو أصحاب النفوذ الذين يثيرون الكراهية نحونا وأعمال اللصوصية بين المواطنين، والنوع الآخر من الضرر مألوف أيضًا، وإذا أكره المرء على غنيمة صادها أو منفعة في يديه أو إذا تحول الإرث المكتسب بعمل شاق أو إذا سُحبت النية الحسنة للإرادة لعمل أهل البيت، فإن الحكيم ينأى عن هذه الأشياء، وهو لا يعرف كيف يعيش بين أمل وخوف.

٩-٣ والآن أضف حقيقة أن لا أحد يتلقى ضررًا بفكر ساكن، ولكن قد يختل في إدراك الضرر، وأما المرء الذي يتخلص من الزلل ومَن يسيطر على نفسه والإنسان العميق ويتمتع بالسلام هو غير مضطرب، فإذا لمسه الضرر فإنه يمحيه ويدفعه، وأما الحكيم بلا غضب يتجلى بمظهر الضرر، ولا يمكن أن يكون بلا غضب إذا لم يكن دون ضر أيضًا وهو يعلم أنه لا يمكن أن يُجري عليه، وبهذه الطريقة ينعم بالسعادة والبهجة، وهي فرحة غير منقطعة، ولكن هو إلى حد بعيد متخلل في الجرائم التي تحدثها الأشياء والناس، والضرر ذاته فائدة له، يسمح به ليضع نفسه على المحك ويحاكم فضيلته.

٩-٤ دعونا نعرض صالحنا في هذا المشروع، وأتوسل لكم جميعًا دعونا نحضر

بآذان وعقول هادئة، بينما ينعزل الحكيم من الضرر، ولا شيء ينسحب بهذه الطريقة من رداءة طبعك ورغباتك النهمة أو تهورك الأعمى وغطرستك، فرذائلك قد تأمن بينما قد يتحصل الحكيم على هذه الحرية، وفعلنا لا يمنعك من ارتكاب الضرر، بل بالأحرى يُلقي كل الأضرار أسفل في الأعماق، ويدفع عن نفسه خلال التحمل وعظمة العقل.

٩-٥ وهكذا في الألعاب المقدسة معظم الناس يهزمون أعداءهم بتحملهم العنيد، وتأمل أن يكون الحكيم من هذا النوع، أي الذين يتحصلون على تدريب حاد ليتصدوا لكل قوة معادية ويطرحوه خارجًا.

١٠-١ وحيث إننا قد وصلنا إلى نهاية الجزء الأول، فدعونا ننتقل إلى الجزء الثاني، والذي سوف نناقش فيه الإهانة، وهو يعرض لحجج عامة بعينها[٢٨٥]، والإهانة أقل من الضرر، ونحن نشتكي منها أكثر مما نسعى إليها، ولا نوليها القوانين ما تستحق من العقاب.

١٠-٢ وقد تُستثار هذه العاطفة بوضاعة العقل الذي يفسد بسبب بعض كلمات أو أفعال مُحطة، "هذا الرجل لم يقبلني اليوم، ولكنه تقبل الآخرين"، "وعندما كنت أتحدث اعتزلني عن قصد أو سخر مني علنًا"، "لم يجلسني وسط الأريكة ولكن عند قدمه"، وأشياء أخرى من هذا القبيل[٢٨٦]، وماذا أُسمي هذا سوى أنها تماحيك عقل أصابه دوار؟ ومحظوظ ومفاخر مَن يجد نطقها عادة، فلا أحد يملك وقتًا لملاحظة هذه الأمور إن كان لديه أمور أسوأ يتعامل معها

١٠-٣ والعقول بطبيعتها في وقت الفراغ خاملة ومؤنثة ومتسكعة هنا وهناك في غياب الضرر الحقيقي، وبعضها يضطرب بهذه الأمور، ويرتد أغلب هذه الأمور لخطأ المفسر.

---

(٢٨٥) شائعة بين الإهانة والضرر على حد سواء.

(٢٨٦) إهانات فى تحية الصباح *salutation* وحفلة عشاء المساء *conuiuium*.

١٠-٣ ومَن يتأثر بالإهانة، لا يُبين في نفسه شعور طيب أو أي ثقة، لأنه يحكم دون لمحة شك ولا يُولي اهتمامًا، ولا يحدث هذا دون تصاغر بعينه في العقل يُضعف ذاته ويحط منها، والحكيم على النقيض يُولي اهتمامًا بأي أحد، فهو يعرف عظمته، ويعلم أن ليس لأحد سلطة عليه، وكل هذه الأشياء لا أُسميها شقاوات العقل بل بالحري الكدر، والحكيم لا يهزمها والأحرى لا يشعر حتى بها.

١٠-٤ وتضرب الحكيم أشياء أخرى، حتى إنها لا تُطيح به مثل الألم الطبيعي وفقْد أحد الأطراف وفقْد الأصدقاء والأطفال وفاجعة احتراق وطنه في الحرب، ولا أنكر أن الحكيم يشعر بهذه الأشياء[٢٨٧]، حيث إننا لا نصفه بصلابة الحجر أو الحديد، حتى يصمد دون أن يشعر بما تحمله أنت من سوء فضيلة تقريبًا، وما وجه نظري إذنْ؟ إنه يتلقى بعض الجروح فيتغلب عليها ويبرئها ويوقف نزيفها، فهذه الضربات أقل من أن يشعر بها، ولا يستعمل تجاهها الفضيلة المألوفة التي نتحدث عنها التي يتسامح بها مع المصاعب، وهو لا يسجلها أو يعتقد أنها مثيرة للضحك.

١١-١ وبجانب حقيقة أن غالب الإهانات قد يصنعها أناس صلف ومتغطرسون، ويعني تحملهم للحظ الحسن على نحو رديءٍ أن الحكيم لديه شيء ما برفضه للرد الفعل المتورم، حيث إن الشهامة أجمل الفضائل، والفضيلة تحدث بأي شيء من هذا النوع مثل صور فارغة من أحلام ورؤى ليلية دون أثر للجوهر أو الحقيقة.

١١-٢ وهو يعتبر في الوقت نفسه أن كل قصيرٌ جدًّا ليجرؤ بما فيه الكفاية لينظر إلى الأسفل على الأشياء التي قد رُفعت للأعلى، وقد تُشتق كلمة الإهانة

(٢٨٧) يبدو انها إشارة إلى ما يسبق الانفعال *propatheiai* والذي يشعر به الحكيم الرواقي دون موافقته، وللمزيد حول وجه نظر سينيكا في هذا انظر *Graver 2007, 93–101*.

contumelia من كلمة الاحتقار *contemptus*؛ لأن لا أحد يصيب أحدًا بضرر إلا إذا احتقره، ولكن لا أحد يحتقر امرأً ما أعظم وأحسن حتى لو كان يفعل بالإجمال شيئًا محتقرًا؛ لأن الأطفال يضربون آباءهم على وجوههم، والطفل الصغير يبعثر شعر أمه ويقصفه ويبصق عليها أو يعريها أمام أسرتها، ولا نقول على هذه إهانات، لماذا؟ لأن فعلهم ليس احتقارًا.

١١-٣ وفي الأمر نفسه لماذا نستمتع بدعابات العبيد المهينة مع أسيادهم، وجرأتهم قد تتمادى تجاه ضيوف العشاء إذا سمح لهم أسيادهم؟! وأكثر ما يحقر المرء فرط لسانه، ولهذا الغرض يشتري بعض الناس الفتيان الصفيقين ويحدون غلظتهم ويدربونهم حتى يصبوا اللعن كخبراء، ولا نطلق على هذه إهانات بل ذرائع، ويا له من جنون كي تتسلى وتهين في اللحظة نفسها بنفس الأشياء، وكي تُسمي ما قاله الصديق قذف وما قاله العبد مجرد دعابة!

١٢-١ إن الاتجاه الذي أخذناه في عقولنا تجاه الأطفال هو ما يتبناه الحكيم تجاه من تستمر طفولتهم حتى يصلوا سن الرشد والشَّعر الرمادى أو أحرزوا تقدمًا بعقول مَن حشوا بالخطأ والتعقيد فنموا على نحو أعظم، الذين يختلفوا عن الأطفال في الحجم وشكل الجسد فقط وخلاف ذلك ضلال، ويسعون بعد المتعة بعشوائية وقلق، وسلامهم الوحيد في الذعر وليس فى حسن الخلق؟.

١٢-٢ ولا أحد يقول إن هناك اختلافًا بين هؤلاء الناس والأطفال؛ لأن الأطفال يتجهوا نحو حيازة الروافع والبندق والنقود المعدنية في حين ينحو هؤلاء الناس نحو حيازة الذهب والفضة والمدن! فالأطفال يلعبون فيما بينهم قضاة، ويتخيلون وجود التاج الأرجواني المهذب وحزمة الصولجانات *fasces* وعرش القاضي، في حين يلعب هؤلاء الناس الأشياء نفسها على محمل الجد في حرم مارتيوس *Campus Martius* والمحكمة ومجلس الشيوخ،

والأطفال يبنون منازل وهمية بتكويم الرمال على الشاطئ، في حين يشغل هؤلاء أنفسهم بتكويم الأحجار والجدران والسقوف، ويتخذون ما ابتدعوا إيواء للأجساد ويحولونه إلى شيء مهيب كما لو كانوا قد فعلوا شيئًا عظيمًا، إن الموقف بين الأطفال وهؤلاء الناس متشابهُ إلا أن خطأ الناس يتعلق بأمور أخرى أكبر.

١٢-٣ وهكذا قد يبرر الحكيم تلقي إهانات هؤلاء الناس على أنها مزحة، وقد يحذرهم من الأذى والعقاب أحيانًا مثل الأطفال ليس لكونه قد تلقى ضررًا، بل لأنهم قد يضرون وحتى يتوقفون عن هذا الفعل، فالحيوانات قد تروض بجلدة سوط، ولا نغضب حين ترفض راكبها، ونحن نكبحها حتى يكسر الألم عُتُوها، وسوف ترى كيف أن تحييد هذا الاعتراض قد يقام ضدنا»، وماذا يفعل الحكيم إذا لم يتلق ضررًا أو إهانةً، أيعاقب من يفعلونه؟ وإن أردت أن تعرف، فإنه لا ينتقم من نفسه وبالحرى يصوبها.

١٣-١ ولكن كيف لا تصدق أن هذا الصمود العقلي للحكيم ليس بمقدوره الحضور فيه في حين أنك تلاحظ الأمر نفسه حقًّا في الآخرين لسبب مختلف؟ فلماذا يغضب الطبيب من امرئٍ قد جنب عقله جانبًا؟ ومَن الذي يمتعض حين يتفوه امرؤ ما باللعن وهو يتأوه من الحمى وحرمانه من الماء البارد؟

١٣-٢ وشعور الحكيم تجاه كل الناس هو نفس شعور الطبيب تجاه مرضاه، فالطبيب على استعدادٍ للتعامل مع أجزائهم إن احتاجوا للمداواة ويفحص إفرازات بولهم أو تطوله شتيمة من هذيان جنونهم، ويعرف الحكيم أن كل الذين يطوفون حول التاج الأرجواني مظهرهم حسن ولكنهم مرضى[٢٨٨]، وهو يعتبرهم لا يختلفون عن المرضى الذين يفتقرون إلى ضبط النفس، وهكذا لا ينزعج منهم إن حاولوا صنعوا فعلًا مخجلًا تجاه مداويهم، فهو

---

(٢٨٨) جزء من النص هنا مفقود، وقد تم توفيقه في اللغة الإنجليزية ليتناسب مع المحتوى.

يعتبر احترامهم بلا قيمة، ويؤدي الاتجاه نفسه تجاه أفعالهم التي تأتي بلا فضيلة.

١٣-٣ كما أنه لا يتعجرف حين يتسوله أحد، ولا يهينه لأنه من طبقة دنيا وأنه لا يرد له ترحيبه، وكذلك لا يعجب بذاته حين يُعجب به الأثرياء، لأنه يعلم أن هؤلاء الأثرياء لا يختلفون عن المتسولين ويستحقون الشفقة؛ لأن الأغنياء يفتقرون إلى القليل، والمتسولون يفتقرون إلى الكثير، وهو لا يأبه إذا مر ملك ميديس *Medes* أو ملك أتالوس *Attalus of Asia* الآسيوي على تحيته بصمت وتعبير غرور[٢٨٩]، وهو يعلم أنه لاشيء قد يحسد عليه رجل في موقف عبد في أسرة كبيرة وعلى عاتقه كبح المريض والمجنون.

١٣-٤ وهل يقينًا لست في حاجة لا نزعج إذا لم يُرد لي اسمي ممَّن يبتاعوا ويبيعوا أسوأ ما يملكه الإنسان في معبد كاستور *Castor*، وتكتظ 'سطبلاتهم بحشود أخس العبيد؟ لا أعتقد ذلك، وما الخير على أي حال، وهل يملك المرء من ملكهم تحته فحسب؟ وهكذا يطل على ملاطفة المرء أو عدم ملاطفته كما يطل على الملك بنفس الأمر: "أنت أدنى من الفارسي *Parthians* والميداسي *Medes* والباكتيرينز *Bactrians* ولكنك تكبحهم بالخوف، ولن يسمحوا لك أن ترخي قوسك، هم أعداؤك اللدودون، وهم يشتروا لأنفسهم ويتطلعوا إلى سيد جديد.

١٣-٧ والحكيم لا يتحرك بإهانة أي أحد، ومع أن كل الناس مختلفون بعضهم عن بعض، إلَّا أنه ينظر إليهم على أنهم متساوون لتساويهم في الغباوة، وإن سمح لنفسه أن ينزل مرة فحسب أن ينزل للضرر أو الإهانة فيضطرب فلن يقدر على التحرر من القلق، والتحرر من القلق هو السمة المميزة للحكيم، ولن

---

(٢٨٩) ملك ميداس: وربما إشارة فضفاضة إلى زركسيس الملك الفارسي، أتاليوس *Attalus* أحد ملوك برجامون الثلاثة الذين يطلق عليهم الاسم نفسه فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد.

يستطيع أن يحكم على الإهانة التي فُعلت تجاهه، وبالتالي يسمح لمَن أهانه أن يحصل على شرف؛ لأن من ينجح في إزعاج أحد بتوبيخه وبتوريطه يمكن أن يبتهج في إعجابه.

١٤-١ وبعضهم مجنون للغاية حيث يعتقد بأن بمقدور المرأة أن تهينهم، وما المسألة في كيف يتعاملون معها بوجاهة، وكم ما يحملونه مشينا عليها، وكم يكون قرضها ثقيلًا، وكم يكون كرسيها السيدان واسع؟ وهي تبقي متساوية مع حيوان لا يفكر ومتوحش ويفتقد السيطرة على شهواته ما لم يضفْ إليها المعرفة والتعلم، وبعضهم ينزعج إذا وخز بمقص الحلاق، وحين يمنعهم الحاجب وحين يتعجرف المذيع في إعلان اسمهم أو يتغطرس العبد في تجهيز غرفة نومهم يعدون هذا إهانة، آه كم تكون هذه الأشياء سخيفة! وكم من لذة للمرء تملأ عقله بضجيج أخطاء البشر، بينما يتدبر المرء سأمه وهدوءه!

١٤-٢ «وماذا؟ هل لا يقترب الحكيم من البوابات التي يحرسها حارس فظ؟»، إنه سوف يحاول في هذا إذا تطلبت الضرورة ذلك، وإنه سوف يلاطف الحارس أين كان كما لو كان يرمي طعامًا إلى كلب مسعور، ولن يعتقد أنه لا يستحق أن ينفق شيئًا ليعبر العتبة معتبرًا أن عبور جسور بعينها يتطلب الهدية، وإنه سوف يُعط لهذا الرجل أيًّا كان الذي يُدير الربح من استقبال حفلات الصباح، وهو يعلم أن الأشياء التي تُباع قد تُشترى بالمال، وإن المرء ضيق الأفق من يرد بعجرفة على الحارس، أو يكسر هيئته أو يذهب إلى السيد ويطلب جلد الحارس، فالذي يقيم معركة يجعل نفسه خصمًا، وحتى لو ظفر فإنه في مستوى مَن هزمه.

١٤-٣ ولكن ماذا يفعل الحكيم حين يلكمه الحارس؟ وماذا فعل كاتو عندما ضُرب وجهه، إنه لم يغضب، ولم ينتقم للضرر، وبالحري أنكر أنه قد ضُر، وقد تطلب تجاهله عقلًا أعظم من الذي قد يتطلبه صفحه.

١٤-٤ لن نطيل في هذه المسألة أكثر من ذلك، وبعد كل هذا، فمَن الذي لا يعي أن الأشياء التي يفكر فيها سيئة أم حسنة تبدو للحكيم كما تبدو لأي امرئ آخر؟ إنه لا يحترم أحكام الناس حول ما هو مخجل أو خادع، إنه لا يمضي على مسار العامة، ولكن مثل الكواكب تسلم مسارًا عكس حركة السماوات، ولذلك يحرز الحكيم تقدمًا تجاه رأي العامة.

١٥-١ وتوقف عن القول: «هل الحكيم لا يتلقى ضررًا حينئذ إذا جرح وإذا فُقئت عينه؟ هل لا يتلقى إهانة إذا سخرت من أفواه الناس البذيئة في الميدان، وإذا حكم عليه في مأدبة الملك أن ينزل تحت طاولة الطعام ليأكل مع العبيد المنوط بهم الأعمال المهينة(٢٩٠)، وإذا أُجبر على تحمل أي مساومة أخرى تضر بنخوة الرجل الحر؟".

١٥-٢ ورغم عظم هذه الأشياء في العدد والحجم، فإنها ستكون من نفس الطبيعة، وإذا كان القليل منها لا يمسه ولا حتى الكثير، فإذا كان القليل منها لا يمسه فإن الكثير منها لا يمسه كذلك، ولكنك تأخذ ضعفك دليلًا يرشدك لتخمن في عقله الجبار وتعتقد أن ما تفكر بمقدوره التحمل، ووضعت حدًّا لحمل الحكيم وهو مجرد حد قاصر، ولكن فضيلته تضعه في طرف آخر للعالم حيث لا يشترك في شيء معك.

١٥-٣ امضِ وابحث عن بعض الأشياء الثقيلة والقاسية لترفعها عن التي تتقهقر عند سماعها أو رؤيتها، فغالب هذه الأشياء لا تغلبه، وسوف يقاومها كلها كما لو كان يقاومهم فرادى، وإذا قال امرؤ ما: إن الحكيم يطيق شيئًا ولا يطيق آخر، فإنه يحفظ عظمة العقل في حدود ثابتة، فإنه يُخطئ، والحظ يهزمنا إن لم نهزمه كلية.

---

(٢٩٠) وشملت الأعمال المهينة مسح البصق والقيء *Letters 47.5*.

١٥-٤ وحتى لا تعتقد أن هذه القسوة مقصورة على الرواقيين وأبيقور الذي يتبناه الناس نموذجًا للخمول معتقدين أنه يعلمهم الأشياء اللينة والخاملة ومسارات اللذة، ويقول: "نادرًا ما يحدث في درب الحكيم حظ"، فكيف أقبل على نطق كلمات الرجل(٢٩١). هل تريد أن تتحدث بشجاعة أكبر وتفصل الحظ عن البقية؟

١٥-٥ إن منزل الحكيم زهيد، حيث لا مكان فيه للزينة والصخب والتنمق، ولا ترى فيه الحارس الذي يقسم الحشد ويمكن أن يرتشي ليعطيهم إذنًا بالدخول، والحري أن عتبته بلا بواب، ولا يمر الحظ عليها، والحظ يعلم أنه لا شيء يتبعه ولا مكان له في المنزل.

١٦-١ وحتى لو أن أبيقور الذي غمس الجسد وهو ينأى عن الضرر، فأي جزء مما نتحدث يبدو صعبًا لتصدقه أو أبعد من مقياس الطبيعة البشرية؟ فهو يقول: إن الحكيم يتساهل مع الضرر في حين أننا نقول إنه لا توجد أضرار(٢٩٢).

١٦-٢ ولا يمكنك أن تقول إن هذا يتجه ضد الطبيعة، ولا ننكر أن المطروق والمضروب وفقد الطرف شيء من سوء الحظ، وننكر أن كل هذه الأشياء ليست أضرارًا، ونحن لا نمحو من هذه الأشياء الإحساس بالألم بل اسم الضرر فحسب، والذي لا يمكن أن يستمر بفضيلة كاملة، وسوف نرى مَن يتحدث حقًّا، ويقينًا يتفق كلانا على الضرر المرفوض، وهل تسعى لمعرفة الفارق بيننا؟ إنه الخلاف نفسه بين اثنين من المجالدين الشجعان، فأحدهما يعصب جرحه ويقف على أرضه، في حين ينظر الآخر تصفيق الجمهور، ويشير أنه لم يحدث شيءٌ، ولا يسمح لهم بالتدخل.

١٦-٣ ولا تعتقد أن بأسنا بيننا شديدٌ، وأما الشيء المطروح الذي يقلقك هو أن كلا

(٢٩١) حكم أبيقور١٦.

(٢٩٢) اقتطف يوزنر *Usener* هذا كشذرة ٥٨٥.

المثالين يحثان على ازدراء الضرر والإهانة، التي أطلق عليهما ظلال وشكوك الأضرار، ولا يتطلب هذا الاحتقار حكيمًا، ولكن البسيط بعقله يقول لنفسه: "هل هذه الأشياء التي تحدث لي على نحو مستحق أم غير ذلك؟"، فإن كانت مستحقةً فهي ليست إهانة بل حكم، وإن كانت ليست مستحقة فعلينا أن نخجل ممن حمل ظلمًا".

١٦-٤ وما الشيء الذي يُسمى إهانة؟ وهو أن تقيم مزحةً على شَعري الناعم وعينيَّ الرديئتين ورجليَّ المقوستين وطولي، وما الإهانة التي يُقال عنها إنها بينة؟ حين يقال الشيء من قبل جمهور واحد فنحن نضحك، ولكن حين يكون أمام الملأ فإننا نقترف الجنون، ونحن لا نمنح الآخرين الحرية ليقولوا الأشياء نفسها التي اعتدنا نحن أن نقولها، فنحن ننشرح بدعابة لطيفة ونمتعض بأخرى جامحة.

١٧-١ ويبين خريسبوس كيف أن امرأً قد جُن حين ناداه شخص ما بـ"مستفحل الغباء"[٢٩٣]، ورأينا في مجلس الشيوخ فيدوس كورنيليوس *Fidus Cornelius* صهر أوفيدوس ناسو *Ovidius Naso* يبكي حين ناداه كوربولو *Corbulo* بـ"النعامة المنتوفة"[٢٩٤]، وقد حفظ جبينه ثباته رغم كل هذه الإساءات الأخرى التي تهدف جرح شخصه وحياته، ولكن انهمرت الدموع في هذه السخافة، وهكذا يعظم ضعف عقولنا حين يجانبها الصواب.

١٧-٢ وماذا عن إهانتنا إذا قلد أحدٌ طريقة كلامنا ومشينا وبعض خلل أجسادنا وصوتنا؟ كما لو كانت تلك الأشياء أنصع وضوحًا عندما يحاكيها آخرون أكثر من فعلنا لها! البعض قد يكرهون السماع عن شيخوختهم وشَعرهم

(٢٩٣) مصدر غير معروف.

(٢٩٤) حسب شهود عيان سينيكا من الصعب تحديده، ولكن من المحتمل في عهد كاليجولا أو في زمن لاحق، انظر *Griffin 1992, 44 n. 4*.

الرمادي وأشياء آخرى نبتهل نحن لنحصل عليها، والآخرون مشتاطون بتهمة الفقر في حين مَن يسعى إلى إخفاء فقره يتهم نفسه، وبالتالي نمنع أدوات المشاكسين الذين يجعلون الفكاهة في الإهانة، وأنت في حاجة إلى أن تبادر قبل أن يفعلوا، ولا أحد يحث الضاحك إن لم يحدث الضحك بالفعل من جانبه.

١٧-٣ حكى التراث كيف أن فاتينيوس جمع بين الضحك والغم، وكان مهرجًا جذابًا وظريفًا، فقال أشياء جمة في عرج قدميه ورقبته المندوبة، وهذا وقد تجنب صناعة الفكاهة على أعدائه الذين كانوا كثرًا مثل تشوهاته وخاصة شيشرون[٢٩٥]، وإذا كان فاتينيوس بمقدوره تحقيق هذا بصلابة كلماته، وقد طال قدحه المتواصل منذ تعلم ألَّا يشعر بالخجل، فلماذا لم تتحقق فكاهته في أي من أعدائه في دراساته الحرة وغرس حكمته التي حقق فيها تقدمًا؟

١٧-٤ أضف إلى هذا حقيقة أن نوع الانتقام يختطف اللذة التي اقترفت الإهانة بعيدًا عن المرء الذي فعلها، والناس يقولون غالبًا: "يا عزيزي، لا أعتقد أنه فهم"، ولذلك فالممكن هو نتيجة إهانة على شعور الضحية بها وتحوله إلى إحباط، وسوف يقابل الجاني النظير عاجلًا أو آجلا، ويُظهر له الانتقام أيضًا.

١٨-١ مارس جايوس قيصر[٢٩٦] الإهانات بجانب رذائل جمة أخرى، وكان مدفوعًا بدافع غريب لوسم كل امرئ ببعض العلامات، رغم أنه ذاته كان مادة ثرية للضحك، وشناعة شحوب وجهه أفشت سر جنونه، وكذلك أخفت وحشية

---

(٢٩٥) بالنسبة لتشوهات فاتينيوس وهجوم شيشرون انظر *Plutarch Cicero 9 and 26; Cicero's speech Against P. Vatinius was published ca. 56–54 bce, after the trial of P. Sestius. On Vatinius see also 1.3 above with note.*

(296) 37. On Caligula (12–41 ce; emperor 37-41), many of the details below arise also in Suetonius's Caligula: physiognomy (50), adultery (36), clothing (52), Chaerea and the assassination (56–58), the name Caligula (9).

الأعين ما تحت حاجبه التليد، وكذلك سوء شكله برأسه الكئيب الذي تناثر عليه الشَّعر المدفوع بشدة، ناهيك عن رقبته التي كستها الشعيرات، ونحافة ساقيه، وضخامة قدمه، وإن أردت أن تستدعي الحالات الفردية التي أهان فيها والديه وأجداده، والشخوص من كل صنف فلا نهاية للحديث، وسوف أستدعي تلك التي ختمت قدره.

١٨-٢ كان فاليريوس أسياتيكوس من بين الأصدقاء المعروفين للإمبراطور، وهو رجل شرس، كان بالكاد يتحمل إهانات الآخرين بعقل هادئ، أثناء مأدبة في الجمعية العامة والكل يسمع الإمبراطور يوبخ فاليريوس على وضعية زوجته في السرير، يا إلهي! كيف يسمع الرجل هذا وكيف يعلمه الإمبراطور، وكيف تصل حرية الكلام إلى هذا الحد الجارح الذي لم يصل من قنصل سابق ولا حتى من صديق، والإمبراطور يحكي عن زناه وعدم رضاه، وليس عنه كزوج!

١٨-٣ وعلى النقيض من ذلك كان شايريا *Chaerea* القائد العسكري، حيث كان يتحدث بلا منازع في براعته[٢٩٧] وكان ضئيل الحجم، وإن لم تكن تعي أفعاله حسبته مشبوهًا، عندما سأل تشيرا عن كلمة السر، أعطاه جايوس علامة فينوس مرة وعلامة بريابوس *Priapus* في مرة أخرى، وفي المرة الأولى والثانية لامه الجندي لرخاوته، وفعل هذه الأشياء وهو يتزيا بأروبة شفافة وشبشب وقرط! وكذلك أجبر تشيرا على استعمال سيفه حتى لا يُسأل عن كلمة السر بعد الآن، وهذا الرجل كان أول المتآمرين حيث رفع يده وقطع رقبته بضربة واحدة[٢٩٨]، وجاءت الطعنات من كل حدب وصوب انتقامًا للإهانات العامة والخاصة، ومن ثَمَّ كان أول مَن طعن هو مَن يبدو الرجل فحسب.

(٢٩٧) كاسيوس شايريا.

(٢٩٨) كما يلاحظ *Wilcox 2008, 467* هذا من سخرية القدر صدى لقول كاليجولا (سجله البعض وسجله سينيكا في *On Anger 3.19.2*) حيث تمنى أن يكون للرومان رقبة واحدة، حتى يمكنه أن يعاقبهم جميعها بضربة واحدة.

١٨-٤ شهد جايوس الإهانات أينما نظر بقدر الذين تحملوا إهاناته والذين فُتحت شهيتهم لإهانته، لقد كان غاضبًا من هيرنيوس ماكر *Herennius Macer*؛ لأنه حيَّاه على أنه جايوس فحسب، ولم يترك حتى قائد وسط الجيش وهو أعلى رتبة دون عقاب؛ لأنه ناداه كاليجولا (الحذاء الصغير)؛ لأن هذا ما أطلق عليه منذ ولادته وهو في مخيم الجيش، ولم يعرف له الجنود أي اسم آخر، ولكن الآن يلبس حذاء الفاجعة العظيمة ويُنظر إليه كفاسد وجبار.

١٨-٥ وهذا بمثابة عزاء، وحتى لو تساهلنا سوف نَعَبر على الانتقام، وسوف يوجد من يقتص من المرء الوحشي المتعجرف، ويكشف الضر والرذيلة التي لم تصب فردًا بعينه ولم تكن إهانة بعينها فحسب.

١٨-٦ ودعونا ننظر على الأمثلة ونثني عليها لتحملها مثل سقراط، إنه تلقَّى بروح طيبة المزاح الذي نُشر ونُظم تجاهه، وضحكه منها لا يقل عن موقفه تجاه زوجته أكسانثيب *Xanthippe* حين سكبت الماء القذر عليه[٢٩٩]، وأنتيستينس الذي اعُتدي عليه من أجنبية هي الأم التراقية، فرد بأن حتى أم الآلهة كانت من جبل إيدا *Ida*[٣٠٠].

١٩-١ وليس هناك حاجة لنلوذ إلى الخلاف أو النضال الطبيعي، وعلينا أن نستعمل أقدامنا لنمضي بعيدًا، وعلينا أن نتجاهل الأشياء التي يفعلها أناس حمقى أيًّا كانت، وعلينا أن نميز بين الشرف والأضرار التي يقترفها السوقة.

١٩-٢ ولا حزن على السوقة ولا بهجة على الشرف، وبطريقة أخرى فإن الخوف من الإهانات أو الضجر يجعلنا نهمل الأشياء الضرورية ونفشل في الواجبات العامة

---

(٢٩٩) حول استفزازات أكسانثيب زوجة سقراط لسقرط انظر *Seneca's On Marriage frag. 31 Vottero and Letters 104.27*. وعن كوميديا سقراط انظر *On the Happy Life 27.2*.

(٣٠٠) أنتيستينيس *Antisthenes (444–365 bce)* وقلة آخرون من تلاميذ سقراط الذين واجهوا سوء المعاملة؛ لأنهم ليسوا مواطنين أثينيين، وأم الآلهة هي سيبيل *Cybele*.

والخاصة -والتي هي مفيدةٌ أحيانًا-، وكل هذا لأننا نغتاظ باهتمامات نسوية عن سماع شيء مناقض لتفكيرنا، وأحيانًا نغضب حتى من الأقوياء ونكشف عن هذا الشعور بممارسة غير منضبطة للحرية، ولكن التجوز بلا شيء ليس حرية، فهناك مَن يخدعنا، وأن الحرية تضع عقل المرء فوق الأضرار، وتجعل النفس هي المصدر الوحيد للفرح، وتفصل الأشياء الخارجية عن النفس حتى لا تضطرب حياة المرء، فيخشى ضحك الجميع ولسانهم، ولو بمقدور أي أحد أن يُهين، فمَن الذي لا يقدر أن يصنع مثيل الإهانة؟!

١٩-٣ وإن سبل المداوات المتباينة سوف يستعملها الحكيم والمرء الملهم بالحكمة، وأنت ترى غير الكاملين لا يزالون متعلقين بمعيار الحكم العام والذي يضعهم في حالة تأهب للعيش بين الأضرار والإهانات، فكل ما يحدث هو أخف حملًا إذا عرفوا توقعه، والأكثر احترامًا للجميع من مولدهم وسمعتهم وميراثهم ما يفعلونه بأنفسهم على نحو شجاعٍ، ويعلمونهم أن طوال القامة في الخط الأمامي للمعركة، ودعهم يتحملون الإهانات والكلمات المسيئة والهوان والإذلالات الأخرى، كما لو كانوا يستصرخون العدو والأسلحة التي أُلقيت من بعد والصخور التي تتراشق حولهم ولا تجرحهم، والأضرار مثل الجروح بعضها نافذ في الدرع، وبعضها في الصدر، ودعه يقاومهم دون أن يُصدم أو يُطرح على الأرض، وحتى لو دفعت بقوة مكروهة فامنح طريقًا لا يزال مخزيًا، واحفظ موقفك بالطبيعة، هل تسأل ما هذا الموقف؟ والموقف هو أن تكون إنسانًا.

١٩-٤ والحكيم لديه شيء مختلف ليعينه ويكون عكس هذا، وإن كنت لا تزال تقاتل فهو قد حقق النصر، فلا تناضل ضد خيرك، وفي حين لا تزال على طريقك للحقيقة، وتعزز هذا الأمل في عقلك، وتنتقي أفضل الأشياء طوعًا، وتعينهم دومًا بإرادتك وموقفك، فوجود الشيء لا يقهر، ووجود المرء ضد الحظ ليس له قوة على الإطلاق، وهو في مصلحة دولة جنس البشر.

قائمة بالمراجع:

Barnes, Jonathan. 1997. Logic and the Imperial Stoa. Leiden: Brill.

Cooper, John M. 2006. "Seneca on Moral Theory and Moral Improvement." In Seeing Seneca Whole: Perspectives on Philosophy, Poetry and Politics, ed. K. Volk and G. Williams, 43–56. Columbia Studies in the Classical Tradition. Leiden: Brill.

Griffin, Miriam T. 1992. Seneca: A Philosopher in Politics. 2nd ed. Oxford: Oxford University Press.

Inwood, Brad. 2005. Reading Seneca: Stoic Philosophy at Rome. Oxford: Clarendon Press.

Kaster, Robert A. 2002. "The Taxonomy of Patience, or When Is "Patientia" Not a Virtue?" Classical Philology 97:133–44.

Lanzarone, Nicola, trans. and notes. 2001. La fermezza del saggio: La vita ritirata. Milan: Rizzoli.

Lee, A. D., intro. and notes. 1953. M. Tulli Ciceronis Paradoxa Stoicorum. London: Macmillan.

Riggsby, Andrew M. 2010. Roman Law and the Legal World of the Romans. Cambridge: Cambridge University Press.

Roller, Matthew B. 2001. Constructing Autocracy: Autocrates and Emperors in Julio-Claudian Rome. Princeton: Princeton University Press.

Star, Chistopher. 2006. "Commanding Constantia in Senecan

Tragedy." Transactions of the American Philological Association 126:207–44.

Viansino, Giovanni, trans. and comm. 1988, 1990. I Dialoghi. 2 vols. Milan: Mondadori.

Volk, Katharina, and Gareth D. Williams. 2006. Seeing Seneca Whole: Perspectives on Philosophy, Poetry, and Politics. Columbia Studies in the Classical Tradition. Leiden: Brill.

Vottero, Dionigi, ed. 1998. Lucio Anneo Seneca: I frammenti. Bologna:

Wilcox, Amanda. 2008. "Nature's Monster: Caligula as Exemplum in Seneca's Dialogues." In KAKOS: Badness and Anti-Value in Classi cal Antiquity, ed. R. Rosen and I. Sluiter, 451–75. Leiden: Brill.

Williams, Gareth D. 2003. Seneca: "De Otio," "De Brevitate Vitae." Cambridge: Cambridge University Press.
———. "States of Exile, States of Mind: Paradox and Reversal in Seneca's Consolatio ad Helviam Matrem." In Volk and Williams 2006, 178–95.

Wright, J. R. G. 1974. "Form and Content in the Moral Essays." In Seneca, ed. C. D. N. Costa, 39–69. London: Routledge and Kegan Paul.

سكينة العقل

مقدمة

المخاطب والأحوال:

إن رسالة (سكينة العقل) لسينيكا فريدة بين محاوراته؛ لأنها تقدم تبادلًا حقيقيًّا بين المخاطب أنايوس سيرينوس وسينيكا، والأرجح أن سيرينوس رجل إسباني جاء إلى روما برعاية سينيكا، وهو يوجه الكلام عن صمود الحكيم، ويدور حوار متقطع عن أوقات التفرغ، ولكن هذا الحوار يمنحه صيغة الفعل التي توصف بها أزمة هوية الشباب.

ويثير الفصل الافتتاحي تساؤلًا عمَّ إذا كان الحوار خطابًا أم مناظرةً دراميةً؟ وإن كان مناظرة يمكن أن تكون منمذجة على مثال مناظرات المعلم والتلميذ عند شيشرون، وإن كان خطابًا فهو باكورة لمراسلات سينيكا من جانب واحد مع لوكيليوس من عام ٦٣-٦٤ ق.م. في حين يمكن أن تقرأ في الفصل الافتتاحي طلب سيرينوس للمساعدة، فإن سينيكا يعدل على الأرجح الكلمات التي يضعها في فم سيرينوس لتشتمل على قضايا يريد هو أن يناقشها في رده. وهناك سمات في الفصل الأول هي الانشغال بالمجالس التشريعية السيناتورية وفنية الكتابة والتحدث، وهذه الأمور تتعلق بسينكا ولا تخص مَن يخاطبه[٣٠١]، والحقيقة أن في الفصل الأول ١٣- ١٤ توكيد إيجابي على أن الحاجة للنبل تمكن العقل من أن يسمو، وأن التماثل بدقة في التقريب في الفصل ١٧-١١ يستحضر معيارًا بعيدًا حتى لو كان معارضًا لغاية السكينة.

---

(٣٠١) دراسة حديثة *Seneca on Self Assertion," pp. 346–51 of Inwood 2005*.

وإنني أقرأ الحوار كاستشارة شفوية مع سيرينوس كمريض يعالجه سينيكا، حيث قد عبرت جاذبيته عن حدود مرض العقل[٣٠٢]، ويشبه الموقف تقريبًا العلاج، وقد أقر سيرينوس بمبادئ العيش الفاضل عند الرواقية، وهو يراقبهم في أسلوب حياتهم البسيط، ولكن تأثر سيرينوس بالقيم المادية وأظهر رفقاءه، وكافح ليرفض قبول قيمهم، ومعضلته تكمن في الصراع الباطني والقيم المكتسبة.

وتركز الجملة الأولى على استجواب الذات، وسوف توضح تعبيرات استياء الذات ومحاولات توافق الذات خطاب سيرينوس وحركة رد سينيكا من ٧-٢ و٩ حتى ١٤-٢ والقسم الأخير، وفي الفصل ١٧-١ يتعلق الاهتمام بالباطن الذي يقوى في المعالجة المنهجية لرسائل سينيكا إلى لوكيليوس، ورغم أن السكينة استجابة علاجية لاعتراف سيرينوس الصريح بمرضه العقلي (حتى استعمال الاصطلاحات الطبية للأمراض الفعلية)، ويستعمل الاستجواب المعرفي كجزء للشفاء المفترض، ولا تطابق المناهج الرواقية للقضايا الأخلاقية أساليب العلاج النفسي الحديث[٣٠٣].

وأين نضع هذا الحوار في مسار مهنة سيرينوس المعروفة؟ لقد شغل منصبًا إداريًّا، وهو مسؤول عن فيلق المراقبة (يجمع بين المراقب والشرطي) من عام ٥٤ عندما فرغ المنصب حتى تولى تيجيللينوس *Tigellinus* هذا المنصب عام ٦٢، ولا شيء في هذه الرسالة يدل على أنه تقلد هذا المنصب، وكان سينعكس نفوذ سينيكا على وظيفته، حيث كان سينيكا قويًّا في هذه الفترة بوجوده مع أجريبيانا ونيرون، وهناك تلميحات لصعوبة المشاركة السياسية خاصة في الفصل الثالث ٢-٣ تقل بعد ذلك نسبيًّا، ولكن

(٣٠٢) كان التوازي بين المرض الجسدي والعقلي/ الأخلاقي شائعًا في الفكر الهيلينستي. راجع (بعد سينيكا) مقالة بلوتارخ "عن أيهما أسوأ أمراض الجسد أم العقل" *"Whether the Sicknesses of the Mind or of the Body are Worse," Moralia 500b–502b; Loeb Classical Library vol. 6). Even the words observatio sui ("constant watching") in 17.1 evoke the medical practice of watching patients (epitērēsis) to observe the progress of their symptoms.*

(303) See Sorabji 1997 and Williams 1997.

يفترض الحوار أنه قد أُلِّف في مرحلة مبكرة من حكم نيرون(٣٠٤)، ونعرف ذلك فحسب في رسائل إلى لوكيليوس *63 Letters to Lucilius 63* (من المحتمل كُتب عام ٦٣) حيث ينظر سينيكا إلى حزنه ومصيبته في موت سيرينوس المفاجئ لتسممه في مأدبة رسمية؛ لأن سينيكا منحه حب الابن الذي لم ينجبه؛ حيث لم يكن لسينيكا أبناء.

بنية النص

قد بذلت محاولات عدة لتحديد بنية الحوار بكليته؛ إما على موضوع الفصول المتتالية، وإما تركيبه مثل أسطورة بروكرتيس *Procrustes* للنمط الخطابي، ولكن النموذج الخطابي قد صُمِّم لقاعة المحكمة ولا يناسب العقلية الفلسفية.

الفصل الأول:

القول الاستهلالي من سيرينوس هو مفتاح المفاهيم التي تحكم رد سينيكا في الفصول الستة عشرة، حيث إن العنوان اعتراف قد أُعد ليقدم كل الأفكار تقريبًا التي يمكن تتبعها في التحليل التالي، وقد يقدم المجازان تشبيهات تتكرر في الحوار، أول المجازين المرض العقلي ١-٢ و١-٤، وثانيهما تشبيه الحياة بالرحلة، وكلاهما مع صورة السَّلام العقلي مثل هدوء البحر ١-١٧ وراجع ١-١١، ويفتتح سينيكا رده باستدعاء هذه التشبيهات في إشاراته لمرضى النقاهة واضطراب البحر الباقي بعد العاصفة، وقد تهدف التلميحات المألوفة في الحوار عن البحر والعاصفة إلى تذكير القارئ بالسياق البحري الأساسي للسكينة (هدوء البحر بعد عاصفة).

يبدأ سيرينوس بتبصر الذات، فبعد وصف استيائه في ١-٩ فإنه يتوقع فرض سينيكا، وهو ينتقل في ١-١١ لتطوير فكرة التركيز داخل نفسه التي يُطلق عليها في الغالب باطنية سينيكا: «دع عقلك يركن إلى نفسه ويميل إليها ولا تفعل شيئًا غريبًا

(304) See Griffin 1976, 447–48.

عن احتياجاته»، وسوف يُتطرق إلى هذه الأفكار السائدة خلال تشخيص سينيكا في ٢-٧ حيث يقول: «ولهذه الرذيلة صفات لا حصر لها ومخرج واحد لتستاء بالنفس»، ويستدعي في ٢-١١ الاصطلاحات المنعكسة التي سيركز عليها هذا الحوار حتى نهاية إحصاء سينيكا لعقبات الهدوء، وبهذا اللوم يتعلق العقل كما في ٢-١٤: «دعه يؤمن بنفسه ويفرح بها ويعتبر صفاته وينسحب بقدر الإمكان مما هو غريب عليها».

يُقدم سيرينوس على أنه طالبٌ رواقيٌّ أو متحمسٌ، وهو في منتصف الطريق نحو السيطرة على روحه، حيث اكتسب درجات الاختلاف للخيرات الخارجية بما فيه كفايته ليطبقها في تدبيره في شؤونه الداخلية، ولكن ليست كافية لهروب الكساد في رفاهية الآخرين، إنه يدعي أن خلله ضعف هدف العقل القويم (١-١٥)، لقد تعلم ما يكفي ليندم لا ليقاوم تقلبه (١-٩)، وسوف يترك الأمر لسينيكا لتشخيص هذا الندم على أنه نفور 'النفس' ٢-٥ وراجع ٢-١٠، ٢-١٥، ٣-١ [(٣٠٥)]، فسيرينوس يصف ولكن ليس بمقدوره أن يُسمي الحالة التي يحددها سينيكا في رده الذي شفى رغباته الدنيوية وأمانيه (الأماني أشد ضررًا من المخاوف)، ولا يزال الطالب يُعاني من الصراع الباطني، وتصنيفه للخيرات يقلب يعكس الإنسان الدنيوي، ولكن في حين تؤسس على القيم الرواقية فإنها لا تزال غير مأمونة وتميل إلى النفور من العالم الخارجي.

الفصل الثاني:

يقدم سينيكا ردًّا جديدًا أكثر عمقا للسكينة ٢-٣، وهي تعادل في اللغة اليونانية كلمة ثبات العقل *euthumia*، ويستعمل سيرينوس الكلمة لأول مرة ١-١١ دون تدقيق على أنها تحرر من الاضطرابات الخارجية، ولكن سينيكا يصفها باطنيًّا على أنها "التوازن الثابت للروح"، ويشير إلى بحث ديمقريطس عن *Euthumia 2-3* [(٣٠٦)]، ويشير إلى

(٣٠٥) أشير هنا إلى البحث القيم الذي أعده كاسستير في الفصل الخامس "ديناميات التعب وأيدولوجيا التزمر" *Kaster 2005 in chap. 5, ''The Dynamics of Fastidium and the ideology of disgust.''*

(٣٠٦) عرف سينيكا ديمقريطس بطريقة غير مباشرة، ولتقييم هذا بإيجابية انظر الفصل الثاني "*Epicurus and Democritean .Ethics,'' in Warren 2002*

ثلاثة استشهادات لعدم اكتراث ديمقريطس بالمال(١-٦-٢، ٤-٥-١٠٥، ٧-٢٧-٥)، ويقترب سينيكا في هذه الرسالة في ٢-٣ من رسالته عن الغضب ٥-٦-٣ حين يقول: «سوف نستفيد من حكم ديمقريطس القويم الذي يبين كيف نحقق السكينة إذا لم نؤدِّ أشياء عدة أو أشياء وراء قدرتنا سواء أكانت خاصةً أم عامةً».

الفصول من الثالث إلى الخامس:

إن الخيار الأفضل للحياة هو المشاركة الفاعلة في الشؤون العامة، ويخدم كمواطن إخوانه المواطنين على نحو فردي أو جماعي، وبالنسبة للنخبة قد تكون من بين الأفعال الملائمة **Καθῆκον** الرواقية والواجبات الشخصية أو الالتزامات المحددة بمواقفهم، وقد ترجمها شيشرون بالمسؤوليات *officia*، والاستعارة بالجندي والواجب العسكري واضحة في الفصل الثالث، وتتطور من التشابه المعقد بين المستويات المختلفة للخدمة المدنية والعسكرية ٣-٥، والروماني وليس اليوناني الهيلينستي الذي عاش في عصر المرتزقة يفرض سمو الواجب العسكري على المدني.

الفصل السادس:

يعرض الفصل السادس تقريرًا للموضوعات «ينبغي أن نفحص أنفسنا قبل كل شيء، ومن ثم العمل الذي نقوم به، ثم الناس الذين نعمل لأجلهم ومعهم» ٦-١، وهذا حق لديمقريطس، ولكنه إرهاصات منهاج يتبعه سينيكا جزئيًّا.

الفصول من ٨-١١:

الفصول من الثمن حتى الحادي عشر تعالج التجليات الخارجية للثروة والملكية التي يمكن أن تصرف الإنسان عن السكينة والفضيلة، ولكن سينيكا هنا يستحضر مفهومين يحكمان الظرف الإنساني، حيث سُيجت الطبيعة في الفكر الرواقي بالرب والعناية والحظ وهي معنية بكل التجارب الرديئة، وتهيمن على هذه الفصول المداهمات التي تُشن على الرجل الخير.

الفصول من ١٢-١٦:

تنتقل الفصول من ١٢ إلى ١٦ من مبادئ إلى أمثلة لتقلبات الحظ، ثم إلى نماذج للفضيلة في مواجهة الموت (يوليوس كانوس *Julius Canus* في حكم كاليجولا الاستبدادي ١٤-٤ حتى ٩، وكاتو الأتيكي *Cato of Utica* الممجد حتى وراء هيروكليس وريجوليوس في ١٦-٤).

الفصل السابع عشر:

الفصل السابع عشر الأخير أكثر ابتهاجًا، بعد التحذيرات الجديدة تجاه التذرع وتفحص النفس المشوه بالتركيز المفرط بقيم الدخلاء ١٧-٣ ينصح باستقامة المرء بالانسحاب والاسترخاء والاستعمال الحكيم للشراب ١٧-٩و١١ لتحفيز العقل قبل أن يغلق بخاتمة قصيرة للأماني الخيرة لسيرينيوس.

شكر وتقدير

إنني مدينة بالامتنان للبرفسور دوج هاتشينسون *Doug Hutchinson* ولطلابه الستة الذين يدرسون في حلقته سينيكا؛ لتجميع المسح البيبلوجرافي لاستخدامه في نقاش موسع حول (السكينة)، والذي أطمح أن أنشره في مكان آخر، وأود أن أشكر جيمس كير على النصيحة والاطلاع على مقدماته في هذه السلسلة.

١–١ يقول سيرينيوس *Serenus* حين كنت أقبض على عصاي[٣٠٧]: يا سينيكا، وجدتُ بعض الأخطاء تبدو لي في متناول يدى، وبعضها أقل وضوحًا وخفاءً، وبعضها متغير، وهذا يتكرر على فترات، وأدعي أن النوع الأخير أعظم قلقًا، حيث يقفزون مثل الأعداء على الخطوة ويهاجمون وفقًا للظروف، وتمنعني من الاستعداد للفعل كما لو كنتُ في حالة حرب، أو خاليًا من القلق كما لو كنتُ في حالة سلام.

١–٢ ومع ذلك أجد نفسي أكثر مشاعًا في هذه الحالة، ولماذا لا أقبل الحقيقة كما أود أن أقولها للطبيب[٣٠٨]؟ فهي لا تنبعث من الأشياء التي أخشاها أو أكرهها ولا القابلة للجرح فيها، وحتى مع أني بحالة سيئة فلا أزال متقلبًا ومحتجًّا لأبعد حد، فأنا لستُ مريضًا ولا صحيحًا.

١–٣ أنت لا تخبرني عن بدايات الفضائل التي كرستها والتي تكتسب صلابة وقوة مع الزمن، وإنني أعلم أن العمل الذي نعلنه للملأ قد يستغرق فترة طويلة من الزمن، فشهرة وبلاغة الموهبة مهما كانت تعتمد على صوت رجل آخر، وفي الحقيقة فإن المواهب التي تنتج القوة الحقة ومظاهرها التي تستحوز على انطباع الآخرين تستغرق سنوات وتمر بفترات تدريجية حتى توضع في صبغة معقولة، ولكنني عادة أخشى أن ما ينتج الثبات قد يدفعني بخطأ أكثر عمقًا، فالمجالسة الطويلة تجلب حب السلوك الرديء مثل الحسن.

---

(٣٠٧) يضع الكلمات المفتاحية في فم سيرينوس ليعلن عن أهمية موضوع فحص الذات والاهتمام بشفائها. وانظر ٢–٧ و٢–٩ بالأهمية المماثلة على العلاج في ١٤–٢.

(٣٠٨) هذه أول إشارة لحالة سيرينوس على أنها مرض عقلي أو أخلاقي.

١-٤ وليس بمقدوري أن أعرض عليك مرة واحدة كل طبائع هذا الضعف في العقل[٣٠٩] المشقوق بين الميول، والذي لا ينحرف عن ما هو حق وما هو باطل، ولكن بمقدوري أن أفسر لك أركانًا منه، وسأخبرك بما يحدث لي وسوف تجد اسما لمحنتي.

١-٥ وأعترف أن حبي للاقتصاد عميق، فأنا لا أحب ترتيب الأريكة للعرض أو الملابس المتدلية من الصدر والتي تلمع قسرًا بكبس ألف مقدار من القماش، والحري أنني أحب الملبس المنزلي غير المتكلف الذي لا يجعلني متحفظًا أو يضعني في رقابة تقلقني.

١-٦ وأحب الطعام الذي لا يشرف على إعداده رهط من الخدم أو الذي يستغرق أيامًا في إعداده ويقدم بأيدي كثيرين، ولكني أحب المتاح والبسيط دون المكونات الغريبة والثمينة، فهذا لا أحتاجه بأي داعٍ، أو يُحمل جسدي وميزانيتي عبئًا أو يُثير فيَّ القيء[٣١٠].

١-٧ وإني أحب الصاحب ذكي الطلعة، والعبد البسيط الساذج، وطبق الفضة الثقيل من إنتاج وطني دون توقيع من أي صانع، وأحب المنضدة التي لا تجذب العين علاماتها الملونة، والتي عُرفت في المجتمع بملكية متعاقبة لسادة عدة، ولكن لتوضع للاستعمال وليس لإلهاء نظرة أي ضيف لأي لذة أو تلهبهم بالحسد.

١-٨ ومن ثم رغم أن كل هذا يرضيني تمامًا، إلا أن ما يخدش عقلي كم الأوراق التي يُتابع امرؤ شراءها، ويغلفها بأكثر من المعتاد، وتزينها بالذهب قبيلة بأكملها من العبيد البارزين، وحتى أرضية المنزل التي يطؤها متكلفة، وتتمدد الغرف

(٣٠٩) كلمة النفس *animus* اللاتينية تغطي كلمة *dianoia* العقل اليونانية، وعادة ما تكون أفضل ترجمة للجوانب الأخلاقية والعقلية للشخصية هو العقل وأترجمها (الروح) حين ترتبط بالمزاجية أو المعنويات.

(٣١٠) مثل الأشترار *bulimics* جعل الرومانيين يتقيؤون عمدًا ليهربوا من عواقب الإفراط في الأكل.

البراقة بالثروات في كل ركن، ويكرم جمهور الناس كمراقبون وحاضرين للإرث الذي قد بُدد، هل تحتاج أن أذكر المسارات المتدفقة حول ضيوف العشاء وهي تشف أسفلها، والموائد المتماثلة مع طبقاتها؟

١-٩ وكما أنني أخرج عن الانتباه المطول المنتوج عن الاقتصاد، وقد يجتاحني هذا الإسراف بروعته الهائلة ويتردد صداه حولي، ويرتعد تحديقي، وأشحذ عقلي نحوه أكثر من عينيَّ دون ريب، ولذا ما فارقت هو ما يبعث الحزن وليس الأسوأ، وأمشي متطاولًا بين ممتلكاتي، وتنتابني لدغة الصمت، والشك عن إذا كانت هذه الرفاهية ليست خيرًا بعد كل هذا، ولا شيء من هذا يغيرني بل لا يوقعني في ضيق.

١-١٠ لقد قررت أن أتبع تعاليم معلمينا، وأدخل الحياة السياسية، وقررت أن أفوز بالمنصب والحزمة *fasces*، وذلك لأن الصولجان والأرجواني لا يغوياني، بل لأكون أكثر نفعًا واستعدادًا لعون أصدقائي وأقاربي وكل مواطنينا بل البشر أجمعين، وأنا أتبع بيسر زينون وكليانتس وخريسبوس، ولا أحد منهم قد دخل الحياة العامة، ولم يفشل أحدهم أن يمنع الآخرين.

١-١١ وحين يُزعزع قلبي شيء ما، ويقرع على غير المعتاد حولي حين يحدث شيء لا يستحق كأشياء كثيرة في حياة البشر، أو يبطئ في سيره، أو حين تتطلب المسائل قدرًا كبيرًا من الزمن، فإنني أتحول للراحة مثل الماشية المنهكة تروح للبيت بخطوات سريعة، لقد قررت أن أحبس حياتي بين جدراني، "ولن أدع أحدًا يأخذ مني يومًا لا يعود إليَّ بكثرة النفقة، وأدع عقلي ينكب على ذاته ويراقبها، ولا يفعل شيئًا غريبًا عن احتياجاته، فلا شيء يتطلب موافقة الحاكم، وأدعه يحب السكينة ويخلو من الانشغال العام والخاص".

١-١٢ وحين تحفز بعض مسائل القراءة الجادة عقلي وتحثني النماذج النبيلة، فإنني أود أن أقفز نحو الحياة العامة في المنتدى الروماني، وأعير صوتي

لرجل وخدماتي لرجل آخر[٣١١]، وأحاول أن أسدي بعضًا من الخير حتى لو لم ينفعه، وأراجع سلوكًا فظًّا اتبعت بعضه على نحو خاطئ منتفخ بالحظ الحسن.

١-١٣ وأعتقد يقينًا أنه من الأفضل أن تركز الكتابة على مواضيع تأملية حقيقية وتتحدث بصددها، وتترك الكلمات تتبع الأفكار، وتتعقب الكلام البسيط حيث يقودها، فلماذا تستعمل الكتابات المعقدة الموجهة للأجيال، ولماذا لا تكف عن محاولة طمسك بين النسل القادم؟ إنك ولدت للموت، فالجنازة الصامتة أقل إثارةً للقلق، وحتى تُشغل الزمن اكتب شيئًا بأسلوب بسيط تستعمله أنت وليس للإعلان عن النفس.

١-١٤ ولا يقل جهد الناس إذا تدارسوا كل احتياجاتهم اليومية، في حين يرقى العقل بعظم تأمله، ويصير طموحًا في لغته، ويحرص على الحديث بسمو يوافق الإلهام، فمنتوج الكلام مطابقة لجلال قضاياه، ومن ثم أتغاضى عن الحكم أو القاعدة الأكثر انضباطًا، فإني وُلدتُ سامقًا ببيان لا أملكه.

١-١٥ لا أقتفي أثر التفاصيل لفترة أطول، فهذا الضعف للعقل الحسن يتبعني في كل عمل، وأخشى أن أهرول فارغًا في الفترة الأقصر أو يزيد قلقي وأقف على حافة السقوط، وربما قد تزيد جدة العمل بأكثر مما أفطن؛ لأننا ننظر إلى أعمالنا الحالية بعاطفة هادئة، والمحاباة تعرقل الحكم الحسن دومًا.

١-١٦ وأعتقد أن كثيرًا من الناس بمقدورهم أن يبلغوا الحكمة إن لم يعتقدوا أنهم حازوها بالفعل، وإن لم يخفوا بعض الجوانب من أنفسهم ويستخفوا

---

(٣١١) المنتدى الروماني هو ميدانٌ عامٌّ مستطيل الشكل كان يقع في مركز مدينة روما القديمة، وكان مركزاً للعديد من الأبنية الحكومية الرومانية الهامة، وكان المنتدى منذ الحكم الروماني المبكر مكانًا واحدًا، ثم أضاف أوغسطس منتدى آخر وهو منتدى أوغسطس، حيث عقدت المحاكم المدنية والجنائية في المنتدى المفتوح، وتدوال فيه رجال التجارة والعملاء، وكان في البداية محلًّا للنخبة وخدمة الدولة ذاتها(المترجم).

الأخرى بأعين مكفورة، وليس هناك ما يدعوني أن أحكم بأن فسادنا يزيد بمداهنة الآخرين وليس أنفسنا، فمَن الذي يجرؤ أن يخبر ذاته بالحقيقة؟ ومن الذي لا يداهن نفسه بإفراط بين المخادعين والمثنين على الرفقاء؟

١-١٧ ولذلك أسألك إن كان لديك علاج لتضع نهاية لتقلبي، حتى أعتقد بأنني أستحق أن أدين لك بسكينتي، وإنني أعلم أن اضطرابات العقل لا تهدد الحياة ولا تجلب اضطرابًا حقيقيًا، ولكني أعبر لك عن شكواي بصدق، وأنا لست مكلومًا بالعاصفة[٣١٢] بل بدوار البحر، ولذلك خذ مني مهما كان الشر وأقبل على عوني كما لو كنت متعثرًا في رؤية الأرض.

٢-١ وقال سينيكا في الحقيقة: يا سيرينيوس، قد أسأل نفسي بصمت الآن، ما الذي يتساوى مع هذه الحالة في العقل، ولن أُقبل على أي توازٍ أقرب من حالة هؤلاء الذين يتعافون من أمراض مستديمة وخطيرة تحل بشكل متقطع بحمى طفيفة أو صدمات خفيفة، وعندما هربوا من أثرها لا يزالون مضطربين بعدم الأمن وتمتد أيديهم للأطباء حين يكونون أصحاء بالفعل، ويفكرون بالمرض كلما لاحت الحمى في أجسادهم، فجسد هؤلاء يا سيرينيوس ليس صحيحًا، بل غير معتاد للصحة مثل ارتجاف البحر الهادئ حين يتعافى من العاصفة.

٢-٢ ليس هناك حاجة لهذه العلاجات القاسية التي قمنا بها بالفعل، والتي قاومتها نفسك تارةً وأغضبتها تارةً وضغطت عليها بشدة تارةً أخرى، ولكنك تحتاج ما يعالجك تمامًا حتى تتيقن وتؤمن بأنك تسير على المسار الصحيح، ولا تدع نفسك تتحول بالمسارات المعاكسة التي يركض فيها كثير من الناس هنا وهناك ويطوفون حول المسار ذاته.

٢-٣ لأن ما كنت تتوق إليه شيء عظيم ومأثرة سامية وهي القرب من الرب لا

---

(٣١٢) ويستدعي التصوير العرضي للبحر والعاصفة على طول الحوار الشعور الأصيل للسكينة- هدوء البحر.

أن تكون مذبذبًا، ويطلق اليونانيون على هذا التوازن الثابت للعقل يوثيما *euthymia* (هناك أطروحة بديعة لديمقريطوس عنها)، وأدعو إلى هذه السكينة ولا نملك أن نحاكي أو ننقل كلماتها في الصورة التي استعملوها، بل ما علينا أن نلحظه هو الشيء الفعلي في الاسم، وهو المعنى وليس الصورة التي صاغها اليونانيون.

٢-٤ ولذلك نحن نبحث كيف يمكن للعقل أن يتحرك دومًا بوتيرة ملائمة وينظم ذاته تمامًا، ويسعد بالنظر إلى طبائعه ولا يعيق هذه الفرحة، بل يبقى في حال هادئ لا يرفع نفسه للأعلى ولا يخفض ذاته للأسفل، وهذه هي السكينة، ودعنا ندرس كيف يمكننا أن نصل إلى هذا عمومًا.

٢-٥ وسوف تأخذ بقدر ما تريد من هذا العلاج الشامل، وفي الوقت نفسه علينا أن نسحب الرذيلة إلى الفضاء حيث تمامها حتى يمكن للجميع أن يدرك قسمته، وحين تفهم كيف تقل المتاعب بامتعاض النفس[٣١٣] أكثر من ارتباطك بالبهرجة والإثقال بالهدوء القاتل سوف تبقى في ذريعتهم بالخجل بدلًا من إرادتهم.

٢-٦ والجميع يواجه المشكلة نفسها، وكل امرئٍ يضجر من عدم الاستقرار والملل والتغير المستمر للغايات، فمنهم مَن يفضل أن يتركهم خلفه، ومنهم الذي يشحب ويتثاءب، وأضف إليهم مجموعة أخرى تصد وتنعطف مثل المؤرقين ويغيرون الموقف بهذه الطريقة إلى أن يجدوا الراحة من الإنهاك المضني، وبإعادة صياغة حياتهم يستقرون أخيرا في المزاج الذي تجاوزوه ليس بالنفور من التغير بل بالشيخوخة التي أقعدتهم عن الابتكار، وأضف مجموعة أخرى ليسوا مستقرين أيضًا؛ ليس بخطأ الاتساق بل بضعف القدرة،

---

(٣١٣) عن امتعاض النفس *fastidium sui* والاستعمالات المختلفة *fastidium sui* في العموم انظر *chap. 5 of Kaster 2005*.

ولا يعيش هؤلاء كما يريدون بل كما بدأوا.

٢-٧ ولهذه الرذيلة خصائص لا حصر لها ومخرج واحد فحسب لتستاء بالنفس، ويأتي هذا من العقل الرديء المتحول، ومن الرغبات الخجولة أو غير المحققة، وحين لا يجرؤون على أن يرغبوا بقدر ما أو لا يحققونها أو يشدهم الأمل فإنهم لا يستقرون ويتقلبون كما يحدث للرجال في التشويق، وهم يكدحون نحو غاياتهم بكل طريقة، ويجرون على أنفسهم مساعيَ شاقة ومهلكة، وحين يذهب مجهودهم سدى يعذبون بالعار الذي لا طائل تحته والحزن، ليس لأنهم يبتغون الأشياء الضرورية، بل يريدون الأشياء التفاهة.

٢-٨ ومن ثم يتملكهم الندم في تعهدهم والخوف من محاولة هذا، وهناك يتسلل إليهم العقل الذي لا يجد مخرجًا؛ لأنهم لم يتحكموا في رغباتهم ولم يشبعوها، فحيرة الحياة لا تعمل خارج ذاتها، ولا تتجاهل النفس الخاملة بين غاياتها المنبوذة.

٢-٩ وكل هذه الأمور عبء ثقيل حيث تتجذر عن النفور لفشلهم المضني الذي يلجؤون إليه في الراحة وفي العزلة والدراسة والتي تُرقي العقل للواجبات المدنية والتحمس لأعمال لا يمكن أن تحملها، وليس لها طبيعة قلقة وتشتمل على قليل من السلوى الباطنة، ولذلك حين تُسحب الملذات التي تسعى لإشغال الناس الذين يركضون حولها، فإن عقولهم لن تتحمل المنزل والعزلة وجدرانها، ويكرهون التأمل الذي تخلو به النفس.

٢-١٠ ولا يستقر ملل النفس وسخطها وقذف العقل والتجهم والحمل الذي يُمرض الراحة، وقد يحدث أكثر من هذا حين يشعر المرء بالخزي لقبول الأسباب، ويدفي الخزي بالعذاب داخله، وتتحدد الرغبات في مساحة صغيرة وتخنق نفسها دون أي هروب، حيث يقبل الحزن والذبول وألف موجة تقذف العقل الشاك، ويظلون معلقين بآمال لن تتحقق، وحزانى بآمال تخلوا عنها للضياع،

ومن هنا تُقبل الحالة العاطفية للناس فتذبح راحتهم، ويشكون أنه ليس لديهم ما يفعلونه، والحسد هو أعظم عداء لتقدم الآخرين، حيث يغذي التراخي الفاشل كآبتهم فيرغبون في تحطيم الجميع؛ لأنهم لم يتمكنوا من التقدم.

٢-١١ والغضب من نجاحات الآخرين والقنوط من إنجازاتهم يولد عقلًا ساخطًا من الحظ ونادبًا لعصره ومنسحبًا إلى زوايا ليتفادى العقاب، إلى أن يشعر المرء بالضجر والخجل من نفسه، حيث تنشط طبيعة العقل البشري وتخضع للحركة، وأي مصدر يثير النفس فهو موضع ترحيب، وأسوأ أنواع العقول الذي يسعد بالبقاء مشغولًا بأي طريقة، كما تبحث بعض القروح عن أيدٍ تصيبها وتنعم بالحك، ومهما كانت مباهج السخط فإن القبح يشوه أجسادهم، وأود أن أقول إن العقول التي تندلع رغباتها مثل قرحة منتنة تقتبس اللذة من الكد والأذى.

٢-١٢ وتبهج بعض الأشياء جسدنا بنوع من الألم مثل تحول الجسم وتوجهه ناحية الجانب الذي لا يتعبه سعيًا لاستعادة النشاط من موضع إلى آخر، وهذا النوع من الناس مثل أخيلوس في هوميروس حيث يرقد على ظهره تارةً وعلى وجهه تارةً أخرى، وهو يعيد ترتيب نفسه في مواضع مختلفة مثل الرجل المريض، لا يثبت على موضع لفترة طويلة ويتعامل مع التغيرات كنوع من العلاج.

٢-١٣ ولهذا السبب يتجول الناس في أسفارهم ويهيمون حول المنتجعات الشاطئية، حيث إن ضجرهم يُعادي ظروفهم الحاضرة دومًا، فيختبرون أنفسهم بالبحر تارةً وعلى الأرض تارةً أخرى، «دعهم يمرحون بالمزارع كامبانيا *Campania* الآن"، وقريبًا سيجلسون بالمنتجعات الفارهة»، "ودعهم يمرحون ويرون البلاد البربرية ويعملون من أجل مربى بروتيوم *Bruttium* ولوكانيا *Lucania*. ولكن حتى في المناطق غير المأهولة يفتقدون المفاتن حتى يمنحوا أعينهم المدللة الراحة من امتداد الإهمال للتضاريس الوعرة»، "دعهم يمرحون في

تارينتوم *Tarentum* بمينائها المشيد وطقس شتائها المعتدل وثراء مناطقها النائية"، "الآن دعهم يتحولون عن المدينة"، فقد يحرمون آذانهم من التصفيق لفترة طويلة، والآن يحرصون على التمتع بإراقة دماء البشر(٣١٤).

٢-١٤ وشرعوا في رحلة تلو الأخرى، وتحولوا من حفلة إلى أخرى كما يقول لوكريتوس *Lucretius* لهذا السبب يهرب كل إنسان من نفسه، ولكن إلى أين يهرب إن لم يهرب من نفسه؟ إنه يهرب إلى رفقائه الذين يدفعونه، فالرفقاء هم مَن يتحملون العبء الأعظم.

٢-١٥ وعلينا أن ندرك أننا نعاني لا لخطأ في محيطنا بل لخطأ فينا، ونحن أضعف من أن نتحمل أي شيء، فلا نتحمل كدًّا ولا سعادة ولا حتى أنفسنا، ولا أي شيء لفترة طويلة، وقد تدفع هذه الحالة بعض الناس إلى الموت؛ لأنهم حين يغيرون غاياتهم باستمرار يرتدون إلى النظام نفسه، ولا يتركون مجالًا للتجديد، فيتخمون بالحياة والعالم ذاته، وقد يُجهز عليهم النواح القديم للانغماس الفاسد، "فمتى نختبر الأشياء ذاتها؟".

٣-١ وأنت تسألني ما الذي تستعمله ليعينك تجاه هذا الملل، إنه من الأفضل كما يقول أثينودوروس *Athenodorus*(٣١٥) أن تبقى النفس منشغلة بالأعمال وتدبير الشؤون العامة وخدمة المواطنين، كما يقضي بعض الناس النهار في الشمس المفتوحة يمارسون التمارين ويعتنون بصحتهم الجسدية، والأكثر نفعًا للرياضيين أن يغذوا أذرعهم ويقووها، وهذه هي مهمة يكرسوا لها الجزء

---

(٣١٤) لقد عبرت رسالة هوراس *Horace Epistles* عن هذا في ١-١١-٢٦ ("الرجال الذين يندفعون للبحر يغيرون بيئتهم ولا يغيرون حال عقولهم") وقد سبقهم لوكريتوس، ويقتبس سينيكا من لوكريتوس *Lucretius 3.1068* فقرة ممتدة تصف سخط النفس *self-discontent* وأثره على السلوك.

(٣١٥) كان أثينودوروس الطرطوسي معلمًا للفلسفة لأوغسطس الشاب، ومقدم المشورة للعائلة الإمبراطورية، ولسنا على يقين أنه ترجم الاقتباس، وهو مجرد إعادة صياغة لتعليمه البدايات والنهايات، ولقد تابعت نص رينولدز *Reynolds* (١٩٧٧)، والذي خصه في ٣-٢-٨.

الأكبر من وقتهم، ولذلك حين تعد عقلك لصراع الشؤون المدنية، فهذا إلى حد بعيد جميل حيث تُشغل نفسك بنشاط؛ لأن المرء حين يعتزم أن يصنع من نفسه نافعًا لمواطنيه والبشرية عامة فإنه يُدرب نفسه ويطورها في خضم الخدمات العامة وإدارة كل من الأعمال الخاصة والعامة وفقًا لقدرته.

٣-٢ وهو يقول «ولكن»؛ «لأن البساطة غير آمنة في هذه الحياة التي يخيم عليها طموح الافتراء لإحباط العمل الحق وإظهاره على أنه سيئ، والإعاقة فيها أكثر من الدعم دومًا، ولذا ينبغي أن ننسحب من ميدان الحياة العامة، ومن ثم على العقل العظيم أن ينفتح على ذاته حتى لو في أعماله الخاصة ولا يندفع لطريق المخلوقات الضارية والوحوش التي تُحتجز في أقفاص، أليس صوابًا أن تتجلى أعظم أعمال البشر في التقاعد.

٣-٣ ولذلك دعه يذهب إلى التقاعد بشرط أن تكون العزلة له ترفيهًا، إنه أراد نفع الأفراد والمجتمع برمته بنظره وقوله ونصيحته، والحق أنه ليس هو الشخص المرشح للمنصب والمدافع عن التهم والمانح لرأيه في الحرب والسلام، إنه النافع للدولة، والمشجع للشباب، والمانح للتعليم الحسن لنقصه الحاد، والغارس للفضيلة في العقول، وهو القابض والمحجم لمَن يُسارعون لكسب الأموال والتمتع بالرفاهية أو على الأقل يبطئهم، فهذا الشخص يقوم بأعمال عامة في قالب خاص.

٣-٤ أو يعمل قاضيًا يحكم بين الغرباء والمواطنين، أو حاكمًا *praetor* حضريًّا يعلن آراء مساعديه للذين يستشيروه، أو يعمل أكثر من هذا فيفسر العدالة أو التقوى أو التحمل أو الشجاعة أو يتأمل الموت ومعرفة الأرباب، فكيف يمنح البركة بحرية وهو حسن الضمير(٣١٦)؟

---

(٣١٦) لا يزال سينيكا يفكر في مهن السيناتورات والقادة، وكان البرايتور الأجنبي *praetor peregrinus* يشرف على الخلافات بين الرومانيين والأجانب، ويترأس البرايتور المدني *urban praetor* الخلافات بين المواطنين.

٣-٥ ولذلك إذا كرستَ الوقت للدراسات التي استنبطتَها من واجبات العامة، فلا ترتد أو تتنحَ عن هذا العرض، فليس المقاتل مَن يعمل كجندي فيقف في خط المعركة ويدافع عن الميمنة والميسرة، بل هو الرجل الذي يحرس البوابات ويُؤدي وظيفة أقل خطرًا شرط أن تكون بعيدة عن الخمول، ويظل مراقبًا ومشاركًا في إعدادات الحرب، مع أن هذه الخدمات خالية من إراقة الدم إلا أنها مناصب عسكرية.

٣-٦ وإن استدعيت نفسك للدرس، فسوف تهرب من أي نفور للحياة، ولن تقضي الليل خوفًا من طلوع النهار، ولن تُكلف نفسك، ولن تضيق على الآخرين بلا ضرورة، وسوف تفوز بمزيد من الأصدقاء، وأفضلهم سوف يمضي نحوك، فرغم أن الفضيلة خفية فلن تمضي دون أن يلاحظها أحد، بل ترسل إشارات من ذاتها، ومَن يستحقها سوف يجدها من مسالكها.

٣-٧ لأننا إذا استبعدنا كل الوصال الاجتماعي وتنكر جنس البشر وأقبلت الحياة علينا فحسب، فإن نتيجة هذه العزلة التي تحرم من الدرس ستقلل الأشياء التي نعملها، في حين نبتغي أن نُشيد بعض المباني ونهدم أخرى، وندفع البحر للخلف، ومن ثم مسارات التيارات لنصارع صعوبة الموقع، ونجعل الاستعمال السيئ للوقت طبيعة أُعطيت لنا لنمضي بها.

٣-٨ فبعض منا يستخدمها بشكل متقطع، والبعض الآخر يبددها، وبعضنا يقضيها بنفس الطريقة التي تمكننا أن نعطيها بها، والبعض الآخر لا يُبقي لنا شيئًا وهو الأكثر خزيًا من هذه الحالات، وغالبًا ليس للرجل الكهل دليلٌ يبرهن به على أنه عاش طويلًا سوى عمره الفعلي.

٤-١ عزيزي سيرينيوس، يبدو لي أن أسينودوروس سلم نفسه لزمننا وتقاعد في الحال، ولا أنكر أنه ينبغي أن نفسح المجال في وقت ما، ولكن علينا أن نرتد بمعاييرنا ومنزلتنا العسكرية التي لا زلنا نُبقي عليها للخلف تدريجيًّا، حيث

الرجال الأكثر احترامًا وسلمًا مع أعدائهم حين سلموا أسلحتهم كاملة، وهذا ما أظن ما أنه ينبغي أن تصنعه الفضيلة ومحبها.

٤-٢ وإذا تغلب عليه الحظ(٣١٧) وقلل من قدرته على الفعل، فلا ينبغي عليه أن يتحول على الفور ويهرب أعزل ساعيًا لمخبأ، كما لو كان لا يلاحقه الحظ في أي مكان، بل عليه أن يدنو من واجباته باعتدال وينتقي بعض الأنشطة التي يمكن أن تنفع الدولة.

٤-٣ ولا يُسمح له بالعمل كجندي، ومن ثم دعه يسعى لمنصب، وعليه أن يعيش كمواطن بنمط خاص فدعه يكون داعيةً، إنه مفروض عليه الصمت فدعه ينفع مواطنيه بشجاعة صمته، فهل محظور أن يدخل المحكمة؟ فدعه يمثل العشير الحسن والصديق المخلص والضيف المعتدل في بيوت الناس والمنافسات الرياضية والحفلات، فهل فقد واجبات المواطن؟ فدعه يؤدي واجبات الوجود الإنساني.

٤-٤ وبهذه الطريقة وبالعقل المترفع لا نقيد أنفسنا داخل أسوار المدينة عينها، بل ندفع أنفسنا للقيام بأعمال مع العالم كله ونُظهر للعالم وطننا، ولنمنح فضيلتنا مكانًا أرحب، وإذا أُغلق عليك كرسي القضاء، وحُرمت من حديث المنبر والمجلس(٣١٨)، انظر خلفك لترى مدى رحابة الأقاليم والشعوب التي تقطن وراءها، وليس هناك مكانٌ يمنعك أن تكون عظيمًا، وليس ما تركته هو أعظم مكان.

٤-٥ ولكن التفكير في إذا كانت هذه الأشياء وساوس وليست رذيلة حيث إنك

---

(٣١٧) يعتبر الحظ مسؤولا عن جميع المصائب غير المستوجبة على ما يبدو، وبجانب العمل في الحياة السياسية، فإنه يأخذ دورًا بارزًا في الفصل الثامن فصاعدًا.

(٣١٨) يحظر على الرجل المحكوم عليه بالنفي أو الفضيحة *infamia* من الظهور في المحكمة أو حضور الجمعية الشعبية، ولا يمكن لأي أحد أن يظهر على منصة المتحدث إلَّا إذا دُعي من رئيس المحكمة، ويشير سينيكا إلى التناقض باستحضار الوظائف غير الرومانية من بريتانيس *prytanis* وكيروكس *prytanis* وسيفيس *Sufes*.

ترغب في المشاركة في أعمال الدولة كقنصل فقط أو كممثل للقضاء أو كرسولٍ في الإغريق أو رئيسا للدولة في قرطاجة، فهل تفترض أنك ليست على استعداد للمشاركة في المعركة إلا إذا كنت قائدًا أو زعيمًا؟ وحتى لو شغل الآخرون الخط الأول ووضعك قدرك في الخط الثالث، فقاتل من هناك بصوتك الشجاع والمثالي والمعنوي، وقف راسخًا مع الذي قُطعت يداه ودعمه بصرختك حتى يجد شيئًا ما يشارك بجانبه(٣١٩).

٤-٦ وهكذا أصنع شيئًا من هذا النوع، وإذا أبعدك الحظ عن المستوى الأول في الحكومة، فقف وامنح الدعم بصرختك، وإذا ضيق امرؤٌ عليك الخناق قف وامنح الدعم بالصمت، فمسعى المواطن الصالح لا يذهب سُدى؛ فإنه يُسمع ويُرى بتعبيره، وإيمائه ومثابرة صمته، وحتى طريقة المشي هي من سبيل العون.

٤-٧ وكما أن بعض الأدوية مجرد الرائحة فيها نافع دون تذوقها أو تجرعها، فكذلك الفضيلة خفية وبعيدة، إلَّا أن قيمتها رائجة سواء درستها وتمرست صحيحها على ذاتها أو وجدث هجمة خطرة وأجبرت على لف أشرعتها، وسواء أكانت خاملة وصامتة وحددت في مكان ضيق أو كانت مجالًا مفتوحًا، فكل حال للفضيلة نافع، فلماذا تعتقد أن الإنسان الذي يظل صامتًا ليس صالحًا كمثال؟

٤-٨ ولذلك من الأفضل إلى حد بعيد أن تخلط الراحة بأعمالك الخاصة كلما منعت حواجز الصدفة وحالة الدولة حياة العمل؛ لأن كل الخيارات لم تكن مُسيجةً تمامًا ولم تترك مجالًا للعمل الشريف.

٥-١ هل يمكنك بأي حال أن تجد مدينةً أكثر بؤسًا من أثينا، حين مزقها الطغاة

(٣١٩) يستدعي هذا أسطورة شقيق أسخيلوس الذي فقد يديه في سلاميس ولكنه قاتل، ويردد لوكان ابن شقيق سينيكا هذه الأسطورة في روايته لبطل خيالي في معركة بحرية في ماسيليا *Massilia*، وقد اختلق مونتي باثون *Monty Python* في فيلم كوميدي فارسًا يقاتل رغم أنه حرم من أطرافه الأربعة.

الثلاثون إربًا؟ إنهم قتلوا ألفًا وثلاثمائة مواطنٍ من أفضل الرجال، بل لم يضعوا نهاية لهذا فقد حفزت وحشيتهم ذاتها، وفي هذه المدينة التي عقدت فيها أريوباجوس *Areopagus* وهي أكثر المحاكم تدقيقًا، وكان فيها مجلس للشيوخ، وشعب مماثل لمجلس الشيوخ اجتمع فيها مجموعة النحس الجلادين كل يوم، واحتشد الطغاة في مجلس الشيوخ التعس، فهل يمكن رَوَاح الدولة في ظل الطغاة مثلما كانت عليه في ظل المخلصين؟ إن عقولهم لم تتمتع حتى بأمل لاستعادة حريتهم، ولم يلحْ في الأفق علاج للقوة العتية للشر، فكيف للمدينة الفقيرة أن تجد هارموديين *Harmodii* (٣٢٠) كثر.

٥-٢ وكان سقراط منفتحًا في الحياة العامة وأثنى على الآباء وحث الرجال اليائسين من الدولة، ولام الرجال الأثرياء وخوَّفهم من عواقب ثرائهم؛ لأنهم أدركوا متأخرًا المخاطر التي جلبها عليهم جشعهم، وتحمل أن يكون مثالًا عظيمًا لمَن رغبوا أن يحاكوه، وسار حرًّا بين ثلاثين سيدًا.

٥-٣ ولكن أثينا نفسها قتلته في محبسه، ولم تتحمل الحرية حرية الرجل الذي أثار بسلام حشد الطغاة، وتعلم من هذا أنه حتى في دولة الاضطهاد هناك فرصة للرجل الحكيم ليضع نفسه في المقدمة، وأن الدولة السعيدة والمزدهرة يهيمن عليها الحسد وآلاف الشرور الأخرى.

٥-٤ ورغم أن الحكومة تمثل نفسها، ورغم ما يسمح به الحظ، فإننا سنوسع أنفسنا أو نقلصها بالطريقة التي نرتضيها نحن، وعلى أي حال، اتخذ القرار ولا تشله أو تخنقه بالخوف، وفي الحقيقة أن الرجل الذي تهدده المخاطر من

(٣٢٠) استولى الطغاة الثلاثون على حكومة أثينا عام ٤٠٤ ق.مبناء على طلب الأسبرطيين المنتصرين، وشملت المؤسسات الديموقراطية الأريوباجوس *Areopagus* وهو محكمة دينية قديمة، والأبول *boule* وهو مجلس الخمسمائة، والكنيسة *ecclesia*، والجمعية المفتوحة للمواطنين، والمجمع الخطابي *Harmodii* ويرمز للمقلدين هارموديوس *Harmodius* وإريستوجيتون *Aristogeiton* اللذين اختالا الطاغية هيبارخوس *Hipparchus* عام ٥١٤ ق.م، ولقد نجا سقراط من الطاغية، ولكن حكم عليه بالموت من قبل ممثلي الديموقراطية المرممة عام ٣٩٩ ق.م.

كل جانب وتحيط به السلاسل والقيود ولم يقمع أو يخفي فضيلته ذلك هو البطل، فدفن النفس ليس شكلًا من صور الخلاص.

٥-٥ لقد قال كوريوس دينتاتيوس *Curius Dentatus*[(٣٢١)] الحق على حد اعتقادي حين رأى أنه يفضل الموت على الاستمرار في الحياة؛ لأن أسوأ المحن أن تتخلى عن مراتب العيش قبل أن تموت، ولكن إذا صادفتَ فترة وجيزة في السياسة سوف تراها أكثر وقت للهدوء في الراحة والدراسة كما لو كنت تتعجل سرعة العودة للميناء بعد رحلة خطرة، ولا تنتظر أن ترسلك الأعمال بعيدًا بل خلص نفسك منها.

٦-١ والآن ينبغي أن نفحص أنفسنا قبل كل شيء، ومن ثم العمل الذي نقوم به، ثم الناس الذين نعمل لأجلهم ومعهم[(٣٢٢)].

٦-٢ وعلينا أن نُقيم النفس ذاتيًّا[(٣٢٣)] قبل كل شيء؛ لأننا نعتقد بأننا قادرون على أن نفعل بأكثر مما نستطع فعليًّا، فأحدنا يتعثر بثقته في بلاغته، وآخر قد يستدعي من ملكاته الموروثة أكثر مما تتحمله، وآخر قد يرده ضعف المزاج مع الواجب الشاق، وليس تواضع البعض مناسبًا للحياة العامة التي تحتاج إلى نظرة واثقة، وجهل الآخرين لا يناسب المحكمة، فهناك مَن لا يسيطر على غضبه، وقد يحملهم أي سبب للغضب إلى الكلمات النابية، وهناك مَن لا يسيطرون على خفة دمهم ولا يمتنعون عن النكات المحرجة، فمثل هؤلاء التقاعد لهم أولى من العمل، الطبيعة نافذة الصبر والشعواء ينبغي أن تتجنب

---

(٣٢١) كان كوريوس قنصلًا عام ٢٩٠ ق.م واشتهر لرفضه المثالي لرشوة العدو، وكذلك أسلوب حياته البسيط (*Valerius Maximus 4.3.5*)، ولم أعثر على مصدر لهذه الأقوال.

(٣٢٢) يبدو أن هذه قائمة بمواضيع سينيكا بالتسلسل، فالتقييم الأول على قدراته، ثم الجرأة التي يتحلى بها، ثم روابط الإنسان أو المستفيدين، ولكن هذا مجرد تحليل جزئي للفصول الآتية من ٦ إلى ٩.

(٣٢٣) يستدعي هذا التقييم للذات الفحص الذاتي الأولي لسيرينوس والإشارات التالية لنقد الذات في ٢-٧ و٢-٩ و١٤-٢ أدناه.

استفزازات الصراحة التي ستضر بهم.

٦-٣ وعلينا أن نُقيم المشاريع التي نتعامل معها ونطابق قوتنا أمام الأعمال التي نحاول أن نؤديها، حيث يجب أن يكون الأداء أكثر قوة من العمل المطلوب دوما، فإن عظمت الأعباء على المتحمل تقهره بالضرورة، وبجانب هذا ليست بعض المشاريع عظيمة بقدر ما تنتجه وتتحمله أعمال أخرى بها، وبعضها يُولى من أن تتولد انشغالات أخرى جديدة لها جوانبها المختلفة، فابتعد عن أي شيء ليس فيه حرية الانسحاب، وضع يدك على مثل هذه الأعمال بقدر ما تستطيع أو على الأقل بقدر ما تأمل أن ترى نهايتها، وتخلَّ عمَّا يمتد بعيدًا في سير العملية، ولا تُقبل على النهاية التي تحددها أنت.

٧-١ وفي أيي حال علينا أن نحذر في اختيار الناس سواء أكانوا يستحقون أن نضع جزءًا من حياتنا في ثقتهم أم كانوا يضيعون وقتنا إن امتد إليهم، حيث إن بعض الناس مدينون بخدماتنا في خطوتهم الأولى.

٧-٢ وكان أثينودوروس يقول إنه سوف لن يلبي دعوة عشاء لمن لا يشعر بأنه مدين له بهذا العشاء، وأعتقد أنك تدرك سوف يذهب لمَن يقل استعدادهم للذين يستعملون سفرتهم ليخلصوا لواجبات أصدقائهم، والذين يعدون الوليمة كما لو كانوا يفعلون الكرم وغير مقيدين في الشرف بدخيل، فنأى عن شهودهم ومتفرجيهم وأكل منازلهم الخاص(٣٢٤) الذي لا يُعطي أي لذة، وعليك أن تتأمل سواء أكانت طبيعتك مناسبة للعمل الفعال، أم الدراسة في الراحة والتأمل، واتكئْ على الاتجاه الذي سيحمل قوة عقلك، فقد وضع أسيوقراطيس *Isocrates* يده على أفوروس *Ephorus* وأخذه بعيدًا عن الحياة

(٣٢٤) تدين هذه العبارة الغريبة تقديم دعوات العشاء على أنها وفاء بالالتزامات تجاه التابعين والمرؤوسين، كما لو كان المستفيد يستعمل قاعة عشائه كمنزل للأكل الرخيص في حين دفع الوضعاء ثمن ما أكلوه.

العامة معتقدًا أنه من الأفضل له أن يسجل وقائع التاريخ[٣٢٥]. والحقيقة أن العقول المجبورة تستجيب بالإكراه حين تقاوم الطبيعة ويهدر الجهد.

٧-٣ ومع ذلك لا شيء يبهج العقل بقدر الصدق والصداقة العذبة، وعظيم بركتها يكون حين يستعد الصدر لتلقي كل سر ويأمن عليه، والذين يتحدثون بلين في قلقك، والذين ييسر رأيهم قرارك، والذين يهزمون حزنك بالبهجة، ولذلك مجرد النظر إليهم يُبهجك! وسوف نختار أولئك المتحررين من الرغبات، وهذا ممكن إلى حد بعيد؛ لأن الرذائل تنتشر وتقفز مهما أحكمت اليد وتلحق الضرر بعدوتها.

٧-٤ كما في الطاعون، نحن لا نحرص على الحفاظ على الذين تملك أجسادهم المرض وأصابهم؛ لأننا سنقلص المخاطر ونتكبد من مجرد أن نجعله يتنفس، وحين نختار صفة الصديق، فإننا نأخذ الآلام لتتبنى الإصابة على الأقل، وإن بداية المرض خلط العناصر الصحيحة والسقيمة، وأنا لا أنصحك أن تتبع أو يستهوى نفسك أحدٌ سوى الحكيم، فأين نجد المرء الذي نبحث عنه لكل العصور؟ والذي يسمح للسيئ أن يقدم نفعًا كالأفضل على الأقل.

٧-٥ وصعب أن تجد فرصةً لتختار الأفضل إن كنت تسعى للأخيار من بين الأفلاطونيين والأكسينوفانيين وحضنة سقراط، أو إذا تجاوزت جيل كاتو الذي أنجب رجالًا عدة يستحقون أن يولدوا في زمن كاتو[٣٢٦] (كما وجد أسوأ الناس أكثر من أي عصر آخر احترفوا أبشع الجرائم، وكلا الفريقين كان موضع تقدير كاتو، فقد احتاج للأخيار ليثني على ذاته وللخبثاء ليختبر

(٣٢٥) أرشد أسيوقراطيس *(Isocrates 436–338 bce)* طلابه الصفوة في الخطابة، ويقال إنه شعر بأن تلميذه إفوروس *Ephorus* احتاج التشجيع ليرفع من شأنه، ومن ثم حاذقًا في الكتابة التاريخية، فأعماله التاريخية المكثفة كانت معروفة، ولكنها بقيت فقط في مقتطفات كتّاب لاحقين مثل ديدوروس *Diodorus*.

(٣٢٦) مَن كاتو؟ إنه الرقيب المعروف بفضيلته وحيويته *(b. ca. 235 bce)* أو انحداره من سلالة أوتيكا *Utica*، واشتهر باستقامته الرواقية وعيشه في جيل الحرب الأهلية، ويعني سينيكا على الأرجح كاتو الأخير.

سلطته)، وكما هو الحال الآن، إن كان هناك نقص في الأخيار سيتقلص الاختيار على المتميزين.

٧-٦ وعلى المرء أن يتجنب الرفقاء المتجهمين الذين يأسوا من كل شيء، أي الذين يبررون أي عذر ليقيموا شكواهم، وحتى لو كان ولاؤه وحسن نيته يقينًا فإن الرفيق المضطرب الذي يتأوه في كل شيء عدو للسكينة.

٨-١ ودعونا ننتقل إلى الخصلة الموروثة، وهي أردأ وقود للويل البشري، وإذا ماثلته بكل العلل الأخرى لمحنتنا مثل الموت والمرض والخوف والشوق وتحمل الألم والكد وبكل أمور البؤس التي يمدنا بها المال، فإن هذا الجانب سوف يزن كفته.

٨-٢ وهكذا علينا أن نفكر في كيف يقل الألم الذي يأتي من عدم الحصول على الثروة أكثر من فقدانها، وسوف ندرك أن الفقر قد يقل معه العذاب حيث تقل فيه الخسارة، وإنك مخطئ إذا اعتقدتَ أن الأثرياء يتحملون خسارتهم بروح سامية، فقد يتساوى ألم الجرح في أصغر وأضخم الأجسام.

٨-٣ وقال بيون *Bion*[٣٢٧] بعناية لا تقل المشقة في انتزاع الشَّعر من الصلعان عن الذين لديهم شَعر حسن، وبمقدورك أن تتقين من التشابه في حالة الفقير والغني، حيث إن مشقتهم متشابهة، فكل مال المرء لصيق به، ولا يمكن أن ينحسر دون شعوره به، ولذلك أقول إن ما يمكن قبول تحمله والأيسر ألَّا تكوم المال أحرى من أن تفقده، ولهذا السبب سوف ترى الذين يملكون الثروة ليسوا أكثر سعادةً من الذين هجروها[٣٢٨].

---

(٣٢٧) بيون من بوريسثينيس *Bion of Borysthenes* كان واعظًا كلبيًّا في العصر الهيللينستي، ارتبط بأقوال بليغة في التراث القصصي انظر *Diogenes Laertius 4.7*.

(٣٢٨) في هذه المناقشة للخيرات الخارجية يظهر الحظ وهو في السيطرة، قارن ٨-٥ أدناه حيث تُسمى الممتلكات الدنيوية عطايا للحظ *fortuita*.

٨-٤ وديوجين -وهو المفكر العظيم- رأى هذا وتيقن من أنه لا شيء يُنتزع منه(٣٢٩)، واستدعى الفقر والحاجة والنقص، وضع أي اسم مخجل تريده على هذا التحرر من الحذر، واعتقد أنه يفتقر إلى السعادة إن وجدتني إنسانًا آخر ليس لديه شيء يفقده، وإما أن أخدع نفسي وإما أنها حياة الملك الذي لا يؤذي وهو فرد واحد بين البخلاء والمحتالين واللصوص والعصابة.

٨-٥ وإن كان يشك أحدٌ في سعادة ديوجين، فإنه يحمل نفس الشك في الأرباب الخالدين، ويتعجب من أنهم يحيون بالسعادة في القليل؛ لأنهم لا يملكون عقارًا ولا حديقةً ولا أرضًا ينتفع بها فلاح آخر، ولا كمًّا ضخمًا من الربح في السوق، ألم تخجل، مَن أنت حتى تتفوه عن الثروات؟ تعالَ، وانظر إلى العالم، سترى الأرباب مجردين لقد منحوا كل شيء ولم يمتلكوا شيئًا، هل تعتقد أن الإنسان الذي قد أسقط كل عطاياه من الثروة معوز أو مثل الأرباب الخالدين؟

٨-٦ وأنت تدعو ديمتريوس *Demetrius* الرجل البومبي الحر(٣٣٠) السعيد؛ لأنه لم يشعر بالخجل في أنه أغنى من بومبي ذاته، الذي حاز عددًا من العبيد يبلغونه كل يوم كما تبلغ الجيوش القائد، مع أن ثروته كانت من قبل نائبين وحجرة كبيرة.

٨-٧ حتى العبد الوحيد لديوجين قد هرب منه، ولم يفكر أن يرجعه وهو يشير إليه، وقال: «إنه من العار أن يعيش مانيس *Manes* دون ديوجين، ولكن ديوجين لا يمكن أن يعيش دون مانيس"، وأعتقد أنه قصد "الثروة، وأن عقلك هو عملك، وليس لك شيء عند ديوجين، فقد هرب عبدي أو بالأحرى حررته".

---

(٣٢٩) ديوجين السينوبي *Diogenes of Sinope* الكلبي المعروف في القرن الرابع واشتهر في التراث القصصي (*cf Diogenes Laertius 6.20–83*). .

(٣٣٠) اعتبر الرومان الرجال الأحرار (الذين كانوا عبيدًا سابقًا) من طبقة أقل، ولكن رجال اليونان الأحرار مثل ديمتريوس البومبي كانوا أثرياء أقوياء، ويقرر بلوتارخ في *Plutarch's Life of Cato Minor 13* أنه مدينة آسيوية بأكلمها رحبت بديمتريوس.

٨-٨ يريد عبيد المنزل الكساء والغذاء، وعليك أن تشاهد كذلك كثرة بطون المخلوقات الجائعة، وتشتري لهم كساء وتحرس أيديهم المسروقة، وتعتمد على خدمات رجال بكائين ولعانين، وما أعظم سعادة الإنسان الذي لا يدين بشيء لأحدٍ سوى نفسه، والتي يمكن أن يرفضها بسهولة!

٨-٩ وبما أنه ليس لدينا مزيد من القوة، فعلينا أن نقلص إرثنا لنتحاشى أخطاء الثروة، فالأجسام أكثر رشاقة في القتال الذي عهدوه بدروعهم أكثر من الدروع التي لا يعرفونها، فحجمها يعرضهم للجروح، وأفضل مقياس للمال هو الذي لا يدقعك في الفقر ولا يخرجك بعيدًا عنه.

٩-١ وهذا المقياس مناسب لنا إذا قررنا الادخار، ومن دونه لا تكفي الثروة أو لا يكون الميسور كافيًا، والعلاج قريبٌ؛ فالفقر ذاته بعون الاقتصاد يمكن أن يحول ذاته إلى ثروة.

٩-٢ دعونا نعتاد على أن نبدي رفضنا لتقييم الأشياء على قيمتها الزخرفية، فالطعام ينبغي أن يخمد جوعنا، والشراب ينبغي أن يروي عطشنا، ودع تدفق الشهوة حيث جاء، ودعنا نتعلم الاعتماد على أعضاء أجسامنا ونبتكر زينتنا ونظامنا الغذائي كما أشار إليه أسلافنا لا ليساير قوالب بعينها، دعونا نكثر من ضبط أنفسنا ونكبح غلونا، ونسيطر على عظم محنتنا، ونسكن هياجنا، وانظر إلى الفقر بأعين ثابتة، ومارس الادخار حتى لو سبب بعضًا من الخجل(٣٣١)، وعلينا أن نستعمل علاجات رخيصة لتوقنا الطبيعي ونظل في سلاسل كما كانت آمالنا الجامحة، وعقولنا التي تحوم على المستقبل، ونسعى للثروة في أنفسنا أحرى من الحظ.

٩-٣ ولا يمكن أن يدفعنا هذا التنوع وعدم التكافؤ في الفرص دون قدر عظيم

(٣٣١) النص اللاتيني لهذه العبارة تالف، ولكنه يحتوي الإشارة إلى الخجل.

للعواصف يغير على السفن التي تنتشر على نطاق واسع، وعلينا أن نكثف أعمالنا في مكان ضيق حيث تسقط القذائف في النطاق الواسع، ولهذا السبب قد تتحول عقوبة المنفى والمصائب إلى علاج، والخسائر الأكثر ألمًا تُعالج بأخرى ألطف منها، وحين يدفع العقل بانتباه بسيط للنصيحة واستعصى علاجه بلطف، فلماذا لا يخدم العقل مصلحته إذا طاله الفقر والعار والهزيمة، ونحن نضع شرًّا ضد آخر؟ دعونا نعتاد تناول الطعام دون تجمع من الضيوف، ونجعل الخدم أقل من العبيد، ونوفر الملبس للغاية التي صنعت من أجلها، ونعيش بتواضع، ولا نحيا من أجل السباقات ومنافسة العربات، بل يجب أن تتحول لاحتضان الحياة من الداخل.

٩-٤ وأكثر الأشكال المتحررة للإنفاق على الدراسات التي لها مبرر يحددها، وما غاية الكتب والمكتبات التي لا تُحصى طالما مالكها يقرأ بالكاد بطاقتها طيلة حياته؟ والحمل الزائد يُضعف الطالب ولا يعلمه، ومن الأفضل أن تعهد نفسك لعدد قليل من الكتاب بدلًا من أن تضل بوفرتهم.

٩-٥ احترق أربعون ألف كتاب في الإسكندرية(٣٣٢)، وقد أشاد بعض الناس بهذا الكم الذي يُضاهي ثروة الملوك مثل ليفي *Livy* الذي وصفها بالأعمال المتميزة من تهذيب وإتقان الملوك، ولم يكن هذا تهذيبًا ولا إتقانًا، بل غلوًّا في التوق بالدراسة، ولا حتى حبًّا في الدراسة؛ لأن الكتب لم تُشترَ للدراسة بل للعرض، وبعض الناس الجاهلون ببدايات التعليم لا يرون الكتب أداة للدراسة بل زينة لحفلات العشاء، لذلك دعنا نحصل من الكتب ما هو كافٍ ولا شيء منها للعرض.

---

(٣٣٢) وقد جاء هذا التقدير للمقتنيات في مكتبة الإسكندرية الكبيرة إلى الفقرة المقتبسة في ليفي فى الجملة نفسها، وقد جمع المكتبة بطليموس فيلاديلفوس *Ptolemy Philadelphos* في مقتبل القرن الرابع، واحترقت جزئيًا عندما حاصر قيصر الجزيرة في ٤٧ ق.م، وتلقى مصادر مختلفة اللوم للهجوم على الإسكندرية وتدمير المكتبة.

٩-٦ وسوف تقول: "إن هذه النفقات قد سُكبت خارج نطاق التبجيل مثل البرونز الكورنثي واللوحات المرسومة"، والإفراط فيها رذيلة مهما يكن، وما السبب الذي تعذر فيه رجلًا يجمع خزائن الكتب المصنوعة من العاج وخشب الحمضيات، ويتصيد أعمال المؤلفين حتى المجهولين والمنبوذين، ويتثاءب وحوله آلاف عدة من الكتب، فمتى ترضيه الأغلفة والملصقات الخارجية لمجلداته أكثر؟

٩-٧ وهكذا سوف ترى في البيوت أشد المتابعين للتاريخ واللغة كسلًا وأرفف مكتباتهم تصل للسقف، حتى أنهم أقاموا المكتبة بين طرق الحمامات الباردة والساخنة كزينة أساسية للمنزل، ومن الواضح أنني سوف أغفر هذا إذا كان الخطأ الفاضح نشأ من الرغبة المفرطة للدراسة، ولكن في الواقع استقصوا هذه المجلدات وطبعت بصورهم(٣٣٣)، وحصلوا على الأعمال العقلية المقدسة للعرض وتزيين جدرانهم.

١٠-١ ولكن افترض أنك وقعت في صعوبات ما في الحياة، أو حتى ضاق بك خناق الثروة الخاصة والعامة ولم تكن على استعداد للفكاك من هذا أو تجاوزه، وأعتقد أن الناس مقيدون معًا وبالكاد يحملون الحمل والمصاعب على سيقانهم، ومن ثم يعقدون النية لا ليستاؤوا بل ليصمدوا، فالضرورة تزيبهم بالشجاعة، وتجعلها العادة يسيرة، وسوف تجد المتعة واللذة والاسترخاء في أي نوع من الحياة إذا رغبت في البَلايا أكثر من أن تكرهها.

١٠-٢ لقد خدمتنا الطبيعة بأفضل صورة ولم تعتد بأحد آخر، وتعلم كروب الذين ولدتهم، وابتدعت العادة باعتبارها ملطفًا للمصائب، وسرعان ما تجعل

(٣٣٣) كانت الاستنارة من ابتداع الإسكندرانيين حيث جاءوا إلى روما في نهاية القرن قبل الميلاد في زمن فارو *Varro* لتجميع موسوعة الرجال العظام، وظهر كل منهم مع صورته.

المصائب الأكثر ألمًا مألوفةً، فلا أحد يتحمل إذا كان حضور المصائب له نفس قوة الصدمة الأولى.

١٠-٣ كلنا مقيدون بالثروة، فقد قُيد البعض بقيد ذهبي فضفاض، وآخرون بقيود حقيرة ضيقة، ولكن ما الفارق الذي تصنعه؟ ونفس المشهد قد أُحيط بالجميع حتى الذين قيدوا الآخرين، هم ذواتهم مقيدون، إلا إذا اعتقدت أن القيد أخف على الأيسر(٣٣٤)، والبعض مقيد بالمناصب العليا وآخرون بالثروة فيثقلون أناس بعينهم بالنبالة ويخفضون مولد الآخرين، وآخرون علقوا السيطرة على الآخرين فوق رؤوسهم ويهيمن عليهم آخرون، وتحفظ عقوبة الاغتراب بعض الناس في مكان ويبقيهم الكهنوت في مكان آخر، وكل الحياة عبودية.

١٠-٤ وأصبحنا معتادين لظروفنا ونشتكي منها بقدر ما نستطيع، ونستولي على أي فائدة تجلب معها، ولا يوجد شيء أفضل من العقل الذي لا يجدون فيه راحةً، وغالبًا قد تفتح مهارة المهندس المساحات الصغيرة لأغراض كثيرة ويصنع من الأماكن الضيقة للغاية مكانًا للسكن، وطبق السبب على صعوباتك، فالظروف القاسية يمكن تخفيفها، والأماكن الضيقة قد تتسع، والحمول الثقيلة يقل عبؤها على الذين يتحملونها بحذاقة.

١٠-٥ وإلى جانب ذلك، لا ينبغي لنا أن نرسل رغباتنا إلى مدى بعيد، بل نسمح لها أن تخرج قريبًا من متناول أيدينا؛ لأنها ليست محددةً تمامًا، فالمرء قد يطرح المستحيل أو الصعب جانبًا، ونحن نتبع الغايات القريبة منا وتستثير رجاءنا، وعلينا أن نعرف أن كل شيء قد يتساوى في التفاهة بالمظهر المتباين، بل الكل يتساوى في فراغ الباطن، ولا ينبغي أن نحسد الأعلى منا، فما يبدو متغطرسًا هو مجرد انحدار.

---

(٣٣٤) (على الايسر) تشير على الأرجح أن الحارس مقيد سجينه.

١٠-٦ والذين وضعهم النصيب الجائر على حد السكين سيكونون أكثر أمانًا بمحو الفخر من الظروف المتجبرة ذاتها، وخفض ثروتهم لأدنى مستوى، وكثيرون يتشبثون بقمتهم وليس بمقدورهم أن ينزلوا منها إلا بالسقوط، وذرهم يشهدون بأن هذا أعظم حمولهم، ليضطروا أن يكونوا حملًا على الآخرين، وهم ليسوا ممجدين في الأعالي بل مطعونون، ودع العدالة والاعتدال والإنسانية تهيئ لهم مع اليد السخية الكريمة أنواعًا عدة من الوقاية من أجل النجاح الذي يتوقعونه بزيادة التحرر من الحرص، ومع ذلك لا شيء سيحررنا تمامًا من هذه التي تقذف العقل كما تضع دومًا بعض حدود النمو، ولا تترك قرارًا للثروة لتتوقف، ولكن تتوقف عفويًّا طالما الطريق قصير، كما تشحذ بعض الرغبات العقل وأخرى تحدده، وسوف لا تقوده إلى مكان فسيح أو مسافة غير معلومة.

١١-١ وحديثي هذا يركز على الناس الناقصين والوسط والمعلوليين وليس للرجل الحكيم، فهو لا يمشي خجلًا أو وجلًا، ولا تحيره ثقته بذاته في الارتباط بالثروة، ولا تحركه الإرادة إليها، وليس لديه سبب للخوف، ولا يعتد بالعبيد والملكية والمنصب، بل إن جسده وعينيه ويديه وأيًّا ما كان يجعل الحياة محبوبة للإنسان حتى نفسه، فهو مجرد أمور طارئة للصدفة، وتحيا فيه كما لو كانت على سبيل الإعارة، وهو على استعداد إلى أن يعيدها لمَن يطلبها بلا حزن.

١١-٢ ولكنه مع ذلك لا يزهد في عينيه؛ لأنه يعلم أنها ليست ملكه، بل يعمل في كل شيء بدقة وعناية كرجل مقدس وأمين اعتاد أن يحمي ما عهد به إليه، وحينما يُطلب منه ردها، فإنه لا يشتكي للحظ، بل يقول: «أحمد ما قد امتلكته وما لديَّ».

١١-٣ وأنا راعيتُ ما تملك بعظم كلفته، ولكنك طلبت مني أن أعطيه لك، فأنا أرده

شاكرًا مسرورًا، وإن أردت مني أن أحفظ لك حتى الآن فسوف أحفظه لك، وإن قررت خلاف ذلك، فإنني بموجب هذا أرد فضتي سواء كانت طبقًا أو عملةً نقديةً[٣٣٥]، وبيتي وأهل بيتي»، وإن أرادت الطبيعة ما عهدت إلينا به من قبل[٣٣٦] فإننا سنقول لها: استرجعي عقلي، الآن حسنت من الحالة التي منحت من أجلها، وأنا لن أرتد للوراء أو أهرب، أأنت هنا على استعداد أن تقدم ما أعطى لك بغير قصد، استعده!».

١١–٤ وما السوء في رد ما أتاك؟ فإنَّ مَن لا يعرف كيف يُحسن ميتته فإنه سوف يحيا على نحو رديء، لذلك علينا أولًا أن نختزل تقييمنا لهذه المسألة، ونحصي أنفاسنا الرخيصة، وكما يقول شيشرون([٣٣٧]): «إننا نخدع المجالدين إذا رغبناهم في الحصول على حياتهم بأي ثمن، نحن نمنيهم كما يجب، إذا عرضوا بافتخار تنافسوا من أجلها، وربما قد تخمن أن الشيء نفسه يحدث لنا؛ لأن فزعة الموت هي علة للموت غالبًا.

١١–٥ وتقول الثروة التي يلعب بها ألعابه: «لماذا أُبقيك آمنًا؟! أنت مخلوق بائس ومرتجف! إنك سوف تُجرح وتُثقب بعمق؛ لأنك لم تعرف كيف تظهر حنجرتك، ولكنك سوف تعيش طويلًا وستموت بسرعة أكبر لقبضك الحديد، وليس بخفض رقبتك أو بحمايتها بيديك، بل بالروح الشجاعة».

١١–٦ والمرء الذي يخشى الموت لن يفعل شيئًا يستحق أن يُحيي البشر، ولكن إذا كان يعلم أن الموت مكتوب حين كان هو تصورًا في البداية، فإنه سوف يحيى كما قدر له، ويحفظ سلوكه بنفس قوة العقل، ولذلك لا شيء يحدث غفلة، وبالتوقع مهما كان يمكن أن يحدث، وسوف يُلطف من مخاوف الشرور

---

(٣٣٥) هذه لغة قياسية للإرادة والاتفاقيات الخاصة.

(٣٣٦) هبات الطبيعة هي الحياة ذاتها والصحة والبقية هي هبات الحظ.

(٣٣٧) هذا اقتباس سافر لخطاب الدفاع لشيشرون في رسالته "نيابة عن ميلو" ٩٢ *On Behalf of Milo*.

جميعًا؛ لأنها لا تجلب شيئًا جديدًا أعده الناس فينتظرهم، في حين تدفع الشرور الناس للتخلي عن الحرص ويتوقعون السعادة فحسب.

١١-٧ وهناك مرض وعبودية وكوارث ونار ولا شيء يحدث من هذه الأشياء غفلة، كنت أعلم المأوى المضطرب الذي طوقتني به الطبيعة، وصرخة الموت تحوم حولي، وقد مرت الجنازات السابقة لأوانها بالمشاعل والشموع الرفيعة على عتبتي، وعلى جانبي صوت تحطيم قوالب المباني التي تنهار، وقد خطف الليل الرفاق الذين كان بعضٌ منهم في الميدان *forum* وفي مجلس الشيوخ، لقد قيدني الحوار ومزق طرف الأيادي الموصولة للرفاق[٣٣٨]، وأنا أتساءل هل تلك المصائب التي كانت تحوم حولي قد وصلت إليَّ أخيرًا؟ فغالب الناس لا يفكر في العواصف حين توشك الرحلة على الإقلاع.

١١-٨ لن أشعر بالخجل للاقتباس من مصدر رديء لسبب وجيه، لقد كان بوبليليوس *Publilius*[٣٣٩] أكثر انفعالًا من التراجيديا أو المأساوية الهزلية حين تخلى عن حماقات الإيماء والكلمات التي هدفت للمنصة، ومن بين الأقوال الأكثر جرأة من مأساة الجزمة *buskin* أنه ترك حجاب الإيماء وأدلى بهذا التعليق: "إن ما يحدث لإنسان بعينه قد يحدث لأي إنسان، وإذا سمح لنا امرؤ ما أن نحفر في قلبه ونطلع على مصائب الآخرين كلها كما لو كان هذا مسارًا حرًّا له فإنه سوف يسلح نفسه قبل أن يُغار عليه، فبعد أن تندلع المخاطر فمن المتأخر أن تدرب العقل على تحملها.

(٣٣٨) التفسير المحتمل للنص اللاتيني هنا قد يأخذ كلمة الاتحاد *copulates* للإشارة لوجود ارتباط بالحظ ومعاملته على أنه لاحق "للأيدي الممدودة للرفقاء".

(٣٣٩) الجورب والجزمة رمزان قديمان للكوميديا والتراجيديا، حيث كان يرتدي الممثلون في المسرح اليوناني بوتًا يُسمى جزمة أو بوسكين *buskin*.(المترجم)، وقد تحدى يوليوس قيصركاتب التمثيل بوبليليوس سيروس *Publilius Syrus* أن يعرض في تمثلياته فعلًا وضيعًا لرجل نبيل، ولكنه ألف أكثر من عمل عن مثل هذه الشخصيات طورت فيما بعد ودُرست في المدارس باسمه. انظر *Seneca Letters 16*.

١١-٩ ”لا أعتقد أن هذا قد حدث“ و“هل تعتقد أن هذا قد جاء ليمضي هكذا؟“، ولمَ لا إذنْ؟ وما الثروات التي لا تتبع في دعمهما الجوع والحاجة والتسول؟ وما المنصب الذي لا يقرن التاج القضائي وهيئة الكهنة وصندل الشريف الروماني(٣٤٠) بتشوية السمعة والعار وألف من العلامة السوداء والاحتقار الشديد؟ وما المملكة التي يوجد فيها الفساد والمراوغة والسيد والجلاد وليست متأهبة وتنتظر؟ وهذه الكوارث ليست مفترقةً بفواصل كبيرة، بل هناك برهة من ساعة بين العرش وركبتي رجل آخر.

١١-١٠ واعلم أن المنصب متقلب، وما يُسقط غيرك يمكن أن يُسقطك، أنت غني، هل أنت أغنى من بومبي؟ عندما فتح قريب جايوس قيصر الكهل والمُضيف الجديد منزله له وأغلقه عليه لم يكن هناك خبز ولا ماء، رغم أن جايوس ملك أنهارًا عدة تنبع وتصب في أرضه، كان متسولًا لقطرات الماء، وهلك جوعًا وعطشًا في قصر قريبه، بينما عهد وريثه بجنازة عامة لقريب له وكان هو يتضور جوعًا(٣٤١).

١١-١١ لقد تقلدت أعلى مراتب الشرف، فهل تقلد أحدٌ مثل عظمة وعالمية سيجانوس(٣٤٢)؟ اليوم يجره مجلس الشيوخ إلى المحكمة، ومزقه الناس إربًا، فالرجل الذي منحه الأرباب والناس ما كدسوه لم يتبقَ له سوى الجلاد يجره.

(٣٤٠) هذه هي رموز للقضاة *toga praetexta* والكهنة *the lituus* والشريف الروماني: حيث كان يرتدي السيناتورات حذاءً مختلفًا عن الشرفاء الرومانيين، ولكن هذا هو المثال الوحيد على تملك زمام الأمور *lora* أي الاستشهاد بالصندل.

(٣٤١) هذه القصة الغامضة ليست عن بومبي ويوليوس قيصر عمومًا، بل عن بومبيوس المتأخر الذي سجنه (كضيف) يوليوس قيصر كاليجولا، وجوعه حتى الموت في قصره، ولا أجد استشهادًا على هذا في أي مصدر.

(٣٤٢) كان إيليوس سيجانوس *Aelius Seianus* قائد تيبريوس للحرس البرايتوري، اخترق الإمبراطور القديم وشهر ودمر أعضاء الأسرة الإمبراطورية، وعزل الإمبراطور عن شؤونه في روما، ولكن تيبريوس علم خطأه وأرسل خطابًا من كابري *Capri* إلى روما يدين فيه سيجانوس، وأعدم لخيانته، ووصف تاكيتوس لهذا السقوط مفقود ولكن هناك وصف تصوري في *Juvenal 10.66–77*.

١١-١٢ تخيل أنك ملك، ولن أحيلك إلى كروسوس *Croesus* (٣٤٣) الذي رأى جثته وهي تضرم فيها النار وتخمد وهو لا يزال حيًّا، وأصبح الناجي الوحيد من مملكته بل من موته، ولن أحيلك إلى جوجرثا *Jugurtha* (٣٤٤) الذي رآه الرومان بعد عام من خداعه، ورأينا بطليموس *Ptolemy* ملك إفريقيا وميتريداتس الأرميني *Mithridates of Armenia* تحت حراسة جايوس عينها(٣٤٥)، أحدهما أرسل إلى المنفى، والآخر أُبقيَ متمنيًا أن يطلق سراحه بأي ضمان، وقد آلت الأمور إلى الفوضى في مثل هذا الاضطراب، فإذا لم تتعامل مع ما هو ممكن مثل المستقبل، فقد تواجهك قوة المصيبة تلك القوة التي قد تسحق أي شخص يتوقعها.

١٢-١ إن التالي من بين شواغلنا ليس كدًّا لأشياء زائدة لا يمكن تحقيقها أو تفهم بعد فوات الأوان أو بعد فض هذه الرغبات، إنني أعني أنه لا ينبغي أن يكون عملنا معدوم النفع أو أن النتيجة غير جديرة بجهدنا؛ لأن عاقبة خيبات الأمل هذه الحزن سواء أكان العمل بلا نجاحٍ أم جلب نجاحه الخزي(٣٤٦).

١٢-٢ وينبغي أن نشذب اندفاع مثل هؤلاء الناس الذين يتجولون بين المنازل والمسارح والأماكن العامة ويسندون أعمالهم لآخرين، ويعملون كما لو كانوا يصنعون شيئًا، وإذا أحدهم غادر منزله؛ فأين يذهب؟ وما الذي يُخطط

---

(٣٤٣) كورسوس *Croesus* ملك ليديا في القرن السادس الذي اشتُهر بثروته، وهو محور حكاية هيرودت الأخلاقية في *Histories 1.30–33* ، حيث يحذره صولون بأنه لا يمكن لأي إنسان أن يدَّعي أنه سعيد حتى يصل إلى الموت، هزمه قورش *Cyrus*، كان على وشك أن يحرق على محرقة الجثث حينها صرخ قائلًا صولون كان على حق (*Herodotus 1.86*) وذكرها بلوتارخ (*Cf. Plutarch Solon 27.6–7 and 28.2.*) .

(٣٤٤) جوجورثا *Jugurtha* مغتصب عرش ملك نيميديا *Numidia*، كان مهزومًا خائنًا، وأحضر إلى روما ليمشي في عرض انتصار ماريوس عام ١٠٥ ق.م.

(٣٤٥) هؤلاء الملوك هم خلفاء الحكم البطلمي وميثريداتيس العظيم *great Mithridates* وأحضروا إلى روما خدعة وسجنهم جايوس (*Suetonius Caligula 26, 35; Dio 58.26.4, 59.25*).

(٣٤٦) هذا القسم يرجع إلى نقطة البداية ٦-١.

له؟، وسوف يجيبك، بحق جوبتر لا أعرف ولكني سوف أذهب لرؤية بعض الناس وأقوم ببعض الأعمال.

١٢-٣ إنهم يهيمون على وجوههم بلا غاية بحثًا عن عمل، ولكنهم لا يؤدون ما نووا حتى لو قابلهم، فسعيهم مريض وغير نافع مثل النمل الذي يزحف على الشجر، يندفع للقمة ويهبط فارغًا، وتسير حياة معظم الناس على هذه الوتيرة، ويستدعي المرء على نحو غير لائق سلوكهم المتراخي المشوش.

١٢-٤ إنك تشعر بالشفقة من أناس بعينهم مندفعين هنا وهناك كما لو كانوا يدعون إلى النار، حيث يدفعون هؤلاء وهؤلاء بثوران عن طريقهم، ويطأطئون أنفسهم والآخرين لتحية امرئ لم يحيِّهم في عودته أو يتبعون موكب جنازة شخص غريب، أو يحضرون محاكمة لمتقاضٍ متكررةً أو حفل زفاف لعريس متكرر، وحين ترافقهم الفوضى يجرونها خلفهم في مناطق بعينها، وحين يعودون للبيت منهكين بلا فائدة، أقسم أنهم لا يعرفون لماذا خرجوا أو أين كانوا، وفي اليوم التالي سيهيمون في نفس المسارات.

١٢-٥ دعوا جهودكم توجه لبعض الغايات، ودعوها تركس في مكان ما، فليس من الجد أن تجعل الناس متراخين، فالصور الكاذبة للأشياء تدفعهم للجنون، وحتى المجانين لا يتصرفون بلا أمل، فالمظهر الخارجي كأن عليهم البيض، ولوثة عقلهم لا تبين فراغه.

١٢-٦ ومثل هؤلاء كل الذين يخرجون لتضخيم الحشد ليقودهم في كل أرجاء المدينة بسخافة ومبررات تافهة، وحين لا يكون لديه سبب للكد فالأدنى يرفعه لأعلى، وحين يُهرس في التفاهة في المداخل يحييه مساعدوه ويستبعده كثيرون، وإنه يجد صعوبة أن يجتمع بنفسه[٣٤٧] في البيت من غير أي شخص آخر. وهذا

(٣٤٧) نظرا لأن الحوار الافتتاحي هو امتعاض الذات عند سيرينوس ١-٤، وهذه هي الإدانة الفصل وهي أن الناس ليس لديهم وقتٌ لمعرفة بواطن أنفسهم.

الشر هو أصل لهذا الخطأ المقيت، حيث إن تسمع وتصيد المسائل العامة والخاصة، ومعرفة شؤون كثيرة لا تُقال عنها ولم يسمع بها دون مخاطرة.

١٣-١ وأعتقد أن ديمقريطوس قد اتبع هذا المبدأ حين قال: «مَن أراد أن يعيش في سكينة فلا يؤدِّ أعمالًا عامةً أو خاصةً». ويقينًا أنه كان يشير إلى أعمال النوافل؛ لأنها لو كانت جوهرية لن تتعدد، ولكن المهام التي لا حد لها تُؤدَّى على النحو العام والخاص معًا، وحين لا يستدعي الواجب جمعها معًا علينا أن نتحقق من أنشطتنا.

١٣-٢ إن الإنسان الذي لديه أعمال كثيرة يُعطي للثروة سلطة على ذاته، والحري أن يختبرها قليلًا، ويبقيها دومًا في عقله، «سأقوم برحلة إن لم يحدث شيء»، «سأنتخب الحاكم *praetor* إن لم يمنعني شيء"، "وسأقوم بعملي على أحسن وجه إن لم يوقفني شيء"[(٣٤٨)].

١٣-٣ ولهذا السبب نقول لا شيء يُصيب الحكيم تجاه توقعاته، ونحن لا نستثنيه من مصائب الرجال بل من أخطائهم، وقد تتحول الأمور بالنسبة له لا كما يرغب بل كما يتوقع، وقد يتوقع فوق هذا كله أن شيئًا سيعترض خططه، فقد يتلاشى ألم هجر الرغبة بالضرورة بلطف على العقل حين لا تعد نفسك بمخرج ماتع.

١٤-١ وينبغي أن نكون لينين وألَّا ننغمس في خطط محددة، وأن نمضي في الفرصة التي قد أُتيحت لنا، وألَّا نخشى تغير المسار أو المنصب مُوقنين بالتفاؤل، فالرذيلة أشد عداء للرزانة فلا تستولي علينا؛ لأن التوبة مما تستولي عليه الثروة بالضرورة مقلق ورديء، والتفاؤل أشد نصبًا حين لا تُبقي نفسها تحت السيطرة، وكلا الظرفين عدوٌّ للسكينة، حيث إنهما عدم قدرة على تغيير شيء وعدم قدرة على تحمل شيء.

---

(٣٤٨) هذا التوقع المؤقت يشبه الممارسة الرواقية التي تميع أثر المصائب بتوقعها *praemeditatio malorum* راجع *Cicero Tusculan Disputations 3.29, 3.34.*

١٤-٢ على أي حال على العقل أن يستدعي إلى ذاته المظاهر الخارجية كلها، ويوقر الإيمان في ذاته ويبتهج فيها، ويجل صفاته، وينسحب بقدر الممكن عن ما يغرب ذاته، ويرتكز على نفسه، ولا يشعر بالضياع، ويفسر حتى المحن بلطف.

١٤-٣ حين علم زينون(٣٤٩) بغرق سفينته وسمع أن كل ممتلكاته قد غرقت، قال: «طلبت مني الثروة أن أمارس الفلسفة بأقل جهد»، وظل الطاغية يهدد ثيودوروس بالموت، وحرمه من الدفن، فقال ثيودوروس: «خذ مني نصف بنتا (لترا) من الدم حتى ترضى، أما موضوع الدفن الذي تهتم به، فإنك أكبر أحمق إذا اعتقدت أن الدفن يؤثر عليَّ سواء تعفنت تحت الأرض أو فوقها».

١٤-٤ يوليوس كانوس *IuliusCanus* رجل عظيم للغاية لم ينل أدنى إعجاب؛ لأنه ولد في عصرنا، بعد عراك طويل مع جايوس، قال له فالاريس أثناء مغادرته: "لا تخدع نفسك بأمل أحمق؛ فلقد حكمت عليك بالإعدام"، فقال: "شكرًا أيها الإمبراطور العظيم!".

١٤-٥ لا أعرف ما يفكر فيه، ولكنَّ أفكارًا كثيرة تراودني، إنه رغب أن يكون مُهينًا، ويُظهر قسوة العالم في موت كان شفقة؟ أم كان يناقض جايوس لجنونه اليومي؟ لأن الناس كانوا يشكرونه حين يقتل أطفالهم وحين يأخذ ما يملكون، أم أن هذا يعني أنه قبل الحرية ممتنًا؟ وفي كلتا الحالتين أجاب بروح عظيمة.

١٤-٦ يقول أحدهم: "إن جايوس أمره بالحياة بعد هذا"، ولكن جايوس لم يخش هذا، ووفاء جايوس من هذا النوع كان سيئ السمعة، هل تعتقد أنه مر على

---

(٣٤٩) وسينيكا كعادته يروي طرفتين (عن زينون الرواقي وسيريناك ثيودوروس *Cyrenaic Theodorus* الذي هدده يسيماخوس *Lysimachus* بالموت)، ثم يتبعهما بسرد تفاصيل جمة للبطل الأخلاقي الروماني من عهد الملك الطاغية كاليجولا، ومع ذلك القصة ليست معروفة، وفي ثنايا القصة يُساوي سينيكا بين كاليجولا وفالاريس *Phalaris* الطاغية الصقلي المعروف الذي حجز ضحاياه في الثور البرونزي وتفحموا حتى الموت.

كانوس عشرة أيام ولم يُساوره أي قلق قبل إعدامه؟ وما قاله هذا الرجل وفعله ومدى احتفاظه بسكينته يمكن قبوله.

١٤–٧ إنه كان يمرح مع قطَّاع الطرق حين أمر قائد المائة *centurion* مجموعة من الناس لتنفيذ أوامره ليستدعوه، وحين طلبوه كان يعد الخُطى وقال لصديقه: "لا تكذب بعد موتي وتقول إنك انتصرت"، وأومأ للقائد وقال: "ستشهد أنني كنت أتقدمك بخطوة"، هل تعتقد أن كانوس كان يلعب لعبة؟ إنه كان ساخرًا.

١٤–٨ لقد حزن صديقه لفقد مثل هذا الرجل، وقال: "لماذا أنت متفجع؟ وتحاول أن تكتشف أن النفوس خالدة، سوف أعلم قريبًا"، لم يتوقف عن تقصي الحقيقة، ومباشرة البحث في موته، حتى في النهاية.

١٤–٩ رافقه فيلسوفه الخاص والقبر الذي كان قربانًا يوميًّا ليوليوس قيصر، وربنا لم يكن بعيدًا، قال: "فيمَ تفكر يا كانوس الآن؟ أو ما حال عقلك؟"، وقال كانوس: "إنني عازم على مشاهدة أخف اللحظات حين يشعر العقل برحيله"، ووعد أنه إذا وجد شيئًا في العالم الآخر، سوف يقوم بجولة بين أصدقائه ويطلعهم على حال النفوس هناك.

١٤–١٠ أرى هذا الهدوء وسط العاصفة، أرى العقل يستحق الخلود، وهو الذي استدعى مصيره دليلًا على الصدق، وأخذ هذه الخطوة الأخيرة ليطلب من روحه الرحيل، ولم يتعلم شيئًا سوى موته حتى في الموت لا أحد بمقدوره أن يتفلسف فيه طويلًا، لن نترك هذا الرجل العظيم يمضي سريعًا، وعليه أن يتحدث بتفانٍ، ولا ندعك(٣٥٠) للذكرى الباقية، فمعظم الأبطال الممجدون كانوا طرفًا كبيرًا لكارثة عهد جايوس.

---

(٣٥٠) يناجي سينيكا كانوس ليعبر عن احترامه، وهذا هي المناجاة الوحيدة في الحوار.

١٥-١ ولكن من غير النافع أن نطرح الأسباب لحزن خاص؛ لأن الكاره لجنس البشر يستولي على ما نملك أحيانًا، حين تفكر أن الإخلاص استثناء، وأن الجهل براءة، وحسن النية قد يذكر بالكاد ما لم يكن في مصلحة الناس، وهذا الحشد من الجرائم الناجحة تواجهنا على طول الخط بالمنافع وضياع الشهوة وكلاهما في الكراهية سواء، ناهيك عن ذكر الطموح الذي لا يظلُّ في حدوده وخذلانه فاضح، إن العقل يدفع نحو الليل، وينهض الظلام كما لو كان يطيح بالفضائل حيث لا يأملها أحد، وليس يكسب من امتلاكها أحدٌ شيئًا.

١٥-٢ ولذلك علينا أن نرضخ لنجعل جميع رذائل الحشد تبدو غير مكروهة بل تافهة، وأن نحاكي ديمقريطوس أكثر من هيراقليطس؛ لأن هيرقليطس حين ذهب للأماكن العامة بكى حين ضحك ديمقريطوس؛ لأن كل أعمالنا بدت لهيراقليطس مزرية وهي حماقة محضة عند ديمقريطوس[٣٥١]، ولذا علينا أن نخفف كل شيء ونحمله بعقل هين حتى تكون حياة الإنسان سعيدة بدلًا من النواح عليها.

١٥-٣ وأضف إلى هذا أن الإنسان الذي يضحك فيها أحرى من الذي ينشد مزيدًا من عون جنس البشر، فالأول قد تركها أملًا في الإحسان، والآخر قد خاب أمله في تصحيح مساره، وحين تتأمل الأمور في امتدادها، فإن الإنسان الذي لا يتحكم في إظهار ضحكته أعظم عقلًا ممَّن لا يتحكم في دموعه، حيث إن الضحوك يُتعتع لطف العاطفة، ويعتقد أن لا شيء أعظم أو أجدى أو حتى أبغض من عظم ما يفعله.

١٥-٤ ودع أي امرئ يضع أمام عينيه الأسباب الفردية لسعادتنا وتعاستنا، وسوف يعرف أن ما قاله بيون *Bion* كان صوابًا، حيث تشبه أعمال البشر كلها ابتداء إلى حد كبير، وأن حياتهم ليست أكثر قداسةً ولا جد من تصورهم، فإنهم

(٣٥١) هذا التناقض مع هيراقليطس الغامض هو القصة الأكثر اقتباسا عن ديمقريطس. راجع *Seneca On Anger 2.10.5*.

ولدوا من لا شيء ويهبطون إلى لا شيء.

١٥-٥ ومن الأفضل أن تتقبل السلوك الشائع والرذائل البشرية بطريقة هادئة لا تميع في الضحك ولا الدموع؛ لأن التعاسة الأبدية أن تعذب الآخرين بالمصائب، والسعادة اللا آدمية أن تبتهج فيها، كما لو كان العمل الذي لا طائل منه أن تبكي لو دفن المرء ابنه أو تظاهر بالتعبير عن الأسى.

١٥-٦ والمرء في مصائبه ينبغي أن يعمل من أجل أن يكسب الأسى الذي تتطلبه الطبيعة فحسب[٣٥٢]، وليس ما تتطلبه العادة، ومعظم الناس يذرفون الدموع للعرض، ويجففونها حين يغيب المتفرج، والتفكر فيها مخجل لا مبكى حين يفكر الجميع فعلها، وقد يغرس هذا الشر ذاته للاتكال على رأي البشر بعمق حتى في المسائل البسيطة ويتحول الحزن إلى مظهر.

١٦-١ إن الاعتبارات التالية هي أسباب لحزن البشر وجلب الضيق على نحو العادة، حين يتوفى الرجل الصالح بميتةٍ رديئةٍ، كما أُجبر سقراط للموت في السجن، وأن يعيش روتيليوس *Rutilius* في المنفى، وأن يقدم بومبي وشيشرون رقبتيهما إلى العالة السابقين، وأن يعيش كاتو صورة للفضائل ويسقط على سيفه[٣٥٣] وهو يعلن الحقيقة العامة عن نفسه والجمهورية، وعلينا أن نعذب ليدفعنا الحظ خارج هذا الجزاء الظالم، فماذا يأمل الكل حين يرى أفاضل الرجال يعانون ما هو أسوأ؟

١٦-٢ فما الموضوع؟ انظر كيف يتحملها كل منهم، ولو كانوا شجعانًا لشعروا بضياعهم لروح هؤلاء الأشخاص، ولكن لو ماتوا كالنساء والجبناء فلم

---

(٣٥٢) الأسف على الميت أو الحزن على فقدان زوينا يبدو أمرًا طبيعيًّا، والطبيعة هنا تتناقض مع العادات.

(٣٥٣) تباين لسقراط؛ فإن الموت ظلم له ربعة أربعة أمثلة عند الرومان: حيث نفى الحاكم الأمين روتيليوس عام ٩١ ق.م، (اقتبسها شيشرون كثيرًا كسابقة لشرفه في المنفى)، وقتل بومبي عام ٤٨ق.م على يد الجندي الروماني في النظام المصري، وقتل شيشرون بأمر حكومة الثلاثين عام ٤٣، وانتحار كاتو عام ٤٦.

يضع شيءٌ، وتستحق فضائلهم استحسانك أو لا يستحقون أن تندم لجبنهم، والحقيقة ما هو الأكثر خزيًا لهؤلاء العظماء أن تصنع جبن الآخرين بموتهم الشجاع؟

١٦-٣ دعونا نثني على الرجل الذي يستحق الثناء، ونقول: «إنك أوفر حظًّا، وإنك أعظم شجاعةً! إنك برئت من الأخطاء جميعها كالحسد والمرض، إنك تركت محبسك، وإنك لا تبدو للأرباب أنك تستحق سوء الحظ، والأحرى أنك لا تستحق أن يمارس عليك الحظ أي سلطة»، ولكن إذا ارتدوا الناس ورجعوا ونظروا للوراء نحو الحياة في لحظة الموت فإننا ننتزعهم بالقوة[٣٥٤].

١٦-٤ لن أبكي على أحد سعيد أو أتباكى، فالأول قد محا دموعي بجانب نفسه، والآخر أظهر بدموعه أنه لا يستحق أيًّا منها، هل أبكي على هيروكليس؛ لأنه أُحرق حيًّا، أو روتيليوس([٣٥٥])؛ لأنه ثُقب بالمسامير، أو كاتو؛ لأنه شق جروحه؟ اكتشف كل هؤلاء الأعلام في وقت وجيز منصرم كيف يكونون أبديين ويصلون للخلود بموتهم.

١٧-١ وهناك مصدر فظ للقلق، وهو إن قدمت نفسك على نحو مقلق ولم تظهر طبيعتك منفتحة للآخرين كما هي حياة الكثيرين يضبطون ويكيفون ظهورهم؛ لأن المراقبة المستمرة على أنفسنا تعذبنا؛ لأننا نخشى أن يجدنا الآخر على غير المعتاد، إننا لم نتحرر من الحرص إذا اعتقدنا أننا نُقيم كما

---

(٣٥٤) السياق الطبيعي للاصطلاح اللاتيني (وضع يده عليهم) وهو توقيف الآخر لجره للمحكمة *(see OLD, s.v. inicere 6b)*.

(٣٥٥) يعتقد أن هيروكليس كان ميتًا حتى وهو عذاب القميص المسموم لنيسوس *Nessus*، إنه أحرق نفسه حتى الموت على جبل أوتا *Mount Oeta*. ورتيليوس وهو القائد الروماني للهجوم الفاشل على قرطاجة عام ٢٥٧ ق.م قد أرسل لطلب الفدية للأسرى الرومانيين، وأقنع مجلس الشيوخ لرفض الفدية، وأرسل إلى قرطاجة كما وعد ليُعذب حتى الموت، ورويت القصة بتفاصيلها عند شيشرون في كتاب الواجبات *Cicero On Duties 3.99*، وذكرت كمثال على النزاهة في *Horace Odes 3.5*، وتكرراستعمالها عند سينيكا في كتاب العناية الربانية *Providence 3.3 and 3.9* مع ذكر روتيليوس وكاتو وسقراط.

نُرى غالبًا، فقد تحدث أمور عدة للناس تحملهم ضد إرادتهم، وحتى لو كان هذا الحذر يرتكز على فلاح النفس، فلن تكن الحياة ماتعةً أو خاليةً من الهم للذين يعيشون دومًا تحت القناع.

١٧-٢ ولكن ما المتعة العظيمة التي يختبرها بالصراحة وصدق تزكية المظهر، فالدسر ليس حجابًا أمام عاداته! وحتى هذه الحياة تعاني من مخاطرة الازدراء إذا وضع كل شيء مفتوحًا على الإطلاق، حيث هناك مَن يستخف من كل يقربون منه، ولكن الفضيلة لا تدر خطرًا حين توضع أمام الأعين، ومن الأفضل أن تزدري صراحة المرء بدلًا من أن تعذبه بالحضور المستمر، ودعونا نضع حدًّا عليها فحسب؛ لأنها تصنع فارقًا كبيرًا سواء عشت بصراحة أم غير مبال.

١٧-٣ وعلى المرء أن ينكفئ في الذات مرارًا؛ لأن الجماعة دون رابط الرفقة ستكون في حال خصام مستديم ومثير للانفعال ومُلهبة لما ضعف أو أُهمل في العقل، مع ذلك يجب أن تكون العزلة والرفقة ممزوجة ومتناوبة، فالأولى تجلب الشوق للناس والثانية لأنفسنا، وكل حالة شافية للأخرى، فالعزلة شافية لعوف الحشد والحشد ضجر للمرء في العزلة.

١٧-٤ فلا ينبغي أن نُبقي عقولنا دومًا مدفوعًة في نفس المستوى، بل نستدعيها للدعابة، فسقراط لم يستحِ أن يلعب مع الأطفال الصغار، وكاتو[٣٥٦] لطَّف عقله بالخمر حين أنهكته الأمور العامة، وسكيبيو *Scipio* استحث جسد الجنرال المظفر والجندي للرقص، ولا تُضعف الجسد بحركات لينة كما هو الحال في المجتمع الآن للرجال المتبخترة خلف التصنع النسوي حتى في طريقة مشيهم، ولكن كالرجال الكبار الذين اعتادوا أن يلبسوا لباسًا رجوليًّا في لعبهم وفي إجازاتهم العامة، ولا يخشون حتى لو كان يراقبهم أعداؤهم.

(٣٥٦) كان معروفًا أن كاتو الأوتيكي *Cato of Utica* الورع يقضي الليل في الشرب، وتحول عنه الناس حتى لا يروه يترنح في عودته للبيت وهو يلعب مع الأطفال، فقد وضع الشراب والرقص على قدم المساواة مع رخصة الاسترخاء.

١٧-٥ وعلينا أن نُروِّح عقولنا حتى تنهض من سكونها أشد قوةً، كما لا ينبغي أن نقحم الأراضي الخصبة على الدوام، فالخصوبة المتواصلة تستنزفها عاجلًا، والكد المتواصل يحطم دوافع عقولنا التي تستعيد القوة بعد التراخي لفترة وجيزة، في حين أن العمل المستمر يؤدي إلى وهن العقول وتبلدها.

١٧-٦ فرغبتنا لهذا لن تكن بالغة إذا لم تدعم الرياضة واللعب متعتها الطبيعية، ولكن المتعة المتكررة في هذا سوف تسحب قوانا كلها وحيوية عقولنا، فالنوم ضرورة للإنعاش، ولكن إذا واصلت الليل بالنهار سوف تموت، فهناك فارق كبير سواء استرخيت شيئًا ما أم تراخيت فيه.

١٧-٧ إن واضعي قوانيننا حددوا أيامًا للعيد حتى يجتمع الناس على المرح المبهج على العموم، وأدرجوا هذا كاعتدال ضروري للعمل، وكما أقول إن الناس العظماء يمنحون أنفسهم إجازات ثابتة في الشهر، وبعضهم يقسم اليوم بين العمل والراحة، ونحن نتذكر الخطيب العظيم أسينيوس بوليو *Asinius Pollio* الذي تخلى عن أي عمل بعد الساعة العاشرة، حتى أنه لم يقرأ مراسلاته بعد هذه الساعة كي لا تنشأ عنها أعمال جديدة، ويضع ساعتين ليرتاح من التعب خلال اليوم كله[٣٥٧]، وهناك مَن قطعوا العمل في منتصف اليوم وأجل الأعمال الخفيفة لبعد الظهيرة، وأسلافنا أيضًا منعوا أي اقتراح جديد يُعرض على مجلس الشيوخ بعد الساعة العاشرة، وفي الجندية يقسمون المراقبات فقد يُعفى من واجب الليل الذين عادوا من غارة بالنهار.

١٧-٨ وعلينا أن نلاطف العقل ونمنحه راحة في مكان الغذاء والنشاط، وعلى المرء أن يهيم في التنزه حتى يكسب العقل قوة، وترتفع ذاته بالسماء المفتوحة

---

(٣٥٧) أسينيوس بوليو *Asinius Pollio (76 bce–4 ce)* خطيب جمهوري متأخر، عُيِّن في منصب القنصل عام ٤٠ ق.م، وظفر بالنصر في إليريا *Illyria*، وانسحب من السياسات الحزبية وأسس أول مكتبة عامة في روما (قبل أوغسطس)، وفاز بالاحترام كمدافع ومروج للثقافة.

والهواء النقي الوافر، وأحيانًا ارتياد الرحلة وتغيير المكان يمنح القوة كالرفقة الحسنة والشراب المحبوب، وأحيانًا علينا أن نقترب من الإرواء لا كما يغرقنا بل ليهدِّئنا؛ لأن هذا يغسل جانب ضجيج وحرص عقولنا بعمق، ويعالج الحزن كما أنه يحدث بعض الأمراض، وقد أطلق على مخترع النبيذ ليبر *Liber*(٣٥٨) ليس من طلاقة لسانه؛ بل لأنه حرر العقل من عبودية الحرص التي تدعمه وتجعله حيًّا وجريئًا في كل مخاطرة.

١٧-٩ ولكن هناك مقدار صحي للخمر كما للحرية، واعتقد الناس أن صولون *Solon* وأرخيسلاوس *Arcesilaus* (٣٥٩) انغمسا في الخمر، وقد وبخ كاتو بسكره، وكل مَن وجَّه هذا العتاب سيجعل تهمة الشرف أبسط من كاتو المخجل، ولكننا لا نفعل هذا غالبًا لنخشى أن تكتسب عقولنا عادة رديئة، ومع ذلك يجب أن تمتد في حرية بهيجة في أوقات، وتُبدد الرزانة المتجهمة في فترة وجيزة.

١٧-١٠ وسواء اعتقدنا أن السرور يمضي بالشاعر اليوناني إلى الجنون أو أن أفلاطون بتحكمه في نفسه طرق أبواب الشِّعر عبثًا أو أن أرسطو ليس عقلًا عظيمًا دون مزيج من الجنون، فليس بمقدور العقل أن ينطق بأي شيء عظيم ويعلو على الآخرين إلا إذا استثار(٣٦٠).

١٧-١١ وحين يحتقر العقل الأمور الشائعة والرتيبة ويرتقي بسمو الإلهام الرباني، فبهذا وليس بغيره سوف يرتل بشيء أعظم من كلام البشر، ولا شيء يأتي إليه

(٣٥٨) إله الخصوبة الإيطالي ليبر *Liber* يساوي ديونيسوس اليوناني، وقد فهم اسمه 'المحرر *liberator*' متجانسًا مع اللقب اليوناني لايوس *Lyaeos*.

(٣٥٩) المصادر التي تدعي هذا غير معروفة، ولكننا نرى على سبيل المثال في *Horace Epistles 1.19.7* أن الاستشهاد بالشراب كان معتادًا كإلهام للشعراء والرجال العظام.

(٣٦٠) يوجد محاكاة للقصيدة الغنائية اليونانية، ومحاورة فايدروس لأفلاطون كما هو أدناه، وقصيدة هوراديان *Horatian lyric* الغنائية *(Odes 2.7, 4.12.28)*، والمحاكاة في فايدروس تؤدي إلى التماثل الواضح للحصان الناري في فريق عربة النفس *(Phaedrus 246a–247c)*.

ويسمو به ويضعه عاليًا طالما هو في موضعه مع ذاته، وينبغي أن يتخلى عن نظام عادته، وليتحمل جانبًا ويعض على النواجذ ويخطف راكبه ويحمله إلى حيث يخشى أن يرتفع.

١٧-١٢ عزيزي سيرينوس، لقد سمعت ما يمكن أن يحفظ السكينة، وما يستعيدها، وما يقدم لمعارضة الرذائل المتعرشة، ولكن أعلم هذا ليست هذه المكائد قوية تمامًا للذين يعانون من الضعف إلَّا إذا كان الحرص الذي يحيط بالعقل الفاشل ثابتًا وكثيفًا.



عن وقت الفراغ

مقدمة

ألحق كودكس أمبروسينوس *Codex Ambrosianus* في أواخر القرن السابع عشر المخطوط الأساسي (عن الفراغ) برسالة (عن الحياة السعيدة) دون فاصلٍ، وكان مارك أنطوان دي موريه *Marc Antoine de Muret* عام ١٥٢٦–١٥٨٥ أول مَن اقترح أنهما عملان منفصلان، قد التصقا في رسالة (عن الحياة السعيدة)، وفُصل العملان في طبعة جوستوس ليبسيوس *Justus Lipsius* عام ١٦٠٥، وعُرف عن (وقت الفراغ *De otio*) من قائمة محتويات كودكس أمبروسينوس، ولكن قد مُحي اسم مخاطبه من السبع رسائل التي محت عن التفرغ، وقد قُبل أنايوس سيرينوس الحاكم الشاهد في حكم نيرون ٦٢–٦٣م كمخاطب لسينيكا ليس لسبب أن شخصيته التي رُسمت في رسالة عن التفرغ ارتبطت بسماته في رسالة (صمود الحكيم) ورسالة (سكينة العقل) حيث كان الخطاب موجهًا إليه، وإذا قبلنا سيرينوس مخاطبًا، فإن رسالة عن التفرغ قد أُلفت في عامٍ لا يتجاوز ٦٣، وهذا السيناريو قد يسمح لسينيكا بتأليف هذا التبرير للتقاعد من الحياة العملية في فترة انسحابه الفعلي من بلاط نيرون. أما بالنسبة لمدى الفجوة قبل بداية المحكي في رسالة عن الفراغ، فإن سينيكا يقسم حجته إلى قسمين في ٢, ١–٢ مشيرًا إلى أن النص المتبقي يبدأ فور مفتتحه.

ويمثل الصوت العارض الغاضب سواء أكان منسوبًا لسيرينوس أم لشخص متختل آخر وجهة النظر الرواقية الراشدة التي يتزعمها سينيكا، والتي تنص على أنه "سوف نبقى في الخدمة الفعلية حتى نهاية الحياة"، ويرفض سينيكا أي خرق للولاء الرواقي

فيما يفترضه ٢, ٢-١، (١) فقد يرفض الرواقي في سن مبكرة الحياة العملية من أجل التأمل، (٢) وربما يتقاعد الرواقي للحياة التأملية بعد أداء وظيفته في الخدمة العامة، والنقطة الأخيرة قد تستحضر دعم فترة عمله في البلاط وانسحابه، ولكن الرسالة لها أهمية فلسفية تفوق بكثير كونها سيرة ذاتية تبرر تقاعده، والدفاع الأساسي لسينيكا للحياة التأميلية سواء أكان "حتى في سن مبكرة" ٢, ١، أم "حين يكون المرء جاهزًا لإكمال حياة خدمته الرسمية وحياته إن تقادمت إلى حد بعيد ٢, ٢، وحتى إن عُهد في التأمل الرواقي الخدمة الفاعلة بالنوع الذي تعهد به المحاور في ١, ٤ حيث يختلفون في فشل المحاور أو الرفض في تحديد ما هو محلي أو ما يخدم الدولة والمدينة الكونية الكبرى المزمعة في ٤, ٢، لا يزال الفيلسوف المنعزل الذي يقيم فكريًّا في المدينة الكونية يتعهد بهدف الفعل الرواقي، وهو لا يفي بهذا الهدف بالمعنى المألوف الذي يفهمه المحاور في ١, ٤ وفي ٢, ١-٢، والرواقي يتقاعد للفلسفة بعد أن ينهي واجبه في وظيفة الخدمة العامة، "يبقى في الخدمة الفاعلة حتى يصل إلى أرذل العمر" ٢, ٢، ومن ثم بالتعليم وبكونه مثالًا، "فمَن يخدم نفسه قد ينفع الآخرين حيث بمقدوره أن يكون مُعينًا لهم"، أما الفيلسوف الشاب الذي ينسحب "حتى في حياته المبكرة"؛ فهو ينتمي إلى مقولة الرواقي الذي يبذل قصارى جهده لإيجاد حالة مناسبة ليخدم ٨, ١-٣، ولكن بانعزاله عن المدينة الكونية الكبرى سوف يحل الفساد محليًّا، وفي أي دولة سواء أثينا أو قرطاجة أو حتى روما، ويجبره انسحابه للحياة التأملية ٨, ٣، "وإن لم يكن هناك أمة من النوع الذي نتخيله لأنفسنا، فإن التفرغ هو الملاذ الذي لا مفر منه للجميع"، وحتى مع تقاعده لا يزال منخرطًا وفاعلًا في التأمل الذي يفي بالوصاية الرواقية في الخدمة العامة، مثلما فعل أفاضل الرواقيين مثل زينون وخريسبوس في خدمة البشرية بكتاباتهم وأثرهم الفلسفي٦, ٤-٥.

وفي هذه المقاربة الاختلاف بل الجدل مفتوحٌ للحل، أليست رسالة (في التفرغ) نهايتها مرسلة مثل بدايتها؟ ويكمن عدم اكتمال الحجة الرئيسة في ٨, ٤ في الحاجة

الملحوظة لتغيير الاتجاه في الجزء المفقود من العمل حتى يتسنى فهم الجزء الثاني من الفرض في ٢ , ٢؛ لأنه إن أكد استبعد كل الأعمال الاجتماعية بسبب فساد حالة الفساد لأي دولة ٨ , ٣، فكيف يمكن للشروع في التقاعد من الوظيفة العامة أن يكون عادلًا؟ وهل يمكن الفرض الثاني في ٢ , ٢ خيارًا وقعيًّا للفيلسوف؟ وإن كان لا، فكيف يكون الموضوع الثاني زائدًا عن الحاجة في الرسالة التي نتناولها على الأقل؟ ومن ثم يبقى الجدل المضاد حول الاكتمال على المحور الذي يظل فيه الفيلسوف متعهدًا للفعل حتى في التقاعد، وكلا الفرضين في ٢ , ١-٢ يدور في العمل، كما تناولناهما حيث يلاحظ التزام الرواقي المكلف بالعمل طوال الحياة (راجع ١ , ٤)، وإذا أتيحت الحالة المناسبة، فإن الرواقي سيخدم العموم بقدر ما يمكنه عمليًّا،(ومن ثم التوكيد في ٢ , ٢ على التقاعد حين "يتقدم العمر")، ولا يقل التزامه بالعمل الفلسفي حتى النهاية، وإن لم تتح الحالة المناسبة رغم قصارى جهده للخدمة العامة، فقد يحق له الانسحاب إلى الحياة التأملية في أي من مراحل العمر، ومع ذلك تبقى الأولوية للعمل حتى في التقاعد.

لمزيد من القراءة:

Griffin, M. T. 1976. Seneca: A Philosopher in Politics (Oxford, Clarendon Press; repr. with postscript, 1992), esp. 315–21, 328–34.

Williams, G. D., ed. 2003. Seneca: "De Otio," "De Brevitate Vitae" (Cambridge: Cambridge University Press), esp. 10–18.

١-١ إن التوافق الكبير يجعل رذائلنا جاذبةً لنا، حتى لو لم نحاول شيئًا آخر شافيًا؛ فإن الانسحاب في ذاته من الحياة العامة يكون نافعًا، وقد نكون أفضل بذواتنا، فالانسحاب يمنحنا الفرصة لمرافقة أفضل الناس، ونختار من بينهم مثالًا يُرشد حياتنا، ويتأتى هذا فحسب في وقت الفراغ، وحيث يمكننا أن نواصل ثباتنا، وحينها لا يأتي أحد ليضلل بعون الجماهير ويقضي بالمجروح فيه، وعندئذٍ تمضي الحياة التي بترناها من الأهداف المشوهة قدمًا على المسار بلا انقطاع.

١-٢ وإن أسوأ شرورنا هي أن نكبت تغيير رذائلنا، أو حتى نقتصد استمرارية البقاء في الرذيلة التي نعلمها بالفعل، فالشيء يتلو الآخر يمنحنا المتعة، وما يسبب لنا التعب هو أن أحكامنا ليست فاسدةً فحسب بل متقلبة كذلك، ونحن متقلبون، وننتهز شيئًا يتلو الآخر، ونبحث عن الشيء الذي تخلينا عنه، وما نتخلى عنه نسعى لرده، وكذلك نتأرجح بين الرغبة والندم عليها.

١-٣ ولأننا نعتمد كليةً على أحكام الآخرين، ونرى الأفضل ما يُثني عليه الكثير ويلاحقونه، وليس ما يبرر الثناء والملاحقة، كما أننا لا نحكم على الطريق بأنه حسن أو رديء بمزاياه بل بكم الإقدام عليه، ولا أحد من الناس يمكن أن يعود من الطريق[٣٦١].

---

(٣٦١) إشارة إلى أسطورة إيسوب عن الأسد والذئب، حيث يجذب الأسد الزائرين المتعاطفين، ولكن الذئب الماكر يشير إلى اتجاه لكل المتعاطفين، وبالنسبة لسينيكا يتداحون نحو التدمير بالانسياق نحو رأي واحد للجمهور. وإيسوب وهو عبد يوناني عاش في اليونان القديمة بين عامي ٦٢٠ و ٥٦٠ قبل الميلاد. اشتهرت حكاياته حول العالم. وتعد أساطيره رافدًا للتربية الاخلاقية للأطفال. (المترجم).

١-٤ وسوف تقول لي: «ما الذي تقوله يا سينيكا؟ هل تهجر وجهتك الرواقية؟ يقينًا تقول الرواقية: سنبقى في الخدمة الفاعلة حتى نهاية الحياة دون أن نكف عن تقديم أنفسنا للخير العام ونعين الفرد ونمنح المساعدة بيد هرمة حتى لأعدائنا، ونحن الرواقيون لا يُعفى أحدنا من الخدمة في أي عمر، ونضع خوذة الحرب على شَعرنا الرمادي كما يضع الشعراء البلاغة على الشِّعر(٣٦٢)، ونحن الذين نتعلق بالقوة حتى لحظة الموت، والموت ذاته إن سمح الحال لا نقضيه»(٣٦٣)، لقد كان في تعاليم زينون مفهوم للقيادة، فهل تحدثنا عن تعاليم أبيقور؟ إن كنتَ قلقًا من تعاليم المدرسة، فلماذا لا تتخلى عنها صراحةً بدلًا من أن تخونها؟».

١-٥ والآن أقول لك في الرد فقط: «هل تتوقع ألَّا أسلك دربًا يزيد على طريقة معلمي؟، ولذا ما العمل؟ إنني لم أمضِ إلى حيث أرسلوني، بل حيث قادوني»(٣٦٤).

٢-١ وسوف أبرهن لك الآن أنني لم أتخلَّ عن تعاليم الرواقية؛ لأن الرواقيين أنفسهم لم يتخلوا عنها، ومن ثم لدي عذر معتبر حتى لو اتبعت مثالهم الشخصي وليس تعاليمهم، وسأفرق ما أقوله في جزأين، الأول أنه كان للمرء أن يكرس نفسه كليةً لتأمل الحقيقة والسعي نحو أساس عقلي متين للحياة وممارسته في العزلة.

٢-٢ ثانيًا حين يُكمل المرء الخدمة الرسمية بالفعل، وحين يتقدم به العمر يمكن أن يفعل الشيء نفسه على نحو مثالي يصله ببصيرة عالية للآخرين بعد أن يقسم طريقهم الطاهر العذري سنين خدمتهم إلى واجبات مختلفة، ويتعلمون أداء الطقوس المقدسة، وعندما يتعلمونها يُعلمونها.

---

(362) Virgil Aeneid 9.612.

(٣٦٣) من المفترض أنها إشارة للانتحار الرواقي.

(٣٦٤) يستثمر سينيكا عدم توافق سوء السمعة الرواقي، وأن زينون الكتيومي أول رئيس للمدرسة وخريسبوس السولي ثالث رئيس لها قد دعوا إلى الخدمة العامة ولم يجرؤا ممارستها بأنفسهم على الأقل بالمعنى المألوف، راجع *(cf. 6.4–5)*.

٣-١ وسوف أبين أن هذا المذهب يجد قبولًا مع الرواقية أيضًا، ولا أجعله مبدأً لي، حتى لا أرتكب جريمة تجاه أي قول لزينون أو خريسبوس، بل الحري أنها حقيقة بسيطة لمسألة تتبعني لأدعم آراءهم، وإذا كان امرئ يدعم رأيًا للشخص نفسه، فإنه لا يتبعه في مجلس الشيوخ، بل في التصفيق المأجور، وإذا فهم كل شيء بالفعل تتضح الحقيقة وتُقبل على عمومها، ولن نغير أيًّا من قناعتنا! بما هو الآن، ونحن نبحث عن الحقيقة بجانب مَن يعلمونها.

٣-٢ ولا تتفق المدرستان الأبيقورية والرواقية على هذا السؤال ومسائل أخرى، وكلاهما يوجهنا لوقت الفراغ بطرق مختلفة، فأبيقور يقول: «لا يشارك الحكيم في الحياة العامة إلا في ظروف استثنائية»، ويقول زينون: «إنه سوف يشارك في الحياة العامة ما لم يمنعه شيء»[٣٦٥].

٣-٣ يهدف الأول إلى وقت الفراغ من حيث المبدأ، والآخر يهدف إلى أسس خاصة، ولكن هذه الأسس واسعة المدى، وهي إذا مرضت الدولة واحتاجت العون، وإذا استولى عليها المرض فلا يناضل الحكيم دون حاجة إلى ذلك ويستهلك نفسه لغاية غير نافعة، وإذا لم يكن لديه نفوذ أو سلطة كافية، وإذا لم تكن الدولة مستعدة لقبولها أو إذا منعته علة المرض، فإنه لن يصعد على مسار يعلم أنه من الصعب تحققه كما لو أنه يجند للخدمة العسكرية وهو مشلول أو ينزل البحر بسفينة مدمرة[٣٦٦].

٣-٤ إذنْ من الممكن حتى لأي امرئ لديه كل الاختيارات لا تزال مفتوحة، وقبل أن يعاني أي عواصف للحياة حتى يستقر إلى ملاذ، آمن أن يكرس نفسه لدراسات حرة ويقضي وقته في وقت فراغ غير منقطع، ويغرس الفضائل التي أبعد من أن يمارسها العامة.

---

(٣٦٥) ليست اقتباسات مباشرة، ولكنها طباقات متقنة لبتدعها سينيكا.

(٣٦٦) نظرًا لتقاعد سينيكا من البلاط النيروني بعد عام ٦٢م، حيث كشف عن ملامح سيرته هنا، ولكن أسباب الإعفاء من الخدمة في ٣،٣ وسوف توثق من قبل سينيكا، وهي أكثر من كونها أمرًا شخصيًّا، حتى تكون سيرة واضحة.

٣-٥ ويقينا أن المطلوب من أي أحدٍ أن يكون نافعًا للآخرين، وإن أمكن فللكثرة وإن لم يكن فللقلة، وإن لم يكن للقلة فللأقرب لنا وإن لم يكن للأقرب فلنفسه، وحين يجعل المرء من نفسه نافعًا للآخرين، فإنه يشارك في الخدمة العامة، كما أن المرء المسؤول عن انحطاط خلقه لا يضر نفسه فحسب، بل كل الذين قد يستفيدون من تحسين ذاته، وكذلك مَن يخدم نفسه حسنًا ينفع الآخرين بما يقدمه من عون لهم.

٤-١ ودعنا نفترض أن هناك دولتين[٣٦٧]، الأولى واسعة ويشترك فيها الجميع، وتحتوى فيها الأرباب مثل البشر، ونحن لا ننظر إلى هذه الزاوية ولا تلك، بل نقيس حدود دولتنا بمسار الشمس. والثانية إننا مسجلون بها لظروف ميلادنا، أعني أثينا وقرطاجة أو أي مدينة أخرى لا تتبع البشر جمعاء، بل سكان بعينهم، ويكرس أناس بعينهم الخدمة لكلتا الأمتين وتزيد وتنقص في الوقت نفسه، فبعضهم تقل خدمته وبعضهم الآخر قد يزيد.

٤-٢ وهذه الدولة الأعظم يمكننا أن نخدمها بتفانٍ حتى في وقت الفراغ، والأحرى أنني أنزع إلى التفكير نحو الأفضل في وقت الفراغ بالاستفسار عن الفضيلة[٣٦٨] عمَّ إذا كانت للفرد أم للمجموع؟ وعمَّ إذا كان المرء خيِّرًا بالطبيعة أم بالممارسة؟ وعمَّ إذا كانت هيئة العالم التي تحتوي البحار والأرض والأشياء التي تتصل بالأرض والماء تُوجد بمفردها، أم أن الرب قد نثر هيئات كثيرة مثلها؟ وعمَّ إذا كانت المادة التي تأتي منها كل الأشياء إلى

---

(٣٦٧) حلم زينون في جمهوريته بوعي مدني كلي (وهو مفهوم متأثر بالكلبية ونظرية المثل)، وتبناه خريسبوس ليشكل فكرة (مدينة كونية) عند الرواقيين اللاحقين.

(٣٦٨) تعد الطبيعة والمنطق والأخلاق المجالات أكثر تدولًا في الفكر الهيللينستي، يبدأ سينيكا بتساؤلات أخلاقية أساسية قبل أن يُقدم على الطبيعة، حيث يبدأ بالكون الطبيعي ثم حكمه الإلهي، وأوجه الاختلاف بين الرواقية والأبيقورية في تساؤلات سينيكا الطبيعية هنا، فالعالم الرواقي المادي متصل والرب متخلل فيه، وهو يناقض الحركة الذرية العشوائية في الخلاء، دون تدخل إلهي لهذا العالم أو أي عالم آخر قابل للفناء، وقد أحيا هذا المجاراة بين المدارس الهيللينستية ٤, ١-٥.

الوجود متصلة ولا يحدها الفراغ، أم أنها ممتدة ويخلطها الخلاء بالهيئات الصلبة؟ وأي نوع من المسكن يسكنه الرب سواء أكان ينظر إلى عمل يده في سكون أم يسيطر عليه علانية؟ وسواء أكان يحتويه بمفرده أم يجتاحه كلية، وسواء أكان العالم أبديًّا أم أنه معدود بين الأشياء الفانية والمحدودة في فترة الحياة، فما الخدمة التي يقدمها المتأمل في هذه المسائل؟ هذه أعماله العظيمة وهي ليست دون شهادة.

٥-١ نحن[٣٦٩] نقول عادة إنَّ أعظم خير أن تعيش وفقًا للطبيعة، والطبيعة خلقتنا لغايتين وهما التأمل والفعل، واسمح لي أن أبرهن على العبارة الأولى، ولماذا أقول أكثر من ذلك؟ ألم يثبت إذا ما كان كل منا يسأل نفسه كم يتوق إلى معرفة المجهول وكم يتحمس للحصول على بيان لكل جديد يسمعه؟

٥-٢ بعض البحارة يتحمل مصاعب لرحلة بعيدة من أجل مكافأة وحيدة، وهي أن يكتشف البعيد أو الخفي، وهذا هو السبب الذي يجعل الجماهير تتجمع لمشاهد عامة، وهذا ما يجعلهم ينقبون عن ما هو مستور، ويفتشون عن المبهم، ويكشفون الماضي، ويفهموا طرائق الأمم الغريبة.

٥-٣ منحتنا الطبيعة ميلًا فضوليًّا ووعيًا بحذقها وجمالها، ومنحتنا الحياة لرؤية مشهدها العظيم، وإنها تؤكد أنها سوف تفقد المتعة في ذاتها إذا عرضت أعمالها باتساع وتميز وإبداع فاتن وبريق وجمال يصعب على المرء مشاهدته في عزلة خالية.

٥-٤ وحتى تفهم مرادها، لا تشاهد فحسب، بل راقبها عن قرب، وتأمل المكان الذي عينته لنا، إنها وضعتنا في مركز خلقها، ومنحتنا قيادة الكون، وليس هذا ليقف الإنسان منتصبًا، بل لتعده للتأمل، حتى يتمكن من متابعة النجوم وهي

---

(٣٦٩) الرواقيون.

تنزلق من بزوغها نحو مواضعها، ويحول نظره بتحول الكون، وحتى يضع رأسه فوق جسده ويضعها على رقبة لينة، ويكشف عن كل جزء منه بعمل ستة أبراج تشرق في النهار وستة في الليل، وبالعجائب التي قد تحلها على نظرنا تثير اهتمامًا قويًّا في الآخرين كذلك.

٥-٥ ولأننا لا نستطيع رؤية كل أبعادها الحقيقية، إلا أن رؤيتنا تفتح الطريق لتفحص ذاتها وتضع أساسًا للحقيقة، مما يسمح لنا بحثنا أن نتقدم من الواضح إلى الخفي، ونكتشف أشياء أقدم من العالم ذاته، فما أصل هذه الأبراج؟ وما الحالة الطبيعية التي كان عليها الكون قبل بدء انفصال العناصر المختلفة عن أجزائه؟ وما المبدأ الذي فصلهم حينما سقطوا نحو ظلام وفوضى؟ ومَن الذي عيَّن مواضع الأشياء؟ وهل الأشياء الثقيلة بطبيعتها انهارت للأسفل وتطايرت الخفيفة للأعلى، أم أن هناك قانونًا تضعه قوى عليا للأجسام المفردة بصرف النظر عن دفعها أو وزنها؟ أم أن هناك حجة بالغة تسعى لتبرهن أن البشر جزء من النفحة الربانية، وأن بعض الجوانب والشرارات كالنجوم التي تسقط نحو الأرض لا تعلق بمواضعها[٣٧٠]؟

٥-٦ أفكارنا تحدها أسوار السماء، وما من معرفة سوى التي تظهر للعين، وأفكارنا تقول: «أنا أبحث عما يكمن وراء العالم، وهل هو رحابة لا محدودة أم أنه فضاء يُغلفه بحدوده؟ وما حالة الأشياء وراء هذه الحدود؟ وهل هي عديمة الشكل ومختلطة معًا تتخذ الفضاء نفسه في كل الاتجاهات، أم أنها مقسمة إلى بعض الأنظمة؟ وهل هي مرتبطة طبيعيًّا بهذا العالم، أم بعيدة عنه وتتركه يدور في الخلاء؟ وهل هي من الذرات التي كل شيء منها، أم التي سوف تأتي

---

(٣٧٠) النفس العقلانية الإنسانية في النظرية الرواقية قسم نَفْسه إلهية أو بنيوما *pneuma* للعالم الناري، وتظهر الأفكار الأبيقورية والرواقية متوترة مرة أخرى في ٥, ٥-٦ وراجع هامش ٨، ولكن ما يتخطى تنافسهم هنا هو نموذج استجواب الذات والعالم الذي يطرحه سينيكا كمشاركة لأي عقل مبدع في قمة أدائه.

إلى الوجود الذي قد شُيد، أم هي جوهر الأشياء المتصلة القادرة على التحول في كل جانب؟ وهل العناصر معادية لبعضها بعض، أم الأحرى أنها تتقاتل فيما بينها وتعمل بشكل متناغم معًا في اتجاهات مختلفة؟».

٥-٧ وانظر إلى هذا الإنسان الذي وُلد للبحث في هذه المسائل، وتأمل كم الوقت الضيق الذي مُنح له حتى لو طلب كل لحظة لنفسه! رغم أنه لا يسمح أن يُنتزع منه وقته بطبيعته السخية، ولا ينزلق بالغفلة، ورغم أنه يحرس ساعاته الثمينة بأقصى شح ويصل إلى الحد الأبعد لحياة الإنسان، ورغم أن الحظ لا يؤرق جانبًا مما خصصته له الطبيعة- ومع ذلك يفنى الإنسان ليحصل على معرفة الأشياء الخالدة.

٥-٨ ولذلك أعيش وفقًا للطبيعة، وإن كرستُ نفسي كليةً لها، وإن عشقتها وعبدتها، وتتمنى الطبيعة أن أفعل كليهما: أي أكون فاعلًا وحرًّا في تأملي[٣٧١]، وأنا أفعلهما على حد سواء، حيث ينطوي التأمل على الفعل.

٦-١ وأنت تقول: "ولكن ثم فرقٌ عن إذا كنت تتحول إليها من أجل المتعة فحسب، ولست ساعيًا لشيء سوى التأمل دون انقطاع وبلا منفعة عملية؛ لأن هذا الوجود جاذب لمفاتنه الخاصة"، وردي عليك: إن هذه مسائل تساوي في إطار العقل ما تصنعه في حياتك السياسية، فهل تنشغل دومًا، ولا تتخذ وقتًا لنفسك لتحول نظرك من الشؤون الإنسانية إلى الأشياء الربانية؟

٦-٢ وليس جديرًا بالثناء أن تسعى وراء الثروة دون أي حب للفضائل ودون غرس للعقل وتنشغل في عمل أجرد، ويجب أن تترابط هذه الأشياء ببعضها البعض، مثل الفضيلة التي تضيع في وقت الفراغ دون فعل، وإن لم تقدم ما تعلمته للفحص فهي ناقصة وخير خامل.

---

(٣٧١) وهناك توكيد من سينيكا في أكثر من مكان؛ على سبيل المثال في رسالة سكينة العقل ٤ ,٨ والرسالة ٣ ,٦، مع التوضيح في ٦ ,٢-٤ أدناه.

٦-٣ ومَن الذى ينكر أن هذه الفضيلة تختبر تقدمها عن طريق العمل وليس بالنظر فيما ينبغي عمله، ولكن تعمل على نحو جازم أحيانًا وتقدم أفكارها لملء الواقع؟ وإن لم يكن تأخيرًا من جانب الحكيم نفسه، وإن لم يفتقر إلى الدافع بل المهمة التي عليه أداؤه،ا فمن المؤكد أنها ستسمح له بأن ينسجم مع نفسه؟

٦-٤ وما الأفكار التي يسحبها الحكيم إلى وقت الفراغ؟ إنه يعمل في المعرفة التي يربطها بفعالية في مشاريع تنفع الأجيال، ولا شك أن زينون وخريسبوس من الرواقيين الذين حققوا أشياء أكبر من قيادة الجيوش وشغل المناصب والضلوع في القانون؛ لقد صكوا قانونًا ليس لدولة بعينها بل لجنس البشر! إذنْ لماذا لا يكون وقت الفراغ قويمًا للرجل الخيِّر إذا استخدمه ليعطي توجيهات للأجيال اللاحقة وليس في معالجة البسيط، بل كل الناس والأمم سواء في الحاضر أو المستقبل؟

٦-٥ وباختصار أسألك عن إذا كان كليانتس وخريسبوس وزينون قد عاشوا وفق مذاهبهم[٣٧٢]؟ وسوف ترد بأنهم عاشوا كما قالوا كيف تُعاش الحياة، ومن ثم لم يشارك أيٌّ منهم في الحياة المدنية، وأنت ترد: «لم يتيح لهم الحظ، ولم تسمح الدولة المدنية للناس أن يشاركوا في الإدارة العامة»[٣٧٣]، ومع ذلك لم تقودهم حياة الخمول، واكتشفوا كيف يجعلون خمولهم بعينه منعة للبشرية أكثر من كد وصخب الآخرين، ولذلك لم يؤدوا دورًا في الحياة العامة مع أنهم قد فعلوا الكثير.

٧-١ وعلاوةً على ذلك، فهم ثلاثة أنماط للحياة[٣٧٤]، طُلب منهم الأفضل، الأول تفانى في المتعة، والثاني في التأمل، والثالث في العمل. وإذا طرحنا تنافسنا

(٣٧٢) راجع ١, ٥ وهامش ٤.

(٣٧٣) لم يكن زينون وكيليانتس وخريسبوس مؤهلين للمنصب القانوني أو السياسي هناك؛ لأنهم ليسوا من مواليد أثينا.

(٣٧٤) الصياغة في كتاب الأخلاق النيقوماخية عند أرسطو *(Nicomachean Ethics 1095b 17–19)*، ويمتد الاختلاف إلى أفلاطون ومَن سبقوه.

الفلسفي والكراهية المتصلبة التي نعلنها تجاه هؤلاء الذين اتبعوا طرائق مختلفة، فدعونا نلاحظ كيف أن الثلاثة أقبلوا على الشيء نفسه بمسميات مختلفة، فالمرء الذي مدح المتعة لم يتخلَّ عن التأمل، والذي تفانى في التأمل لم يتخلَّ عن المتعة، والذي كرَّس وجوده للعمل لم يتخلَّ عن التأمل.

٧-٢ وأنت تقول: «لكن هناك فرق كبير بي إذا كان الشيء رئيسًا أو ملحقًا ببعض الأهداف الرئيسة الأخرى»، ربما يكون فرقًا كبيرًا، ومع ذلك لا يوجد أحدهما دون الآخر، فلا يتأمل المتأمل دون فعل، ولا يستغني الفاعل عن التأمل، والمرء الثالث الذي اتفقنا على أنه أقل في درجة الرأي[٣٧٥] لا يُعاقب على المتعة الخاملة، بل المتعة التي تجعله متقوقعا في ذاته بعقله[٣٧٦]، ووفقًا لذلك حتى لو كان هذا متعةً، فإن هذه المدرسة أحبت المتعة لأجل العمل.

٧-٣ وكيف لا يكون حيث إن أبيقور نفسه يقول إنه ينسحب من المتعة ويسعى نحو الألم، إذا لاح الندم على المتعة أو إذا أضفى على ألم أقل في موضع أكبر لاحق[٣٧٧]؟

٧-٤ وما وجهة نظري في قولي هذا؟ وجهة نظري توضح أن كل الأطراف تمدح التأمل، فهو للبعض غاية، وبالنسبة لنا نحن الرواقيون هو موضع للمطية في المرسى وليس هو الميناء[٣٧٨].

٨-١ وتأمل أنه قد سمح لك وفقًا لخريسبوس[٣٧٩] أن تعيش في وقت الفراغ، وأنا

---

(٣٧٥) كلمة الأبيقوري قد تلمح إلى نقطة النقاش المفقودة في الافتتاحية.

(٣٧٦) على سبيل المثال تهدف الأبيقورية إلى تحقيق اللذة *katastematic* (ليس بالجوع) بل على العكس بالإشباع (بالأكل لتخفيف الجوع).

(٣٧٧) راجع خطاب أبيقور إلى منشيوس ١٢٩-١٣٠.

(٣٧٨) يعود الاختلاف في ٢, ١-٢ إلى حالة التقاعد للحياة التأملية من مقتبل العمر (٢, ١)، أو بعد الانسحاب من الخدمة العامة (٢, ٢)، والرواقية تلتزم بالعمل دومًا حتى في حالة التقاعد للتأمل، فهي تباشر العمل للخير العام.

(٣٧٩) على غرار وصف زينون في ٣, ٢ أعلاه.

لا أقصد التسلية بل أي نشاط تختاره، إن مدرستنا ترفض أن يقبل الحكيم المشاركة في الحياة العامة أو في الدولة، بل في التمييز الذي يصله إلى وقت الفراغ- سواء بسبب أن الدولة غير متاحة له، أم أنه غير متاح للدولة، إذا لم تكن الدولة غير موجودة لأي أحد؟ والحق أن الدولة لا تتاح للذين يسعون من أجلها بعين دؤوبة.

٨-٢ وأسألك ما الدولة التي يعلق الحكيم بها نفسه؟ هل دولة الأثينيين التي أدانت سقراط بالموت، التي هرب منها أرسطو ليتجنب إدانته فيها(٣٨٠)؟ وأين تضطهد الفضائل بالحقد؟ وليس بمقدورك أن تخبرني أن الحكيم سوف يربط نفسه بهذه الدولة، هل دولة قرطاجة في خلافها السياسي المتواصل، وتهديدات الفجور الشعوبي التي تؤذي كل المواطنين الفضلاء، واحتقار العدالة والمبدأ الحق، والقسوة البهيمية تجاه الأعداء حتى لو تحولوا من عداء مواطنيهم؟ فهذه واحدة من الدول.

٨-٣ وإذا أردت أن أمسح لك الدول كاملةً، فلن أجد واحدة متسامحة أو يتسامح معها الحكيم، ولكن إن لم نجد لنا دولةً من النوع الذي تصورناه لأنفسنا، فيبدو أن وقت الفراغ هو الخيار الذي لا مفر منه للجميع؛ لأن الشيء الوحيد الذي قد فضل لوقت الفراغ موجود في أي أينٍ.

٨-٤ وإذا قال أحدهم: من الأفضل أن يذهب عن طريق البحر، ومن ثم يحرم الإبحار حيث يحدث تحطيم السفن عادةً، وغالبًا ما تصطدم فجأةً بالعواصف التي ترمي القبطان في الاتجاه الخاطئ، إنه يخبرني، ما لم أكن مخطئًا فلن أبحر، مع أنه يثني على الإبحار(٣٨١).

---

(٣٨٠) بعد موت الإسكندر في ٣٢٣ ق.م غادر أرسطو المتهم بعدم التقوى أثينا، وهو يستدعي ما فُعل بسقراط من قبل.

(٣٨١) لتوكيد دعوى أن رسالة عن التفرغ ليست كاملةً في رسالتها المرسلة انظر مقدمتي لهذه الرسالة.

عن الحياة السَّعيدة

مقدمة

الموضوع والبنية:

تشير عنوان رسالة *De vita beata* إلى "الحياة السعيدة" أو "السعادة" (أيديمونيا *eudaimonia* في اليونانية)، وقد اتفقت المدارس الفلسفية القديمة على الشيء المرغوب فيه طبيعة من قبل كل البشر، ومع هذا الإجماع العام أظهرت المدارس اختلافًا صارخًا حول ما يشكل الخير الأقصى أو الهدف والغاية أو كمال الحياة حيث يحتاج كل امرئ ليكون سعيدا إلى اللذة والحرية من الألم والقلق كما هو عند الأبيقوريين، والفضيلة وحدها عند الرواقيين، والفضيلة يرافقها خيرات بعينها عند المشاءيين، وأفضل ما بقي من سرد حول هذا الموضوع هو محاورة شيشرون عن غايات الخير والشر *On the Ends of Good and Bad* التي تدرس الأبعاد الثلاثة.

رسمت رسالة سينيكا لوحة مقتضبة للحياة الرواقية السعيدة التي تبنيها الفضيلة، وهي تعتد بعلاقة الحياة باللذة وأحوال أخرى، ففي بداية الرسالة (١-١) يعلن سينيكا لأخيه جاليو المخاطب في الرسالة "بما نسعى إليه" ثم "طريقة الحصول عليه بلين" (١, ١)، وبعد التركيز على بداية تحديد الحياة السعيدة يلي ذلك معلومات إضافية عدة للموضوع الثاني.

وفي مناقشة أولية للمشكلة المطروحة (١, ٢ - ٣, ١) هجا سينيكا التوجه الخاطئ للناس ويؤكد على الحاجة إلى مرشد خبير (١, ٢)، ويقود هذا إلى تركيزه على تعريف

الحياة السعيدة (٣, ٢-٥, ٤) حيث استقلاله المزعوم عن سلطة أي رواقي (٣, ٢)، وتوازنه بتمسكه بالمبدأ الرواقي المشترك حيث الاتفاق حول طبيعة العالم (٣, ٣)، وهو المبدأ الأساس للرواقية والذي أصبح مهيمنًا على العمل كله (على سبيل المثال ٨, ١- ٢، ١٣, ١، ٢٠, ٥)، ثم يشرع في تقديم ستة تعريفات للحياة السعيدة بامتداد مختلف، وهو يبرر نهجه للتعريف بمماثلته بالجيش الذي بمقدوره أن يتمدد وينكمش في لحظة واحدة وفقًا للخطة(٤, ١).

إن جدلية الملذات السالفة الذكر هي المعضلة الرئيسة في حوار سينيكا، حيث دحض اللذة باعتبارها خيرًا أسمى أو بكونها مرتبطة بالفضيلة باعتبارها طرفًا من الخير الأسمى (٦, ١-١٥, ٤)[٣٨٢]، وكل الاعتراضات التي تتوالى (التي عبَّر عنها طرف ثالث، ومن الواضح أنه ليس جاليو) تطابق مركب نوعي للمذهب الأبيقوري عن اللذة، وفى هذا التغير يظهر سينيكا نفسه على دراية بكتابات أبيقور وواعيًا بها حتى إنه تعاطف مع أبيقور ووصف تصوره للذة بالرزانة والاعتدال (١٢, ٤)، ومن ناحية أخرى، يؤكد أن المدرسة الأبيقورية أعطت ضمانةً وحجابًا للمتهورين الساعين للمتعة (١٢, ٤)، وهو يحمل الأبيقوريين المسؤولية عن هذا التطرف، ومن ثم نخرج من موضوع اللذة بصورة لنقاء الفضيلة واستقلالها، وأن حال الفضيلة هو «الضامن الحق» (١٥, ٥ -١٦, ٣).

ويثير التصور العام للحياة السعيدة عند سينيكا تغيرًا جديدًا مع محاور لدود- أو محاورين (١٧- ٢٠)، وهم يسألون: «ولماذا إذنْ تتحدث بجرأة زائدة عما تعيشه؟» (١٧, ١)، وهذه الدلائل بقائمتها الموسعة تحث سينيكا إلى تفسير يصف فيه الحكيم، وليس هو ذاته مثالًا أو مطمحًا للفيلسوف (٢٠, ٣-٥).

والاتجاه التالي الذي يوجه المعترض يوجهنا إلى نقاش يتعلق بعلاقة الحكيم بالثروة

---

(٣٨٢) لمزيد من التحليل عن الانحرافات والخفايا في النظريات الرواقية عن اللذة انظر *Asmis 1990, 235–44. Cicero On the Ends of Good and Bad 2.43–69; cf. Griffin 1992, 307*.

(٣.-٢١-٢٦)[٣٨٣]، ورد سينيكا صورة وصفية لنظرية المحايدة المفضلة *preferred indifferents (22.4)* وتفسير كيف يُعطي الحكيم الإحسان (٢٠-٤، ٢٣, ١، ٣, ٢٤) ذلك الموضوع الذي تناوله في رسالته عن الإحسان باستفاضة، ويكثف النقاش بالحديث عن الحكيم، ومن ثم عن سقراط والذي يُصور في البداية بمصطلحات عامة (٤, ٢٤، ٨, ٢٥)، ثم يزيد ما يتعلق بالسيرة نوعيًّا(٤, ٢٦، ٢٨, ١)، ومن الشك أن يقدر ما فقده سقراط من الهجوم المضطرب لخصومه عليه.

دفاع سينيكا:

كان من السهل على سينيكا أن يُبقي على الموضوعات النظرية بعد اختياره التركيز على الحياة السعيدة (٦, ١، ١٥, ٤)[٣٨٤]. ويعني التحول في الفصل ١٧ أن العمل مكرس الآن لوصف الحياة التي تنقضي في تقدم العمر رغم توافقها مع الحياة الرواقية السعيدة- وهو تحول دفاعي، والحياة الرواقية السعيدة لا تمضي على مصرعيها، بل تدار بالمحايدات المفضلة باعتبارها طرفًا من حياة الجسد والأسرة والدولة.

ورغم أن تاريخ كتابة رسالة الحياة السعيدة مجهول، فإن معظم الباحثين يرون أن العمل يرد -عاجلًا أم آجلًا- على الهجوم غير المبرر ضد سينيكا في ٥٨ ق.م من المدعي المحنك الساخط سوليوس روفوس *P. Suillius Rufus*[٣٨٥]، وقد لخص تاكيتوس التهم الموجهة من سوليوس لسينيكا وراء الستار، وأثنى على نفي سينيكا

(٣٨٣) للاطلاع على هذا التوكيد والمحتمل أن يكون مستمدًّا من بانيتوس *Panaetius* يمكن أن تجده عند *Cicero On Duties 1.17; cf. Asmis 1990, 250; Griffin 1992, 179, 296–97, 307 n. 4.*

(٣٨٤) لمناقشات أخرى عن الحياة السعيدة بتوكيد مختلف انظر *Letters 85 and 92.*

(٣٨٥) عن التسلسل الزمني والمنهج وعلاقته بتهم سوليوس انظر *Griffin 1992, 19–20, 306–9, 396, 399; Asmis 1990,* ٢٤٦-٤٧ ولمناقشة هذه التهم وعلاقة سينيكا بالمال انظر *Levick 2003* ولمعرفة سوليوس *Rutledge 2001, 111–13*، ولتطور النظريات الحديثة حول علاقة رسالة الحياة السعيدة وسياقها التاريخي يمكن تتبعه *Chaumartin 1989, 1686–89.* كما يلاحظ شيسارو *Schiesaro* أن سينيكا "يقدم نموذجًا ضمنيًّا للحاكم" (١٩٩٦, ٢٦) لا سيما في التشديد على احترام الحرية.

السابق، وأبرز المتناقضات بين فلسفته وثروته (*Annals 13.42.2–43.1*)، ويذكر كاسيوس ديو *Cassius Dio* هذه التهم بجانب تهم أخرى بما فيها تورط سينيكا في ممارسة الجنس مع "الصبيان في مراهقتهم:(*Roman History 61.10*)، وكما يقرر تاكيتوس أن تهم سوليوس لم تُعلن ونقلت إلى سينيكا بصورة مبالغ فيها (١٣ , ٤٣ , ١)، وتجد الاتهامات صدى جزئيًّا، وعدد قليل مَن سمع صداها، وتبدأ اتهامات المتحاور المتخيل في رسالة "عن الحياة السعيدة" في ٢ , ٣، ولاحقًا في ١٧ , ١-٢، ٢١ , ١، ٢٧ , ٥.

وكان من الأحرى ألَّا يستعمل سينيكا عنوان "الحياة السعيدة"؛ لأنه يعالج موضوع استعمال الفيلسوف للذة والثروة، ولكن زوده ببنية يُعرف فيها موقفه الرواقي من خلال تناقضه منهجيًّا مع المذاهب التي تعطي قيمة للذة والظاهر، في حين فسر موضع اللذة الملائم والظاهر في المذهب الرواقي.

وتُعرض هذه النصوص بشكلها المميز بتراكيب بلاغية يوظفها سينيكا، وبتقديمه لسقراط ينقل العمل إلى أجواء دفاع أفلاطون عن سقراط حيث يواجه الفيلسوف كثير من متهميه ويستغل هذه الفرصة ليمحص آراءهم، ورغم ادعائه للنقيض ١٧ , ٣-٤ يبدو سينيكا سعيدًا؛ لأنه يسمح لصوته أن ينفجر بصوت الحكيم، والاستعمال المكثف للاصطلاح السياسي الروماني يشكل تراكبًا بلاغيًّا آخر، أُشير له في البداية حين وظف سينيكا الاصطلاحات الانتخابات السياسية ومداولات مجلس الشيوخ لتوصيف الطريقة التي يقررها هو ومحاوره في كيفية صياغة آرائهم وربطها بآراء الآخرين (١ , ٥- ١ , ٢، ٣ , ٢)، ويبني سينيكا في أوقات لاحقة على المثل الموجودة للسلوك السياسي (على سبيل المثال ١٥ , ٧، ٢٠ , ٥)، حتى إنه يسعى لاستبدال هذه القيم السياسية بالقيم الفلسفية[٣٨٦].

(٣٨٦) كما يلاحظ شيسارو *Schiesaro* أن سينيكا "يقدم نموذجًا ضمنيًّا للحاكم" (٢٦ , ١٩٩٦) لا سيما في التشديد على احترام الحرية.

وإن دفاع سينيكا -إن كنا نطلق عليه هكذا- لا يزال مؤثرا في مجابهة تصورات سينيكا المفترضة للنفاق، وعلى سبيل المثال قد اتخذ ديدرو *Diderot* رسالة الحياة السعيدة منحًى بلاغيًّا في مقاله عن حياة سينيكا وكتاباته *Essaisur la vie et les écrits de Sénèque*، والذي يُدافع فيه الفيلسوف عن كل من سينيكا ونفسه ضد سوللسوسات *Suilliuses* (جمع سوليوس الذي انتقد سينيكا) الحياة المعاصرة أو الاتجاه المضاد لسينيكا.

اللذة والثروة وفن العيش:

تركز رسالة الحياة السعيدة على السلوك الأخلاقي في أوقات الحظ الحسن على خلاف الرسائل القصيرة الأخرى، وسينيكا كفيلسوف يضعها ضمن الفضائل «الهابطة *downhill*" مثل الحرية والاعتدال واللطف بدلًا من الفضائل "الصاعدة *uphill*" مثل التحمل والشجاعة والمثابرة ٢٥,٦-٨، وفي هذا العمل لدينا الفرصة لنرى كيف صنع سينيكا هذه النصوص المختلفة، ونلاحظ كيفية معالجته للذة والثروة في شيوعها.

ويستجيب سينيكا بطرق معاكسة إلى حد ما إلى مسائل اللذة والثروة[٣٨٧]، ويصارع سينيكا في الفصول من السادس حتى الخامس عشر الذين يعلون من اللذة، ويجعلون الفضيلة أداتها، وعلى النقيض في حالة الثروة حيث إن هدف سينيكا هو تبرير تفضيل الحكيم لها، ويناقش الذين يرون التناقضات الذاتية في ملكية الرواقية للثروة.

ولكن تعين كثير من التصورات في توحيد القسمين، وكلا الموضوعين على سبيل المثال صيغ في معاني تميز الشخص الحكيم الفريد المشرق عن المتعة (السكينة أيضًا) وهذا هو الخيط الواصف لصورة سينيكا في كيفية أن تكون سعيدًا[٣٨٨]، وكلا الموضوعين قد صيغ في معاني التحرر، وبالفضيلة كتحرر من اللذة (على سبيل المثال

---

(٣٨٧) عن عدم تجانس المناقشات انظر *Griffin 1992, 307*.

(٣٨٨) عن المتعة واللذة هنا انظر *Asmis 1990, 232–35,244*، وعن المتعة والثروة انظر *Griffin 1992, 179.*

٣ , ٤، ٣ , ٤)[٣٨٩]، وينشأ سخاء الحكيم من عقل حر *liber animus (3.24)*.

وصورة الفيلسوف كصانع لحياته *artifex uitae suae(3.8)* تنطبق كلية مع اللذة والثروة، ففي حالة اللذة فلكونه صانعًا يأخذ العقل بداياته من الإحساسات، ومن ثم يؤكد سلطته عليها مثل الرب(٨ , ٣-٤)، وفي حالة الثروة فإن مثال الصانع قد يتضح في العمل بذكر سينيكا المتعدد بأن الثروة تُعطي الفيلسوف "مادة أعظم لتنقي عقله" (٢١ , ٤، ٢٢ , ١، ٢٤ , ٣).

إن فكرة حياة الصانع بطبيعتها كأسلوب حياة أو مسار الحياة الذي يسلكه الفيلسوف قد ضُمنت في الفصل الخامس عشر، وهي في صيغة الحكيم مثل "ضعني في الحظ...، ضعني في المصيبة...، على استعداد للمصيبة...، إنني أفضل الحظ..."، ويضيف سينيكا بالقدر نفسه الجرأة بقدر ما يمكن لممارسة الفضائل الهابطة بالتعرض لسقراط الناقل لهذا الخطاب، نظرًا لأن المسار العام لحياة سقراط انتهى به إلى السجن، وسم الشوكران قد يعين في التخلص من عبء جميع المواد التي تسمح بممارسة فضائل الهبوط.

ومن السمات المميزة لسينيكا التركيز على الموت كمركب جوهري لفن العيش وبرهان مطلق للتحرر، ويتضح هذا في كلمات المتطلع للفلسفة(٢٠ , ٥)، وفي وصف سينيكا لانتحار ديدوروس *Diodorus* وهو الأبيقوري الذي قطع رقبته "قبل بضعة أيام"، والذي كانت كلماته الأخيرة إشارة لضميره الخير (١٩ , ١)، وحتى لو لم يثن ذاته على أسلوب حياة الأبيقوري ديدوروس، فإنه رأى جليًّا في وفاته فرصة ليبرهن على قدرة جرأته على اختيار الموت ليتحمل مشهد الحياة المختبرة، وإن تبنى إرادة القيام بالموت هو من باب الاعتزاز بالقدرة على الانفصال عن اللذة والثروة وكل المحايدات؛ لأن احتضان الموت تحرر بمعناه الجوهري مثل تحرر النفس من

---

(٣٨٩) حول القيم كتحرر في هذا العمل انظر *Inwood 2005, 314*.

الجسد[٣٩٠]، واحتضان الموت يذكر أيضًا بحال المشهد الزمني للحياة السعيدة، والتي ستكون دومًا من الفضائل الصاعدة التي قد تحتاجها آجلًا، هذا هو الإطار النظري والبيوجرافي الذي يضعه سينيكا في عرضه للأشياء الظاهرية.

(٣٩٠) يرى هيل *Hill 2004, 151–57* أن الانتحار بمثابة تدريب في "المحاكاة المعرفية".

لمزيد من القراءة:

Asmis, Elizabeth. 1990. "Seneca on the Happy Life." In The Poetics of Therapy, ed. M. Nussbaum, Apeiron 23:219–55.

Griffin, Miriam T. 1992. "Seneca Praedives." In Seneca: A Philosopher in Politics, 2nd ed., 286–314. Oxford: Oxford University Press.

Ker, James. 2010. "Socrates Speaks in Seneca, De Vita Beata 24–28." In Ancient Models of Mind: Studies in Human and Divine Rationality, ed. A. Nightingale and D. Sedley, 180–95. Cambridge: Cambridge University Press.

١–١ أخي جاليو *Gallio*، الجميع يرغب أن يعيش سعيدًا، ولكن حينما يقبل ما يجعل الحياة كذلك فإنهم يعمهون، ويصعب أن يبلغها المتعجل وهو يهرول نحوها، ويتخلى عنها الآخر إذا فقد الطريق، حيث يقوده في الاتجاه المعاكس، وتُبقيه ثمرة عَجَلَته في فُرقة أعظم. وعلينا أن نُخطط لمعالجة ما نسعى إليه أولًا، ومن ثم علينا أن نلتفت للطريق لنصيبه حثيثًا، ويمكننا التعلم عليه، طالما أنه هو الطريق الحق، فكم من الخطى مشيناها كل يوم، وكم تقاربنا نحو الشيء الذي تدفعنا إليه الرغبة الطبيعية.

١–٢ والحقيقة طالما أننا نطوف حوله ونتبع هوى مُتَبَايِنًا وأُناسًا بكائين يدعوننا في اتجاهات متفرقة ولا نتبع مرشدًا، فإن حيواتنا المقتضبة حتى لو كنا نعمل على نحو حسن ليل نهار سوف ترتد عن الطريق في ظلال مَوْهُوم. إذنْ دعونا نحدد أين نتجه وبأي طريق يختار، ودعونا ننهل خبرة من استكشف ما يدفعنا نحو الطريق حقًّا؛ لأن الحدود هنا لا تشبه رحلات أخرى. فاستكشاف الطريق وسؤال السكان الذين يجيبوننا يحمينا من الخطأ، في حين تخدعنا الطرق المكتظة والملتبسة على الغالب.

١–٣ ولا شيء نحتاجه إذنْ لنضمن بقدر ما أننا لا نشبه الماشية التي تتبع القطيع الذي يمشي أمامها، ولا نسير حيث ينبغي علينا أن نمضي، بل حيث انتهى الآخرون، ومن ثم لا شيء يورطنا في متاعب وخيمة أكبر من ثبات الشائعة في نفوسنا، حين نحكم على تلك الأشياء التي حظيت باستحسان كبير، أو أكبر من اتخاذنا لأمثلة عدة لها مكانة حسنة، ونعيش بالمحاكاة بدلًا من العقل.

٤-١ ويحدث هذا حيث ينحدر من كومة كبيرة، وحيث يقع المرء على الآخر، كما يحدث في قمع الإنسانية حين تزاحم الجماهير أنفسها، ولا يسقط الواحد منهم دون أن يشد الآخر إليه، وتفكك الأُول لواحقها، وترى هذا حادثًا في حيوات الجميع. فخطأ المرء لا يؤثر عليه وحده بل هو العلة والمهيئ لخطأ آخر، ومن الضرر أن تتقيد بالذين ساروا أمامك، وطالما يفضل كل امرئ أن يُحمل الأمور على الثقة بدلًا من الحكم عليها فلن يكون هناك حكمٌ على الحياة بل الوثوق بها دومًا، فنلقي أحكامًا خاطئةً متعجلةً، ونهلك ثمرة لأمثلة الآخرين، وقد نرجع للصواب حين ننفصل عن الجمهور.

٥-١ ويقف الجمهور في وقتنا هذا ضد العقل، مدافعين عن موقفهم الرديء. ولذا يحدث الشيء نفسه في الانتخابات، حين يتحول التأييد المقلوب في الاتجاه المعاكس عند الذين قد يندهشون ممن ينتخبون البرايتور *praetors* وهم الذين انتخبوهم. ونحن نستحسن الأشياء ثم نجدها نفسها مستهجنة، وهذا هو حصيلة أي حكم قد اتفقت عليه الأغلبية.

١-٢ إن كان موضوعنا عن الحياة السعيدة فلا فائدة أن يكون ردك عليَّ على غرار الانقسامات في مجلس الشيوخ: "يبدو هذا هو رأي الأغلبية"(٣٩١)؛ لأن هذه الطريقة أشد ضررًا، وليست الشؤون الإنسانية بحالة أفضل مما يحابيه الأغلبية للأفضل، فالجماهير بينة على ما هو أسوأ.

٢-٢ ولذلك دعونا نبحث عما هو أفضل لنقوم به، وننأى عما ترسخت ممارسته، وما يمكن أن يضعنا في السَّعادة الأبدية، لا ما استحسنته حشود العامة وهم نصير السوء للحقيقة. وأقصد بكلمة «حشود العامة» الذين يلبسون التيجان والذين يتزيون بالعباءات؛ لأنني لا أُولي اهتمامًا بلون الملابس التي قد تستر

(٣٩١) اعتاد أن يقول رئيس السيناتو هذه الكلمات وهو يعلن نتيجة التصويت بعد طرح الأصوات المعارضة للتصويت. انظر *Talbert 1984, 282–83*.

الأجساد، ولا أثق في عينيَّ إذا تعلق الأمر بالبشر، وأكون أفضل وأقوى توهجًا بتمييز الأشياء الحقة عن الزائفة، حيث أدع الكاشف لحسن العقل هو العقل ذاته.

٢-٣ وإذا أُعطي هذا الشيء والعقل زمنًا ليرشف نفسًا ويسحبه إلى ذاته ترى كم يُعذب نفسه ويعترف لها بالحقيقة قائلًا: وأيًّا كان ما فعلت قبل الآن، فإنني أُفضِّل التراجع، وكلما فكرت فيما قلته، فإنني أحسد هؤلاء البُكم. وأيًّا كان ما تمنيته، فإنني أفكر في لعنات خصومي. وأيًّا كان ما خشيت الأرباب الخيرة فقد خففتُ ما كنت أرغبه! وقد عاديت الكثيرين ثم رجعت من الكراهية إلى الفضل. وعلى أي حال، هذا كائن، وهناك شيء صالح بين الأشرار. ولكني ليستُ حتى الآن صديقًا لنفسي، لقد كرستُ كل طاقتي لأميز نفسي عن الكثيرين، وجعلت نفسي مشهورًا بمهر الزواج. هل ما فعلته سوى وضع نفسي مباشرة في مسار القذائف وإظهار الحسد حيث يلدغني؟

٢-٤ هل ترى هؤلاء الناس الذين يستحقون البلاغة، والذين يسعون للثروة، والذين يتزلفون على الفضل، والذين يمجدون السلطة؟ إن الجميع عدو هؤلاء أو إن عدوهم ما يبلغ الشيء نفسه، وكما يخشاهم الكثيرون يمتعضونهم. ولماذا ليس من الحري أن أسعى إلى الشيء الحسن في الممارسة– شيء أشعر به أحرى من الظاهر؟ أي تلك الأشياء التي يُنظر إليها والتي تجعل الناس يقفون ويحدقون، والتي يشير فيها المرء للآخر في دهشة وهي تلمع من الخارج ولكن باطنها بائس.

٣-١ وعلينا أن نسعى للشيء الذي لا تنظر إليه باستحسان، ولكنه قوي وثابت وجميل في جانبه الخفي، علينا أن نسترجع هذا وألَّا نطرحه جانبًا. وسوف يكشف أنك تحتاج ببساطة أن تعرف أين تمد يدك، كما لو كنا في الوقت الراهن نمر بأشياء قريبة في الظلام نرتطم بما نتوق إليه.

٣-٢ وأنا لا أدور بك في دوائر، وسوف أمر على آراء الآخرين، وأسردها وأدحضها. لذلك اسمع لنا، وحين أقول (لنا) فأنا لا أربط نفسي بسلطان أيٍّ من الرواقيين، ولكن لي الحق في إبداء موقفي، وهكذا سوف أتبع واحدًا وسيقودني آخر لأقسم افتراضه، وربما حين أُستدعى للحديث بعد الآخرين، لن أستحسن شيئًا قد رفضه مَن سبقوني، ومن ثم سأقول: «أخذت هذا لأضيف»[٣٩٢]، وفي الوقت نفسه أقوم بشيء شائع بين كل الرواقيين وهو أن أتفق مع طبيعة العالم[٣٩٣] ولا أنحرف عنها، بل أتشكل وفقًا لقانونها ومثالها، وتلك هي الحكمة.

٣-٣ فالسعادة هي حياة في اتفاق مع طبيعتها، ولا سبيل لتحقيق هذا إن لم يكن العقل سليمًا أولًا، صلبًا في ملكية سلامته، قويًّا وحيويًّا ثانيًا، ومن ثم راسخًا في نبالته، ومتوافقًا مع العصور، وحاملًا لجسده وللأشياء التي تتعلق به دون اضطراب، ومنتبهًا للأشياء الأخرى التي تمد الحياة دون أن يعجب بأحدها، ومستعدًّا لاستعمال عطايا الحظ ولا يكون عبدًا له.

٣-٤ إنك تدرك دون إضافتي لها، أنه بمجرد أن تُطرد الأشياء التي تؤججنا أو تروعنا سوف يتبعها سكينة أبدية وحرية، وحين تُنبذ الملذات والآلام ستأتي فرحة عارمة لتحل محل الأشياء التافهة الهشة والتي تُثير اشمئزاز الذات حقًّا، وهي فرحة دائمة وثابتة يتبعها سلام وانسجام في العقل، تجمع بين العظمة واللطف، حيث إن الشدة تُشتق من الضعف دومًا.

---

(٣٩٢) هذه العبارة *hoc amplius censeo* هي تطبيق إجرائي في مجلس الشيوخ، حيث يدعم السيناتور إجراءً، ثم يعدله بالإضافة. انظر *Talbert 1984, 256*.

(٣٩٣) بدأت الرواقية مع زينون بمبدأ العيش على وفاق مع الطبيعة، ولكن هذا المبدأ تبناه الفلاسفة باتجاهات مختلفة (*see Long, A. A., and D. N. Sedley, The Hellenistic Philosophers 63 ABC*) لا سيما فيما يتعلق بالإشارة الدقيقة للطبيعة، ويذكر سينيكا بعض السطور أدناه قائلًا "طبيعتنا" ويستدعي إضافة خريسبوس الذي يقصد بالطبيعة "جنس البشر" (*cf. LS 63C2 and Chaumartin 1989, 1692*)، ويشير أسميس *Asmis 1990, 225–28* إلى أن سينيكا يحددها بطبيعة الفرد.

٤-١ ويمكن أن يُعرف تفضيلنا بطرق مختلفة- كما يمكن أن يُفهم الافتراض بعبارات متباينة. كما قد ينبسط الذراع والذراع الآخر على مدى واسع في لحظة واحدة، ويضغط بإحكام ويقوس الجزء الأوسط للأقواس إلى أجنحة أو يُعدلها في وجهة مستقيمة، ولكن مهما قد يُعدل فإن له القوة نفسها والإرادة للوقوف على السبب نفسه- وكذلك يمكن لتعريف الخير الأقصى أن ينبسط ويمتد أحيانًا، ويُضغط ويُجمع في حد ذاته أحيانًا أخرى.

٤-٢ والشيء نفسه إذا قلت: «الخير الأقصى هو العقل ينظر إلى أسفل على أمور الحظ، ومبتهجًا في الفضيلة» أو «قوة العقل غير المهزومة، والضالعة في طرق العالم، والرزينة في الفعل بإنسانية جمة تتعلق بمَن تلامسهم». ويمكن للمرء أن يُعرفها أيضًا بمثل هذه الطريقة حين يقول إن الإنسان سعيد لا لشيء حسن أو رديء، إلا لحسن العقل أو رداءته، وهو الغارس للخير الأخلاقي(٣٩٤) والقانع بالفضيلة، وهو الذي لا تُعومه تحولات الحظ ولا تكسره، والذي يعلم أنه ليس هناك خير أعظم مما يمكن أن يمنحه لنفسه من اللذة الحقة التي تحتقر الملذات.

٤-٣ وإذا رغبت أن تتوسع حولها إلى شكل أو آخر دون مجازفة أو إضرار بقوتها. وبعد هذا ما الذي يمنعنا أن نقول إن الحياة السعيدة هي عقل حر ومستقيم وجريء ومستقر، يقف وراء الخوف والرغبة لمَن عندهم الخير الوحيد هو الخير الأخلاقي فحسب، والشيء الرديء الوحيد عندهم هو العيب فحسب، والبقية أشياء محتشدة لا قيمة لها، وهي لا تنتقص شيئًا من الحياة السعيدة ولا تُضيف إليها شيئًا، وتروح وتغدو دون أن تزيد أو تنقص الخير الأقصى!

٤-٤ وبالضرورة حين يمتلك العقل هذا النوع من الأساس سواء أراد أم لا، فإنه

(٣٩٤) "الخير الأخلاقي" هي ترجمة لكلمة الحق *honestum* التي أستعملها سواء "للخير الأخلاقي" أو "الأخلاقي" تمشيًا مع خطة العمل المتعاقبة.

سيكون مصحوبًا بالبهجة المتواصلة والفرح العميق الذي يأتي من العمق الباطن. إنه يبتهج في الأشياء التي يملكها، ولا يرغب في أكبر مما ملكه في البيت. لماذا لا نعتبر هذه الأشياء ضخمة مقارنة بالنزعات الزائلة والطفيفة والصغيرة لهذا الشيء الهزيل والجسد؟ واليوم الذي يستسلم فيه المرء للذة سوف يستسلم فيه للألم. ولكن سوف ترى أن استعباد المرء المذل والرديء سوف يكون خادمًا إذا وقع بالتناوب في ملكية ما لا يمكن التنبؤ به والسادة الجامحين: حيث الملذات والآلام، ولذا وجب الخروج للحرية.

٤-٥ ويمكن أن تمنح الحرية بشيء آخر غير تجاهل الحظ، ومن ثم ينشأ الخير الذي لا يقدر بثمن حيث سكينة العقل المقيم في سلام ورفعة وعظمة وفرحة ثابتة ناتجة من طرد الخطأ ومعرفة الحقيقة ولطف وموسوعية العقل، فالأشياء التي يبتهج بها ليست الخيرات، بل الأشياء التي تنشأ عن خيريته.

٥-١ ومنذ أن بدأت التعامل مع الموضوع بموسوعية، حيث إن الشخص الذي يمكن أن يقال عنه سعيد هو مَن لا يشعر برغبة ولا خوف بسبب نعمة العقل، وحتى الصخور والماشية تفتقر الخوف والحزن، ولا أحد يقول عنهم سعداء وهم لا يفهمون السعادة.

٥-٢ وضع في المقولة نفسها البشر ذوي الطبيعة البليدة ويفتقرون إلى معرفة الذات وأنزلهم منزلة الماشية والبهائم، حيث لا فارق بين هؤلاء البشر والبهائم، فليس للبهائم عقل، وهؤلاء لهم عقول قد اعوجت، وانحرف ذكاؤهم لضرر أنفسهم، ولا أحد يُقال عنه إنه سعيد إذا ما رفس نفسه خارج الحقيقة.

٥-٣ وقد تنشأ الحياة السعيدة في حق وحكم بعينة لا يتبدل، والعقل خالص ومتحرر من كل الأمور الرديئة ليس بمجرد خلاصه من الملمات بل من الكدر الطفيف، ومهيئ دومًا للوقوف على أساسه ومدافعًا لموقفه حتى حين يغضب الحظ يُعادي.

٥-٤ وحتى لو رفضت اللذة من كل جانب وفاضت في كل طريق، وسكنت العقل بمداهناتها المميزة، وأضافت الشيء تلو الآخر لترهقنا جزءًا وكلًّا، فمَن من بين البشر فيه أثر لإنسانية يتمنى أن يُدغدغ ليله ونهاره ويهجر عقله ويعطي للجسد؟

٦-١ وهو يقول: «ولكن سوف يكون للعقل ملذاته»[٣٩٥]، ودعه يملكها على الإطلاق، ودعه يحكم على الرفاهة والملذات، ودعه يملأ ذاته بكل الأشياء التي تبهج الحواس عادةً، ومن ثم دعه ينظر للخلف على الأشياء الماضية، ويستدعي الملذات السابقة، ودعه يكتشف ما جاء قبله، ودعه يتطلع الآن إلى هذه الملذات لتأتي ويرتب آماله، في حين يتمرغ الجسد في متعه، ودعه يرسل أفكاره ليستشرف المستقبل، وسوف تبدو لي أشياء مبهجة جمة، حيث من الخبل أن تعتبر الأشياء الرديئة كالحسنة! ولا يسعد أحد دون صحة، ولا يصح أحد إذا كان يرغب أشياء المستقبل في موضع لما هو أفضل.

٦-٢ والسعيد هو المرء الصواب في حكمه، وهو القانع بظروفه الحالية مهما كانت، والرفيق لأعماله، وهو الذي يتصرف في أعماله كما يعظ العقل تمامًا.

٧-١ حتى الذين قالوا إن الخير الأقصى في المناطق السفلى للجسد، ويرونه في موضع مشين قد حددوه، ولهذا السبب ينكرون أنه يمكن فصل اللذة عن الفضيلة، ويقولون لا أحد يعيش على نحو أخلاقي دون العيش بمتعة، ولا أحد يعيش بمتعة دون أن يعيش على نحو أخلاقي أيضًا[٣٩٦]، ولا أرى كيف تتزاوج هذه الأشياء المتشعبة، ولماذا هي كذلك، واسأل الناس هل لا تنفصل اللذة عن الفضيلة؟ وأعتقد بالنظر هل الأشياء الخير كلها تأخذ بدايتها من الفضيلة، وينشأ من جذور الفضيلة تلك الأشياء التي تُحبها والتي تسعى

(٣٩٥) المحاور الأبيقوري يتحدث دون سابق إنذار، وهنا يستجيب سينيكا كما لو كان المعترض كان يشير إلى المذهب الأبيقوري لتذكر الملذات وتوقعها في العقل. انظر *LS 21T, 22E1, F1, 24D*.

(٣٩٦) انظر *(Epicurus frag. 506 Use.), compare Diogenes Laertius 10.138; Cicero Tusculan Disputations 3.20.49. See also LS 21B, P*.

إليها؟ وإذا كانت هذه الأشياء لا يمكن تمييزها لماذا نرى أشياء بعينها ماتعة وهي ليست حسنة أخلاقيًّا، وأشياء غيرها حسنة أخلاقيًّا على وجه التحديد بل مجهدة، ولا تُحصل إلا بالألم فحسب.

٧–٢ **أضف إلى حقيقة أن اللذة تأتي حتى من الحياة المشينة، في حين لا تقبل الفضيلة العيش على نحو رديء، وأشخاص بعينهم ليسوا سعداء من دون اللذة بل بسبب اللذة تحديدًا، ولا يأتي هذا إذا مزجت اللذة ذاتها بالفضيلة، والفضيلة من دون لذة على الغالب بل ليست بحاجة إليها تمامًا.**

٧–٣ **ولماذا تجمع أمورًا ليست متشابهة ومتباينة؟ فالفضيلة شيء سامٍ ورفيع وملكي ومنيع ولا ينضب، واللذة وضيعة ومتدنية وهذيلة وعابرة، والحقيقة أنها تسكن هناك، وسوف تجد الفضيلة في المعبد وفي المحكمة وفي مجلس الشيوخ واقفةً أمام الجدران ومغطاة بالغبار واحمرت بالشمس وبأيادٍ متكلسة، وغالبًا ما تجد اللذة متخفية وترعى الظلال حول الحمامات وغرف البخار والأماكن التي لا يصل إليها مفتشو الدولة(٣٩٧)، وهي طيعة وهذيلة، وتتقطر مع النبيذ والمراهم، وهي شاحبة ومحمرة ومضمخة بالمواد الكيماوية.**

٧–٤ **والخير الأقصى خالد، ولا يعرف كيف يرحل، ولا يشعر بتخمة ولا ندم.**

---

(٣٩٧) تعني حرفيًّا الإيديل *aediles* باللاتينية *Aedili*، وهي مشتقَّة من *aedes* بمعنى معبد وهو منصب في روما القديمة كان يتولَّى حامله صيانة مباني المدينة وتنظيم المهرجانات الشعبية العامة، كان يتمركز الإيديل في مدينة روما، وكانت صلاحياته تتضمَّن فرض النظام العام بالقوَّة. كان هناك دائمًا زوجان من الإيديلات، بحيث يكون هناك أربعة حاملين للمنصب في أي وقت. إذ لم تكن صلاحيات الزوج الأول «*aediles plebis*» تسمح لهما بالتعامل إلا مع عامة الناس، بينما كان يمكن للآخَرَين المُسمَّيين «*aediles curules*» التعامل مع العامة والنبلاء الرومان على حدّ سواء. بصورة عامة، كان الأشخاص الذين يشغلون منصب الإيديل شبانًا يافعين يسعون للتدرُّج إلى مناصب أعلى، وعادة ما تعتبر رتبتهم أعلى من الكويستور لكن أدنى من البريتور. مع ذلك، لم تكن مرتبة الإيديل ضرورية في هرم الرتب الروماني، وبذلك كان يمكن لكويستور سابق أن يرشح مباشرةً ليصبح بريتورًا دون الحاجة للمرور بمنصب الإيديل. من جهة أخرى، كان من المفيد سياسيًّا للشخصيات الهامة أن تحمل لقب الإيديل عند مرحلة ما، فتولي مهام الإيديل كان أشبه بتقديم إثبات على اهتمام الرجل بأحوال عامة الشعب وحاجاتهم، كما أنها فرصةٌ له ليشهر نفسه عن طريق الظهور كمسؤول هام في المهرجانات والاحتفالات الشعبية بروما، وهي طريقة ممتازة لاكتساب السمعة والشهرة *https://www.britannica.com/topic/aedile* – (المترجم).

إنك تحتاج أن تفهم الفكر الصواب وليس العاثر ولا الكاره لذاته ولا الذي يحول أي شيء، والماضي بالفعل للأفضل، وقد تستأصل اللذة في الآن الذي تُبهج فيه، وهي لا تملك موضعًا كبيرًا، وتُملأ عاجلًا وتصبح مضُجرة، وتتلاشى بعد أول ظهور لها، ولا شيء يوطد طبيعتها المتضمنة في الحركة. وهكذا لا يكون هناك جوهر لشيء يروح ويغدو على عجل ويفنى تحديدًا في استخدامه. وإنك ترى أنها تهرول نحو انقطاعها، نهايتها في بدايتها.

٨-١ وماذا عن حقيقة أن اللذة بقدر وجودها في الأمور الرديئة فهي في الأمور الحسنة أيضًا، ويتجرعها المخجلون بقدر ابتهاجهم في أعمالهم المشينة كما ينهل منها المتخلقون في أعمالهم الرفيعة؟ ولهذا السبب علمنا القدماء أن نسعى للحياة الفضلى وليست الماتعة، فالإرادة الصواب والخيرة ربما قد تُسعد رفيقها وليس قائدها؛ لأن القائد يستعمل الطبيعة، أي الطبيعة التي يتطلع إليها العقل ويتشاور معها.

٨-٢ وأن تحيا سعيدًا هو الشيء نفسه أن تعيش وفقًا للطبيعة، وسأفسر ما هذا، إذا كنا حريصين ولا نخاف فإننا نحافظ على ما ينفع الجسد وعُدة الطبيعة ونتعامل معها باعتبارها زائلة وعابرة، وإذا لم ندخل في عبوديتها، ولا تتملكنا الأشياء التي ليست لنا، وإذا كانت الأشياء التي تُسعد الجسد حين يتلاقها فهي بالنسبة لنا مثل الإمدادات والجنود ذوي التسليح الخفيف في معسكر الجيش، حيث عليهم أن يأخذوا أحرى من أن يعطوا أوامر- هذا وفي النهاية كيف يكونون مفيدين للعقل.

٨-٣ ودع المرء لا يفسد بالظواهر التي لا يمكن علاجها، ولا يعجب إلا بنفسه، فهو الصانع لحياته: «ثق في عقلك واستعد لأي نتيجة»[٣٩٨]، ودع ثقته لا

(٣٩٨) اقتباس من إنيادة فرجيل *Virgil Aeneid 2.61* حيث تصف العبارة المحتال اليوناني سينون، الذي عرف أنه سوف يُقتل، وأمل أن يُستقبل من الطرواديين كما يتمنى.

تخلو من معرفة ولا تخلو معرفته من مثابرة، ودعه يؤكد قراراته ويُبقيها ولا يمحوها، فإنها مفهومة حتى دون أن أضيفها، وإنسان مثل هذا سوف يكون مؤتلفًا ومنظمًا، ومهما فعل سوف يكون عظيمًا، وودودًا في الآن ذاته.

٨-٤ ودع الحواس تحفز العقل وتأخذ بدايته منها، ومن المؤكد أنه لا يوجد مورد آخر لتعهداته أو لدافعه نحو الحقيقة، ودعه بعد ذلك يرجع إلى ذاته، فحتى كل ما يطوق العالم والرب وحاكم الكون يمتد إلى الأشياء الظاهرة، ولا يزال هو يعود إلى الباطن نحو ذاته، فدع عقولنا تصنع الشيء نفسه، وبعد أن تتبع الحواس وتمتد إلى الظواهر دعها تؤكد سلطتها على الحواس نفسها.

٨-٥ وهذه هي الطريقة التي قد يُنتج بها قوة بعينها وسلطة منسجمة مع ذاتها، وسوف يأتي هذا العقل الموقن إلى الوجود وهو غير منقسم أو متزعزع في اعتقاداته وإدراكاته أو قناعاته. وحين ينظم هذا العقل ذاته ويتوافق مع أجزائه كما لو كانت أنشودة متناغمة معه فسوف يلامس الخير الأقصى.

٨-٦ ولا يُهمل هناك شيء ملتوٍ أو منزلقٍ، ولا شيء يسبب له تداعيًا أو انزلاقًا. وسوف تعمل كل الأشياء وفقًا لإمرته، ولن يحدث شيءٌ غير متوقع، والأحرى أن كل ما يقوم به سيكون حصيلة في الخير، سهلاً كما خُطط له، ودون أن يعلق ظهر الفاعل، والمقاومة والتردد دلالة على الصراع وعدم الاتساق، وربما تنتهي مع الثقة إلى أن الخير الأقصى هو انسجام عقلي؛ لأن الفضائل تكون في موضع الاتفاق والوحدة، والرذائل في الفرقة.

٩-١ وكما يقول: «ولكنك لا تغرس الفضيلة لأي سبب آخر سوى أنه يأمل لذة منها»[٣٩٩]، أولًا إن كانت الفضيلة توفر بعض المتع فلا يعني هذا أننا نسعى إليها لهذا السبب، أنت ترى أن المتعة لا تقدم شيئًا بل تقدمها أيضًا، وهي لا

(٣٩٩) لنقد الأبيقوريين للرواقية انظر *LS 21P; also, for the Epicurean theory, Epicurus frag. 504 Use.*

تكدح من أجل اللذة، والحري سوف تحقق كدحها كذلك حتى إن كانت تسعى لشيء آخر.

٩-٢ كما هو الحال في حقل الذرة الذي يُحرث وتنمو فيه بعض الزهور، ولم يكن الحرث لأجل هذه النباتات الصغيرة، ومهما كان يُرضي العينين، فإن للزارع حصيلة أخرى في الاعتبار، وكذلك اللذة ليست مكافأة أو دافعًا للفضيلة بل ملحقة، وهي لا تستحسن لأنها تمنح اللذة بل إذا استحسنت تعطي اللذة أيضًا.

٩-٣ والخير الأقصى تحديدًا في الضبط وميل العقل الفضيل، فعندما يملأ هذا العقل ما يتبعه ويحوط ذاته داخل غاياته الدنيوية، فإن الخير الأقصى الذي يملؤه للذروة لن يتوق لشيء آخر؛ لأنه لا يوجد شيء خارج كماله، ولا شيء بعد الغاية[٤٠٠].

٩-٤ وبطبيعة الحال تسأل لماذا أسعى للفضيلة، وأنت تسعى لشيء فوق الأقصى، هل تسأل لماذا أسعى للفضيلة؟ لأجل الفضيلة. فليس هناك شيء أفضل، حيث تكون الفضيلة مكافأته، أو ربما هذا ليس عظيمًا بما فيه الكفاية! حينما أقول لك: «إن الخير الأقصى صلابة للعقل وصمدية وبصيرة وتسامح وصحة وحرية وانسجام وروعة»، والآن هل تطلب أشياء أكثر من هذه الأشياء التي أشرت إليها، فلماذا تتحدث معي عن اللذة؟ فأنا أبحث عن خير البشر وليس بطونهم، والبطون أوسع رحابة في الماشية والبهائم.

١٠-١ وهو يقول: «إنك تتظاهر أنك لا تدرك ما أقوله؛ لأنني أنكر أن يعيش أي أحد بمتعة إذا لم يكن يحيا خلوقًا في الآن ذاته، وهذا لا يكون في حالة الحيوانات البكماء أو التي تقيس خيرها في حدود الغذاء. ما أقوله إنني أعلن للجميع

---

(٤٠٠) ترجمة كلمة "غايات" و"غاية" ترجمة لكلمة "نهاية *finis*" والتي تشير إلى الحد الدنيوي أو أي منتهى، وتلمح هنا إلى الرابط النهائي *finis bonorum*، وهي المرادف المألوف لكلمة غاية *telos* أو الخير الأسمى.

وبوضوح أن الحياة التي أسميها ماتعة لا تأتي دون إضافة الفضيلة».

١٠-٢ ولكن مَن لا يعرف أن أشد الناس حمقًا ملؤوا حتى الحافة بملذاتك، ويتدفق ضعفهم بالأشياء الماتعة؟ وتكتظ عقولهم بصور منحرفة للذة بعدد عظيم، حيث الغطرسة ووضع قيمة كبيرة للذات والأنا المتضخم الذي يحلق على الآخرين، والولع بأشيائهم التي تُعمي بصيرتهم وتفقرها، والإسراف في البواعث التافهة والصبيانية، وأيضًا الافتراء وتعظيم الذات الذي يتمتع بإلقاء الإهانات، والعقل البليد الذي يكون كسولًا وخليعًا ويدلف بالمباهج، ويقع في النوم على نفسه.

١٠-٣ وتهز الفضيلة كل هذه الأشياء، وتقرص ذاتها مستيقظة[٤٠١]، وتُقيم الملذات قبل أن تقبلها، ولا تركن إلى الأشياء التي تلقى استحسانًا ولا تبتهج باستعمالهم بل بلطفهم، واللطف في اختزال المتع التي تضر الخير الأقصى، فأنت تعانق اللذة، وأنا أكبحها، أنت تستمتع بها، وأنا أستعملها، أنت تعتقد أنها الخير الأقصى، وأنا لا أعتقد أنها خير، وأنت تفعل كل شيء من أجل اللذة، وأنا لا أفعل شيئًا لأجلها.

١١-١ حين أقول (أنا) لا أصنع شيئًا لأجل اللذة؛ فإنني أتحدث عن الحكيم، وهو الشخص الوحيد الذي يمنحك اللذة[٤٠٢]، ومع ذلك لا أدّعي أن الحكيم قد ملك أي شيء فوقه، وأقل الأشياء اللذة، فإذا كانت اللذة قد تُشتته، فكيف يقف أمام الكد والخطر والفقر والتهديدات الأخرى التي تؤرق الحياة الإنسانية بهذا الكم الهائل؟ وكيف يتحمل مشهد الموت، وكيف يتحمل الألم، وتحطيم العالم، وكذلك الأعداء الشرسين الكثيرين، فمتى يقهر بهذا العدو اللين؟ «إنه سوف يؤدي اللذة التي تجذب» هيا! ألم تر كم هي الأشياء

---

(٤٠١) حرفيًّا: تشد أذنها *aurem peruellit*.

(٤٠٢) هذه العبارة ليست مفهومة في الأصل اللاتيني، ولكن صغناها على هذا النحو.

التي تحاول أن تجذبه إليها؟

١١-٢ وهو يقول: «ليس بمقدورها أن تقنعه بعمل أي شيء مشين؛ لأنها ملتصقة بالفضيلة»، ومرة أخرى، هل لا ترى أي نوع للخير الأقصى والذي يحتاج إلى راعٍ ليؤكد الخير؟ وكيف تحكم الفضيلة اللذة إن اتبعتها؟ لأن الأتباع هو فعل مَنْ يُطيع ويحكم مَن يأمر، فهل وضعت الآمر في المؤخرة؟ إن واجب الفضيلة البديع يخدمك باعتباره منبأ لملذاتك!

١١-٣ وسوف نرى ما إذا كانت لا تزال الفضيلة في بيتك(٤٠٣)، حيث عوملت على نحو مهين، حيث إن (الفضيلة) لا يمكن أن تحتفظ باسمها إذا منحته قاعدة. وفي الوقت نفسه -ونحن مقيدون بموضوعنا- أرى أن الملذات قد حاصرت أشخاصًا عدة من الذين بدد الحظ عطاياهم كلها، والذين تعترف بأنهم رديئون.

١١-٤ انظر إلى نومينتانوس *Nomentanus* وأبيكيوس *Apicius* (٤٠٤) وهم محصلو خيرات الأرض والبحر كما يقولون، والذين أكلت على موائدهم مخلوقات كل أمة، أرى نفس هؤلاء الرجال يحملقون لأسفل على موائدهم من كومة الزهور، يدغدغ آذانهم طنين الأصوات، وملامح أعينهم مثيرة، وتتبرعم أذواقهم بالنكهات، وتُحفز أجسادهم على كل الاستعمالات اللطيفة والعذبة، وتسكن أنوفهم حين يحدث هذا، وتنقع غرفهم بأنواع العطور المختلفة، وتذبح أضاحيهم للمترفين، إنك تقول هؤلاء الرجال مغمورون في الملذات، إلا أن الأمر لا يمضي كما يجب بالنسبة لهم؛ لأنهم لا يبتهجون في الخير.

١٢-١ وهو يقول: «إن الأمر يمضي بالسوء بالنسبة لهم؛ لأن كثيرًا من الأشياء ستأتي

---

(٤٠٣) لمناقشة مستفيضة انظر *Dyson 2010*.

(٤٠٤) كسيوس نومينتانوس كان نهمًا ومبذرًا، وجافيوس أبيكوس التهم (الكاتب النهم) من مينتورنيا *Minturnae* وازدهر في عصر تيبريوس.

على طول الخط فتكدر العقل، وسوف تختل بصائرهم بالمعتقدات التي تناقض بعضها بعضًا»[٤٠٥]، وأعترف أن هذه هي الحال. ولكن هم أنفسهم حين يكونون حمقى ومتقلبين وضعفاء يوخزهم الندم، ومع ذلك يستمرون في تجربة الملذات، لذلك علينا أن نعترف أن هؤلاء الرجال في هذه المناسبات يتحررون من كل ألم كما لو كانون يتحررون من العقل الخير، وكما يُقبل الكثيرون منهم وهم يهذون بخبل مبهج ويبتسمون في جنونهم.

١٢-٢ وملذات الحكيم على النقيض متواضعة وواهنة عمليًّا، وهي محصورة ونادرًا ما تلحظ، وتأتي من تلقاء أنفسهم، ورغم أنها تحدث بفطرتها إلا أنها لا تحظى بتقدير كبير أو تجد بهجة عند مَن يختبرونها، والواقع أن الحكماء يخلطونها بالملذات ويضعونها في فترات حياتهم بقدر ما قد يلطف العمل الجاد بلعبة أو مزحة.

١٢-٣ ولذلك دعهم يتوقفون عن ربط الأشياء التي لا تتساير معًا، ويتوقفون عن شبك الفضيلة باللذة- حيث تجد الرذيلة تشجع أشد الناس شرًّا. وهذا الفاسق المتمتع في حالة سكر دائمة ويشجع عليها؛ لأنه يعلم أنه يحيا مع اللذة، وحين يسمع أن المتعة جزء لا يتجزأ من الفضيلة يعتقد أنه يعيش مع الفضيلة أيضًا، وبالتالي يعطي لرذيلته بعضًا من الحكمة، ويختلق كلامًا حقيرًا.

١٢-٤ وهم لا ينغمسون في الترف في تعاليم أبيقور، وبالأحرى يدافعون عن الرذائل، ويخفون ترفهم في حضن الفلسفة، ويعملون مباشرة حيث يسمعون المتعة التي يثنون عليها، ولا يقدرون مدى رزانة واعتدال لذة أبيقور، بل يسقطون

(٤٠٥) يبدو أن المعترض يقبل أن نومينتانيوس وأبيكوس مثالًا سيئًا، ولكن ينكر أنهما يوضحان الموقف الأبيقوري، ودحض سينيكا في السطور الآتية أنهما يصلان الهدف الأبيقوري أو على الأقل إلى غاية المتعة، ويظهران أن هذه متوافقة معهم.

ذواتهم نحو اسمه نفسه، ويسعون إلى الكفيل والحجاب لشهواتهم[٤٠٦].

١٢-٥ وهكذا يفقدون الشيء الخير الذي صنعوه في أعمالهم الرديئة، فالعار في أفعالهم المزرية. والآن تقول إنهم يثنون على الأشياء المخجلة التي اعتادوا عليها، ويتفاخرون برذائلهم، وبالتالي لا ينبعث فيهم حتى الندم حين يضع طابعًا أخلاقيًّا على القصور المخزي، ولهذا السبب ثناؤك للفضيلة خطير، حيث تُخفي فيه المفاهيم الأخلاقية في حين أن ما يستحق يبدو فاسدًا.

١٣-١ وهذا رأيي، ورفقائي الرواقيون ليسوا على استعداد لقول ما أقوله، وهو إذا اقتربت من تعاليم أبيقور وعقلتها وجدتها مقدسة وحقة، والحق أن لذته مقيدة بقدر قليل وضئيل، وهو يفرض القانون نفسه على اللذة مثلما نفعل في الفضيلة، إنه يأمر اللذة أن تطيع الطبيعة، وان ما هو كافٍ للطبيعة غير كافٍ للترف.

١٣-٢ ما المشكلة إذنْ؟ حين يستعمل لفظ (السعادة) ليشير إلى الراحة الخاملة وتعاقبات الشره والشهوة، فإنه يبحث عن سلطة خيرة لشيء رديء، وحين يمضي هناك يغر بالاسم المبهج والمتعة التي يتبعها والتي ليست هي ما سمعه، بل ما جلبه معه، وبمجرد أن يفكر في رذائله المماثلة لتعاليمه ينغمس فيها دون خشية أو سرية، ومن هنا يترف فيها دون خجل. إذنْ لا أقول ما يقوله رفقائي الرواقيون بأن أبيقور هو معلم الرذيلة، بل أقول هذا: إنها أسماء مدعية وسوء سمعة، «وهو لا يستحقها».

١٣-٣ ولكن كيف لأي امرئٍ أن يعرف هذا إن لم يقبله في باطنه؟ ويمنح خارجه رخصة لرواية القصص ويحض على احتمالات خبيثة، وهو مثل رجل شجاع يتزيا بلباس النساء، فأنت تثق في احترامك، وذكورتك غير مخصية، وجسدك

(٤٠٦) كما يعبر يوزنير *Usener 1887* عن الشذرات في تناوله للنظرية الأبيقورية في إشباع الرغبات *(frags. 454–84 Use.)*.

ليس عرضة ليعاني أي شيء مشين، ولكن لديك دُف في يدك، لذلك اختر التسمية الحسنة أخلاقيًّا التي تلهم العقل بيسر بكيفية إدراجها، فقد اكتُشفت التسمية الموجودة عن طريق الرذيلة.

١٣-٤ وكل مَن يقترب من الفضيلة يدلل على طبيعته النبيلة، ويبدو كل مَن يتبع اللذة ضعيفًا مخزولًا مكسورًا، ينجذب سريعًا نحو المشين إن لم يبين له امرؤ الفروق بين الملذات ليعرف الملذات التي في حدود التوق الطبيعي والتي تتعقب على طولها وليس لها حد، وهي أكثر قابليةً للتحقق كلما زاد إشباعها.

١٣-٥ هيا! دع الفضيلة تمضي في المقدمة، وستكون الخطى آمنة، فاللذة قد تكون ضارةً حين تفرط فيها، ولا حاجة للخوف في الفضيلة إن تطرفت في شيء منها، حيث لا حد في الفضيلة ذاتها، والشيء لا يمكن أن يكون حسنًا إذا كدح تحت حجمه. وأضف إلى ذلك، ما الهدف الأفضل الذي يعلو العقل بالنسبة للمخلوقات التي قد عُين لها طبيعة عاقلة؟ حتى لو كان اقترانك يرضيك- إذا كان هذا الرفيق يفضل المضي قدمًا نحو الحياة السعيدة. دع الفضيلة تمضي إلى الأمام، ودع اللذة مواكبة وتحوم حول جسمك مثل الظل، ولكن لتعلو الفضيلة تلك المعشوقة السامية، ولتخدم اللذة كخادمة، فإن هذا من قبيل فعل مَن يتصور أنه لا شيء عظيم في عقله(٤٠٧).

١٤-١ دع الفضيلة تمضي أولًا، ودع لها معايير تحملها، ومع هذا سيكون لدينا لذة، ولكن سوف نكون أسيادًا ومسيطرين عليها، واللذة تحصل على شيء منا بطلبه، فإنها لا تحصل على شيء بالإكراه، وعلى النقيض الذين حققوا الموضع الأول للذة من دون جمعها بالفضيلة إنهم يفقدون الفضيلة وما هو أكثر منها، وهم لا يملكون اللذة بل هي تتملكهم(٤٠٨)، وهم يتعذبون أيضًا

(407) Epicurus frag. 514 Use. See also Cicero On the Ends of Good and Bad 2.69 = LS 210

(٤٠٨) الجملتان الأخيرتان تتناقضان مع الكلام المعروف لفيلسوف المتعة أريستيبوس السيريني *Aristippus of Cyrene*، انظر *Diogenes Laertius 2.75* .

بافتقارهم للذة أو خنقها بوفرتها، ويتعسون إذا هجرتهم ولا يزالون تعساء إذا تجاوزتهم، كالذين يصيدوا في بحر سيرتيان *Syrtian sea* يجفون مرة وتغمرهم الأمواج الجارفة في المرة التالية(٤٠٩).

١٤-٢ وقد يأتي هذا من افتقار مفرط للتحكم في الذات وعمى العاطفة للأمر، فحين يسعى المرء إلى الأشياء الرديئة بدلًا من الخيرة فإنه يُحف بالخطر حين يحصل عليها، كما يحضر الخطر والكد صيدنا للوحوش، وحتى حين نصيدهم يجزعنا امتلاكهم لأنها تنطح مالكيها، ولذلك مع ملذاتنا الكبيرة قد يحدث ضرر عظيم حين تفلت منا، وحين نصيدهم يصيدوننا، وكلما زاد عددها كانت أعظم، وزاد تضاؤل الرجل الذي يدعوه الحشد سعيدًا، وزادت الأشياء التي يستعبدها.

١٤-٣ وإني أميل للاستمرار في استعمال الصورة نفسها لأصف الشيء نفسه، لأتأمل كيف يصيد المرء أزواج الوحوش، ويعتقد أن «صيد فريسة في فخ والتجول بالكلاب في الغابات»(٤١٠) شيء عظيم، وحتى يتمكن من تضييق مساراتها يتخلى عن أشياء مهمة، ويقول لا لواجبات عدة. وبالطريقة نفسها الساعي إلى اللذة يرتب كل الأشياء خلفها، ويهمل الأشياء الأولى وهي حريته، وينفق كل شيء على بطنه، ولا يشتري الملذات لنفسه بل يبيع نفسه لها.

١٥-١ وهو يقول: «ولكن ما الذي يمنع أن ندمج المتعة والفضيلة في شيء واحد؟ وما الذي يمنع من أن يكون الخير الأقصى واحدًا مبنيًّا بالطريقة نفسها، ويجمع الشيء نفسه الخير الأخلاقي والمتعة؟»؛ لأنه ليس هناك طرفٌ

(٤٠٩) إشارة إلى المياه الضحلة قبالة ساحل شمال إفريقيا.

(٤١٠) اقتباسات من فيرجيل جيورجكس *Virgil Georgics 1.139–40* وقد اقتُبست السطور نفسها لإشارة مختلفة في *Letters 90.11*.

أخلاقي لا يكون خيرًا أخلاقيًّا، وللخير الأقصى نقاؤه إن لم تره شيئًا في ذاته يختلف عن ما هو أفضل.

١٥-٢ حتى البهجة التي تُستمد من الفضيلة مع خيريتها لا تزال ليست جزءًا من الخير الكامل، ولا تزيد عن كونها بهجة وسكينة، حتى لو جاءت من أكثر الأسباب جمالًا؛ لأنها خيرة وتتبع الخير الأقصى ولا تكمله[٤١١].

١٥-٣ وإذا وفَّق امرؤ ما بين الفضيلة واللذة وساوى بينهما في هذا، فإن هشاشة خير أحدهما تضعفه مهما كانت القوة في الآخر، ويطرح حريته تحت العبودية، حيث لا تزال منتصرةً فحسب إذا لم تعترف بشيء آخر يزيد قيمة ذاتها. ولأنه يبدأ من الحاجة إلى الحظ وهو العبودية الأعظم للجميع، والحياة التي تتوالى مقلقة ومريبة ومخيفة فهي تخشى الأحداث وتتعلق على لحظات الزمن المنصرم.

١٥-٤ هل لم تمنح الفضيلة أساسًا ثابتًا وجادًّا، وبالأحرى ترتبها لتقف على موضع غير ثابت، وما هو غير ثابت مثل انتظار أشياء الحظ أو قدرة تحول الجسد والأشياء التي تؤثر عليه؟ وكيف لهذا المرء أن يُطيع الرب، ويقبل كل ما يحدث بعقل حسن، ولا يشكو القدر بل يكون مفسرًا متوافقًا لأحواله إذا اهتاج بأضعف متطلبات اللذة والألم؟ ولكن ليس حتى وصيًّا خيرًا أو ناقمًا على وطنه، لا مدافعا عن أخلائه إذا انحرف نحو الملذات.

١٥-٥ وعلى الخير الأقصى أن يرتفع إلى العُلى فلا تخلعه أي قوة، ولا يطوله حزن ولا أمل ولا خوف ولا أي شيء آخر يقلص سلطته، وصعوده للأعالي تصنعه الفضيلة فحسب، وقد يروض هذا الميل الحاد بسلم الفضيلة، وسوف تقف الفضيلة شجاعة وتتحمل الأحداث مهما تكن، ليس بالصب فحسب بل

---

(٤١١) انظر *Cicero De finibus 3.55.40*.

طوعًا أيضًا، فهي تعرف دومًا أنه لا وقت العصيبة هي قانون الطبيعة، وأن الجندي الحسن سوف يتحمل جروحه ويعتبرها ندوبًا، كما أنه يموت طعنًا بالسهام، فإنه يحب القائد الذي عشقه، وهو يضع في الاعتبار الحكمة القديمة «اتبع الرب».

١٥-٦ ومن ناحية أخرى كل مَن يشكو وينتحب ويتأوه يُجبر بالقوة على اتباع الأوامر وهو غير راغب، ولن ينحو بعيدًا ليفعل ما يؤمر، ويا للخبل أن يُجر ولا يريد[٤١٢]، وأي حماقة من هيروكليس *Hercules* بل الجهل بحاله، وأن تحزن لأنك تفتقر إلى شيء ما أو لأن شيئًا ما قاسيًا قد يحدث لك، وتُفاجأ به أو تتحمل ما لا يستحق، إن هذه الأشياء تحدث للأخيار والأشرار على حد سواء، وأقصد المرض والمآتم وتشوه الأجسام وأشياء أخرى تسحق على غفلة حياة الإنسان.

١٥-٧ إذنْ لأن العالم يتكون، علينا أن نعاني من شيء ما، دعونا نأخذه بعقل كبير، وهذا هو الميثاق الذي أخذناه حينما جُندنا وهو أن نتحمل الأمور الفانية، وألَّا نضطرب بأمور ليس بمقدورنا تجنبها، لقد ولدنا تحت ملك، والحرية في طاعة الرب.

١٦-١ إن السعادة الحقة كائنة في الفضيلة، فبمَ تقنعك هذه الفضيلة؟ بالنظر إلى ما ليس حسنًا ولا رديئًا وهو ما لا يتعلق بفضيلة ولا خبث، ومن ثم الثبات سواء تجاه ما هو رديء وتمشيًا مع ما هو حسن بقدر إمكانك في حدود المسموح به وصنيع صورة الرب.

١٦-٢ وبمَ تعدك الفضيلة في هذه العجالة؟ بأشياء هائلة تساوي ما هو إلهي، حيث لن تُجبر على شيء ولا تفتقر إليه، وتكون خاليًا آمنًا من الضرر، ولن تحاول

---

(٤١٢) اللغة قريبة من لغة كليانتس من ترنيمة إلى زيوس وهو يقول تجر الأقدار مَن يريد ومَن لا يريد *ducunt uolentem fata nolentem trahunt*، وقد ذكر هذا كما لاحظت *Asmis 2009, 120* فى *Letters 107.10–11* .

في أي شيء عبثًا ولن يمنعك شيء، وسوف يسير لك كل شيء وفقًا لتفكيرك، ولن يظهر شيء يقف في طريقك ولا رأيك ولا إرادتك.

١٦-٣ «هل الفضيلة كافية للعيش على نحو سعيد؟» ولماذا ليست كافية؟ والحقيقة أنها فيض نظرًا لأنها كاملة وإلهية؟ فهل ما يمكن أن يكون مفتقرًا في شيء يوضع خارج التوق لأي شيء؟ وما الاحتياجات الخارجية عند مَن جمع كل ما لديه في نفسه؟ ولكن المرء الذي يسعى نحو الفضيلة حتى لو قطع شوطًا طويلًا يحتاج إلى هوادة من الحظ في حين لا يزال يناضل وسط الأمور الإنسانية- حتى يتخلى عن هذه العقدة وكل رباط فان. إذنْ وما الفارق؟ إن الآخرين مصفدون ومقيدون أو مربوطون على مخلعة، في حين مَن يرتفع إلى الأشياء السامية يرتقي بنفسه عاليًا، ويجر في سلسلة مرخية، وليس حراً بل كما لو كان حرًّا بالفعل.

١٧-١ إذا كان أي من أولئك الذين ينبحون في الفلسفة، يقول ما يقولونه: «لماذا تتحدث بشجاعة تزيد على ما تعيشه؟ وكيف تخفض صوتك لشخص في رتبة أعلى وتعامل المال كمصدر ضروري بالنسبة لك؟»[٤١٣] أأنت تسمح لنفسك أن تضطرب وتذرف الدموع للفقدان حين تسمع أن صديقك أو زوجتك ماتت؟ وهل تتطلع إلى سمعتك وتدع نفسك تلامس كلمات التقوى؟

١٧-٢ وكيف يزيد فلاح ممتلكات وطنك أكثر من الاستخدام الطبيعي؟ ولماذا لا تتناول طعامك وفقًا لاحتياجاتك؟ ولماذا أساسك باهظ الثمن؟ ولماذا تستهلك نبيذًا في بيتك أقدم من محصولك؟ ولماذا هناك ذهبٌ في كل أينٍ؟ ولماذا تُغرس الأشجار لتقدم شيئًا غير الظل؟ ولماذا تلبس زوجتك في أذنيها أصولًا تعادل ما تملكه أسرة ثرية؟ ولماذا تُزخرف مدرسة الفتيان العبيد بزي

(٤١٣) هذه تلميحات للتهم الي حاكها سوليوس روفوس عام ٥٨، انظر مقدمتي للرسالة.

باهظ الثمن؟ ولماذا تزين منضدة بيتك بالفن الجميل وتطليها بالفضة التي لم توضع عشوائيًّا وعفويًّا بل رتبت بيدَي خبير، وقد عينت فنانًا لنحت أطباقك الخاصة؟». وأضف إلى ذلك إن رغبت «لماذا تتملك عبر البحار؟ لماذا تتملك أكثر مما تعيه؟ ولماذا تتجاهل بشكل مشين حتى أنك لا تعرف عدد عبيدك القلة أو كذلك الترف المشين الذي تملك ذاكراتك منه الكثير لتحفظ معرفته؟».

١٧-٣ وسوف أعين مداهماتك وسألقي بالاتهامات على نفسي بأكثر مما تعتقد، وسأرد عليك الآن، فأنا لستُ حكيمًا، ولأغذي مرض اعتلال إرادتك لن أكون حكيمًا، ولستُ أنا الأفضل بل أفضل من الأسوأ، ويكفيني أن أطرح رذائلي كل يوم وأحاسب نفسي.

١٧-٤ ولن أصل إلى عافية طيبة، ولن أصل بالفعل، فإنني أدهن المرهم مفضلًا أن يُشفى فيَّ (النقرس) إذا كانت تقل مناوبته أو تقل حدته، وقارن هذا مع قدميك ووهنك، فأنا عداء، وأنا لا أقول هذه الأشياء لمصلحة لي (فأنا غارق بعمق في طرائق الرذائل كلها) ولكن لأجل امرئٍ قد يحقق شيئًا.

١٨-١ أنت تقول: «إنك تتحدث بطريقة وتعيش بطريقة أخرى»، وقد أُقيم اتهامك بالمخلوقات الشريرة العدو الحقيقي لكل مَن هو أفضل ضد أفلاطون أبيقور وزينون[٤١٤]، ولم يقل كل منهم كيف كان يعيش، بل كيف ينبغي أن يعيش، أنا أتحدث عن الفضيلة وليس عن نفسي، وحين أُداهم الرذائل فإنني أُهاجم رذائلي خاصة، إنني أعيش كما تنبغي قدرتي للعيش.

(414) For Plato as a target of criticism, see especially Athenaeus Deipnosophistae 11.504–9; for Epicurus, Diogenes Laertius 10.3–8; for Zeno of Citium (ca. 334–262 bce), the first Stoic, Diogenes Laertius 7.33–34. 43. P. Rutilius Rufus (b. ca. 160 bce) and Cato the Younger (95–46); see On Providence 2.9, 3.7, 3.14 with notes.

١٨-٢ ولن تردعني وقاحتك بسمومها كلها عن الأشياء الفضلى، ولن يعوقني حتى الغل الذي تسيء به إلى الآخرين وتقتل به نفوسهم عن الاستمرار في الثناء على الحياة لا أن أعيش أنا؛ لأنني أعرف كيف تُعاش أو تعوقني عن عبادة الفضيلة وأركض وراءها من مسافة بعيدة.

١٨-٣ هل بمقدوري أن أتوقع صراحة أن البغيضة سوف تترك الأشياء كلها لا تنتهك في حين لم تشغل روتيليوس المقدس أو كاتو[٤١٥]» وهل يكترث المرء إذ كان يبدو ثريًّا لأناس يلاحظون أن ديمتريوس الكلية ليس فقيرًا بما يكفي؟ والإنسان المفعم بالحيوية الذي يهزم كل توق طبيعي يجعلهم أفقر من الكلبيين الآخرين؛ لأنهم حرموا أنفسهم من امتلاك الأشياء، إنه حرم نفسه من أن يرغب فيهم، وهذا الرجل كما يقولون ليس فقيرًا بما فيه الكفاية! لأنك ترى أنه لم يزعم معرفة الفضيلة بل الفقر.

١٩-١ يقولون إن ديودورس *Diodorus*[٤١٦] الفيلسوف الأبيقوري وضع حدًّا لحياته بيده منذ أيام قليلة مضت، إنه لم يتصرف وفقًا لتعاليم أبيقور؛ لأنه قطع رقبته، والبعض يرغب هذا التصرف ليقال عنه مجنون، والبعض الآخر ليقال عنه متهور، ولكن ديودوروس كان سعيدًا وضميره خيِّرًا، وأعطى شهادة لنفسه لمفارقة الحياة، وأثنى على الحياة التي قضاها في الميناء والمرفأ، وقال ما أسمعك الناس غير راغبين كما لو كان عليك أن تفعل ذلك، حيث قال إنني عشت وفزت بالمسار الذي منحني الحظ إياه.

١٩-٢ أنت تجادل حول حياة امرئ وآخرين حول موته، واستجابة لسمعة هؤلاء الذين يعظمون على حساب العظمة السائدة فإنك تنبح مثل الجراء حين تواجه

---

(٤١٥) روتيليوس معاصر لسينيكا وصديقه. انظر *On Providence 3.3 with note*.

(٤١٦) انظر *Virgil Aeneid 4.653* كلمات ديدو *Dido* قبل انتحارها، وقد اقتبس سينيكا هذا في *Letters 12.9 and On Benefits 5.17.5*.

الغرباء، ولأنه يناسبك الأفضل لا أحد يبدو حسنًا، كما لو كانت فضيلة الآخر لوم لكل آثامك، وتقارن بغيرة عظمتهم بقذارتك، ولم تفهم كيف خسرت بجرأتك؛ لأنه إذا كان الذين يتبعون الفضيلة جشعين وشديدي التوق، فهل الاسم الحقيقي للفضيلة عندك هو الحقد؟

١٩-٣ إنك تنكر أن تُصيب أحدًا بما يقول أو يعيش على مثال خطابه، ولماذا هذا أمر مدهش؟ ومتى يكون ما يقولونه شجاعًا وضخمًا ومغامرة وراء كل زوابع الوجود الإنساني؟ ورغم أنهم يحاولون أن تبرح أنفسهم من تقاطعاتهم (في حين كل منكم يدفع أظافره في تقاطعه) مع أنهم محملون للعقاب وينقطعون عن مواضع بعينها، وأنتم مَن يصيب العقاب الذي يمتد إلى تقاطعات عدة بما لديكم من رغبات، ومن ثم تألفون بافتراء ومهارة الإهانات ضد الآخرين. كنت اعتقد أنه لديكم الوقت لتفعلوا هذا إذ كان بعضٌ منكم لا يبصق أسفل على المتفرجين من التقاطع[٤١٧].

٢٠-١ «إن الفلاسفة لا يصيبون ما يقولونه»، إنهم يفعلون الكثير مما يقولونه وما يتصورونه حسنًا أخلاقيًّا، وإذا حققوا أشياء تعادل عباراتهم، فما السعيد بالنسبة لهم؟ وفي تلك الأثناء ليس هناك سبب لتحقير عباراتهم الحسنة أو قلوبهم المشحونة بالأفكار الحسنة، وتستحق دراساتهم الثناء حتى لو لم تحقق غايتهم.

٢٠-٢ وما الغرابة إذنْ، وهم يقفون فوق الطريق المنحدر ولم يصلوا إلى القمة؟ ولكن إن كنت رجلًا فهؤلاء مَن يتعهدون أشياء عظيمة حتى لو هبطوا يستحقون ثناءك، إنه أمر نبيل أن تحاول في الأشياء السامية، ولا تتطلع إلى قوة المرء

(٤١٧) هذه الجملة حيرت المحررين، وهذه الترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية تقريبية، والثلاث جمل الأخيرة استبدلت (أنت) بشخص ثالث جمع (هم) لتوضيح الإشارة إلى خصومه.

بل قوة الطبيعة، وتتصور أمور العقل التي تعظم على ما يمكن تحقيقه بنجاح حتى بالذين وهبوا عظمة العقل الهائلة.

٢٠-٣ هو الذي يقول لنفسه: «سأرى الموت بالتعبير نفسه حين سمعت عنه، وسوف أعرض عملي مهما عظم، وأحفظ جسدي مع عقلي، واحتقر الثروة أكانت حاضرة أم غائبة، ولن أتجهم إن أقامت في أينٍ آخر، ولن يزيد عزمي إن لمعت من حولي، ولن أولي انتباهًا للحظ في مجيئه أو مضيه، وسوف أنظر على كل الأرض كأنها لي وكل أرضي للجميع، وسوف أحيا كما لو أنني أعلم أني ولدت للآخرين، وسوف أقدم الشكر لطبيعة العالم، فكيف خدمت أفضل اهتماماتي؟ إنها منحتني امرأً بعينه للجميع ومنحت الجميع لي.

٢٠-٤ ومهما ملكت لن أمسك بجشع ولن أبذر بتهور، حيث إنني أعتقد أنني لم أمتلك شيئًا أعظم مما أُعطيت حسنًا، ولن أحسب الفضل وفقًا لعدده أو وزنه بل وفقًا لقيمة المتلقي، أي يتلقاه الشخص الذي يستحقه، ولن أنظر إلى الغالي النفيس، ولن أعلَّ شيئًا لمصلحة آراء الناس، بل سأفعل كل شيء وفقًا لضميري، وأيًّا ما أفعله بعيدًا عن ضميري، فإنني أوقن أنه صُنع على أعين الناس.

٢٠-٥ وسيكون حد طعامي وشرابي لكفاية توقي الطبيعي، وليس لملء وعاء بطني، وسأكون لطيفًا مع أصدقائي وعطوفًا لينًا مع أعدائي، وسأظفر قبل أن أطلب، وحين يُطلب مني عملٌ أخلاقيٌّ سأصنعه وأركض نحوه، وسوف أعلم أن وطني هو العالم وأن الأرباب مَن تحميه، وهي تقف من فوقي ومن حولي وتراقب أفعالي وكلماتي، وحين تطلب روحي العودة أو تعطي لعقلي إذنًا للرحيل، سأرحل شاهدًا بأنني أحببت ضميري الحسن وتأملاتي الخيرة، ولن تحد حرية أحد مني ولن تُقلص عملي»- إن الذي يعزُم عمل هذه الأشياء والذي يرغب فعلها ويحاول القيام بها فإنه يتوجه بالسفر نحو الأرباب،

والحق أنه لو لم يصل إليها المرء لن يفشل؛ لأنه جرؤ على أمور عظيمة[٤١٨].

٢٠-٦ ويقينًا أن الناس بكراهيتهم للفضيلة وغرسها لا يفعلون شيئًا جديدًا، ولأعينهم الضعيفة يخشون الشمس حيث تهرب الحيوانات الليلية من نور النهار ويصدمون من بزوغها، فيتناثرون بحثًا عن مخابئهم أو يختبئون في الزوايا والأركان خوفًا من النور، نائحين تواصل ألسنتهم التعسة ممارسة قذف الأخيار، ويفتحون أفواههم ويغلقونها، فقد تكسر أسنانك قبل أن تترك أي انطباع.

٢١-١ «لماذا يدرس هذا الفلسفة ويعيش حياته ثريًّا؟ ولماذا يتحدث عن احتقار الثروة ويمتلكها؟ ولماذا يفكر أن الحياة محتقرة ويعيش، وأن الصحة محتقرة ويعتني بنفسه ويفضلها في أحسن حالاتها؟ وهو يعتقد أن المنفى كلمة فارغة ويقول: ما الضرر في تغيير المناطق؟ ومن ثم هل يمكن أن يقضي شيخوخته في وطنه؟ وهو يرى أنه ليس هناك فرق بين الزمن الأطول والأقصر، ولكن إذا لم يكن هناك ما يمنع هذا فهل تمتد حياته ويطعمها بسلام في سن الشيخوخة؟»[٤١٩].

٢١-٢ وهو يقول: إن تلك الأشياء ينبغي أن تكون محتقرةً، وهو ليس بالتالي لا يملكها، بل كذلك لن يمتلكها على نحو قلق، وهو لا يرفضها لذاتها، بل يراها حين ترحل في طريقها متحررًا من القلق، وأين يمكن للحظ أن يجعل وديعة الثروة أكثر أمانًا في المكان الذي تلقت فيه دون ضجة ممن يُعيدها؟

٢١-٣ حين امتدح ماركوس كاتو *Marcus Cato* كوريوس *Curius* وكورنكانيوس

(418) Ovid Metamorphoses 2.328, from the Phaethon episode, a comparison anticipated by the language at 20.2 above. Compare the similar but more extensive use of Phaethon in On Providence 5.10–11.

(٤١٩) في الجملتين الأخيرتين ربما نلاحظ إشارة إلى أعمال سينيكا عزاء إلى هلفيا (فيما يتعلق بالنفي)، وقصر الحياة.

Coruncanius، وهذا العصر كان يعد فيه امتلاك عملات الفضة القليلة جريمة مخالفة، وقد امتلك هو أربعة مليون سيستر، وبالتأكيد كان أقل من كوريوس وأكثر من كاتو المراقب المالي Censor (٤٢٠) وبعمل مقارنة قد وجد أنه قد تجاوز سابقه بأكثر ما تجاوزه كراسوس Crassus، وإن كانت الثروة الأعظم قد وصلت إلى طريقه، فإنه لم يزدريها.

٢١-٤ ولا يعتقد الحكيم بأنه لا يستحق أي عطايا عابرة، فهو لا يحب الثروة ولكنه يفضلها، فهو لا يتلقاها في عقله بل في بيته، وحين يملكها لا يرفضها، بل يتعلق بها ويرغب أن تزوده فضيلته بمادة أعظم.

٢٢-١ وما الريب هناك وهنا في الثروة فالحكيم لديه مادة أعظم لإعلاء عقله أكثر مما فعل في الفقر؟ لأن النوع الوحيد للفضيلة في الفقر لا يُردع أو يُثبط، في حين يوجد في الثروة حقل واسع مفتوح للزهد والجود والكد والتدبير والعظمة.

٢٢-٢ إن الحكيم لا يحتقر نفسه، حتى لو كان في قامته أقصر، فإنه يرغب أن يكون طويلًا، وسيبقى قويًّا حين يعتل جسده أو حين يفقد عينه ومع ذلك يفضل أن يكون له جسد معافى، رغم أنه يعلم أنه لم يعد فيه شيءٌ آخر قوي، وسيحتمل صحته كونه فقيرًا، ولكنه يرغبها جيدة.

---

(٤٢٠) المقصود بكاتو هو ماركوس كاتو وهو كاتو الأصغر، ومن الواضح أنه كان بارزًا في اقتصاد القرن الثالث الميلادي في عهد كوريوس دينتاتوس *M. Curius Dentatus* وتبيريوس كورونكانيوس، ولكنه ملك ثروته دون لوم، وتقع ثروة كاتو في مكان ما بين الثروة الفاحشة لليكينيوس كراسوس *M. Licinius Crassus* أحد ممثلي حكومة الثلاثة عام ٥٣ ق.م، وكان بخيلًا، وجده الأكبر هو كاتو الأكبر انظر *Cato the Elder, 234–149*. ولد كاتو سنة ٩٥ ق م في روما، للسياسي الروماني المعروف ماركوس بورسيوس كاتو وزوجته ليفيا دروسا. توفي والداه عندما كان صغيرًا، فاهتمَّ به خاله ماركوس ليفيوس دروسوس، إلا أنَّ خاله سُرعَان ما قتل اغتيالًا عندما كان في الرابعة. بدأت نزاعات العناد بالظهور عند كاتو منذ سن مبكرة. فقد كان يصفه معلّمه –ساربيدون– بأنه فضولي جدًّل، وهو يقتنع بالأشياء ببطء كبير، بحيث يكون التحكم به أحيانًا أمرًا شديد الصعوبة. تروي قصة من الفيلسوف – اليوناني فلوطرخس بأن سياسيًّا يُدعى كوينتوس سيلو زار مرَّة منزل خال كاتو الذي يَرعاه، فطلب مازحًا من الأطفال أن يدعموه في نشاطاته السياسية، فابتسم جميعهم وأومؤوا عدا كاتو، الذي نظر إلى الضيف نظرةً متشككة جدًّا. عند عدم حصول سيلو على إجابة من الطفل، أخذه من قدميه وعلَّقه منهما خارج النافذة، إلا أنَّ كاتو أصرَّ على موقفه ولم يقل شيئًا.

٢٢-٣ إنك في حاجة إلى أن تفهم أن هناك أشياء بعينها حتى لو كانت صغيرة ضمن المخطط الأكبر للأشياء ويمكن أن تُنزع دون أن تفسد المبدأ الخير، ومع ذلك تضيف شيئًا ما للبهجة التي لا تنتهي التي تأتي إلى الوجود من الفضيلة، والثروة تؤثره وتبهجه مثل الريح المواتية التى تدفع البحار على طول الخط أو مثل النهار الماتع والمكان المشمس أثناء الشتاء البارد القارص.

٢٢-٤ ومَنْ مِنْ بين الحكماء- أعني حكماءنا، أعني الذين فضيلتهم هي الخير الخالص- ينكر أن حتى هذه الأشياء التي نسميها غير مكترثين لها بعض القيم في ذاتها وبعضها الآخر مفضلة على الآخرين[٤٢١]؟ وبعض هذه الأشياء يمنح بعضًا من الشرف والبعض الآخر يعطى المزيد، ولتتيقن أنك لم تخطئ الثروة هي من بين الأشياء المفضلة.

٢٢-٥ وأنت تقول: «لماذا تسخر مني في حين أن الثروة تمثل لك المكانة نفسها التي تمثلها لي؟»، هل تريد أن تعرف كيف تتباين المكانة التي تملكها؟ إذا كانت الثروة تتدفق بعيدًا عني، فإنها لن تأخذ شيئًا سوى ذاتها، وسوف تُدهش، وستبدو لك أنك تتخلى عن نفسك إذا انحرفت عنك الثروة، والثروة بالنسبة لي لها مكانة وبالنسبة لك لها مكانة قصوى، وباختصار مالي هو لي ومالك هو لك.

٢٣-١ ولذلك توقف عن منع الفلاسفة من الحصول على الثروة، فلا يحكم أحد على الحكمة بالفقر، وقد يكون للفيلسوف ثروة وفيرة وهو لا ينتزعها من أحد أو يقطرها من دم الآخرين، ويتكسب دون ضرر لأحد أو نفعية فاحشة، وسيكون خروجها مثل دخولها حسنًا أخلاقيًّا، ولا يحزن أحد عليها سوى البخيل، وقلب الأمر كما تشاء، فإن الثروة حسنة أخلاقيًّا حتى عندما تكون هناك أشياء عدة قد يرغب كل امرئ أن يطلبها لنفسه، فليس هناك شيءٌ في أن يطلبها المرء لنفسه.

---

(٤٢١) نوقشت نظرية المحايدات بالتفصيل في *Letters 92.16–26; see also LS 58*.

٢٣-٢ والحقيقة، لن يدفع الفيلسوف سخاء الثروة بعيدًا عنه، ولن يتباهى ولن يستحي من ملكية قد اكتسبها بطرق مقبولة أخلاقيًّا، وهو لديه شيءٌ فعليًّا يمكن أن يتباهى به إذا استطاع أن يفتح بيته ويقبل الناس من بين ممتلكاته ويقول: «دعهم يأخذون كل ما يدركونه» يا له من رجل عظيم! ويا للثروة في طريقها الأفضل إن استطاع أن يقول هذا، ومن ثم يحتفظ بالمقدار ذاته! ما أعنيه إن كان يسمح للناس أن ينقبوا في أشيائه ولا يفقد منها شيئًا أو يشعر بالقلق -وإن لم يجد أحدًا في بيته ما يمكن أن يطلبه- سيكون ثريًّا صراحة وجسارة.

٢٣-٣ ولا يسمح الحكيم لدينار بعينه أن يمر على عتبته إذا كان مكتسبًا بطريقة غير مشروعة، ولكن المرء ذاته الذي توفرت عند الثروة وهبة من الحظ وثمرة من الفضيلة لا يرفضها أو يأبى الدنو منها، ولهذا السبب هل يحسد مكانها الحسن؟ دعها تأتي وتمكث في المنزل، فهو لن يرميها ولن يُخفيها، فالأول هو فعل لعقل تافه، والآخر لعقل بائس ومتردد، كما لو كان الخير الكبير علق في جيبه، وكما قلت لا يرميها خارج بيته.

٢٣-٤ ولماذا يقول: «إنك غير مُجْدٍ» أو «أنا لا أعرف كيف أستعمل الثروة»؟ بمقدوره أن يُكمل الرحلة حتى سيرًا على الأقدام، ولكنه يفضل أن يَعْلقَ بخارج العربة، وكذلك بمقدوره أن يكون فقيرًا، ولكنه يتمنى أن يكون ثريًّا، وهكذا سيمتلك الثروة ويعاملها برفق ليصعد بها، ولن يسمح أن تكون حملًا عليه أو على غيره.

٢٣-٥ إنه سيعطي- فلماذا تُخرم أذنيك، فلماذا تفتح جيبك وتستعد؟ إنه سيعطي للصالحين أو الذين لديهم استعداد للخير، إنه سوف يعطي منتقيًا بعناية مَن يستحق، حيث يضع في اعتباره أنه عليه أن ينفق بالقدر الذي قد تلقاه[٤٢٢]،

(٤٢٢) على النقيض من الاتجاه الشائع ليعطي عشوائيًّا، وانتقد سينيكا هذا في رسالة عن الإحسان ١, ١, ٢.

إنه سوف يعطي لأسباب جديرة وحقة؛ لأن العطية الرديئة تعد خسارة مخزية، وسيفتح جيبه غير المثقوب، وسيجلب منه الكثير ولن يسقط منه شيء.

٢٤-١ إذا اعتقد امرؤ أنه من السهل أن تُعطي، فهذا أمر صعب للغاية إذا قدم المرء منحةً بدلًا من معونات جزافية واعتباطية، فلهذا الشخص أسدى فضلًا وأرد له ما قدمه، وأنقذ هذا وأحنو على ذاك، وقد أقدم لأنه يستحق أن يتجنب الحيرة ويحد الفقر، وأناس بعينهم لن أعطيهم بغض النظر عن مقدار ما ينقصهم، حتى لو أعطيت الثروة سيكون هناك نقص، وآخر من سأقدم لهم، وسوف أدوس على آخرين! لا يمكن أن أهمل في هذه المسألة، فأنا لا أحرص على ذكر الأسماء حين أُعطي[٤٢٣].

٢٤-٢ أنت تقول: «لماذا تعطي نظرًا لتتلقى؟»، بالفعل نظرًا لأتلقى لا لأبذر، ودع العطية تمضي إلى مكان لا تحتاج إلى أن تلتمس فيه العودة بل ترد فيه، ودعنا نودع هذا الكنز المدفون في الأعماق الذي لن تحفره إلا في الضرورة.

٢٤-٣ حسنًا! كيف تعظم المادة لعملها من بيت رجل ثري! لمَن يطلبون أن يوجه السخاء نحو الذين يرتدون التوجا فقط؟ إن الطبيعة تطلب مني أن أكون مفيدًا للبشر، وهل من اعتبار إن كان هؤلاء عبيدًا أو أحرارًا، أحرار المولد أو محررين، يمتلكون حرية قانونية أو يمنحهم صديق هذه الحرية؟ فأينما يكون البشر فهناك مكان للفضل، وهكذا يمكن أن يوزع المال حتى على عتبة المرء، ويمكن أن يكون اختبارًا في التحرر، الذي قد يُسمى كذلك ليس لكونه قد دُفع لتحرير الأفراد، بل لأنه متجذر في العقل الحر، والحرية في بيت الحكيم لا تُمنح للمشين، أو من لا يستحق ولا تنفد أبدًا، كما أنها ليست في خزان مملوء تتدفق كلما وجدت مَن يستحق.

(423) cf. On Benefits 1.1.2

٢٤-٤ وليس من سبب لما تسمعه خطأ لما يقال بأخلاقية إقدام وبحدة من الذين يتحمسون للحكمة، وانتبه لهذا أولًا، فإن هناك فارقًا بين مَن يتوق إلى الحكمة ومَن حازها؛ فالأول يقول لك: «أنا أقول الأفضل ولا أزال أتمرغ في أشياء رديئة عدة، ولا يمكنك أن تتبعني، فأنا أستنهض نفسي في هذه اللحظة وأشكلها وأرتفع إلى مستوى المثال العالي، وإذا تقدمت بقدر ما افترضت لنفسي، فإنني أتوخى أن تتوافق أفعالي مع كلماتي»، وأما الذي وصل إلى مركز الخيرية الإنسانية فسوف يتعامل معك على نحو مختلف وسيقول لك: «أولًا لا تسمح لنفسك أن تتجاوز بالحكم على الأخيار، فإن أتحول بالفعل ما يثيره الأشرار»- وهذا دليل على صوابي.

٢٤-٥ ولكن كي أعطيك ما لا أضن به على مخلوق، أسمع ما أعد به وكيف أقيم كل شيء، فأنا أنكر أن الثروة خيرٌ، فلو كانت خيرةً فستجعل الناس أخيارًا، وكما أن الأشرار يعلقون بعمل لا يمكن أن يطلق عليه خيرًا، فأنا أنكر الثروة بهذا الاسم، ولكنني أقبل أن تكون الثروة مكتسبة ونافعة وتجلب فائدة عظيمة للحياة.

٢٥-١ «واسمع لماذا لا أعتبر الثروة خيرًا، واسمع ما أسهم به في حالة اختلفت الثروة عن عمَّا يفعله الناس، وترى أننا نتفق على الحصول عليها[٤٢٤]، فضعني في بيت سخي، وضعني في المكان الذي يُستعمل فيه الذهب والفضة، فلن أنظر إلى نفسي؛ لأن الأشياء حتى لو كانت معي فهي لا تزال خارجي، حولني إلى جسر سوبليكيان *Sublician bridge* [٤٢٥] وارمني بين المحتاجين، ولن أنظر إلى نفسي؛ لأنني التحقت بأولئك الذين يمدون أيديهم من أجل الصدقات، وما الفرق بين إذا كان المرء يفتقر إلى قطعة خبز وإذا كان يفتقر إلى القدرة

(424)on meditatio in Seneca see Newman, 1988, 1989; Bartsch 2006, 230–81.

(٤٢٥) أقدم جسر في روما، وصار موقعًا يتردد عليه المتسولون.

على الموت؟ فإنني أفضل هذا البيت المترف على الجسر.

٢٥-٢ ضعني بين البدع الواضحات والحاشية المترفة، فلن أصدق نفسي أنني سعيد لأنني أتزيا ملبسًا ناعمًا ولأن الأرجوان مفروش تحت أقدام ضيوفي. وغير فراشي، ولن أكون تعيسًا إن وضعت عنقي المتعب في حفنة تبن، ولو ارتميت على وسادة المدرج الروماني المرقعة التي يتسرب الحشو منها، حسنًا؟ وإنني أفضل استعراض حالة ذهني وأنا أتزيا بالتوجا والعباءة بدلًا مَن أن تكون كتفي المسنونة عاريةً أو نصف مغطاة.

٢٥-٣ دع أيامي تمضي وفق تضرعي، ودع جولة البهجة تلو الأخرى، ولن أتعجرف بسبب هذا، وحول هذه الأوقات المناسبة إلى عكسها، ودع عقلي يُغتصب من كل جهة بالفقدان والحزن والهجمات المختلفة، ولا تدع ساعة دون نواحٍ، ولن أقول لهذا السبب بائس وسط الظروف البائسة، وليس لهذا السبب سألعن اليوم، ولن أُسمي يومًا مررت به (أسود)، فإنني أفضل أن أُلطف أفراحي بدلًا من أن أُقاوم أحزاني».

٢٥-٤ سيقول لك سقراط المعروف ما يلي: «اجعلني فاتحًا لكل الأمم، وأمتلك عربة ليبر *Liber* (٤٢٦) المترفة تنقلني في النصر من مطلع الشمس إلى طيبة، ودع الملوك يطلبون القوانين مني، فأنا أفكر في نفسي كإنسان عندما يحييني واحد وكإله حين يحييني الجميع(٤٢٧)، ومن ثم أتبع هذا الأساس الشامخ مع التحول الفعلي، دعني أُوضع على عوامة شخص آخر؛ لأزين موكب الفاتح المتوحش المتغطرس، ولن أتواضع أكثر حين أُحمل في عربة آخر كما كنت أقف في عربتى. حسنًا؟ ومع ذلك فأنا أفضل أن أكون غازيًا لا مغزوًّا.

---

(٤٢٦) ليبر (الموصوف بديونسوس كانت أمه سيميلي *Semele* من طيبة) وكان المبدع الأسطوري لموكب النصر. انظر *Pliny Natural History 7.191*.

(٤٢٧) موضوع النصر الروماني الذي يُذكر فيها العبد المنتصر "انظر خلفك! وتذكر أنك إنسان!".

٢٥-٥ وسألقى نظرة على مملكة الثروة برمتها، ولو منحت فرصة للاختيار سآخذ ما هو أفضل، ومهما يكن طريقي سيأتي بالأحسن، ولكني أفضل أن تأتي الأشياء الأيسر والأكثر متعة، والأشياء الأقل المشقة في التعامل معها». وليس من سبب يجعلك تعتقد أن أي فضيلة تأتي دون جهد، فبعض الفضائل يحتاج إلى وخز والآخر إلى لجم.

٢٥-٦ وكما أن الجسم يقف على المنحدر، فعلى المرء أن يواجه هذا الدفع، وكذلك بعض الفضائل في حالة انحدار وبعضها الآخر انحدر، أو ليس هناك شك أن هناك تسلقًا وجهدًا ونضالًا من أجل التحمل والشجاعة والمثابرة، فكيف تواجه الفضائل الأخرى الأمور الصعبة وتتغلب على الحظ؟

٢٥-٧ حسنًا! أليس واضحًا أن هناك طريقًا منحدرًا للحرية والاعتدال واللطف؟ ففي الحالات الأخيرة نكبح عقولنا من الانزلاق للأمام، وفي الحالات اللاحقة نعظها ونحفزها بشدة، ولذلك سنطبق على الفقر تلك الفضائل الجريئة التي تعرف كيف تقاتل، وسنطبق على الثروة الفضائل المضنية التي تسير على رؤوس الأصابع ولا تعبأ بحملها الثقيل.

٢٥-٨ وفي ضوء هذا التمييز، فإنني أُفضِّل أن أستعمل تلك الفضائل التي تُمارس بهدوء عن تلك التي تثبت بالدم والعرق، وكذلك يقول الحكيم: «لا أعيش بطريقة مختلفة أكثر مما أتحدث، ولكنك تسمع على نحو مختلف، إن ما يصل إلى أذنيك هو صوت كلامي ولا تتمحص ما يعني».

٢٦-١ «وما الفرق بيني والأحمق وبينك والحكيم إذا رغبنا في الحصول على الثروة؟»، إنه فارق شاسع، فأنت ترى أن الثروة في حالة الحكيم هي في العبودية، وفي حالة الأحمق هي في السيطرة، ولا يعطي الحكيم إجازةً للثروة حيث تمنحك الثروة كل طرق الإجازات! وتتعود على الثروة وتتعلق بها كما

لو أن أحدهم وعدك بملكية أبدية لها، والحكيم يُدرب نفسه على الفقر حين يقف وسط الثروة.

٢٦-٢ فالقائد لا يأمل السلام وهو لا يعد نفسه لحرب حتى لو لم تندلع وتعلن، وبعجرفتكم تركتم أنفسكم بلا معنى بالمنزل الجميل كما لو كان لا يطوله انهيار أو لا يحترق، وبالثروة كما لو كانت قد تسمو فوق كل خطر، وكما لو كان يعظم على قوة الحظ أن تفنيها.

٢٦-٣ اسكنْ في وقت الفراغ، وتلاعبْ بثروتك، ولا تتطلع إلى مخاطرها، مثل الشعوب الغريبة التي حُوصرت وليس لديهم معرفة بمحركات المعركة، وغالبًا يراقبون بتكاسل محاولات محاصريهم، ولا يفهمون غاية هذه الأشياء التي بُنيت في المسافة، والشيء نفسه يحدث لك، إنك تنمو هزيلًا بين ممتلكاتك، ولا تنظر إلى كثرة الحوادث التي تُهدد من كل صوب، وتتوقع حتى الآن أن تحمل الغنائم الثمينة. وكل مَن يسلب ثروة الحكيم يترك له كل ما لديه؛ لأن الحكيم يعيش مبتهجًا في الظروف الحالية ولا يهتم بالمستقبل.

٢٦-٤ يقول سقراط ومَن لهم القدرة والمشاعر نفسها فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية: «لا يوجد شيء»– «لا شيء قد أقنع به نفسي بشكل كامل أكثر من ألَّا أحول سلوك حياتي في اتجاه آرائكم، أجمع كلماتك المعتادة من كل جانب، فلن أظن أنك تهاجمني، بل الأحرى ستبكي مثل الأطفال البائسين».

٢٦-٥ هذا ما سيقوله المرء الذي حقق الحكمة الذي عُصم عقله من الرذائل، والذي يأمره بأن يبكي على الآخرين، ولا يكرههم بل يقدم لهم دواء، ولهذا يضيف الآتي: «تقييمك لي لا يؤرق جانبي؛ لأنك تكره كل أمل للأحسن، وأنت لا تؤذيني، فليس الذين يحولون المذابح يؤذون الأرباب، ومع ذلك النوايا السيئة والعزم الرديء بين حتى لو لم يحدث ضرر».

٢٦-٦ إنني أعاني من هلاوسك، كما يتحمل جوبتر العظيم سخافات الشعراء، فبعض الشعراء وضع لجوبتر أجنحة والآخر وضع له قرونًا، وبعضهم جعله عاهرًا وعربيد ليل، وبعضهم جعله وحشًا ضد الأرباب، وبعضهم جعله ظالمًا للبشر، وبعضهم جعله مغتصبًا للأحرار وعشيرتهم، وبعضهم جعله قاتلًا لأبيه ومنتزعًا لعرش الآخرين بما فيهم أبيه، هؤلاء لم يحققوا شيئًا إذا اعتقد البشر أن الأرباب كذلك، ويفقدون إحساسهم بالخجل نحو الإثم.

٢٦-٧ «ورغم أن كلماتك لا تؤذيني، لا أزال أنصحك لصالحك[٤٢٨]، فانظر إلى الفضيلة، وثق في الذين يتبعونها منذ زمن بعيد، واعلمْ أنهم يداومون على شيء عظيم تظهر عظمته يومًا بعد يوم، اعبد الفضيلة ذاتها كما تعبد الأرباب، اعبد الفضيلة بحماس الكهنة، وحين تذكر الكتابات المقدسة أظهر الفضل بلسانك *fauete linguis*، ولا يؤخذ هذا التعبير كما يعتقد معظم الناس من إظهار الفضل[٤٢٩]، بل الأحرى من سلطة الصمت، ولذا تُودي الطقوس بشكل صحيح إلى تلاشي الأصوات الرديئة، بل بالضرورة أن ترضخ حين ينطق الكاهن شيئًا، وأن تركز وتمسك عليك لسانك وأنت تسمع.

٢٦-٨ ولكن حين يتحشرج امرؤ بكلمات الأكاذيب الرسمية، وحين يمزق الخبير عضلات ذراعيه وكتفيه برفعة خفيفة ليده، وحين تزحف امرأة نحو الشارع على ركبتيها تروي عويلها، والرجل الكهل يتزيا بالكتان ويقبض على إكليل الغار والفانوس في وضح النهار ويبكي غاضبًا من أحد الأرباب، فهرول واسمعْ، وتأكد أنه رباني يُغذي دهشة بعضه الآخر.

٢٧-١ انظر! إنه سقراط الذي أعلن من السجن الذي طهره بدخوله، وصار أكثر

(٤٢٨) تستحضر التفاصيل الأديان الشرقية المتعددة بما فيها عبادة إيزيس (حشرجة الموت) وسيبيل *Cybele* (تمزق الذات).

(429) in Aristophanes' Clouds.

أخلاقيةً من أي مجلس للسناتو: «ما هذا الجنون، وأي طبيعة تلك التي تعادي الأرباب والبشر وتشوه الفضائل وتنتهك الأمور المقدسة بخطاب لاذع؟ أُثني على الأخيار إن استطعت وإن لم تستطع فلا تعقب، وإن فضلت أن تمارس حريتك المخزية في الخطاب فهاجم شخص آخر، فحين توجه جنونك إلى السماء لن أقول إنك تدنس المقدسات، بل ضيعت وقتك».

٢٧-٢ إني أمد أريستوفانيس بمواد النكات في بعض المناسبات[٤٣٠]، وجماعة بأكملها من الشعراء الهزليين قد نشروا طرفهم السامة عليَّ، وقد استضاءت فضيلتي بالأشياء التي حملوها عليَّ، وأنت ترى أنه من النافع أن تُنقح هذه الطرف وتُمحص، ولا أحد يفهم حجمها أفضل من الذين طعنوا بها وشعروا بقوتها، ولا يعرف أحد صلابة الصخرة أفضل من الذين تحطموا عليها.

٢٧-٣ إني أقدم نفسي مثل نتوء وحيد في بحر ضحل، يجلده الموج من أي حدب يهيج فيه، ولا يحركونه من مكانه أو يستأصلونه بهجوهم الذي لا نهاية له عبر أزمنة عدة لسبب ما، انقضَّ عليَّ واصنعْ هجومك، فسوف أهزمك بالتحمل، فالشيء الذي يصطدم بأشياء صلدة لا يمكن التغلب على ممارسة قوته لضرره، فأبحث في المستقبل عن بعض الأدوات اللينة والنافذة لتتسلح أمامه.

٢٧-٤ «ولكن هل لديك وقتٌ كافٍ لتنقب عن الصفات الرديئة للآخرين، وتطلق الأحكام على الآخرين؟ لماذا يعيش هذا الفيلسوف في سخاء؟ ولماذا يتناول هذا الطعام بأناقة؟ هل تتعقب بثرات الناس حين تكفرها قروح عدة؟ وهذا كما لو كان المرء يسخر من الشامات والثآليل على الأجسام الجميلة، في حين يأكله الجرب.

---

(٤٣٠) لتخلي ديمقريطس عن الثروة انظر *On Providence 6.2*، وللنظر في الطرف المتشابهة انظر *Diogenes Laertius 3.3 (Plato), 5.4 (Aristotle), 10.7 (Epicurus)*.

٢٧-٥ اتُّهم أفلاطون بالسعي نحو المال، وأرسطو بتلقيه، وديموقريطس بتجاهله، وأبيقور باستهلاكه، وتتهمني فيما يتعلق ألكيبياديس وفايدروس[٤٣١] وأنا أطلق عليك أسعد الناس- بمجرد أن تكون في موضع حتى لتقلد حتى رذائلنا!

٢٧-٦ ولماذا لا تُلقي نظرة في أحوالك الرديئة التي تخترقك من كل جانب ويهاجمك بعضها من الخارج ويؤجحك بعضها من الداخل؟ حتى لو لم تعِ حالك، فإن الأمور الإنسانية لم تصل إلى حد أن توفر لك فراغًا تُطلق فيه الحرية لممارسة لسانك بإيذاء الناس الأفاضل.

٢٨-١ «أنت لا تفهم هذا، ويتلبسك تعبيرٌ لا يتوافق مع حظك، مثل الذين يجلسون في السيرك أو المسرح وعندهم حالة وفاة في العائلة ولم يسمعوا بعد الخبر التعس، إنني أتأمل من فوق ربوة عالية وأرى العواصف التي تهددك، تطلق العنان لعبابها بعد برهة، أو تقترب بالفعل وتتخطفك أنت وأشياءك، وماذا أيضًا؟ يقينًا رغم أنك لم تعِ من ذلك إلا القليل منه، فإن الزوبعة تغزل عقلك وتشوشه، كما لو كنت تتخلى عن الأشياء القديمة وتبحث عنها نفسها في آن، ويحلق عقلك على ارتفاع وينزلق إلى أعماق في آنٍ...

❋ ❋ ❋

(٤٣١) اثنان من تلاميذ سقراط الصغار، حيث اتُّهما بالشذوذ الجنسي (*e.g., Lucian Symposium 39*)، ولمزيد من التهم التي حيكت ضد سينيكا انظر مقدمتي للرسالة.

عن العناية الرَّبانية

مقدمة

العنوان والموضوع:

إن العمل المعروف (إلى لوكيلوس عن العناية) يُشار إليه في المخطوط الأوَّل الذي لا يزال باقيًا بعنوان أطول وهو (لماذا تحدث المصائب للأخيار رغم وجود العناية؟)، ويتجذر هذا العنوان من السؤال الذي نخبر عنه في سطور العمل المفتوحة حيث يسأل لوكيليوس سينيكا[٤٣٢]، ثم يمضي سينيكا في التفسير (١ , ١)، وقد أجاب عن سؤال صديقه بعمل مطول هو (عن العناية)– وهذا لم يكتب هنا، ولا يوجد دليل على كتابته مطلقًا، أو أنه فعل ذلك، ولا شك أن سينيكا قد أعطى مقومات مذهبه الذي نقرؤه عن شيشرون في كتاب طبيعة الآلهة، وهو المصدر الكامل الباقي عن اللاهوت ومذهب العناية الرواقي، وللمذهب الأبيقوري المناقض للرواقية، والذي يرى أن العالم نتاجٌ للصدفة، وأن الآلهة لا تُعنى بالشؤون الإنسانية[٤٣٣].

ويعلن سينيكا أن العمل قد كُتب بالفعل، وهو في الحقيقة أقصر المقالات الكاملة

---

(٤٣٢) قارن العنوان الذي استعمله لاكتانتيوس *Lactantius* وهو "لماذا تحدث الأشياء الرديئة للأخيار رغم وجود العناية" *Divine Institutes 5.22.11*.

(٤٣٣) عن العناية في التراث الفلسفي القديم وعند سينيكا انظر *Dragona-Monachou 1994 (with discussion of the present work, 4440–42); also Traina 1997, 7–20; Dionigi 1997, 54–70. For Stoic texts, see SVF II, 1106–86.*

الباقية[٤٣٤]، وهو يتبع مجالًا محددًا أصبح معروفًا منذ ليبنتز بمسألة ثيوديسيا (العدالة الإلهية *theodicy*) وهي كيف أن وجود الأشياء الرديئة -أو الشر في الاصطلاحات التي أعقبت المسيحية- في العالم يمكن أن تتوافق مع العالم الذي شكلته الألوهية، وتركز الرسالة على اللاهوت وتفسر لماذا هذا العمل من بين النصوص السينيكية المقتبسة في الأدب المسيحي المبكر حتى لو كانت الأفكار المسيحية عن الخطيئة الأصلية والحياة الأبدية والحكم الإلهي مغايرة للنقاش[٤٣٥].

وهناك أثر قد يذكر عند خريسبوس وبعض الرواقيين الآخرين في تفسير وجود الأشياء الرديئة على مثال المتناقضات الضرورية للخيرات أو المنتوجات الصغرى للخير الأكبر[٤٣٦]، ويشير سينيكا إلى مثل هذه الموضوعات في كل كتاباته، وهو يلفتُ في أحد المناقشات على الأرباب بأنها «تهمل البشر أحيانًا» *Letters 95.50*، ولا يحتفي سينيكا في هذا العمل بشكوى لوكيليوس على الإطلاق التي تنظر إلى الأشياء الرديئة التي تحدث للأخيار، ولكنه يناقش على نحو مفارق أن الأشياء الرديئة ليست فقط ليست سيئة، بل هي من أعظم ذخائر العناية الإلهية، والمشكلة مثل غيرها من المعضلات التي تعالجها الرواقية، وهي تختزل لمسألة التعرف الحق على الأشياء القيمة وهي ليست كذلك.

ويضيق نطاق العمل باصطلاح آخر وهو (الأخيار *boniuiri*)، والتركيز على الأخيار محفزٌ بحقيقة أن الأشياء الرديئة ينبغي ألَّا تحدث لهم من وجهة نظر لوكيلوس، ولذا فإن تساؤل لوكيلوس يبدو أنه يعرض لأعظم التناقضات الذاتية الصارخة لمذهب العناية الإلهية، أما التساؤل من جانب سينيكا هو فرصة لتفسير تجانس الأخيار وسوء

---

(٤٣٤) النظرية غير المقبولة بأن هذا العمل غير كامل ناقشها ورفضها تيرانا *Traina* عام ١٩٩٧.

(٤٣٥) عن العناية (ورسالة سينيكا في التراث المسيحي) *Traina 1997, 13–20; on Augustine in particular, Dionigi 1997, 51–54, 62–70.*

(436) Aulus Gellius Attic Nights 7.1.1–13 (= SVF II, 1170 = LS 54Q); Plutarch On Stoic Contradictions 1050e (= SVF II, 1176).

الحظ وعلاقته بالمنفعة الأخلاقية والأبستمولوجية، وهو كذلك لمن يتحملونه ويتطلعون إليه.

سينيكا ولوكيليوس والجمهور:

إن رسالة (عن العناية) هي العنصر الأول من مجموعة مقالات (محاورات) سينيكا، ولكن المقالات ليست مرتبةً زمنيًّا- فعلى سبيل المثال رسالة (عزاء إلى هلفيا) هي من الرسائل الأولى ترتب ترتيبًا متأخرًا، وحين نتحول إلى سؤال أين الموضع المناسب لرسالة عن العناية الربانية في حياة سينيكا، فليس من السهولة تحديد زمنها في تاريخ سينيكا الذي يعج بالتراجيديا[٤٣٧]؛ فهناك عديد من الظروف تحمل كتابتها إلى سنوات المنفى كما يعتقد قلة من الباحثين، وهذا احتمال ضعيف، أو ترجح زمن كتابتها إلى فترة تواجده في بلاط نيرون أكثر من فترة تقاعده عام ٦٢م في سنواته الأخيرة.

وإن أوضح دلالة لتاريخ العمل هو تكريسه الرسالة إلى لوكيليوس، وهو صديق سينيكا المخاطب في رسالتين كبيرتين في سنواته الأخيرة، وهما: تساؤلات طبيعية *Natural Questions*، ورسائل إلى لوكيليوس *Letters to Lucilius*[٤٣٨]. وقد تلقي رسالة عن العناية الضوء على لوكيليوس في دور الجاحد الذي يشكو العالم، والحق أن المعضلة تكمن في قيمه الخاطئة، وهذا يمنح سينيكا الفرصة ليعد صديقه قائلًا: «سوف أصالحك مع الآلهة» ١ , ٥ وراجع *Letters 74.10–11* ، ويجري تصوير لوكيليوس في موقف القارئ الذي يفشل في تقدير الإمكانية النافعة للمصيبة، وبالفعل يصبح المحاور الرئيس مجهولًا في سير الرسالة، ويُعالج أحيانًا بصيغة الجمع المخاطب (أنتم)، كما في ٤ , ٦ كمثال.

وتكشف هذه الرسالة عن علاقة واضحة بين سينيكا ومعاصريه الأرستقراطيين في ضوء تعرضهم لتقلبات الحظ المفاجئة في عهد يوليو كلاوديان، ولا سيما النظر

(437) Griffin 1992, 396, 400.

(٤٣٨) يبدو أن مواجهة لوكيليوس تكررت في *Letters 96.1*.

إلى مدى بساطة رؤية الإمبراطورية الرومانية بتماسكها بالعالم ورؤية الإمبراطور ربًّا. ورسالة العمل هي تحمل الفاجعة، والتعامل معها برفضها، وليس رفض قيمة المصيبة باعتبارها شر بل بتحويلها إلى خير أو حتى البحث عنه بها، وبصرف النظر عن الاقتباسين من معاصره ديميتريوس الكلبي (*3.3, 5.5*)، ويناقش سينيكا المصائب التي عانى منها كاتو والأبطال الجمهوريون الآخرون، وكذلك سقراط، وهذا المجال الرحب للصور المتباينة للمصيبة يُكسب العمل شكلًا عامًّا، وتتعدد جوانب العزاء.

بنية النقاش:

وصفت رسالة عن العناية بأنها مقتضبة في محتواها وواسعة في مواربتها[٤٣٩]، وتتضمن الرسالة نوعًا من الخطاب الدفاعي لما حدده الباحثون فيها من استهلال (١) وسرد (٢)، وتقسيم المواضيع (٣ , ١)، والجدل (٣ , ٢-٦ , ٢)، ونهاية الخطاب (٦ , ٣-٩)، ولكن يُفاجئ سينيكا القارئ بتحولات غير متوقعة على الغالب، فعلى سبيل المثال بعد الإعلان في الأسطر الافتتاحية أنه لن يكتب عملًا عن العناية (١ , ١) فإنه يشرع مباشرة في عمل وصف مهيب حي للحركات التي تشبه القانون في الطبيعة (١ , ٢- ٤) ليستدعي تعجب القارئ، ويعين المشهد لمنظر أرضي.

وأحجم سينيكا عن تحديد وجهة نظره بتميز إلى أن قدم بعض الأفكار العامة التي تشكل بنية الرسالة (١ , ٥- ١٢ , ٢)، وفوق هذا استعملت الأرباب الحب القاسي «ودافعهم أن يروا العظماء يقاسون من بعض المصائب (٢ , ٧)، ومثاله الرئيس انتحار كاتو في أتيكا عام ٤٦ ق.م، وهو يقدم تقييمًا لدلالة ومزايا انتحار كاتو، وهو يؤكد أن كاتو فاز بالحرية وأن دور الأرباب هو المشاهدة (٢ , ١٠)، ومؤخرًا يبدو أن سينيكا يستغل الجانب البصري القوي للعناية الربانية وهو البصيرة اللاتينية والتي غابت عن الرؤية اليونانية.

(439) Wright 1974, 48–54; Abel 1967, 97–123.

إن مخطط سينيكا (٣ , ١) بمثابة دليل واضح في البداية على الأقل، وهو يقول إنه سوف يسعى إلى توضيح «كيف أن الأشياء الرديئة ليست كذلك»، ومن الجلي أن سؤال لوكيليوس ورد سينيكا يتكرران على طول العمل بلغة لا تكف عن التحول، ويقطع المخطط الموضوع إلى نقاط منفصلة تحدد بالفعل البنية الأساسية للرسالة تقريبا في الفقرات الآتية (٣ , ٢-١٦ , ٤، ٥ , ١-٢، ٥ , ٣-٦، ٥ , ٧-١١، ٦ , ١-٢)، ومع ذلك أصبحت التحولات أقل وضوحًا كلما تكشف العمل.

وتضيف الوحدات والإيقاعات الأخرى الشعور بالاستمرارية، وتقدم التناظرات الوظيفية من الأبوية والألعاب الرياضية والعرض العسكري والمشهد المناقشة التمهيدية في الفصول من الأول والثاني وهي تتواتر وتُرى من زوايا مختلفة. وقد تتجسد دراسة رموز المصائب في القائمة المتكررة للنماذج الأخلاقية، خاصة في تصاعد التساؤلات الخطابية المتكررة (٣ , ٥-١٤) والتى فيها يقترن كل فرد بمثال للسلوك المهين في مجال عام للفعل ذاته أو استعمال جزء الجسم ذاته.

ويقدم سينيكا متحدثين متباينين للنص في سلسلة مونولوجات متباعدة بشكل متساوٍ، ونسمع الحظ والطبيعة إضافة إلى كاتو وديمتريوس والمحاور (٣ , ٣، ٣ , ١٤)، وينجح تضاؤل المخطط الشكلي في الفصول الختامية بخطابين أكثر شمولًا، الأول من واقعة فايثون *Phaethon* فى *Ovid's Metamorphoses 5.10–11*، والآخر في صوت (الرب) ذاته (٦ , ٣-٩)، وشكَّل الخطاب الأخير عرضًا كاملًا للألوهية التي قد يسمح للقارئ خلسة أن يلقي نظرة على المظاهر المتعددة فيها مثل الطبيعة والحظ والعناية والقدر والرب (*cf. Natural Questions 2.45.2–3*)، وفي السطور الأخيرة للعمل تماثل قائمة الصور المختلفة المختنقة للرب عناصر الطبيعي الأربعة (الماء والهواء والتراب والنار ٦ , ٩)، وهكذا نعود إلى قضية الانتحار بينما نستدعي رسم مخطط الطبيعة في الفصل الأول.

المصيبة ومعرفة الذات:

وفي منتصف العمل تمامًا يمثل سينيكا الطبيعة وهو يفسر لماذا جعلت حياة كاتو حبلى بالأشياء المحزنة (٣ , ١٤). ويكمن في عبارة الطبيعة الدرس الرئيس للعمل، حيث تعتبر الأشياء الرديئة حتى لو كانت محزنة ليست فردية في الحقيقة، والطبيعة تريد من الكل أن يعرفها، ويبدو سينيكا في بعض الأحيان بأنه يرى أن المصائب مؤسفة للغاية (٥ , ٩، ٦ , ٦)، ومن ثم مصائب الأخيار متعمدة، وإرسالها بغية التعلم، والمدرب الرئيس فيها الرب بمعونة القدر، فالرب يدرب الأخيار «ليكونوا أفضل ومتميزين بقدر إمكانهم» (٢ , ٧)، وليصبحوا مثل الرب بقدر ما يسمح لهم.

إن فكرة سينيكا «عن مشهد يستحق النظر إليه من الرب وهو يتفقد مخلوقاته» أصبحت موضوعًا مركزيًا في خطاب التشاؤم المسيحي، وربما يكون تأثير سينيكا أكثر واقعية على التراث المسيحي (انظر هامش ٢ , ٩)، إن رب سينيكا أدنى منزلة من الإنسان، كما يفسر ذاته في الفصل الأخير من العمل «الرب أبعد عن معاناة الأشياء الرديئة وأنت فوق معاناتها»، ولذا حين يبتلي الربُّ بالمصائب ليختبر البشر (٤ , ٨) فإن لديه شيئًا جديدًا تتعلم منه كيف ترتفع به فوق معاناتها.

ويركز سينيكا بالقدر نفسه على إمكانية أن يتعلم البشر من المصائب (٤ , ٣)، فإن محاولة معرفة الذات حتى لو نزلنا إلى اللهيب مثل فايثون *Phaethon (11.5)* تبرهن على إرادة العبد لطاعة الرب و"يعرض نفسه على القدر" (٥ , ٨)، وهذا هو المعنى الذي تكون فيه المصيبة في صالح الناس أنفسهم، حيث تحدث المصيبة وهي فرصة للفعل وخاصة التفكير بطريقة تتفق مع طبيعة العالم، ولكن في تفسير المعنى الذي تكون فيه المصيبة "في مصلحة الجميع" يلمح سينيكا باختصار إلى فكرة الرجال والنساء الأخيار في الحياة الرومانية العامة الذين يمكن أن ينفع كدحهم الآخرين (٥ , ٣-٤)، وتركيزه على كيف يعطي الأخيار درسًا لأنهم ولدوا ليكونوا مثالًا(٦ , ٣).

ويقدم سينيكا هذا النهج لإمكان المصائب كجزء من غائية الطبيعة، وحين يقارن

الرجل الشجاع بالبحر الذي يلون كل الماء الذي يدخل إليه (٢ , ١)، فإن التشبيه يزيد عن كونه تشبيهًا: حيث يحدد العقل البشري والفضيلة في مشهد أوسع للطبيعة كما يتجلى هذا في كتابه تساؤلات طبيعية، وهناك دروس جمة يمكن تعلمها كما في المدرج الروماني وفي التضحية بالحيوان (١ ,٨، ٦ ,٨)، ويضع سينيكا كلماته عن الغائية الطبيعة مواربة موضحًا كيف يمكن لتحول الأحداث المحزنة أو الكشف عنها فرصة سانحة لمعرفة الذات مثل المعرفة التي اكتسبها كاتو وفايثون على حد سواء.

لمزيد من القراءة:

Dragona-Monachou, Myrto. 1994. "Divine Providence in the Philosophy of the Empire." Aufstieg und Niedergang der römischenWelt 2.36.7:4417–90.

Setaioli, Aldo. 2007. "Seneca and the Divine: Stoic Tradition and Personal Developments. "International Journal of the Classical Tradition 13:333–68.

١–١ لقد سألتني يا لوكيليوس ما الحجة إذا كان العالم محكومًا بالعناية وأن تحدث أمورٌ مكروهة للصالحين، وكان من الحري الإجابة على هذا في سياق العمل الذي برهنَّا فيه أن الأرباب في محيطنا، وأن العناية مسؤولة عن كل شيء على الإطلاق، وطالما تريد أن تقتطع جزءًا يسيرًا من العمل كله، وتسوي خلافًا واحدًا وتتخلى عن الحوار العريض الذي قدمناه، فإنني سأقوم بشيء هين وهو أنني سأدافع عن قضية الأرباب.

١–٢ ومن التزيد في الوضع الراهن أن تُظهر أن عملًا بمثل هذا العظم لا يوجد دون نوع من الحماية، وأن الأجرام السماوية لا تجتمع معًا وتتحرك في هذا الاتجاه بدافع الصدفة، والأشياء التي تدفعها الصدفة غالبًا محلٌّ للفوضى ويصدم بعضها بعضًا، في حين تستمر هذه الحركة السريعة دون اصطدام ماثلة لقانون أبدي، وهي تحمل معها أشياء البر والبحر على طول الخط، ولذلك تشع الأنوار وتتجلى وفقًا لتدبير بعينه(٤٤٠)، ومن التزيد أيضًا أن تبين أن هذا النظام ليس منتوجًا لمادة تتحرك عشوائيًّا، وأن أشياء الصدفة لا يمكن التعبير عنها بدقة سوى أنها نتيجة لذلك، فيمكث وزن الأرض الهائل دون حركة، وترى السماوات المتسعة تطير حولها، وتصبُّ البحار في الوديان فتلطف الأرض ولا تُفيضها الأنهار، فقد تُولد الأشياء الكبيرة من بذور صغيرة للغاية.

---

(٤٤٠) يذكر سينيكا هنا ما لا يذكره في مادية تساؤلات طبيعية *Natural Questions (e.g., 1.pref.15)*.

١-٣ وحتى تلك الأشياء التي تبدو غير منتظمة وغير محتلمة، أعني المطر والسحب والصواعق الرعدية المنيرة، والنيران التي تتفجر من قمم الجبال المكفورة والرواسي الهامدة والمضطرمة، وغيرها من أشياء تزعزع أطراف العالم التي في حركة حول الأرض- ولا حتى تلك الأشياء التي تحدث فجأة دون سبب وفيها أسبابها التي تخص حدوثها، فهي لا تقل عن الأشياء في الأماكن الغريبة التي قد تُعجب بالنظر إليها مثل المياه الدافئة بين المد والأرخبيلات *archipelagos* (•) المواخرة في البحر المفتوح الشاسع.

١-٤ وإذا راقب امرؤ الشواطئ التي أفرزها البحر بانحساره وغمرها بعد وقت وجيز، فإنه سوف يؤمن بأن الأمواج هي الموجود الأول الذي جذبهما معًا، وفي باطنها بعض الاضطراب غير المرئي، ومن ثم هي القوة الحاشدة والمحطمة لاستعادة مواضع الشواطئ، والحقيقة رغم هذا تتصاعد الأمواج وتنخفض تناسبيًّا بالساعات والأيام، فهي تارة هادئة وأخرى مائجة وفقًا لما يقدره نجم القمر الذي يتحكم في موجة المحيط، وهذه الأشياء آمنة حدوثها، ولن تثير شكوكًا حول العناية بل ستتنصل من الشكوى منها.

١-٥ سأصالحك مع الأرباب؛ فهم الأفضل لأناسٍ فاضلين، إنك في حاجة إلى أن تعرف أن طبيعة العالم لا تسمح بضرر الأشياء الخيرة على الإطلاق، فهناك صداقة بين الأخيار والأرباب ممهورة بالفضيلة، هل أتحدث عن الصداقة؟ حقًّا هناك قرابة وتشابه بينهما؛ لأن التباين الوحيد بين الأخيار والرب هو الزمن، فالخير تلميذ الرب ومحاكيه(٤٤١) ونسله الحق، والوالد النبيل يضع مطالب قاسية على فضائله، فماذا يصنع الآباء المجحفون!

(•) الأرخبيل هو مجموعة من الجزر المتقاربة (المترجم).

(٤٤١) استخدم كلمة (محاكي) *mulator* هنا ليفترض شيئًا أعلى من مستوى التشابه *similitude* للرب، وربما نظير أو ند *rival* كما في تريانا هامش ٨٦ *Traina 1997, 86 notes* .

١-٦ ولذا حين ترى الأخيار قد فضلوا سَعْي الأرباب وكدهم، وسلكوا الدرب الوعر للقمة، وانغمس الأشرار في الملذات، فينبغي أن تفكر في هذا: في أن أبناءنا يبتهجون بالهدوء، وعبيد المنزل *home-born slaves* (٤٤٢) بالجواز، فالأبناء يُكبحون بمزيد من تهذيب صارم، في حين رضع العبيد من الوقاحة، والشيء نفسه ينبغي أن يكون جليًّا لك في حالة الرب، فإنه يعامل الخَيّر كمحبوبه فيجتبيه ويقسو عليه ليصطفيه لنفسه(٤٤٣).

٢-١ "فلماذا يتعرض الأخيار على محنٍ جمة؟". لا يحدث شرٌ للأخيار، ولا تختلط المتناقضات، كما يبقى طَيِّب البحر بلا تغير ولا يَضْعف رغم تعدد الأنهار ورغم هطول المطر عليه، وكذلك لا يتعثر عقل الرجل الشجاع وهو يواجه انقضاض المحن، إنه يبقى كما تعلمون حيث موضعه، ويحول ما يحدث ليتناسب مع لونه ووجوده، إنه أقوى من مظاهر الأشياء جميعها.

٢-٢ ولا أقصد أنه لا يشعر بالمحن، بل أقصد أنه يهزمها، ورغم هذا حين يُشن عليه هجومٌ قد يهدأ ويسكن ويقابله في بعض الأوقات، ويشكر الملمات كما لو كانت اختبارًا، أليس الإنسان إنسانًا طالما وازن بين الصالحات أخلاقيًّا، وليس تواقًا لعمل ساذج، ومتأهبًا لتولي الواجبات في الخطر المحدق؟ وأليس مَن يفعل وفقًا لضميره لا يجد الهلاك عقابًا؟

٢-٣ ونرى الرياضيين الذين يهتمون بقوتهم ينخرطون في قتال أقوى رجال يجدونهم ويطلبون منهم العون في تجهيزهم للمنافسة، ويستخدمون أضعف

---

(٤٤٢) كان يعامل عبيد المنزل بشكل أفضل من العبيد الآخرين، ويقلون عن الأطفال الأحرار، وعادة كان يطلق عليهم رقيق للتلطيف.

(٤٤٣) قد يفيد ذلك معنى الاصطفاء في الفكر الإسلامي كما ورد في القرآن العظيم وهو يخاطب سيدنا موسى عليه السلام: "واصطنعتك لنفسي"، وقال البخاري عند تفسيرها: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا مهدي بن ميمون، حدثنا محمد ابن سيرين عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحاجَّ آدمُ موسى". (المترجم).

قواهم ضدهم، ويسمحون لأنفسهم بأن يسحقوا ويطرحوا أرضًا، وإن لم يعثروا على خصم واحد مكافئ يبارون أنفسهم في بعض الأحيان.

٢-٤ من بدون المحنة تضيع الرجولة فقد يُرى مقدارها وقوتها فحسب حين صمودها، والصالحين على الشاكلة نفسها لا يتراجعوا في الملمات والشدائد، ولا يشكون القدر ومهما يحدث يبحثون عن الخير فيه، أو يحولونه للخير، فهم لا يكيلون التهم للقدر، بل يواجهونه.

٢-٥ ألم تر كيف يراعي الآباء أطفالهم من جانب والأمهات من جانب آخر؟ فالآباء يأمرون أطفالهم بالاستيقاظ مبكرًا ليواصلوا درسهم، ولا يسمحون لهم بالتراخي حتى في أيام العطل حتى يتصببون عرقًا وأحيانًا دموعًا، في حين تدللهم الأمهات وتتمنى أن تحجبهم عن الناس، فلا يواجهون الشقاء، ولا يدمعون، ولا يكدحون.

٢-٦ وموقف الرب من الصالحين مثل موقف الأب، إنه يمنحهم الحب القاسي قائلًا: "دعهم ينكبون في الأعمال والآلام والضياع حتى يصبحوا أقوياء حقًّا، فالحيوانات السمينة خاملة وجامدة، ولا تخر قواها حين تكرسها للعمل فحسب، بل تعبأ بحمل وزنها، والحظ الحسن الذي لا يعرف عمق الجرح لا يمكن أن يطيق أبسط خدش، وإن استمر المرء في المعركة بسوء حظه فإن جروحه ستمنحه جلدًا سميكًا، ولن يجني سوءًا، وبالأحرى إذا سقط فإنه سيقاتل حتى ولو على ركبتيه(٤٤٤).

٢-٧ هل تندهش إن كان الرب يحب الصالحين حبًّا جمًّا ويريدهم أخيارًا ويخصهم بالثروة لممارسة نقيضها؟ فأنا لست مندهشًا إن كانت الأرباب لديها دافع لمشاهدة العظماء وهم يصارعون بعض المصائب.

---

(٤٤٤) لأنه اكتسب قوةً نتيجة الجروح والخشونة في المعارك.

٢-٨ إننا نشعر بالسعادة أحيانًا إذا اعترض شابٌّ بثبات عقله وحوشًا تدنو منه برمحه أو صمد أمام هجوم أسد دون يُبدي خوفًا، وهذا المشهد يسعدنا جميعًا وسيكون عظيمًا إن اكتمل، ومثل هذه الطفولية والترف التافه للبشر ليس كافيًا لجذب انتباه الأرباب.

٢-٩ وهنا مشهد جدير بأن ينظر إليه الرب(٤٤٥) بما أنه يتفقد خلقه، وهنا يشاهد الرب حيث يباري الرجل الشجاع سوء الحظ، خاصة إذا نبع التحدي من ذاته، ما أقوله إنني لم أرَ ما على أرض جوبيتر *Jupiter* قد يكون أكثر جمالًا إذا رغب في أن يحول انتباهه إليها أكثر من نظرة حزب كاتو *Cato* (٤٤٦) التي دُمرت أكثر من مرة، ومع ذلك كان ثابتًا وسط الخراب العام.

٢-١٠ وكما يقول كاتو: ”ربما خضع العالم برمته لسلطة رجل واحد، وحرست البلاد بالفيالق والبحار بالأساطيل والبوابات بجنود القيصر، ولكن كان لكاتو مخرج، أي صنع طريقًا واسعًا للحرية، وهو السيف الذي بقي طاهرًا ونظيفًا

---

(٤٤٥) لرؤية صدى هذا في المسيحية انظر على سبيل المثال *Minucius Felix Octavius 37.1* وهو يقول: «أجمل مشهد يشاهده الرب حين يقبل المسيحي على القتال وهو مشحون بالألم“ وانظر أيضًا *Lactantius On the Deaths of the Persecutors 16.6–7*.

(٤٤٦) كاتو الأصغر (*95–46 bce*) الذي انتحر في أتيكا، ولذلك لُقب كاتو أوتيسنسيس *Cato Uticensis* بعد هزيمة بومبي، وتقدم قوات يوليوس قيصر. وقد استعمل سينيكا اسم كاتو هنا وفي مواضع أخرى، انظر
Isnardi Parenti 2000; Hutchinson 1993, 273–79; Griffin 1992, esp. 190–94; Abel 1967, 111–13; and in the tradition more generally, Goar 1987.

ماركوس پورسيوس كاتو الأصغر (٩٥ - ٤٦ق.م. حفيد كاتو الكبير وكان فيلسوفًا رواقيًا، وكان محافظًا متشددًا في السياسة، واعتبر المبادئ أكثر أهمية من المساومة، وصار في ٦٥ ق.م. قسطورًا أي موظفًا إداريًّا ماليًّا، وساعد على إصلاح الخزانة، وساند بصفته تريبيونا (المدافع عن حقوق العامة ومصالحها) شيشرون ضد كاتلين، وعارض الثالوث الأول الحاكم، وصار كاتو بريتورًا (قاضيًا عند الرومان) وساند كاتو بومبي في صراعه مع يوليوس قيصر. حين بلغته هزيمة بومبي في فيرسالوس عام ٤٨ ق.م. هرب إلى شمالي إفريقيا، تولى هناك مسؤولية الدفاع عن أوتيكا، وبعد هزيمة قوات بومبي في شايسوس عام ٤٦ ق.م، انتحر كاتو بطعن نفسه. صار بطلًا للذين يعظمون الجمهورية الرومانية الآفلة.انظر *Badian, E. ‹M. Porcius Cato and the Annexation and Early Administration of Cyprus› JRS 55 (1965): 110-121* ونظر وعارض الثالوث الأول الحاكم.س قيصر وقد استعمل سينكا اسم كاتو هنا وفى مواضع أخرى انظر (المترجم).

حتى في الحروب الأهلية، فإن تحقيق الأعمال النبيلة والخيرة هو ما منح لكاتو الحرية التي لم يكن بمقدوره أن يمنحها لوطنه، وقد وقف عقلي حول المهمة التي بحثُتها فيها كثيرًا، وحول خروجك عن هموم الإنسان، وحقًّا قتل بيتريوس *Petreius* وجوبا *Juba* بعضهم بعض، وامتد الذبح بأيدي الآخرين بجرأة وميثاق الموت الباهر(٤٤٧)، ولكن هذا لا يتناسب مع عظمتنا، ومن المشين لكاتو أن يسعى إلى موته من آخر، وكان عليه أن يسعى للحياة.

٢-١١ ومن الواضح أن الأرباب شاهدت مرح هذا الرجل محرر النفس بقسوة والذي منح الآخرين فكرة الرحيل السهل البسيط، ثم طبَّقه على نفسه في نهاية المطاف(٤٤٨)، فغرس سيفه في صدره المقدس، فمزق أحشاءه، ومد يده ليخرج روحه التي هي أشرف من تلطخ بشفرة.

٢-١٢ وبمقدوري أن أصدق بأن هذا هو السبب في أن جرحه لم يكن حاسمًا ليقتله(٤٤٩). ولأن الأرباب لا يموتون، لم يكن كافيًا أن ترى كاتو يستعيد فضيلته حينها، ويظهر ذاته في دور التحدي الأعظم، وبعد ذلك لا يأخذ الدخول في الموت تفكيرًا عميقًا كي يسعى إليه مرة أخرى، ولماذا لم يشاهد الأرباب ذريتهم وهي تهرب من نفس المخرج الظاهر؟ إن الموت يكرس هؤلاء الناس الذين خرجوا ليحصدوا ثناء حتى ممَّن يخافون منه.

٣-١ وسوف يظهر في سياق مناقشتي أن الأشياء التي بدت سيئة ليست كذلك، والآن أقول أولًا إن تلك الأشياء التي تسمونها قاسية وتدعون أنها محنة وتثير الاشمئزاز كانت في مصلحة الرجال أنفسهم الذين حدثت لهم تلك

---

(٤٤٧) بيتريوس قائد قوات بومبي، وجوبا ملك نوميديان *Numidian* الذي حارب مع بومبي، وقتل كل منهما الآخر بعد معركة تابسوس *Thapsus* في ٤٦م بعد أن انتابهم اليأس.

(٤٤٨) يفترض أن كاتو قد قرأ محاورة أفلاطون عن النفس وهي محاورة فيدون، وقد أشار سينيكا في مواضع أخرى في *Letters 24.6* إلى أنه قرأ كتاب أفلاطون.

(٤٤٩) كان جرح كاتو في البداية بخنجر أو سيف وقد خيطه، وقيل إنه فتحه بيده.

المحنة، وثانيًا هي في مصلحة المجموع؛ لأن الأرباب تهتم أكثر بالأفراد أو المجموع، وإن ما حدث لهؤلاء كان سيحدث سواء أكانوا على استعداد له أم لا؛ لأن هؤلاء جديرون بالشر، وأضف إلى هذه النقاط أن هذه الأشياء تُبلى وتدبر مثل عمل القدر، وتقبل على الصالحين بالقانون نفسه بما أنهم أناس صالحون، ومن ثم سوف أقنع بأنك لم تشعر بالرحمة تجاه رجل صالح، نعم يمكن أن يطلق عليه رحيم، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك(٤٥٠).

٣-٢ ومن كل الأشياء التي قد افترضتها يبدو أن ما قلته أولًا هو الأصعب، حيث إن الأشياء التي نرتعد منها ونرتجف هي في مصلحة البشر الذين تقع عليهم، وأنت تسأل هل من مصلحة البشر أن ينفوا أو يفقروا ليقودوا أطفالهم وزوجاتهم للدفن أو إلحاق العار بهم أو التشويه؟ إن كنت مندهشًا من أن هذه الأشياء في مصلحة المرء، فإنك ستندهش أن بعض الناس قد يُعالجون بالنار والنصل والجوع والعطش، ولكن إذا تأملتَ بنفسك كيف أن بعض الناس لأسباب علاجية ينزعون عظامهم وينتقون منها ويستخرجون عروقهم ويبترون أطرافًا بعينها لا يمكن الإبقاء عليها متصلة إلا بقتل الجسد كله، وسلِّمْ بأن هذا برهانًا يقنعك بأن العسر عينه في مصلحة من يقع عليهم، كما هو الحال في هرقل حين يقول إن هناك أشياء بعينها يُثنى عليها ويُسعى إليها بعد أن كانت ضد مصلحة مَن فرحوا بها مثل الأعياد والسَّكر وغيرها من الأشياء التي تقتل باللذة.

٣-٣ ومن بين أقوال ديمتريوس *Demetrius* (٤٥١) الجمة العظيمة، قوله: "سمعتُ

---

(٤٥٠) هذه الموضوعات أكثر توافقًا أو أقل لما هو آتٍ *3.2–4.16 (in the men's interest); 5.1–5.2 (in everyone's interest); 5.3–6 (the men are willing); 5.7–11 (these things are fated); and 6.1–2 (they are not in fact unhappy).*

(٤٥١) ديمتريوس فيلسوف كلبي نفاه نيرونن وأعاده فيسباسيان، وغالبًا ذُكر في أعمال سينيكا الأخيرة على سبيل المثال كتاب عن الإحسان *(e.g., On Benefits 7.1.3–2.1)* وكما ذكره المؤرخون والفلاسفة مثل أبكتيتوس ولوسيان.

مؤخرًا كلامًا ولا يزال يطن صداه في أذني: لا شيء يبدو لي أكثر تعاسة من شخص لا يقع عليه مكروه أو محنة"؛ لأنه لا يسمح باختبار نفسه، رغم أن كل شيء يفيض عليه وفقًا لرغبته، أو حتى قبل أن يرغب فيه، ولا تزال الأرباب توجه له حكمًا مريرًا؛ لأنه غير جدير حتى بهزيمة الحظ الذي يتقهقر حتى من أي رجل جبان، كما لو أن الحظ يقول: ماذا؟ هل أعتبر هذا الإنسان خصمًا لي؟ وسيخمد أسلحته على الفور، فأنا لا أحتاج إلى كل قوتي ضده، إنه سيهرب بمجرد الإشارة إليه، حتى أنه لا يستطيع أن ينظر إليَّ، دعونا نكشف عن شخص آخر يمكن أن نقاتله، فإنني أخجل من أن أقاتل إنسانًا لديه استعدادٌ للانتصار!".

٣-٤ ويعتقد المجالد أنه من العار أن يباري خصمًا أدنى منه في القوة، حيث يعلم أنه ليس من المجد أن يهزم امرأ بمقدوره أن يهزمه بلا عناء، ويصنع الحظُّ الشيءَ نفسه، إنه يسعى لأشجع الرجال ويباريهم ويمر على الآخرين عائفًا لهم، إنه يقترب من الهازئين منه لتوجيه قوته ضدهم، فيختبر النار على موسيوس *Mucius*، والفقر على فابريكيوس *Fabricius*، والنفي على روتيليوس *Rutilius*، والتعذيب على ريجولوس *Regulus*، والسم على سقراط *Socrates*، والموت على كاتو *Cato* [٤٥٢]. ولا يمكن العثور على المثال العظيم إلا في الحظ التعس[٤٥٣].

٣-٥ هل كان موسيوس[٤٥٤] تعسًا حين قبض على نيران العدو بيده اليمنى، وحدد

(٤٥٢) تتكرر القائمة في الرسائل *Letters 98.12–13* وفي مواضع أخرى مع إدخال تغييرات طفيفة على وظائفها وتبدلاتها انظر *Mayer 2008, 304–6*.

(٤٥٣) أو كما يقولون إن المثال العظيم يولد من رحم المعاناة، أو كما كتب كاتب إيطالي عن طه حسين قائلًا: «إن الفقر لا ينجب إلا رجالًا والمُعاناة تلد أبطالًا». (المترجم).

(٤٥٤) موسيوس سيفولا *Q. Mucius Scaevola* أو صاحب اليد اليسرى هو بطل روما في العصر المبكر، قبض عليه بعد محاولات لقتل لارس بورسينا *Lars Porsena* ملك كلوسيوم *Clusium* الذي كان يحاصر روما، وقد وضع موسيوس يده في النار لإظهار اللا مبالاة بإدانته بالموت، وأطلق الملك سراحه.

عقابه على خطئه هذا، لأنه بحرق يده ولَّى هاربًا من الملك حيث لم يقدر على حمل السلاح؟ أليس هذا حسنًا؟ هل سيكون أوفر سعادةً لو أدفأ يده في حضن عشيقته؟

٣-٦ هل كان فابريكيوس(٤٥٥) تعسًا لأنه كان قد فلح حقوله في الوقت الذي ترك فيه الجمهورية؟ ولأنه كان يخوض الحرب بغرض الثروة كما فعل في بيرروس *Pyrrhus*؟ ولأنه كان يتعشى بموقده الذي يشعله بجذور وأعشاب حقله الذي يطهره منها وهو رجل عجوز يحتفل بالنصر؟ هل هذا حسنٌ؟ هل سيكون أوفر سعادةً لو حشا بطنه بأسماك نزيح الشواطئ والطيور المجلوبة؟ أو أسعد لو أيقظ معدته البليدة والمريضة بمحار أعالي البحر وسافلها(٤٥٦)؟ أو لو جمع كومة ضخمة من الثمار متناثرة هنا وهناك تركها الصيادون بعد صيد الوحوش؟

٣-٧ هل كان روتيليوس(٤٥٧) تعسًا لأن مَن أدانوه أرادوا أن يرفعوا قضيتهم لكل الأجيال؟ أو لأنه استقبل طرده من وطنه بعقل هادئ أكثر من رحيل منفاه منه؟ أو لأنه رفض الدكتاتور سولا حين استدعاه للعودة؟ وحينها قال: "الذين يريدون سعادتك استولوا على روما، دعهم يروا كثرة الدم في الميدان، ورؤساء مجلس الشيوخ على بحيرة سيرفيليان *Servilian* حيث مخزون غنائم سولا هناك، ويجوب السفاحون أنحاء المدينة، ويذبح آلاف المواطنين الرومان في مكان واحد حتى بعد أن أعطوا الأمان، في الحقيقة أثناء تقديم الأمان لهم، دع

---

(٤٥٥) فابريكيوس لوسينيوس *C. Fabricius Luscinus* قبل القرن الثالث الميلادي، وقد قاوم محاولات الملك بيرريوس لإرشائه أثناء الحرب وقد عرف عنه أن عاش في الفقر على مزرعته.

(٤٥٦) إشارة إلى البحرين الإدرياتيكي والتيراني للشرق والغرب الإيطالي.

(٤٥٧) روتيليوس روفوس (توفي١٦٠م) وهو رجل دولة وكان رواقيًّا؛ لأنه تلميذ بانيتوس *Panaetius*، ونفي في ٩٢ بتهمة فساد خطابه الدفاعي الذي كان على غرار دفاع سقراط، ورفض دعوة سولا للعودة إلى روما.

مَن لا يقدرون على المنفى يرون هذه الأشياء»[٤٥٨].

٣-٨ هل هذا حسنٌ؟ وهل لوكيوس سولا محظوظٌ لأنه حين يذهب إلى الميدان يطهر بالسيف، ولأنه يسمح بأن تعرض عليه رؤوس القناصل السابقين، وربح المجزرة التي أعد لها القسطور والسجلات العامة؟ كل هذا حدث لأن هناك فردًا واحدًا قد تخطى قانون كورنيليان[٤٥٩].

٣-٩ وهذا يقودنا إلى ريجيليوس[٤٦٠] إلى أن نتساءل ما الضرر الذي ألحقه الحظ به حين صنع منه درسًا في الثقة والتحمل؟ لقد تخرم جلده بالأظافر وحنى اتجاه جسده المنهك منكفأ على الجرح، وعقدت عيناه مفتوحتين في يقظة لا نهاية لها، وكلما اشتد عذابه عظم مجده، هل تريد أن تعرف كيف أن القليل الذي تأسف عليه قد قيم فضيلته بهذا السعر؟ وهو يفكه ويرسله إلى مجلس الشيوخ وهو يعبر عن الرأي نفسه.

٣-١٠ هل تعتقد أن مايسيناس *Maecenas* سعيدٌ[٤٦١]؟ إنه كان مهمومًا بحب أعماله، وينوح اسْتِنْكاف زوجته النكدية اليومي، ويحاول أن ينام على انسجام عزف الموسيقيين الذي يتردد صداه بلطف من بعيد، ومع ذلك يُهدئ من نفسه بنبيذ غير مخفف، وربما يستعمل رذاذ الماء ليصرف أفكاره القلقة التي يضللها بألف من الملذات، ويرقد على سريره الناعم في يقظة رحبة كما يرقد

---

(٤٥٨) بعد أن صار كورنيليوس سولا دكتاتورًا حكم على آلاف الرومان بالإعدام والنفي، انظر *(cf. Plutarch Sulla 31)*، وعلق الرؤوس في لاكوس سيرويليوس وهي تقع بعد الميدان الروماني غرب باسيليكا إيوليا.

(٤٥٩) قانون *lex Cornelia de sicariis et ueneficiis* هو قانون القتل والتسميم الذي قدمه كورنيليوس وهو سولا في ٨١ ق.م.

(٤٦٠) أتيليوس ريجيوليوس *M. Atilius Regulus* قائد في الحرب البونية الأولى فى ٢٥٠، وهو أسير القرطاجيين، وقد أرسل إلى روما للتفاوض على شروط السلام، ولكنه أخبر الرومانيين أن يواصلوا الحرب، وأصر على أن يعود إلى قرطاجة، وعُذب بفتح جفون عينيه المخيطة حتى الموت.

(٤٦١) ماسينياس *C. Maecenas* هو الراعي الرئيس للفنون في عصر أوغسطس، وكان سينيكا يشير إلى كتاباته المنمقة، وحياته المترفة، فضلاً عن حياته المثيرة مع زوجته تيرنتيا.

ريجيوليوس على العشب، ولكن ريجيوليوس آسى في تحمل الشقاء من أجل ما هو خير أخلاقيًّا، وهو يتطلع إلى أبعد مما تسببه معاناته، في حين ضعف ماسينياس من الملذات وتعب من السعادة المفرطة، وقل كدره من الأمور التي يعانيها أكثر من سبب معاناته.

٣-١١ ولا تأخذ الرذائل ما يملكه جنس البشر لمثل هذا المدى الذي يشك فيما علق بها ويمنح الخيار للقدر، وتتمنى أن تولد ريجيوليوسيا أفضل من أن تولد ماسينياسيا، أو أن يجسر أيًّا كان على قول إنه يفضل أن يولد ماسينياس وألَّا يولد ريجيوليوس، وحتى لو لم يقل الشخص نفسه ذلك سيفضل أن يولد تيرنتيا *Terentia* (٤٦٢).

٣-١٢ وهل كان في اعتقادك أن سقراط قد تصرف بشكل سيئٍ؛ لأنه تجرع علنًا جرعةً مخلوطةً لا تختلف عن منشط الخلود وتحدث في الموت حتى الموت؟ هل تصرف بشكل رديءٍ؛ لأن دمه كان جامدًا، وسدت البرودة الزاحفة رويدًا رويدًا نشاط عروقه؟

٣-١٣ وينبغي أن نحسده كمَن يُقدِّم لهم النبيذ في كأس مرصع بالجواهر، أو العبيد من جنس الذكور الذين تربوا على تحمل الأمور كلها، والذين نُزعت منهم الرجولة أو الغامض الذي يذوب الثلج الطافي في كأس من الذهب، وسوف يتقيأون ما شربوه ليقاوموا إعادة تذوق إفرازاتهم الصفراوية، ولكن سقراط(٤٦٣) تجرع السم بهدوء وسكينة.

٣-١٤ ويكفي ما قلنا عن كاتو حيث يتفق البشر جميعهم في الاعتراف بأن السعادة جلها قد حيزت له، وقد اختارت طبيعة العالم أن تصطدم بالأشياء التي

---

(٤٦٢) تيرنتيا زوجة ماسينياس.

(٤٦٣) ذكر سينيكا سقراط وهو يركز على موته حوالي ست عشرة مرة من أصل ستٍّ وعشرين مرة ذكره فيها، ولمعرفة ذكر سقراط عند سينيكا انظر *Isnardi Parenti 2000*.

هي موضوع للخوف، "وعداوة الأقوياء موجعة، فقد تركته الطبيعة يثبت في معارضة بومبي *Pompey* والقيصر وكراسوس[٤٦٤] في آن واحد، ومن المجحف أن يتم تجاوزه في المنصب السياسي من قبل أسوأ أنواع البشر، وتركته يحل بعد فاتينيوس[٤٦٥] في المنزلة، ومن الفاجع أن يشارك في الحروب الأهلية، التي تركته جنديًّا حول العالم لعلة وجيهةٍ بقرار متساو ونقص للحظ الحسن، ومن المجحف أن يبسط يديه على نفسه حيث تركته يفعل هذا، فما الذي ابتغاه من هذه الأشياء؟ ربما يعرف الجميع أن هذه الأشياء ليست شرًّا، وبعد ذلك أعتقد أن كاتو يستحقها".

٤-١ وقد يبلغ الرخاء كل الناس حتى العقول التي لا تستحق، ولكن قهر المصيبة والهلع من الفانيين ينفرد به الرجل العظيم، والحقيقة هي أن الموجود السعيد دومًا والمتجاوز للحياة دون عقل متحدٍّ لا يعرف الطرف الآخر لطبيعة العالم.

٤-٢ وأنت رجل عظيم، ولكن كيف أعرف، إن لم يعطك الحظ فرصة لتظهر الفضيلة؟! لقد ذهبت إلى الألعاب الأولمبية، وذهب الكل لك، وقد بلغت التتويج لنصر لم تحرزه، ولم أبارك لك بما أنك رجل شجاع، ولكن بما أنك قنصل أو قاضٍ *praetorship*، فتعاظمك هو من الشرف الممنوح لك.

٤-٣ وبمقدوري أن أقول الشيء نفسه حتى لرجل خير إذا لم يعطه عسر الحدث الفرصة لإظهار قوة عقله، "فإنني أحكم بأنك جدير بالشفقة وأنت غير جدير بها إطلاقًا؛ لأنك قضيت الحياة بلا محنة، ولا يعرف أحد ما تقدر عليه ولا حتى أنت نفسك"، فمعرفة الذات تتطلب اختبارًا، ولا يفض المرء بما يقدر عليه إلا بالمحاولة، ولهذا السبب هناك أناس يتباطؤون حين تقبل نحوهم

---

(٤٦٤) أول حكومة الثلاثة *triumvirate of the 50s bce*.

(٤٦٥) رغم السخرية من تشوهاته الجسدية وقدحه في شيشرون حاز على منصب سياسي رفيع أثناء حكومة الثلاثة، وهزم كاتو في انتخابات البراتور *praetor* عام ٥٥.

الأمور الرديئة، ويجدون أنفسهم عفوًا في طريقها، وحين تماثلهم فضيلتهم فإنها تسير نحو الغموض، وتسعى نحو فرصة لتسطع فصاعدًا.

٤–٤ وما أقوله هو أن العظماء يبتهجون في المحن كالجنود الشجعان يفرحون بالحرب، وقد سمعت المجالد تريومفوس *Triumphus* مرة يندب ندرة العوينات تحت حكم تيبيريوس قيصر قائلًا: "إن العصر الجميل قد ولى!"[٤٦٦]. والفضيلة طمع في تهلكة، وليست تفكيرًا فيما ستعانيه بل فيما تسعى نحوه؛ لأن ما ستعانيه طرف من مجدها، وشموخ الجنود في جروحهم، ويبهجهم عرض الدم المتدفق كشوط للحظ الحسن، وحتى أولئك الذين عادوا من المعركة غير جرحى قد أنجزوا الشيء نفسه؛ لأن مَن يعود قد تمنى أن يجرح.

٤–٥ ما أقوله إنه حين مد الرب الناس بما هو مادي ليؤدوا أمرًا ما بحماس، أراد أن يظهر اهتمامه بهم، وهو يرغب أن يكونوا حسني الأخلاق بقدر الممكن، ويتطلب أداء هذه الأعمال صعوبة بعينها، وربما يعترف المرء وقت العاصفة للقبطان وفي المعركة للجندي، وكيف لي أن أعرف بأي قدر قد قاومت روحك الفقر إن كنت مغمورًا في الثروة؟ وكيف لي أن أعرف كيف صمدت أمام العار والشرف وكره الناس لك إن كنت تعيش شيخوختك وسط التهليل، وإن كنت متبوعًا بشعبية ليست عرضة للهجوم، وبأي كيف قد حولت العقول بالإيجاب تجاهك؟ وكيف لي أن أعرف كيف سكن عقلك عند مواجهة الحرمان ومشهد أطفالك أمام عينيك؟ لقد سمعتك حين تَأسّى الآخرون، وسوف أعير انتباهي إن واسيت نفسك وإن حرَّمت على نفسك الحزن.

٤–٦ ونداﺋي لك[٤٦٧]: لا تسمحوا لأنفسكم أن تخيفكم من هذه الأشياء التي يضعها

(٤٦٦) ما وضعه تيبيريوس لا يقارن بأغسطس. راجع *(cf. Suetonius Tiberius 47)*.

(٤٦٧) ينتقل سينيكا من (لك) المفرد إلى (لكم) الجمع.

الأرباب الخالدون في عقولنا مثل النتوءات، فالفاجعة فرصة للفضيلة، ومَن تقع عليهم يستحقون أن يطلق عليهم المرأفون وهم الذين شُل نموهم من الحظ الحسن المفرط، وأما الذين قبعوا في سكينة الخمول كبحر بلا حراك، وإن حدث لهم شيء فإنه يأتي كبدعة.

٤–٧ تُقبل الأمور القاسية كصدمة قوية لمَن يفتقرون للخبرة، ويشعرون بالحلس الثقيل على رقبتهم الرقيقة، وقد يشحب الجندي المبتدئ عند رؤية الجرح، وينظر الجندي المخضرم إلى نزيفه بجرأة، وهو يعلم أن بعد الدم نصر على الغالب، ولهذا السبب تمحص قسوة الرب وتختبر الذين اجتباهم، أولئك الذين يحبهم، وأما مَن يبدون أنه أمهلهم فإنه يتجنبهم ويؤمِّنهم من أن تأتي عليهم الشرور، وإنك لمخطئ إن حكمت أن هناك استثناء قد حدث لامرئٍ ما؛ لأنه كان محظوظًا لأمد بعيد، إن نصيبه سوف يأتيه أيضًا، ومهما كان يبدو متروكًا فإنه أُخِّر لأجل.

٤–٨ ولماذا يهاجم الرب الصالحين بعلة المرض أو الحزن أو غيرها من الفجائع؟ لأن في معسكر الجيش تُعطى المهمات الخطرة لأشجع الرجال، ويرسل القائد قواته التي اختارها لمهاجمة العدو في الليل الحالك أو استكشاف الطريق أو طرد حامية من موضعها، ولا يقول أحد منهم: قد أساء إليَّ القائد. بل الأحرى أن يقول: قضى ما فيه الأصوب. والشيء نفسه يقال عن الذين يطلبون أشياء المعاناة والتي تُبكي الهالعين والجبناء، ويتراءى لنا أن الرب جدير باختبار مدى تحمل الطبيعة البشرية.

٤–٩ وقد يستنزف الفرار من المباهج والحظ الحسن قوتك، وقد تتلاشى العقول في الحظ الحسن، وإن لم يتدخل شيء ما يذكرك بقسمتك كالبشر، فإن عقولكم قد تغط في سبات في حالة سكر سرمدي، وإذا حمى امرؤ ما نفسه من العواصف بالنوافذ، وإذا كانت قدماه دافئة من تتابع الاستعمالات الساخنة،

وإن لُطفت درجة حرارة غرفة عشائه بالحرارة التي تأتي من تحت السقف والأنابيب التي في الجدران، فإن لفحة نسيم الضوء سوف تكون خطرًا.

٤-١٠ ولأن كل الأشياء المؤذية قد تتجاوز قياس الواجب، فإن شطط الحظ الحسن زيادة في الفاجعة، ويشوش الدماغ، ويستدرج أفكارنا إلى أوهام لا أساس لها، وينطوي على قدر جم من الضباب بين الحقيقة والوهم، فلماذا لا يكون من الأفضل تحمل مصيبة لا نهاية لها باستجماع فضيلة خير من تقطيعها إربًا بأمور حسنة تفتقر إلى الحد والقياس؟ فالموت بالمجاعة ألطف من تفجير أناس على وليمة.

٤-١١ ويتبع الأرباب مع الصالحين المنطق نفسه الذي يتبعه المربون مع طلابهم، حيث يطلبون ممَّن يرجون فيهم أملًا مزيدًا من العمل، وهل لا يمكنك الاعتقاد بأن لاكيديميونيانيين *Lacedaemonians* كانوا يكرهون أطفالهم، إنهم اختبروا قدراتهم بالجلد العلني[٤٦٨]؟ لقد كان آباؤهم يحثونهم على تحمل جلد السوط بشجاعة، رغم أنهم ممزقون وبنصف لا وعيٍ يطلبون منهم ألَّا يتأثروا بالجروح.

٤-١٢ وما الغرابة إذا وضع الرب الأرواح النبيلة في اختبارات صعبة؟ إن الدرس في الفضيلة ليس هينًا أبدًا، إن الحظ يجلدنا ويمزقنا حيث يدعنا نعاني، إنها ليست قسوةً بل محنة، وكلما أقدمنا عليها كلما أصبحنا أكثر شجاعةً، والطرف الأقوى للجسم هو الذي قد يضع الاستعمال المطرد موضع الفعل، وينبغي علينا أن نعرضَ أنفسنا للحظ بتصلبنا أمامه، وسوف يجعلنا مكافئين له بالتدريج، حيث تمنحنا وتيرة مخاطرنا ازدراء للخطر ذاته.

٤-١٣ ولهذا السبب للبحارة بنية قوية بما يكفي لتحمل البحر، وللفلاحين أيادٍ

(٤٦٨) ربى الإسبرطيون أطفالهم بأسلوب أسطوري صارم، وهو نموذج أساسي في الفلسفة الأخلاقية.

خشنة، وللجنود أذرع قوية بما يكفي للسيطرة على الأسلحة، وللعدَّائين أطراف رشيقة حيث يدرب الأقوى منها، ويُقدم العقل على ازدراء المعاناة بالمعاناة، وسوف تدرك أن ما نعانيه يمكن أن يثمر فينا إن انتبهت إلى ما يسهم به العمل المضني في صناعة الأمم العراة الذين أصبحوا أشاوس بما يفتقرون إليه.

٤-١٤ انظر إلى كل الأجناس التى وصل الرومان إلى حدودها، وأعني الجرمان وأجناس البدو أسفل الدانوب(٤٦٩)، الذين أرقدهم الشتاء الذي لا نهاية له والسماوات الكالحة، والتربة القاحلة التي تغذيهم على مضض، وحفظوا الأمطار في القش فتسربت إلى البحيرات فتصلبت إلى ثلج، وتغذوا على صيد الوحوش.

٤-١٥ هل بدا لك أنهم احتقروك؟ ولا شيء محتقر إن حملته العادة إلى حيث طبيعته، فالأشياء التي بدأت بالضرورة أصبحت رويدًا رويدًا ممتعةً، وكانت هذه الأجناس بلا مأوى ولا مستوطن إلا ما حدده النصب في نهاية كل يوم، وتغذيتهم منحطة وسعوا إليها باليد، والسماء عدو مرعب، وأجسادهم عارية، وما يبدو لك فاجعة كان حياة عديد من الأجناس.

٤-١٦ ولماذا تندهش إذا ناضل الصالحون وبمقدورهم أن يصبحوا أقوياء؟ فالشجرة لا تقوى ولا تشتد إن لم تطوحها الرياح المتواصلة؛ لأن المطاوحة تجعلها صامدة وتقر جذورها، والأشجار التي تنمو في الأودية المشمسة عرضة للقطم، ومن مصلحة الصالحين أن يلقوا وسط الأشياء المرعبة حتى يقدروا على الخوف، وهم يتحملون الأشياء بعقل هادئ؛ فالأشياء ليست سيئة إلا لامرئ يحملها على وجه سيئ.

---

(٤٦٩) احتفاء الأمم بطابعها الصارم بسبب أساليبها الصعبة.

٥-١ والآن أضف حقيقة أن من مصلحة الجميع أن يكون الصالحون جنودًا كما كانوا، ليؤدوا الأعمال، وهذا هو مسار الرب والرجل الحكيم على حد سواء، ليبينا أن الأشياء التي يرغب فيها الحشد والمخاوف ليست خيرًا ولا شرًّا[٤٧٠]، ولكنها سوف توضح أن هذه الأشياء ليست من نصيب أحد، بل هي للصالح حيث إنه خير، والأشياء التي فرضها على الطالح لأنه سيئ فحسب.

٥-٢ والعمى مكروهٌ إن لم يفقد المرء عينيه باستثناء مَن يستحقونه؛ لأن أعينهم مفقوءةٌ، ولذا دع أبيوس *Appius* ومتيليوس *Metellus* يفتقران إلى البصر[٤٧١]، والثروة ليست خيرًا، ولذا دع حتى إليوس *Elius*[٤٧٢]؛ فالقواد يملكها رغم أن الناس قد كرسوها في المعابد وتراها في الدعارة، وليس الرب طريقًا لمحو رغبات الناس في الأشياء، بل هو يمنحها للأشرار ويبعدهم عن طريق الصالحين.

٥-٣ "ولكن من غير العدل أن يُشوَّه الصالحون ويعذبوا أو يقيدوا بالقيود في حين ينعم الطالحون بالحرية والعفو وتسلم أجسادهم"، أليس ظلمًا للشجعان أن يرفعوا أسلحتهم ويقضوا الليل يحرسون، وأن يقفوا أمام المتاريس بجروحهم المعصوبة، وفي الوقت نفسه يحيا المخصيون ودعاة العار في المدينة لا يرعون شيئًا؟ أليس ظلمًا أن تستيقظ أنبل العذارى في الليل لتؤدي الطقوس المقدسة، في حين تنعم المنحرفة بنوم عميق؟

٥-٤ يتطلب الكدح جهدًا عاليًا، فأعضاء مجلس الشيوخ يتداولون طوال اليوم على الغالب والمتنطعون يقضون راحتهم على المروج (مارتيوس *Martius*) أو مستترين في الحانات أو يضيعون أوقاتهم في الحكي الفارغ، ويحدث الشيء

---

(٤٧٠) أي أنهم غير مبالين.

(٤٧١) أبيوس كلوديوس كايكوس *Appius Claudius Caecus* وكيسيليوس ميتيلوس *L. Caecilius Metellus* من رجال الدولة في الجمهورية الوسطة، وفقد ميتيلوس بصره وهو ينقذ تماثيل الآلهة من النار في معبد فيستا *Vesta*.

(٤٧٢) غير معروف.

نفسه في هذه الجمهورية من العالم وهو كدح الصالحين؛ فإنهم يبذلون وقد يُبذلون طوعًا ولا يهربون من الحظ بل يتبعونه ويماشون سيره.

٥-٥ أتذكر سماع قول آخر يتحدث عن أشجع الرجال[٤٧٣] ديمقريطوس يقول فيه "بمقدوري أن أقدم الشكوى لك وللأرباب الخالدين فحسب، فلا تجعل معرفتك لي قبلية؛ لأنني جئتُ لهذه الأشياء باكرًا وأنا اليوم حاضرٌ لاستجابة دعوتك، فهل تريد طرفًا من جسدي؟ خذه، فليس أمرًا عظيمًا بالنسبة لي أن أعد، فسوف أرحل عن هذا كله قريبًا. هل تريد أنفاسي؟ ولماذا أتوانى في تسليمك ما أعطيته لك؟ ومهما سعيت فإنك سوف تأخذ من امرئ على استعداد أن يعطي، أليس هذا حسنًا؟ لقد فضلت أن أقدمه أحرى من أن تسألني عطاءه، فلمَ الحاجة إلى أخذه؟ لقد تلقيته، ولم تأخذه حتى الآن، لأن لا شيء قد يخطف إلا ما كان المرء قابضًا عليه".

٥-٦ لا شيء أجبر عليه، ولا أعاني شيئًا على غير رغبتي، ولا أخدم الرب، وبالحري أتفق معه، وكل هذا لأنني أعلم أن كل الأشياء تُقبل وتُدبر بقانون ثابت محتوم للأبدية.

٥-٧ تقودنا الأقدار، وقد تحدد الزمن الذي يعيشه كل منا منذ اللحظة الأولى التي نولد فيها[٤٧٤]، وتحدث العلة على العلة، وتترسم الأمور الخاصة والعامة على طول الخط بترتيب طويل للأحداث، ويجب أن يعاني كل شيء بجسارة؛ لأن كل الأشياء لم تحدث ببساطة كما نفكر، ولكن الأحرى أنها جاءت، لقد قدر منذ آماد بعيدة ما تملكه فيبهجك وما تحوزه فيبكيك، ومع ذلك تبدو حيوات الناس متمايزة بتنوعها العظيم، والكل يجمع على شيء واحد، وهو أن الأشياء التي نتلقاها سوف تفنى وكذلك نحن.

---

(٤٧٣) ذكر بالفعل في الفقرة ٣-٣ عاليه.

(٤٧٤) هذه العبارة جزئيًّا صدى لأشعار كليانتس التي كتبها في *Letters 113.26* .

٥–٨ ومن ثم لماذا نغضب؟ ولمَ نشتكِ؟ إننا مجبولون لهذا، فدع الطبيعة تستعمل أجسامها كما تريد، وينبغي لنا أن نفرِح ونجسر تجاه كل الأشياء، ونتأمل كيف يهلك اللا شيء ما لنا، فما الذي يصدق على الرجل الصالح؟ ليقدم نفسه للقدر، إنه العزاء العظيم هو ما يجرفه للعالم، ومهما كان الأمر الذي يدفعنا للعيش بهذه الطريقة والموت بها، كذلك فإنه يربط الأرباب بالضرورة نفسها أيضًا، وقد يُحمل الإنسان والإله على قدم المساوة على مسار لا يمكن تحويله، نعم، إن المصدر والمنظم لكل شيء يخط أقدار نفسه ولكنه يتبعها أيضًا، وقد يصدرها أمرًا مرةً واحدةً، ويمتثل لها على الدوام.

٥–٩ "ولكن لماذا كان الرب ظالمًا حين وزع القدر حيث بارى الصالحون بالفقر والجروح والموت قبل الأوان؟"، إن الحرفي ليس بمقدوره أن يغير مواده حيث لا تسمح الطبيعة بهذا، وليس بمقدور الأشياء عينها أن تنفصل عن الأشياء الأخرى؛ لأنها ممزوجة ولا تنقسم[٤٧٥]، ولا تختلف العقول الخاملة أو تكون عرضة لأن تقع في سبات أو يقظة على هذه الشاكلة عن السكون الذي يُنسج من عناصر غير فاعلة، ولكي تبني إنسانًا ويطلق عليه إنسان حقًّا، فإنه في حاجة لقدر أقوى، ولن يكون الطريق ممهدًا له، حيث يُقبل ويُدبر، وتتقاذفه الأمواج، وعليه أن يوجه سفينه على البحر العاصف، ويقبض على مساره لمواجهة الحظ، فأكثر الأشياء التي ستحدث فظة وغليظة، ولكن بمقدوره أن يلطف الأشياء ويُخففها خارج نفسه، فالنار تستخرج الذهب، ويُنجب البؤس الرجل الشجاع.

٥–١٠ وانظر كيف ينبغي أن ترتقي الفضيلة الجليلة، وستدرك أن الطريق الذي يحتاج أن يذهب إليه ليس خاليًا من العناية، فالجزء الأول من الطريق حاد، وحتى لو كان ممهدًا في الصباح فإن الجياد بالكاد تكدح عليه، والجزء العلوي في

(٤٧٥) لمعرفة فكرة الأحداث التي أقدارها ترتبط معًا. انظر *see Aulus Gellius Attic Nights 7.1.9 = LS 54 Q (2).*

وسط السماء، وحتى تنظر منه إلى شيء في البر البحر، فأنا أخشى فعل ذلك، ويرتعد قلبي من رهبة الرعب، والجزء الأبعد للطريق حاد، ويدعو لثبات التحكم، وحتى ذلك الحين تنظر تيثيس *Tethys* (٤٧٦) من أسفل، تخشى أن تلاقيني في الأمواج التي تقبع تحت، وربما قد رميت على عجل(٤٧٧) .

٥-١١ وعندما سمع الشاب النبيل(فايثون *Phaethon*) هذا، قال: "هذا الطريق ينشدني، وسأصعد، ومن النافع أن أذهب خلال هذه الأشياء حتى لو سقطت"، وثبتت (الشمس) في محاولة ترهيب عقله التواق بالعلل لتخيفه، وتقول الشمس حتى لو سلكت الطريق، ولم تُجر إلى خطأ منه، فسوف تمكث وسط قرون الثور التي تقف بالعكس والقوس الهيموني *Haemonian Bow* وتواجه الأسد الشرس، وقال بعدئذٍ: "أعطني العربة وشدها، فهذه الأشياء التي تعتقد أنها تثنيني تحفزني، إنني أرغب أن أقف في المكان الذي ترتجف منه الشمس ذاته"، فمن الانحطاط والخمول أن تتبع الطريق الآمن، إذ الفضيلة تتبع الطريق الوعر.

٦-١ "ولكن كيف يسمح الرب بأن يحدث مكروه للصالحين؟"، حقيقة هو لا يسمح بهذا، إنه يبعد عنهم كل الأمور السيئة مثل الجرائم وأفعال الشر وأفكار الخبث وتدابير الطمع والشهوة العمياء والجشع التي تتأرجح في ما يتبع الآخرين، وما يراقبه الناس ذواتهم ويحموه، وهل بإمكان أحد أن يطلب من الرب أن يعتني بمتاع الصالحين؟ وهم أنفسهم لا يشاركون الرب هذه المسؤولية حيث يحتقرون الأشياء الخارجية.

---

(٤٧٦) تيتيس *Tethys* واحدة من نسل تيتان من أورانوس السماء والأرض جايا، وقد سرد هزيود أشقاءها وهم أوشيانوس وكويس وكريوس وهيبيريون وإيبتيوس وثيا وريا وثيميس ومنيموسين وفيبي وكرونوس، وتزوجت تيتيس شقيقها أوشيانوس وهو نهر هائل يحيط بالعالم. (المترجم).

(477)Ovid Metamorphoses 2.63–69, then 79–81

أكمل سينيكا اقتباسات الشِّعر بإعادة صياغته للنثر، والمتحدث هو الشمس، والتي فشلت في منع ابنها فايثون *Phaethon* من قيادة عربته نحو السماء، وكان سببًا للاحتراق، قارن استعمال *Phaethon* في كتاب الحياة السعيدة ٢٠-٥.

٦-٢ ألقى ديمقريطوس [٤٧٨] ثروته، وعدها مرهقة للعقل القويم، ومن ثم لماذا تندهش من أن يحدث للرجل الصالح ما يرغب هو أن يحدث له؟ فالصالحون يفقدون أبناءهم، ولماذا لا وهم يقتلونهم أحيانًا؟ وقد يرسلونهم إلى المنفى، ولماذا لا وهم أحيانًا يهجرون أرض الوطن دون نية الرجوع إليه؟ وهم يقتلون، ولماذا لا وأحيانًا يمدون أيديهم على أنفسهم؟

٦-٣ لماذا يعانوا من ملمات بعينها؟ حتى يعلموا الآخرين كيف يعانون؛ لأنهم ولدوا ليكونوا مثالًا لذلك، ولذا يقول الرب: "ماذا لديك حتى تشكوني به أنت الذي استحسنت ما هو حق؟ لقد طوقت الآخرين بالمتاع الزائف، وخدعت عقولهم الفارغة كما لو كانوا في حلم طويل خادع، لقد زينت لهم الفضة والذهب والعاج، ولا شيء فيها خير.

٦-٤ هؤلاء مَن تحملق فيهم كما لو كانوا سعداء، إذا نظرت في أجزائهم الباطنة وليست الظاهرة فسوف تحتقرهم، إنهم عار وفاحشون، يزينون الخارج مثل جدرانهم، فليست السعادة عندهم هي الغاية والمأرب بل الشكل، وضعف المرء في هذا، ولهذا السبب ما دام قد سمحت لهم أنفسهم أن يظهروا على أنهم مصطفون فإنهم يختالون ويتألقون، وحين يحدث شيء ما يكدرهم ويكشفهم، فمن اليسير أن ترى البؤس العميق والحقيقي يزيح الأبهة المتناقضة.

٦-٥ أعطيت لك المتاع الذي لا ريب فيه، وسوف أستمر، فالأمور تعظم وتستحسن إن أدارها المرء وتأملها من زواياها المختلفة، لقد سمحت لك أن تزدري الأشياء التي تخيفك لتعالج الرغبات بالتأفف، ولا تنبهر بها من الخارج، فمتاعك في الباطن، وبهذه الطريقة فحسب تزدري أشياء العالم الظاهرة، وغاية الفرح في المشهد ذاته، لقد وضعت الخير كله في الباطن، ولا

(٤٧٨) ديمقريطوس من أبديرا، كان معاصرًا لسقراط تقريبًا. انظر *Diogenes Laertius 9.35, 39*.

يحتاج حظك الحسن إلى حظ حسن.

٦-٦ "ولكن هناك أشياء جمة تحدث وهي مرعبة ومن الصعب تحملها، ولأنه ليس بمقدوري أن أؤمنكم منها فقد سلحت عقولكم تجاه هذه الأشياء، فتحملوها بشجاعة! وهذا هو الطريق الذي تتجاوز به الرب، حيث إنه وراء معاناة الأشياء السيئة، وأنت فوق معاناتها، احتقر الفقر، فلا أحد يطيق العيش في الفقر بالمقدار الذي وُلد فيه فقيرًا. احتقر الألم؛ فإنك سوف تُذيبه أو يُذيبك. احتقر الموت؛ فإنه سوف يُفنيك أو اتخذ لك مكانًا آخر(٤٧٩). احتقر الحظ؛ فإنني لم أمنحه سلاحًا قد يصيب به عقلك.

٦-٧ وقبل كل شيء اتخذت تدابير لا أحد يجبرك فيها ضد إرادتك، والمخرج يوجد هنا، فإذا لم ترغب في القتال فقد يسمح لك بالفرار، ولهذا السبب أردت أن تكون كل الأشياء لك ضرورةً، ولم أصنع شيئًا أهون من الموت، ووضعت حياتك على منحدر هابط، فإن كُتب عليك، انظر وسوف ترى الدروب المقتضبة والمباشرة تقود إلى لا مكان ما دام التأجيل بالنسبة لك في الخروج مثلما فعلت لك في الدخول، وإلَّا لو كان موت الإنسان بطيئًا كما ولد؛ فإن الحظ سيستحكم سيادته العظمى عليك.

٦-٨ دع كل لحظة وكل مكان يعلمك كم هو يسير أن تعطي إشعارًا للطبيعة وترجع هديتها لها: "حتى المذابح والطقوس الرسمية للمضحين عندما تكون الحياة تضرعًا فإنها تعلم الموت، وإن جثث الثيران السمينة تنهار من جروح بالغة الصغر، وإن القوى الجبارة للحيوانات تخر بضربة من يد إنسان، حيث يعرقل اتصال الرقبة بنصل حاد، وحين ينفصل الاتصال بين الرقبة والرأس، فإن الكتلة برمتها تنهار إلى أسفل.

---

(٤٧٩) الموت إما نهاية أو انتقال كما يقول سقراط في صفحاته الأخيرة في دفاع أفلاطون عن سقراط قارن *Letters 65.24*.

٦-٩ لا تخبُ أنفاسك، فليست بحاجة إلى أن تخفي النصل، وليست بحاجة إلى أن تضع يدك على صدرك حيث عمق الجرح باطن[٤٨٠]، فالموت ليس في متناول اليد، وأنا لم أحدد موضعا ثابتًا لهذه المصائب، أينما ترغب يمكن أن يكون السبيل، وهذا الشيء ذاته يطلق عليه الموت حيث تفارق الروح الجسد، وتشعر بقصر سرعته، سواء بأحبولة تخنق حنجرتك، أو بماء يقطع نفسك، أو سقطت على رأسك فتحطمت على سطح صلب، أو بجرعة نار تعترض ارتجاع نفسك، ومهما يكن سيأتي الموت سريعًا، فهل أنت مرتبك؟ لقد قضيت وقتًا طويلًا خائفًا مما يحدث بسرعة!“.

* * *

(٤٨٠) كما فعل كاتو في (*cf. 2.12 above*).

المراجع:

Abel, Karlhans. 1967. Bauformen in Senecas Dialogen. Heidelberg: C. Winter.

Dionigi, Ivano. 1997. "Problematica e fortuna del De Providentia." In Seneca, "La provvidenza," trans. A. Traina, 41–74. Milan: Rizzoli.

Goar, Robert J. 1987. The Legend of Cato Uticensis from the First Century B.C. to the Fifth Century A.D. with an Appendix on Dante and Cato. Brussels: Latomus.

Griffin, Miriam T. 1992. Seneca: A Philosopher in Politics. 2nd ed. Oxford: Oxford University Press.

Hutchinson, G. O. 1993. Latin Literature from Seneca to Juvenal: A Critical Study. Oxford: Clarendon Press.

Isnardi Parenti, Margherita. 2000. "Socrate e Catone in Seneca: Il filosofo e il politico." In Seneca e il suo tempo, ed. P. Parroni, 215–25. Rome: Salerno.

Mayer, Roland. 2008. "Roman Historical Exempla in Seneca." In Seneca, ed. J. Fitch, 299–315. Oxford: Oxford University Press. Traina, Alfonso, trans. 1997. Seneca, La provvidenza. Milan: Rizzoli.

———, ed. 1999. L'avvocato di dio: Colloquio sul "De providentia" di Seneca. Bologna: Pàtron.

Wright, J. R. G. 1974. "Form and Content in the Moral Essays." In Seneca, ed. C. D. N. Costa, 9–69. London: Routledge and Kegan Paul.

الفهرس